وَحْى القَلَم

«بيانٌ كأَنه تنزيلٌ من التنزيل،»

«أَو قَبسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم»

سعد باشا زغلول

مصطفى صادق الرافعى

الجزء الثانى

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة





وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع



رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

أيمن القاضى

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

مصطفى صادق الرافعى، مصطفى صادق بن عبد الرازق
ابن سعيد بن أحمد، 1881 - 1937.

وحى القلم/ مصطفى صادق الرافعى.

القاهرة: دار المعارف، 2015.

مج 2، 24 سم

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة

تدمك 7 8255 02 977 978

1 - المقالات العربية.

2 - الأدب العربى - مجموعات

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 814

رقم الإيداع: 22776/ 2015

رقم الكونجرس: 8 - 840011 - 01 - 2

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

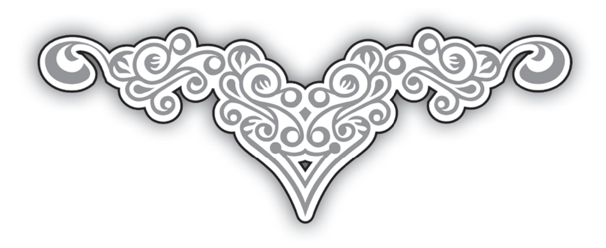
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg





تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية





الإشراقُ الإلهى وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتفجّرُ ينبوعَ الضوء المسمَّى النهار، يولَد النبىُّ فيوجدُ فــى الإنســانية ينبوعَ النور المســمَّى بالدين. وليــس النهار إلا يقظــةَ الحياة تحقِّقُ أعمالَها، وليس الدينُ إلا يقظةَ النفس تحقق فضائلَها.

والشــمسُ خلقها الله حاملــةً طابَعَه الإلهىَّ، فى عملها للمــادة تُحَوِّلُ به وتُغَيِّر؛ والنبىُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابع فى عمله تترقَّى فيه وتسمو.

وَرَعَشَــاتُ الضوء من الشــمس هى قصةُ الهداية للكون فى كلامٍ من النور، وأشعةُ الوحى فى النبى هى قصةُ الهداية لإنسانِ الكون فى نورٍ من الكلامٍ.

والعاملُ الإلهىُّ العظيم يعملُ فى نظام النفس والأرض بأداتيْن متشابهتين: أجرامِ النورِ من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرُّسُلِ والأنبياء.

فليــس النبىُّ إنســانًا من العظماء يُقــرأ تاريخُه بالفكر معه المنطــق، ومع المنطق الشــك، ثم يُدْرَسُ بكل ذلك على أصول الطبيعة البشريةِ العامة؛ ولكنه إنسانٌ نجمِىٌّ يُقرأ بمثلِ «التلسكوب» فى الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان؛ ثم يُدْرسُ بكل ذلك على أصول طبيعته النورانيةِ وحدها.

والحيــاةُ تُنشِــئ علمَ التاريــخ، ولكنَّ هــذه الطريقةَ فى درس الأنبيــاء (صلواتُ الله عليهــم)، تجعــلُ التاريخَ هو يُنشــئ علمَ الحياة؛ فإنما النبىُّ إشــراقٌ إلهىٌّ على الإنســانية، يُقَوِّمُها فــى فلَكِها الأخلاقى، ويجذبُها إلى الكمــال فى نظام هو بعينه صورةٌ لقانون الجاذبية فى الكواكب.

ويجــىء النبى فتجىء الحقيقةُ الإلهية معــه فى مثل بلاغة الفن البيانى، لتكونَ أقوى أثرًا، وأيســرَ فهمًا، وأبدعَ تمثيلاً، وليس عليهــا خلافٌ من الحس. وهذا هو الأســلوبُ الذى يجعلُ إنســانًا واحدًا فــنَّ الناسِ جميعًا، كما تكــونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ

بأكملِها؛ هو الشخصُ المفسِّر إذا تعسَّف الناسُ الحياةَ لا يدرون أينَ يؤُمُّونَ منها، ولا كيف يتَهدَّون فيها، فتضطربُ الملايينُ من البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يُخْلَق رجلٌ واحد ليكونَ هو التفسَير لما مضى وما يأتى، فتظهر به حقائق الآداب العالية فى قالَب من الإنسان العامل المرئىِّ، أبلغَ مما تظهر فى قصة متكلِّمة مروية.

وما الشهادة للنبوّة إلا أن تكونَ نفسُ النبى أبلغَ نفوس قومه، حتى لَهُوَ فى طباعه وشمائله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها، كأنها الوضعُ النفسانىُّ الدقيق الذى يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقةَ السامية فى هذا النبى تُنادى الناس: أن قَابِلُوا على هذا الأصل وصحِّحوا ما اعترى أنفسكم من غلَط الحياة وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثم فنبىُّ البشرية كلِّها مَن بُعِثَ بالدين أعمالاً مفصَّلةَ على النفس أدقَّ تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطى الحياةَ فى كل عصر عقلها العملىَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّم به أحوالَ النفس على مَيْزةٍ وبَصيرة، وَيَدَع للحياة عقلَها العلمىَّ المتجددَ المتغير تنظّم به أحوالَ الطبيعة على قَصْد وهُدى؛ وهذه هى حقيقةُ الإسلام فى أخص معانيه، لا يُغنى عنه فى ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّى تأديتَه فى هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نَبعٌ فى الأرض لمعانى النور، بإزاء الشمس نبع النور فى السماء.

وكلُّ ذلك تراه فى نفس محمد ﷺ؛ فهى فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة، لا يمكن أن تعرف الأرض أكملَ منها؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألِّهين وجُعِلتْ فى نِصَاب واحد – ما بلغتْ أن يجىء منها مثلُ نفسه ﷺ. ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرَّة فى مَحَارتها، أو تركيب كتركيب الماس فى منجَمِه، أو صفة كصفة الذهب فى عِرْقه. وهى النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبرتَها رأيتَها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسِط وتَضْحَى.

وتلك هى الشهادةُ له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير؛ فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها: صلابتُه بمقدار الحق الإنسانىّ الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذى يكون عند سبَبٍ جَبَلاً صَلدًا يَشْمَخ، وعند سبَب آخرَ ماء عذْبًا يجرى.

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضَاعَ الدنيا وحكمَ العالم، ويستفرغ همَّه فى ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى؛ وفرق ما بين شريعتِه وشرائع القوة، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكُّمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلُّبها؛ وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة؛ وسيادة الطبيعة وعملُها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملُها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعيًا فى الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلةَ إلا وهو يطبع عليها صورةَ الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلةَ إلا وهو يضعُ عليها صورة النار الأبدية وَقُودُها الناسُ والحجارة؛ فلا تنظرُ العينُ المسلمةُ إلى أسبابِ الحياة نظرةَ الفكر المنازع: يحرصُ على ما يكون له ويَشْرَهُ إلى ما ليس له، ويمكُرُ الحيلةَ، ويبدعُ وسائلَ الخداع، ويزيدُ بكل ذلك فى تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المسالم: يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكل مضنون فيها، فيعفُّ عن كثير؛ ويعرف الإنسانية ويطمع فى غاياتها العليا، فيعفو عن كثير؛ ويُدرك أن الحلالَ وإن حلَّ فوراءه حسابه، وأن الحرامَ وإن غرَّ ليس إلا تعلُّلَ ساعةٍ ذاهبة ثم من ورائه عقابُ الأبد.

ويخرجُ من ذلك أن يكونَ أكبرُ أغراض الإسلام هو أن يجعلَ من خشية الله تعالى قانونَ وجود الإنسانِ على الأرض، فمن أىّ عِطْفَيه التفتَ هذا الإنسان وجد على يَمْنَتِه ويَسْرَته مَلَكَين من ملائكة الله يكتبان أعمالَه بخيرها وشرها، فهو كالمتَّهَم المستراب به فى سياسة النفس: لا يمشى خطُوةً إلا بين جاسوسَيْن يحصيان عليه حتى أسبابَ النية، ويجمعان منه حتى نَزَوات الكبِد، ويترجمان عنه حتى معانىَ النظر.

وإذا قامت هذه المحكمةُ الملائكية وتقررت فى اعتبار النفس، قام منها على النفس شرعٌ نافذٌ هو قانون الإرادة المميِّزة، تُريد الحسنات وتعملُ لها، وتخشى السيئات وتَنفرُ منها، فإذا معانى الجسد يحكم بعضُها بعضًا، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة؛ وإذا نواميسُ الطبيعة المجنونةِ فى هذا الحيوان، قد نهضتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادةِ الحكيمة فى الإنسان، وإذا كلُّ صغيرة وكبيرة فى النفس هى من صاحبها مادة تُهمةٍ عند قاضيها فى محكمتها، وإذا كلُّ ما فى الإنسان وما حولَ الإنسان، لا يرادُ منه إلا سلامُ النفس فى عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرِّف بالإنسانية فى دنياها.

وكلُّ أعمال الإسلام وأخلاقِه وآدابه، فتلك هى غايتُها، وهذه هى فلسفتُها؛ لا يقررها للإنسانية حَسْبُ، بل يَغْرسُها فى الوراثة غرسًا بالاعتياد والمِران الدائم، لتكونَ علمًا وعملاً، فتمكِّنَ لسلام النفس بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضَرورات الحياة، فى أيدى الأعداء المتألِّبة عليها من شَهَوات الغريزة.

فليس يعمُّ السلام إلا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشَملَ الأرض أو أكثرَها؛ فإن قانون العالم حينئذ يُصبح منتزَعا من طبيعة التراحم، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعى، وإما كسَرَ من شِرّته؛ ويُولد المولودُ يومئذ وتولَد معه الأخلاقُ الإنسانية.

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرَّة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعًا – هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاحَ للإنسانية بغيره يردُّها إلى سبيل قَصْدِها، فإن من ذلك تكونُ الصفة العقلية التى تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجانِس بين أفراده، فتوجِّه الإنسانيةَ كلَّها نحو الممكِن من كمالها، ولا تزال توجِّهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدَها بصالحها، وتأخذ عاصيَها بمطيعها، وتجعل الشرفَ الإنسانى غرضَها الأول، لأن الله الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيصبح المرء – وهذا دينُه – كلما تقدم به العمر كَمُلَ فيه اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعود طالبُ السعادة النفسية فى الدنيا كالمجنون

يجرى وراء ظله ليُمسِـكَه؛ فلا يدرك فى الآخر شـيئًا غيرَ معرفته أنه كان فى عمل باطل وسعى ضائع.

والإسـلام يحرص أشـدّ الحِرص وأبلغَه على تقرير ذلك المعنـى الإلهىّ العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم فى النفس وعواطفِها، لا فى العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاسـتثناء والخصوص؛ وذلك هو سـرُّ مشـقَّته على النفس بما يفرضُه عليها؛ فإن فلسـفته أن هذه النفسَ هى أسـاسُ العالم، وأنَ النظامَ الخلُقىَّ هو أساسُ النفس، وأن العملَ الدائم هو أسـاسُ النظام، وأن روحَ العمل الدائم تكون فيما يشـقُّ بعضَ المشَقة ولا يبلغ العُسْر والحَرَج، كما تكون فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولة ولا يبلغ الكَسَل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تُعلِن، وما تسِـرّ؛ ولا صـدقَ لإعلانها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صـلاحَ لجَهْرها حتى يصلُحَ السـرُّ فيهـا، ولا يكون الإنسـان الاجتماعى فاضلاً بمَشْهَدِهِ حتى يكونَ كذلك بغَيْبه.

وللعـالم كذلك وجهان: حاضـرُه الذى يمر فيه، وآتيه الذى يمتـدُّ له؛ ولا يُفلح حاضرٌ منقطعٌ لا يورِّث ما بعده كما وَرث ما قبله، وما حاضرُ الإنسـانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقيةً نامية.

وللنظام أيضًا وجهان: نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشـية والنَّفْرة منها. ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسُـه الطاعةَ فى النفس، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستَيْقِنُها، فلا يجد مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبَة للنصر: كلُّ مرارة من قِبَله هى حلاوةٌ فيه من بَعد، ولا يعرف للمِحْنـة يُبتلـى بها إلا معناها الحقيقىَّ وهو إيقاظ نفسـه، فيصبـح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمانَ فى بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع، ويُذيقُ النفسَ فى العجز عن بعض أغراضها – لذةً كلذة إدراكِه.

* * *

تلك هى فلسفةُ الإسلام؛ لا قِوامَ للأمر فيها ولا مِساكَ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابَع الجنة على أعمال الجَنة، وطابَع النار على أعمال النار - وحياطة كل فرد من الناس حياطةً رياضيةً عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلَّف من أعمال جسمه وحواسّه، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كلُّ إنسان أن يجعلَ بطنَه فى حجْم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقِص من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتيةُ كل فرد بما يجبُ له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق فى الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياةُ لا تجد من أهلها كلَّ ساعة عُقَدًا فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدَه الطريقةُ لإنشاء طبيعة الخير فى الناس على نسَقها الطبيعى، كما أنه هو وحده الطريقةُ لتطهير التاريخ الإنسانى من أوبائه الاقتصادية، التى جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناسَ يهدم بعضهم بعضًا، كما يهدم الجارُ حائط جاره ليوسِّعَ بيتَه.

وأساسُ العمل فى الإسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة؛ فيكونُ الفقير مُعْدِمًا ويتعفَّف، ويكون الغنىُّ موسِرا ويتصدَّق، ويكون الشَّرهُ طامعًا ويُمْسِك، ويكون القوىُّ قادرًا ويُحْجِم، وكما قال العرب فى تحقيق ناموس الأنفَة والحميَّة وغلبتِه على الناموس الاقتصادى: «تجوع الحرةُ ولا تأكل بثَدْييها».

* * *

تريد الإنسانية امتدادًا غيرَ امتدادها التجارىّ فى الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانَها غير الحيوان الذى فيه؛ وإذا قاد الغراب قومًا فإنما هو - كما قال شاعرنا - يمرُّ بهم على جِيَف الكلاب ... والإنسانيةُ اليوم فى مثلِ ليل حَوْشِىٍّ مظلم اختلط بعضه فى بعض، وليست معانى الإسلام إلا الإشراقَ الإلهىَّ على هذه الكَثَافة المادية المتراكمة، وإذا رُفع المصباحُ لم تجد الظلامَ إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته.

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانيةَ الفرد لا تعظُم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحها الصادقَ وتحزنُ حزنَها السامي - إلا أن تعيشَ في محبوب؛ فإنسانيةُ العالَم لا تكون مثلَ ذلك إلا إذا عاشت في نبيِّها الطبيعي، نبيّ أخلاقها الصحيحة وآدابِها العالية ونظامِها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوبَ الأعظم إلا في محمد ودينِ محمد؟

وعجيب أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبيّ العظيم خمسَ مرات في الأذان كل يوم، يُنادَى باسمه الشريف ملء الجو؛ ثم حكمةَ ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنَّة والنافلة، يُهْمس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمةُ من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جزءًا واحدًا من اليوم؛ فيمتدُّ الزمن مهما امتدَّ والإسلام كأنه على أوَّله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد؛ والمسلم كأنه مع نبيِّه بين يديه تبعثه روحُ الرسالة، ويسطع في نفسه إشراقُ النبوة، فيكونُ دائمًا في أمره كالمسلم الأول الذى غيَّر وجهَ الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأولُ بأخلاقِه وفضائلِه وحَمِيَّته في كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كلَّ أرض إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخيُّ بجهله وخرافاته وما وَرِثَ من القِدَم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي جهَة المسلم المعطَّل ... وما يُريدُ الإسلام إلا نفسَ المسلم الإنسانيّ.

أيها المسلم!

لا تنقطعْ من نبيك العظيم، وعشْ فيه أبدًا، واجعلْه مثلَكَ الأعلى؛ وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه؛ كن دائمًا كالمسلم الأول، كن دائمًا ابنَ المُعْجِزة.

■■■

حقيقة المسلم*

لا يعـرف التاريـخُ غيرَ محمد ﷺ رجـلاً أفرغَ الله وجودَه فى الوجود الإنسـانىّ كلِّه؛ كما تنَصبُّ المادّة فى المادة، لتمتزجَ بها، فتُحوّلها، فتُحْدثَ منها الجديد، فإذا الإنسـانية تتحوَّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سـار فيها فما تبرح هذه الإنسانيّة تنمو به وتتحوَّل.

كأنَّ المعنى الآدمىَّ فى هذه الإنسـانية كأنما وهَنَ من طـول الدهر عليه، يتَحيَّفُه ويمحوه ويتَعَاوَره بالشر والمنكَر؛ فابْتَعث الله تاريخَ العقل بآدمَ جديد بدأتْ به الدنيا فـى تَطوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسـانُ على ذاته، كمـا بدأتْ من حيث يُوجَد الإنسانُ فى ذاته؛ فكانت الإنسانيةُ دهَرها بين اثنين: أحدهما فَتحَ لها طريقَ المجىء من الجنة، والثانى فَتحَ لها طريق العوْدة إليها: كان فى آدمَ سـُّر وجود الإنسـانية، وكان فى محمد سرُّ كمالها.

* * *

ولهذا سُمِّىَ الدينُ (بالإسلام)؛ لأنه إسلامُ النفس إلى واجبها، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسـلم ينكِرُ ذاتَه فيُسْلمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها فى كمالها ومعاليها؛ فلا حظَّ له هو من نفســه يمسِكها على شهواته ومنافعِه، ولكنْ للإنسانية بها الحظّ.

وما الإسـلامُ فى جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و (إسـلامُها) طائعةً على الْـمَنْشَـط والمَكْرَهِ لفرُوضها وواجباتِها؛ وكلما نكَصَتْ إلى منْزَعِها الحيوانىّ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهىّ؛ وهو أبدًا يَرُوضُها على هذه الحَركة ما دام حيًّا؛ فينتزعها

* كتبها لجماعة الكشاف المسلم فى بيروت فى ذكرى المولد النبوى الشريف. وانظر «فترة جمام» و «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

كلَّ يــوم من أوهام دنياها، ليضعَها ما بين يَدَىْ حقيقتها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كل يوم وليلة خمسَ مرّات مُسـماة فى اللغة خَمْسَ صلوات، لا يكون الإســلام إسلامًا بغيرها؛ فلا غرو كانت الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفها النبىُّ ﷺ هى عِمادَ الدين.

* * *

بين ســاعات وســاعات فى كلّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أىْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرْض الإلهىّ، وإنكارٌ لمعانيها الذاتيــة الفانية التى هى مادةُ الشـرّ فى الأرض، وإقرارُهــا لحظات فى حَيّز الخير المحــض البعيد عن الدنيا وشــهواتها وآثامِها ومنكَراتهــا. ومعنى ذلك كلِّه تحقيقُ المســلم لوجود روحه؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا فى جملتها طُرُقًا تتشــتَّتُ فيها الأرواحُ وتتبعثر، حتى تَضلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها!

وهذا الوجودُ الروحىُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التى جاء الإسلامُ ليَهْدِىَ الإنسانيةَ إليها: حالة السلام الروحانىّ الذى يجعل حربَ الدنيا المهلكة حربًا فى خارج النفس لا فى داخلها، ويجعل ثروةَ الإنسان مُقدَّرة بما يعامل الله والإنسانيةَ عليه؛ فلا يكون ذهبُه وفِضّتُه ما كتبتْ عليه الدول: «ضُرِبَ فى مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كُتِبَ عليه: «صُنِعَ فى مملكة نفســى»؛ ومن ثَمّ لا يكون وجودهُ الاجتماعىُّ للأخذ حَسْــبُ، بل للعطاء أيضًا، فإن قانونَ المال هو الجمع، أما قانونُ العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجَمْع النيَّةِ عليها، يستشــعر المســلمُ أنه قد حطَّم الحدود الأرضيةَ المحيطةَ بنفســه من الزمان والمكان، وخَرَج منها إلى رُوحانية لا يُحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه.

وبالقيام فى الصلاة، يحقِّقُ المســلمُ لِذاته معنى إفراغ الفكر الســامى على الجســم كلِّه، ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره، كأنه كائنٌ منتَصِبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده.

---

(١) هــذه هى حكمــة صلاة الجماعة والحث عليهــا وكونها أفضل من غيرهــا وأن الثواب الأكبر فيها وحدها.

وبالتولِّى شَطْرَ القِبلة فى سَمتْها الذى لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت فى روحانية الحياة؛ فيَحملُ قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيَّة الدنيا وقَلَقِها.

وبالركوع والسجود بين يَدَى الله، يُشْعِرُ المسلمُ نفسَه معنى السموّ والرّفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيَّات الطيبات، يكونُ المسلمُ جالسًا فوق الدنيا يحمَدُ الله ويُسلِّم على نبيِّه وملائكته ويشهَدُ ويدعو.

وبالتسليم الذى يَخرجُ به من الصلاة، يُقْبلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديدًا: من جهتى السلام والرحمة.

هى لحظَاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخرَ بسلاسلها وأغلالِها من حركاتِ الصلاة، ولتمزيق الفنَاء خمسَ مرات كلَّ يوم عن النفس؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود، فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتَّسع.

هى خمسُ صلَوات، وهى كذلك خمس مرَّات يَفْرَغُ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة»[(١)].

* * *

لم يكن الإسلامُ فى حقيقته إلا إبداعا للصِّيغة العمليَّة التى تنتظم الإنسانيةُ فيها؛ ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرَّاسًا على القلب المؤمن، كأنها ملائكةٌ من المعانى، وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيًّا وقعَ به التطوُّرُ فى عالَم الغريزة، فنَقَله إلى عالم الخلُق، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقِّ، ثم سمَا بالحقِّ إلى الخير العام؛ فهو سموٌّ فوق الحياة

---

(١) كان محمد ﷺ يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرحنْا بها يابلال» ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته ﷺ وأشواق روحه العالية من قوله: أرحنا بها. فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه.

بثلاث طبقَات، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.

وبتلك الأعمَال والآداب كانت الدنيا المُسْلمةُ التى أسَّسها النبى ﷺ دنيا أسلمت طبيعتُها، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هى؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها؛ وكان الظاهرُ أن الإسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتَتِحها، ولكنَّ الحقيقةَ أن إقليما من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقيةِ الجديدةِ لهذا الدين.

وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روحَ البحر، وبعثها بَعْثَه الإلهىَّ لأمره، فكان النبى ﷺ هو نقطةَ المدِّ التى يفُورُ البحرُ منها، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسِلتْ بها الدنيا...

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كَلامَ الله (تعالى) فى كتابه، وكلامَ رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القولَ، ولكن كما يتلقَّوْن الحكمَ النافذَ المقْضىّ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدَها، بل رَوْعَةَ أمرِ السماء فى بلاغة؛ واتصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدّ، ثم كما يُمدُّ بعضُها بعضًا فى قوة واحدة.

وحقَّقوا فى كماله ﷺ وجودَهم النفسىّ؛ فكانوا من زَخارِف الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يُرى فيه الشىءُ لا شَىء.

ورأوا فى إرادته ﷺ النقطةَ الثابتةَ فيما يتَضَاربُ من خيالات النفس؛ فكانوا أكبرَ علماء الأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحدَه.

وعرفوا به ﷺ تمامَ الرجولة؛ ومتى تمَّتْ هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان، رجعتْ له الطفولةُ فى رُوحه، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملِكُها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبحَ كأنما يمشى فى الحياة إلى الجنة بخُطُوَات مُسدَّدة لا تزيغُ ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة؛ ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرها، يملكُها وإن لم يملكْ منها شيئًا، ما دامت فى قلبه طبيعةُ السرور، فلا فقرَ ولا غِنى مما يَشعُر الناسُ بمعانيه، بل كلُّ

مــا أمكنَ فهو غنىً كامل، إذ لم تَعُـدِ القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقصُ بنقصها، بـل القوةُ فى الروح التى تَتَصرف بطَبيعة الوجود، وتَدفع قُوَى الجسـم بمثل دوافع الطفولــةِ الناميــة المتغلّبة، حتى لتجعلُ مــن النور والهواء ما يُؤتَــدَمُ به مع الخبز القَفَار، كمَا يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمةِ[1].

وبذلك لا تتســلَّط ضرورةٌ على الجســم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تَســلُّطها كأنه أمرٌ من قوّة فى الوجود إلى قوّة فى هذا الجسم: أن تظْهَرَ لتعملَ عملَها المُعْجِــزَ فــى إبطال هذه الضرورة. وهــذا الجنسُ من الناس كالأزهــار على أغصانها الخضر؛ لو قالت شيئًا لقالت: إن ثروتى فى الحياة هى الحياةُ نفسُها، فليس لى فقرٌ ولا غِنى، بل طبيعةٌ أوْ لا طبيعة.

* * *

ولقد كان المسلمُ يُضْرب بالسيف فى سبيل الله، فتقَعُ ضرَباتُ السيوف على جسمه فتُمَزّقُه؛ فما يُحِسُّها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يَلْقَوْنه ويعانقونه!

وكان يُبتَلى فى نفسِــه وماله، فلا يشــعر فى ذلك أنه الـمُرَزَّأ المُبتْلَى يُعْرَف فيه الحزن والانكســار، بل تَظهر فيه الإنســانية المنتصرةُ كما يَظهر التاريخ الظافرُ فى بطله العظيم أصيبَ فى كلّ موضعٍ من جسمه بجراح، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم، وهى شهادة النصر!.

ولم تكن أثقال المســلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسبابَ قوة وسمو؛ كالنَّســر المخلــوق لطبقَات الجّــو العُليا، ويحمل دائمًــا من أجل هــذه الطبقَات ثِقْلَ جَناحيه العظيمين.

---

(١) عــن ابن عباس قال: دخل رســول الله ﷺ يــوم فتح مكة على (أم هانــئ) وكان جائعًا، فقال لها: «أعندك طعام آكله؟» فقالت: « إن عندى لكسرًا يابسة، وإنى لأستحيى أن أقدمها إليك» فقال: «هلميها!»، فكسرها فى ماء، وجاءته بملح، فقال: «ما من إدام؟» فقالت: «ما عندى إلا شىء من خل.» فقال: «هلميه!» فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «نعم الإدام الخل يا أم هانئ، لا يقفر بيت فيه خل» ا هـ.

وكانت الحقيقة التى جعلها النبىُّ ﷺ مَثَلَهم الأعلى، وأقرَّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله – أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه، إذ أنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره، فلا تكون فى الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو روح أمته تعَمل به أعمالها هى أعمالَه وحدَها.

المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه فى معناه الاجتماعىّ حولَ أمته كلِّها، لها إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسِه بهذه المنافع؛ وهو من غيره فى صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر، تقول الأمانة لكيهما: لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصَدِّقَه ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلامُ صحيحًا تامًا حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه فى أخلاق الله؛ فما هو بشخص يضْبطِ طبيعتَه: يَقْهرها مرَّة وتقهره مرارًا؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهى قانون وجوده.

لا يضطرب من شىء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟

لا يخاف من شىءٍ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقًا، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا فى طبيعةِ مَخَالبِك وأنيابك...؟

■■■

وحى الهجرة*

إن التاريخَ ليتكلَّم بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعضُ نواميس الوجود، صُوّرتْ فيها النفسُ الإنسـانية كيف اعْتَـوَرتْ أغراضها، وكيف مدَّت فى نَسَـقِها، وكيف تغلغلتْ فى مسالكِها، وما تأتَّى لها فجَرَتْ به مَجراها، وما دفَعها فانحـدرتْ منه إلى مَقَارّها؛ فهو ليس بكلام تسـتقبلُه تقرأ فيــه، ولكنه أحوالٌ من الوجــود تعترضهــا فتغيرّ عليك حسَّـك بإلهامِها وأحلامِهــا، وتتناولها من ناحية فتتناولُك من الأخــرى؛ فإذا الكلمة من ورائها معنىً، من ورائه طبيعةٌ، من ورائها سببٌ وحكمة؛ وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتُها وإلهيَّتُها معًا، وإذا الوجود فى ذهنك كالسـاعة ترسم لك حدَّ الثانية بخَطْرتين، وحدَّ الدقيقة من عدد محدود من الثوانى، وحدَّ الساعة إلى حد اليوم؛ وإذا البيان فى نفسك من كل هذه الحواشى، وإذا التاريخ فيمـا تقرؤه مُفنَّنٌ فى ظاهره وباطنه يَفِيء عليك من ألفاظِه ومعانيه بظلال هى صلتُكَ أنت أيها الحيُّ الموجود بأسرار ما كان موجودًا من قبل.

كذلـك قرأتُ بالأمسِ تاريخَ الهجــرة النبوية فى كتاب أبى جعفر الطبَّرى لأكتبَ عنــه هذه الكلمة، فلم أكن – علم الله – فــى كتاب ولا فى حكاية، بل فى عالمٍ انبثق فى نفسى مخلوقًا تامًّا بأهله، وحوادثِ أهلِه، وأسرار أهلِه جميعًا؛ كما يرى المحبُّ حبيبــه: لا يكون الجميل فى محل إلا امتلأ مكانه بعاشــقه، فهو مكانٌ من النفس، لا مــن الدنيا وحدَهــا، وفيه الحياة كما هى فى الوجود بمظهــر المادة، وكما هى فى الحب بمظهر الروح.

وتلـك حالةٌ من القراءةِ بالــروح والكتابةِ بالروح، متى أنـت سَموْتَ إليها رأيتَ فيها غيرَ المعنى يُخرجُ معنى، ومِن لا شـىءَ تُخلَق أشياء، لأنك منها اتصلتَ بأسرار

* أولى مقالاته فى الرسالة، أنشأها للعدد السنوى الخاص بالهجرة.

نفســك، ومن نفسك اتصلَت بأسرارٍ فوقها؛ فيُصبحُ التاريخُ معك فنَّ الوجود الإنسانىّ على الوجه الذى أفضَتْ به الحكمةُ إلى الحياة لتســتمرَّ بالنفس الإنسانية، لا فنَّ علم الناس على الوجه الذى أفضتْ به الحوادث مما بين الحياة والموت.

***

نشأ النبى ﷺ فى مكة، واستُنْبئ على رأس الأربعين من سنِّه، وغَبَر ثلاثَ عشْرة ســنةً يدعو إلى الله قبل أن يهاجرَ إلى المدينة؛ فلم يكن فى الإسلام أولَ بَدْأتِه إلا رجلٌ وامرأةٌ وغلامٌ: أما الرجل فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزوجُه خديجة، وأما الغلام فعلىّ ابن عمه أبى طالب.

ثم كان أول النموّ فى الإســلام بحُرّ وعَبْدٍ: أما الحرُّ فأبو بكر، وأما العبد فبِلال، ثم اتســقَ النمو قليلا قليلا ببُطء الهموم فى ســيرها، وصبر الحرِّ فى تجلده؛ وكأن التاريــخَ واقــفٌ لا يتزحزح، ضيقٌ لا يتســع، جامدٌ لا ينمــو؛ وكأن النبىَّ ﷺ أخو الشمس: يطلُع كلاهما وحدَه كل يوم. حتى إذا كانت الهجرة من بَعد فانتقل الرسول إلى المدينــة، بدأت الدنيــا تَتَقَلْقَلُ، كأنما مرَّ بقدمه على مركزهــا فحرَّكها؛ وكانت خطواتُه فى هجرته تَخطُّ فى الأرض، ومعانيها تخطُّ فى التاريخ؛ وكانت المسافة بين مكةَ والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان فى مكةَ يَعْرِضُ الإســلامَ على العرب كما يُعْرَض الذهبُ على المتوحشين: يَرَوْنــه بريقًــا وشــعاعًا ثم لا قيمة له، وما بهــم حاجةٌ إليه، وهــو حاجة بنى آدم إلا المتوحشــين، وكانوا فى المحادَّة والمخالفة الحمقاء، والبلوغ بدعوته مبلغَ الأوهام والأســاطير - كما يكون المريضُ بذات صدره مع الذى يدعوه فى ليلة قارَّة إلى مداواة جســمه بأشــعة الكواكب؛ وكانت مكةُ هذه صخرًا جغرافيًا يتحطم ولا يلين، وكأن الشــيطانَ نفسَــه وضع هذا الصخر فى مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخَ الإســلامى عن الدنيا وأهلها.

وأوذىَ رســول الله ﷺ، وكُذِّب وأُهــين، ورَجَفَ به الوادى يخطو فيه على زلازل تتقلَّــب، ونابذَه قومُه وتَذامَروا فيه، وحــضَّ بعضهُم بعضًا عليه، وانْصَفقَ عنه عامةُ

الناس وتركوه إلا من حفِظَ اللهُ منهم؛ فأصيب كبيرًا باليُتْم من قومه، كما أصيب صغيرًا باليُتْم من أبويه.

وكان لا يسمع بقادم يقدُمُ من العرب له اسمٌ وشرفٌ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض نفسَه عليه؛ ومع ذلك بقيت الدعوةُ تلوح وتختفى كما يَشُقُّ البرقُ من سحابة على السماء: ليس إلا أن يُرَى ثم لا شيء بعد أن يُرى!

***

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة فى جملة معناه، غيرَ أنى لم أقرأه تاريخًا، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعًا من حكمة إلهية، وضعه الله كالمقدّمة لتاريخ الإسلام فى الأرض؛ مقدّمةٌ من الحوادث والأيام تحيا وتمرٌّ فى نسق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة، وحكمةُ الله تتجلّى فى غموض؛ فلو أنت حققتَ النظرَ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألّه فى هذه الحقبة، بحيث لا تقرؤه النفسُ المؤمنةُ إلا خاشعة كأنها تصلِّى، ولا تتدبَّره إلا خاضعةً كأنها تتعبَّد.

بدأ الإسلامُ فى رجل وامراة وغلام، ثم زاد حرًّا وعبدًا؛ أليست هذه الخمسُ هى كلَّ أطوار البشرية فى وجودها، مخلوقةً فى الإنسانية والطبيعة، ومصنوعةً فى السياسة والاجتماع؟ فهاهنا مطلعُ القصيدة، وأولُ الرمز فى شعر التاريخ.

ولبَثَ النبىُّ ﷺ ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يَبْغيه قومُه إلا شرًا، على أنه دائبٌ يطلب ثم لا يجد، ويَعْرِضُ ثم لا يُقْبَل منه، ويُخْفق ثم لا يَعْتريه اليأسُ، ويَجْهَدُ ثم لا يتخوَّنُه الملل، ويستمرُّ ماضيًا لا يتحرَّف، ومعتزمًا لا يتحوَّل؛ أليست هذه هى أسمى معانى التربية الإنسانية أظهرَها اللهُ كلهَّا فى نبيه، فعمل بها وثبت عليها، وكانت ثلاثَ عشرةَ سنةً فى هذا المعنى كعمر طفل وُلِدَ ونشأ وأُحْكِمَ تهذيبُه بالحوادث، حتى تسلَّمته الرجولةُ الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها؟

أفليس هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقًا يعلِّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم: غِنَاهُ فى قلبه، وقوته فى إيمانه، وموضعه فى الحياة موضعُ النافع قبل المنتفع، والمصلح

قبل المقلِّد؛ وفى نفسه من قوة الحياة ما يموتُ به فى هذه النفس أكثرُ ما فى الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

ثم أليست تلك العواملُ الأخلاقيةُ هى هى التى ألقيتْ فى منبع التاريخ الإسلامىّ ليعُبَّ منها تيَّارُه؛ فتدفعُه فى مجراه بين الأمم، وتجعلُ من أخص الخصائص الإسلامية فى هذه الدنيا - الثباتَ على الخُطْوة المتقدمة وإن لم تتقدَّم، وعلى الحق وإن لم يتحقَّق؛ والتبرُّؤَ من الأثرة وإن شَحَّتْ عليها النفس، واحتقارَ الضعف وإن حَكَم وتسلَّط، ومقاومةَ الباطل وإن ساد وغلبَ، وحمْلَ الناس على مَحْض الخير وإن رُدُّوا بالشر، والعملَ للعمل وإن لم يأت بشىء، والواجبَ للواجب وإن لم يكن فيه كبيرُ فائدة، وبقاءَ الرجل رجلاً وإن حطَّمه كلُّ ما حوله؟

ثم هى هى البُرهاناتُ القائمةُ للدهر قيامَ المنارة فى الساحل - على نبوَّة محمد ﷺ: تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه رُوحٌ وغاياتُها المحتومة بالقدَر، لا جسْم ووسائلُه المتغلِّبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً ابتعثتْه نفسُه، لتمحَّلَ الحيلَ لسياسته، ولأحْدَثَ طمعًا من كل مَطْمع، ولركَدَ مع الحوادث وهَبّ، ولما استمر طوالَ هذه المدة لايتجه وهو فردٌ إلا اتجاهَ الإنسانية كلهِّا كأنما هو هى.

ولو هو كان رجلَ المُلك أو رجلَ السياسة، لاستقام والْتَوَى، ولأدرك ما يبتغى فى سنَوات قليلة، ولأوجد الحوادثَ يتعلق عليها، ولما أفْلتَ ما كان موجودًا منه يتعلَّق به، ولما انتزع نفسَه من محله فى قومه وكان واسطةً فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تُبعدُه وهى كانت تُدنيه.

قالوا: إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمتْه قُريش فقال له: يا ابن أخى، إن قومَك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فأبْق علىَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلْنى من الأمر ما لا أطيق. فظن رسولُ الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء[1]، وأنه خَاذلهُ ومُسْلِمُه، وأنه قد ضَعُفَ عن نُصرته والقيام معه، فقال: يا عمَّاه، لو وضعوا الشمسَ فى يمينى

(١) أى نشأ له رأى جديد فيه، وهذا كما يقولون: رجع عن رأيه.

والقمرَ فى يسارى على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركته. ثم استعبرَ ﷺ فبكى!

يــا دموعَ النبوة! لقد أثْبَتِّ أن النفسَ العظيمةَ لن تتعزى عن شــيء منها بشــيء مــن غيرها كائنًا ما كان، لامن ذهبِ الأرض وفضّتِها، ولا من ذهب الســماء وفضتها إذا وُضِعَتْ الشمسُ فى يد والقمرُ فى الأخرى.

وكلُّ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمنِ على أنه زمنُ نبيّ، لا زمنُ مَلِكٍ أو سياسيّ أو زعيم؛ ودليلَ الحقيقة على أن هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنســان الاجتماعيّ من جهة قوته، بل يقينَ الإنســان الإلهيّ من جهة قلبه؛ ودليلَ الحكمة على أن هذا الدينَ ليس من العقائد الموضوعة التى تنشرها عَدْوى النفس للنفس؛ فها هو ذا لا يبلغ أهلُه فى ثلاثَ عشــرةَ ســنةً أكثرَ مما تبلغ أسرةٌ تتوالد فى هــذه الحقْبة؛ ودليلَ الإنســانية على أنــه وحْى الله بإيجاد الإخــاء العالمىّ والوحدة الإنسانية. أفلم يكن خروجُه عن موطنه هو تحقُّقَه فى العالم؟

ثلاثَ عشــرةَ ســنةً، كانت ثلاثة عَشَــر دليلاً تثبت أن النبى ﷺ ليس رجلَ مُلك، ولا سياســة، ولا زَعامــة؛ ولو كان واحــدًا من هؤلاء لأدرك فى قليــل؛ وليس مبتدعَ شــريعةٍ من نفســه، وإلا لما غَبَر فى قومه وكأنه لم يجدْهم وهم حوله؛ وليس صاحبَ فكرة تعملُ أساليبُ النفس فى انتشارها؛ ولو كانَه لحملهم على مَحْضها وممزوجِها؛ وليــس رجلاً متعلِّقًا بالمصادفات الاجتماعيــة، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومٍ كُفْرَ يوم، وليس مُصْلِحَ عشــيرة يهذّب منها على قَدْر ما تقبل منه سياســةً ومخادعة، ولا رجلَ وطنِه تكون غايتُه أن يشمخَ فى أرضه شُموخَ جبل فيها، دون أن يحاولَ ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلالَ الســماء على الأرض، ولا رجلَ حاضره إذ كان واثقًا دائمًا أن معه الغدَ وآتِيَه، وإن أدبر عنه اليومُ وذاهبُه؛ ولا رجلَ طبيعتِه البشــرية يلتمسُ لها ما يلتمس الجائع لبطنه، ولا رجلَ شــخصيتِه يستهوى بها ويسحر، ولا رجلَ بطشِه يغلب به ويتسلَّط، ولا رجلَ الأرض فى الأرض، ولكن رجلَ السماء فى الأرض.

هـذه هى حكمة الله فى تدبـيره لنبيه قبل الهجرة: قبض عنـه أطرافَ الزمن، وحصره من ثلاثَ عشـرةَ سـنة فى مثل سـنة واحدة، لا تَصدُرُ به الأمور مَصَادرَها كـى تُثبـتَ أنها لا تَصدر به: ولا تسـتحقُّ بـه الحقيقة لتدلَّ على أنها ليسـت من قوته وعمله.

وكان ﷺ علـى ذلك – وهو فى حدود نفسِـه وضيق مكانه – يتسـع فى الزمن من حيث لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذى سينتصر فيه – قبل أن تُشرقَ على الدنيا بثلاثَ عشرةَ سنة – مشرقةً فى قلبه ﷺ.

والفصـل من السـنة لا يقدّمه النـاس ولا يؤخرونه، لأنه من سَـيْر الكون كله؛ والسـحابة لا يُشْـعِلون برقَها بالمصابيح، ومـع النبى من مثل ذلـك برهانُ الله على رسـالته، إلى أن نـزلَ قولُه تعـالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [سـورة الأنفال: الآية ٣٩] فحلَّ الفصـل، وانطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هى المقدَّمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعيًا أن يطَّردَ التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به: أمطرى حيث شئت فسيأتينى خَراجُك!

■■■

فلسفة قصة*

ماتت خديجة زوج النبى ﷺ ومات عمُّه أبو طالب فى عام واحد، فى السنة العاشرة من النبوّة، فعظُمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمُّه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونــه فلا يخلُصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياســية: هى بطبيعتها قوةٌ نافذةٌ على قوة القبيلة؛ فمن ثَم كان هو وحده المشكِلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التى تعمل قريش جاهدةً فى حلّها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهــم أمــة تحكمهُم الكلِمة الاجتماعية التى تَسِــير عنهم فى القبائــل؛ وتاريخُهم ما يقال فى الألســنة من معانى المدح والذم، فيخشَوْن المقالةَ أكثرَ مما يخشَوْن الغارة، وقد لا يبُالون بالقَتْلَى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلِمات المجروحة.

فكان من لطَيف صنْع الله للإســلام، وعجيب تدبــيره فى حماية نبيه ﷺ – وضْعُ هذه القوة النفســية فى أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفراغهم الرُّوحى، وتُثير فيهم الإشكال السياسىَّ الذى يعطِّلُ قانونَهم الوحشىَّ إلى أن يتمَّ عملُ الأسباب الخفية التى تكْسِر هذا القانون؛ فإن المصنعَ الإلهىَّ لا يخْرِج أعمالَه التامَّة العظيمةَ إلا من أجزاءٍ دقيقة.

أما خديجة زوج النبى ﷺ، فكانت فى هذه المِحنْة قلبًا مع قلبه العظيم، وكانت لنفســه كقول (نَعم) للكلمة الصادقة التــى يقول لها كلُّ الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملةُ المحبوبةُ هى التى تُعطِى الرجلَ ما نقص من معانى الحياة، وتَلِدُ له المسرات من عواطِفها كما تَلِدُ من أحشائها، فالوجودُ يعملُ بها عملين عظيمين: أحدُهما زيادةُ الحياة فى الأجسام، والآخرُ إتمامُ نقْصها فى المعانى.

* * *

* أنشأها لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥هـ.

وبموت أبى طالب وخديجةَ، أفْرِدَ النبىُّ ﷺ بجسـمه وقلبه، ليتجرَّدَ من الحالة التــى يَغْلِبُ فيها الحسُّ، إلى الحالــة التى تَغلب فيها الإرادة، ثـم ليخرجَ من أيام الاسـتقرار فى أرضه، إلى الأيام المتحركة به فى هجرته، ثم لينتهىَ بذلك إلى غاية قوميَّته الصغيرة المحدودة، فيتصلَ من ذلك بأول عالميَّتِه الكُبرى.

وأراد الله تعـالى أن يبدأ هـذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِـلال الجلال والعظَمة، ليكونَ أولُ أمره شـهادةً بكماله، فكانت الحسـنة فيه بشـهادة السـيئة من قومه؛ فحِلْمهُ بشهادة رُعُونتهم، وأناتُه بدليل طَيْشهم، وحكمتُه ببرهان سفَاهتِهم؛ وبذلك ظهر الروحانىُّ روحانيًا فى المادة.

قالـوا: فنالـتْ منه قريش، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونـوا يصلُون إليه فى حياة عمه، حتى نثَرَ بعضُهم الترابَ على رأسه، كأنما يُعلِمونه أنه أهونُ عليهم من أن يكونَ حُرًّا، فضلاً عن أن يكونَ عزيزًا، فضلاً عن أن يكون نبيًّا؛ قالوا: فدخل رسـولُ الله ﷺ بيتَه والترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه الترابَ وهى تبكى!

كانـت تبكى إذ لا تعلم أن هذا الترابَ على رأس النبىّ العظيم هو شُـذوذُ الحياة الأرضية الدنيئة، فى مقابَلة إنسـانِها الشاذّ المنفرد، هذه القَبْضَةُ من التراب الأرضىّ قبضةٌ سـفيهةٌ، تحاولُ ردَّ الممالك الإسـلامية العظيمة أن تنَشأ نشأتَها وتعملَ عملَها فى التاريخ، فهى فى مقدارها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقل قُريش حينئذ فى مقداره وسخافتِه ومحاولتِه.

أمـا النبــىُّ ﷺ فقال لبنته: «يا بنيّة لا تبكى، فإن الله مانعُ أباك». حسـبَتْ ذلك هَوانًا وضَيْعةً، فأعلَمها أن قبضةً من التراب لا تَطْمُرُ النَّجْم، وأن هذه الحَثْوَة الترابيةَ لا تُسـمَّى معركــةً أثارتْها الخيلُ فجاءت بنتيجة، وأن سـاعةً مـن الحزن فى يوم، لا يُحكَـمُ بها على الزمـن كلّه، وأن هذه النَّزوةَ التى تحركت الآن هى حمقُ الغباوة: قوتُها نهايتُها.

«يا بنيَّةُ لا تبكى فإن الله مانعُ أباك». أى ليس للنبى كبرياء ينالُها الناسُ أو يَغُضُّون عنهـا فيأتى الدمعُ مترجمًا عن المعنى الإنسانىّ الناقـص مثُبتًا أنه ناقصٌ؛ إنما هى النبوَّةُ: قانونُها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان، وهى النبوة: تجعل المختارَ لها غيرَ محدودٍ بجسـده الضعيف، بل حدودُه الحقائقُ التـى فيها قوّتُها، فهو فى مَنَعَة الواقع الذى لا بد أن يقع، فلو أمكن أن يُحذَفَ يومٌ من الزمن أو يؤخَّرَ عن وقته، أمكن أن يؤخَّر النبى أو يُحذَف.

«يـا بنيـةُ لا تبكى إن الله مانـعُ أباك». لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبىٌّ وَسـعَ التاريخَ فى نفسـه الكبيرة قبل أن يُوجَدَ هذا التاريخُ فى الدنيا، فكلمتُه هى الإيمانُ والثقةُ إذ يتكلم عن موجود.

ترابٌ ينثُره سـفيهٌ على رأس النبى! ويحكِ يا حقَـارةَ المادة؛ إن ارتفاعَك لعنة، إن ارتفاعَكِ لعنة.

* * *

قالوا: وخرج رسـول الله ﷺ وحده إلى الطائـف، يلتمس من ثَقيف النصرَ والمنَعةَ لـه من قومـه؛ فلما انتهـى إلى الطائف عَمـدَ إلى نفَرٍ من ثقيف هم يومئذ سـادتُهم وأشرافُهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته والقيام معه فى الإسلام على من خالفه من قومه، فلم يفعلوا وأغرَوْا به سُفهاءهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناسُ وألجأوه إلى حائط[1] لعُتْبَةَ بن ربيعة وشَيبة ابن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سـفهاء ثَقيف من كان يتبعه، فعمد ﷺ إلى ظل حُبْلَةٍ من عِنَبٍ فجلس فيه، وابنا ربيعةَ ينظران إليه ويريان ما لقِى من السفهاء.

فلما اطمأنّ ﷺ فى مجلسـه قال: «اللهمَّ إليكَ أشـكو ضعف قوّتى، وقلةَ حيلتى، وهوانـى على الناس؛ يا أرحـمَ الراحمين، أنـت ربُّ المسْـتَضْعَفِين وأنت ربىّ، إلى

(١) الحائط: البستان، وجمعه حوائط.

مَـنْ تَكِلُنــى، إلى بعيد يتَجهّمُنى، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمرى، إن لم يكنْ بك علىّ غضبٌ فلا أبالى، ولكن عافيتكَ هى أوسـعُ لى. أعوذُ بنور وجهك الذى أشـرقَتْ له الظّلُمات، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، من أن ينزلَ بى غضبُك، أو يحلَّ عَلَىَّ سَـخطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، لا حولَ ولا قوّة إلا بك!».

***

ألا مـا أكملَ هذه الإنسـانيةَ التى تُثبت أن قوةَ الخُلُق هـى درجةٌ أرفعُ من الخلقِ نفسِه؛ فهذا فنُّ الصبر لا الصبرُ فقط، وفنُّ الْحِلم لا الحِلمُ وحده.

قـوة الخلُق هى التى تجعلُ الرجلَ العظيم ثابتًا فـى مركزِ تاريخه لا متقلّقِلاً فى تواريخ الناس، محدودًا بعظائم شـخصيته الخالدة لا بمصالح شخصِه الفانى، ناظرًا فى الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغيِّر للمنفعة.

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلا معانىَ الظلم، والشر، والضعف، تقول للنبى العظيم الذى جاء يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياء ثابتةٌ فى البشريَّة.

لم يكن منهم الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ، بل كان منهم العَسْفُ، والرّق، والطَّيش، تَسْخَر ثلاثتُها من نبى العدل، والحرية، والعقل، فما تَسْخَرُ إلا من نفسِها.

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحيـاة، لتُثبِتَ الصغائرُ أنها الصغائر، وليُثْبتَ المجدُ أنه المجد.

كان الفريقـان هما الفكرتـين المتعاديتَيْن أبدًا علـى الأرض: إحداهما عِشْ لتأكلَ وتستمتعَ وإن أهلكْت، والأخرى عش لتعملَ وتنفعَ الناسَ وإن هلكْت.

كانت الأقدارُ تُبادى هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق، لينطلقَ الواسعُ من مكانه ويسـتقبِلَ الدنيا التى عليه أن يُنشئها. فأولئك الأشرافُ والسفهاء والعبيد إن هـم إلا الضيــقُ، والركودُ، وذلُّ العيش، حولَ السَّـعِة الروحيةِ، والسـموّ، وطَهارةِ الحياة.

وقف المعنى السـماويُّ بين معانى الأرض، ولكنَّ نورَ الشمس ينبسطُ على التراب فـلا يُعَفِّرُه التراب، وما هـو بنورٍ يضيء أكثرَ مما هو قوةٌ تعمـلُ بالعناصر التى من طبيعتها أن تحوّلَ، فى العناصر التى من شأنِهَا أن تتحوَّل.

وكان بين النبى ﷺ وبين أولئك المسـتهزِئين قوةٌ أخـرى، هى القدرةُ التى تعملُ بهذا النبى للعالم كلِّه، وبهذه القدرة لم ينظر النبى إلى قريش وصَوْلتهم عليه إلا كما ينظر إلى شـىء انقضى، فـكان الوجودُ الذى يحيط به غيرَ موجـود، وكانت حقيقةُ الزمن الآتى تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبى ﷺ بذلك الدعاء البليغ الخالد، يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة، فينطِقُ الإنسـانىُّ فيه بالشَّـطر الأول من الدعاء يذكر انفرادَه وآثـارَ انفراده، ويتوجعُ لما بينه وبين إنسـانية قومه، ثم ينطـقُ الروحانىُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجِّهًا إلى مصدرِه الإلهى قائلاً أول ما يقول: إن لم يكن بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى.

ولعمرى لو نطقت الشمسُ تدعو الله لما خرجتْ عن هذا المعنى ولا زادت على قوله: «أعوذُ بنور وجهك»؛ تلتمسُ من مصدر النور الأزلىّ حياطةَ وجودها الكامل.

* * *

ولقـد هزءوا من قبلُ بالمسـيح (عليه السـلام) فقال للسـاخرين منـه: ليس نبىٌّ بلا كرامة إلا فى وطنِه وفى بيته. وبهذا ردَّ عليهم رد من انسلخَ منهم، وقال لهم قول من ليس له حكمٌ فيهم، وأخذهم بالشريعة الأدبية لا العملية؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمـة الطائفةِ ليسـت لكلّ قلب ولا لـكل عقل، ولكنها لمن أُعِدَّ لها؛ وشـريعته أكثرهـا فى التعبـير وأقلُّها فى العمل، ولم تجىء بالقوة العاملـة فلم يكن بدّ من أن تَضَعَ الموعظةَ فى مكان السـيف، وأن تكونَ قائمةً على النهى أكثر مما هى قائمة على الأمر، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة: لا تَغْلِى بها الأرض، وإنما عملُها أن تمهِّدَ هذه الأرضَ لفصلٍ آخر.

أما نبيُّنا ﷺ فلم يُجب المستهزئين، إذ كانت القوةُ الكامنةُ فى بلاد العرب كلِّها كامنةً فيه، وكان صدرُه العظيمُ يحمل للدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ الدنيا أن تعامَله عليها إلا بَطريقتها الحربية؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعر الذى يُريد من الكلمة معناها البليغَ، ولكنه سكتَ سكوتَ المُشْتَرِع الذى لا يريد من الكلمة إلا عملَها حين يتكلم؛ وكان فى سكوته كلامٌ كثيرٌ فى فلسفة الإرادة والحرية والتطور، وأن لا بد أن يتحوَّلَ القومُ، وأن لا بد أن يتَفطَّرَ هذا الشجرُ الأَجْرَدُ عن وَرَق جديد أخضرَ ينمو بالحياة.

لم يتسخَّط ولم يقلْ شيئًا، وكان كالصانع الذى لا يردُّ على خطأ الآلة بسخْط ولا يأس، بل بإرسال يده فى إصلاحها.

* * *

قالوا: ورأى ابنا ربيعةَ، عُتْبةُ وشيبة ما لقى النبيُّ ﷺ من السفهاء، فتحركتْ له رَحِمُهُمَا، فدَعَوا غلامًا لهما نَصرانيًّا يقال له عَدَّاس، فقالا له: خذ قِطْفًا من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكُلُ منه. ففعل عدَّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ فلما وضَعَ يدَه قال: «بسم الله» ثم أكل؛ فنظر عدَّاس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له رسول الله ﷺ: ومِن أهلِ أىّ البلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك؟

قال: أنا نَصرانى وأنا رجلٌ من أهل نِينَوَى. فقال له رسولُ الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يُونس بن متَّى؟ قال: وما يدريك ما يونسُ بن متى؟ قال ﷺ: ذاك أخى: كان نبيًّا وأنا نبىّ.

فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يُقَبِّلُ رأسه ويديه ورجليه.

* * *

يا عجبا لرموز القدَرِ فى هذه القصة!

لقد أسـرع الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبلتْ تعتذرُ عن الشر والسفاهةِ والطيش، وجاءت القُبُلاتُ بعد كلمات العداوة.

وكان ابنا ربيعةَ من ألد أعداء الإسلام، وممن مشوا إلى أبى طالب عمّ النبىﷺ من أشـراف قريش يسألونه أن يكفَّه عنهم أو يُخَلِّيَ بينهم وبينه، أو يُنازِلُوه وإياه حتى يهلكَ أحدُ الفريقين، فانقلبت الغريزةُ الوحشـية إلى معناها الإنسـانى الذى جاء به الدين، لأن المستقبل الدينىَّ للفكر لا للغريزة.

وجاءت النصرانيةُ تعانق الإسـلام وتُعزّه، إذ الدينُ الصحيحُ من الدين الصحيحِ، كالأخ من أخيه، غير أن نَسَبَ الإخوة الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل.

ثم أتمَّ القدرُ رمزه فى هذه القصة، بقِطْف العنب سائغًا عَذْبًا مملوءًا حَلاوة؛ فباسم الله كان قِطْـفُ العنب رمزًا لهذا العنقود الإسـلامىّ العظيـم الذى امتلأ حَبًّا كل حبة فيه مملكة.

■■■

فوق الآدمية*

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقلَه، فتَعسَّرَ علىَّ وصُرِفْتُ عنه بألمٍ شـديد اعترانى، ونالنى منه ثَقْلةٌ فى الدماغ؛ ثم كشفَه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ، فإذا قلمى ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِئ المسلمون العجزَ، وفى أول دينِهم تسخيرُ الطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدُون الراحةَ، وفى صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجز الكبرى؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى الجهل، وأولُ أمرهم آخِرُ غايات العلم؟

كيف لا يحملون النورَ للعالَم، ونبيهم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم؟

* * *

قصةُ الإسـراء والمعراج هــى من خصائصِ نبينا محمد ﷺ، هذا النجمُ الإنسـانىّ العظيـم، وهو النورُ المتجسِّـدُ لهداية العـالم فى حَيْرة ظلُماتِه النفسـيَّة؛ فإن سماء الإنسـانِ تُظلِم وتُضـىء من داخله بأغراضــه ومعانيه. والله (تعالى) قـد خلق للعالم الأرضىّ شمسًـا واحدةً تُنيره وتحُييه وتتقلَّبُ عليه بليله ونهاره، بيد أنه ترك لكل إنسـان أن يضعَ لنفســه شمسَ قلبه وغَمَامَها وسحائبَها وما تسـفِرُ به وما تُظلم فيه. ولهــذا سُمِّىَ القرآنُ نورًا لعمل آدابه فى النفس، ووُصف المؤمنون بأنهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [سورة الحديد: الآية ١٢]، وكان أثرُ الإيمان والتقوى فى تعبير القرآن الكريم أن يجعلَ الله للمؤمنين نورًا يمشُون به.

---

* أنشأها برأى صديقه الأستاذ محمود أبو ريه.

وقد حار المفسِّرون فى حكمة ذكر «الليل» فى آية «الإسراء» من قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١]. فإن السُّرَى فى لغة العرب لا يكونُ إلا ليلا.

والحكمةُ هى الإشارةُ إلى أن القصةّ قصةُ (النجم) الإنسانىّ العظيم الذى تحوَّل من إنسانيته إلى نوره السماوىّ فى هذه المعجزة، ويتمم هذه العجيبةَ أن آياتِ «المعراج» لم تجئْ إلا فى سورة: «النَّجم».

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليل) إشارةٌ إلى قصة النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها وتكون فى نسَقِها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية؛ فإذا قيل إن نجمًا دار فى السماء، أو قَطَعَ ما تقطعه النجومُ من المسافات التى تُعْجِزُ الحساب، فهل فى ذلك من عجيب؟ وهل فيه شكٌّ أو نظرٌ أو تردُّد؟ وهل هو إلا من بعضِ ما يُسَبّح الله بذكره؟ وهل يكونُ إلا آيةً اتصلت بالآيات التى نرَاها اتصالَ الوجود بعضه ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضى عجَبى من قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفةٌ واضحة، يُخيَّل إليك أن ليس وراءها شىء، ووراءها السرُّ الأكبر؛ فإنها بهذه العبارة نصٌّ على إشراف النبى ﷺ فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواسّ مما مَرْجِعُه إلى قُدرة الله لا قدرة نفسه؛ بخلاف ما لو كانت العبارةُ: (ليرَى من آياتنا) فإن هذا يجعلُه لنفسِه فى حُدود قوتها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها، فيضطربُ الكلام، ويتطرقُ إليه الاعتراض ولا تكونُ ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيتَ، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائى من شكل إلى شكل كما ستعرفُه، وهذه معجزة أخرى يسجدُ لها العقل؛ فتبارَكَ الله مُنْزِلُ هذا الكلام!

وإذا كان ﷺ نجمًا إنسانيًّا فى نوره، فلن يأتىَ هذا إلا من غَلَبة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيتُه كانت قواه النفسيةُ مهيَّأة فى الدنيا لمثل حالتها فى

الأخــرى؛ فهو فى هذه المعجزة أشــبهُ بالهواء المتحرك فقــلُ الآن: أيُعتَرضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع فى طيَّارة...؟

ومن ثَمَّ كان الإنســانُ إذا ســما درجةً واحــدةً فى ثبات قواه الروحية، ســما بها درجــاتٍ فــوق الدنيا وما فيها، وسُــخِّرت له المعانى التى تُسَــخِّر غيرَه من الناس، ونشأتْ له نواميس أخلاقيةٌ غير النواميس التى تتسلط بها الأهواء. ومتى وُجد الشيء من الأشــياء كانت طبائع وجوده هى نواميســه؛ فالنارُ مثلاً إذا هى تضرَّمتْ أوجدت الإحراقَ فيما يحترق، فإن وُضِع فيها مالا يحترق أبطلَ نواميسَها وغلب عليها.

وكلُّ معجــزة تَحدُثُ فهذا هو ســبيلُها فى إيجاد النواميــس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة، وبهذا يقال: إنها خرَقَتْ العادة. ومن النور نور لا يَشِفُّ له غيرُ الهواء، ومنه أشعةُ (رونتجن) التى تشفُّ لها الجدرانُ والحجُب؛ فهذه معجزة فى ذاك.

***

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ فى إنسانه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة فى روحانيتها، وما ينزلُ إنســانُه الظاهرُ من الإنسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يَتلقَّى ممن يُعطِى؛ فذاك الباطنُ هو للحقائق التى لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهرُ لما يمكن أنْ يبلغَ إليه الكمالُ فى المَثل الإنسانىّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاع نبى من الأنبياء أن يحمِلَ همومَ أمة كاملة لا تُضْنِيه ولا تغيّرُه ولا تُعجِزُه.

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود فى إنسان مختار جاءت تُصْلِح الوجودَ الإنسانىَّ بــه لتُقِرَّ فى هــذه الحيوانية المهذَّبة مَثَلَها الأعلى، بدَلالتِها على طريقها النفســىِّ مع طريقهــا الطبيعى؛ فيكونُ مع الانحطاط الرقىّ، ومــع النقص الكمال، ومع حكم الغريزة التحكّمُ فى الغريزة، ومع الظلمة الماديَّة الإشراقُ الروحانى.

وما المعجزاتُ إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانِها الظاهر، ومَن الذى ينكر أن قُوى الوجود هى فى نفســها إعجازٌ للعقل البشــرى؟ وهل ينكر اليومَ أحدٌ شــأنَ

هذه القوة فى (الراديو) حين مسَّــته فجعلت الكلمةَ التى تُرسَلُ بين الشرق والغرب، كالكلمة بين اثنين يتحدثان فى مجلس واحد؟

ونحــن نــرى معجــزات التنويم المغناطيســى وما يُبْصــره النائم وما يســمعُه، وما ينكشفُ له مما وراء الزمان والمكان؛ وليس التنويمُ شيئًا إلا تسليطَ الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة، على الذات الظاهرة المقيَّدة بحواسِّــها المحدودة، فتَطْغى عليها، فتُصْبِحُ الحواسُّ مطلقةً شــائعةً فى الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانى بذاته الباطنة، فيوقعُ شــخصَه الظاهِرَ فى الاستهواءِ، فينكشفُ له الوجودُ، ويُبصرُ ما يقع على البعد، ويرى ما هو آتٍ قبل أن يأتى؛ وما الكونُ فى هذه الحالة إلا كالمعشــوق يقول لعاشــقه الذى وقع فى قلبه الحب: قد آتيتُك نورًا تنظرُ به جمالى.

* * *

وفــى علماء عصرنا من يفكِّر فى الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب فى اســتحضار الأرواح وتســخيرها؛ وكلُّ ذلك أولُ البرهان الكونىّ الذى سَيُلْزِمُ العلمَ فيضطرُّه فى يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج.

ونحــن قبــل أن نُبدىَ رأينَا فى القصة نُلمُّ بها إلمامــةً موجَزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديــثُ ووقع فيهــا تخليط كثير، فجــاءت فنُونًا وأنواعا من طُرُق شــتى، حتى جمعها بعضُهم فى جزأين[1]، وما تحتمل كلَّ ذلك ولا بعضَه، ولكنَّ روحَ الرواية فى ذلك الزمــن كانت كروح الصّحافة فى هذا العصر: متى فازتْ فَوْرَها اســتحدثَتْ من كل عبارة عبارةً أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرجُ من العبارتين عبارةٌ ثالثة، فيكونُ الأصلُ معنى واحدًا وإذا يَمُدُّ من يمينه ويساره.

(١) قال الذهبى: إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الإسراء فى جزأين.

ولا يَرون بذلك بأسًـا؛ فإنهم يَشُدُّون به الرأىَ، ويضاعِفُون منه اليقين، ويزيدون ضـوءًا فى نـور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصلَ واسـتيْقَنُوه، فلا حَـرَجَ أن يؤيِّدَ القـولُ بعضهُ بعضًا، باجتهاد فى عبارة، واسـتنباط من أخـرى، وزيادة فى الثالثة مما هو بسبيلٍ منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تتعدد الأساليبُ والعبـاراتُ مختلفةً متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقـةٌ واحدة لا تختلف. والقَصصُ الدينىُّ فى هذه اللغة العربية فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسه، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب.

هذا فى مَتْن القصة، أما فى واقعتِها فقد اختلفوا اختلافًا آخر: هل كان الإسـراء والمعراجُ يقَظةً أو منامًا؟ وبالروح وحدها، أو بالروح والجسـم معًا؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليلُ القاطع على أن النبى ﷺ لم يُخْبر بشىء من ذلك، فلم يعيِّن لهم وجهًا من هـذه الأوجه. والحكمة فى ذلك أن عقولهم لم تكن تحتملُ الإدراكَ العلمىَّ الذى أساسُهَ ما عُرفَ اليومَ من أمر الكهرباء والأثير...

والخلاصة التـى تَتأدّى من القصة: أنه ﷺ كان مضْطَجِعًا فأتاه جبريلُ، فأخرجه مـن المسـجد، فأركبه البراقَ، فأتى بيـتَ المقدس، ثم دخل المسـجدَ فصلى فيه، ثم عُرِجَ به إلى السـموات، فاسـتفتحَها جبريلُ واحدة واحدة، فرأى فيها من آيات ربه، واجتمع بالأنبياء (صلواتُ الله عليهم)، وصعد فى سـماء بعد سـماء إلى سِدْرة المنتهَى، فغَشيَها من أمر الله ما غشيها، فرأى ﷺ مظهرَ الجمال الأزلى، ثم زُجَّ به فى النور فأوْحَى اللهُ إليه ما أوحى.

أما وَشْـيُ القصة وطرازُها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التى يرمَزُ بها إلى تجسـيد الأعمال فى هذه الحياة: تكـونُ تَعَبًا وتقع فائدة، أو تُلتْمَس منفعةً وشـهوةً وتقع مُضَرَّة وحماقـة، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّـورُ الزمنية التى توهَّمها أصحابها، وتخلدُ الصورُ الأبديةُ التى جاءت بها حقائقُها.

ومـن هذه الرموز البديعـة قولُه: فجاءنى جبريل بإناء مـن خمرٍ وإناء من لبن، فأخـذتُ اللبن، فقال جبريل: أخذتَ الفِطرة. وأنـه مرَّ على قوم يزرعون ويحصُدون

فى كل يوم، كلما حصدوا عاد كما كان؛ فسأل ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله، تُضاعفُ لهم الحسنةُ سبعمائة ضعف. ثم أتى على قوم تُرْضَخ رءوسهم بالصخر، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفَتَّر عنهم من ذلك شىء؛ فقال ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء الذين تتثاقل رءوسُهم عن الصلاة. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ فى قِدر، ولحمٌ آخرُ نَيّء فى قِدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ويَدَعُونَ النضيج؛ فقال ما هؤلاء؟ قال جبريل: هذا الرجل تكون عنده المرأة الحلالُ الطيّبُ فيأتى امرأةً خبيثة، والمرأةُ تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا فتأتى رجلاً خبيثًا. ثم أتى على رجل قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيع حلها وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يُريد أن يَحمِل عليها. ثم رأى نساء معلَّقات بثديهن؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاء اللاتى أدخلْنَ على الرجال من ليس من أولادهم.

***

ونحن على الرأى الذى عليه جمهورُ العلماء: من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معًا على التأويل الذى سنبينه؛ ويثبتُ ذلك قولُه تعالى فى سورة (النَّجم): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيتان ١٦ - ١٧]. فلا يكون البصرُ يزيغُ ويطغى إلا فى الجسم، ولا ينتفى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله: وما طغى: فذلك نصٌّ على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شىء؛ إذ لا يكون طغيانُ البصر إلا من تسلّطِ الخيالِ عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاغ البصرُ بكَونه مقيَّدَ الحاسة، ولا طغى بكونه مُطْلَق الخيال، بل كان كما يُريه الله من آياته، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة.

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبى ﷺ ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٠].

وقد خلط المفسّرون فى هذا أيضًا، وإنما كان التعبير بلفظ «الرؤيا» – وهى التى تكونُ منامًا – لنفى تأثير الحواس على الرائى، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيــه كالنائمة عن حياتهــا الأرضية بحقائقها وأخْيلِتها معًــا، فليس نائمًا كالنائم، ولا مستيقظًا كالمستيقظ.

وفى أساس القصة جبريلُ والبُراق؛ وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعية، أو الروحُ الملائكى والروحُ الطبيعى، ولم يوصف البراق بأنه دابةٌ إلا رمزًا، إذ لا يأتى للعرب أن يفهموا ما يُراد منه؛ وعندنا أنه سُمّىَ البُراق من البَرق، وما البَرقُ إلا الكهربائية، وهــذا هو المراد منه؛ فتلــك قوةٌ كهربائيةُ متى نَبَضَتْ جمعــت أولَ العالم بآخره؛ وهذه هى الحكمة فى أن آية الإســراء لم تذكُر أنه كان محمولاً على شىء، إذ لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير.

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعية قد سُخِّرتا له ﷺ، فلا معنى لأن يكونَ ذلك للروح دون الجســم، بــل اجتماعُهما معًا فى القصة دليل على أن ســر المعجزة إنما كان فى تيســير ملاءمة جســمه الشــريف لهاتين الحالتين؛ فيتحولُ فى صورة كونية ملائكية بين سرّ الملَك وسرّ الطبيعة، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواسّ ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحولَ الأجسام إلى حالتها الأثيرية فى بعض الأحوال الخارقة، وبهــذا يعلَّل طَىُّ الأرض لبعــض الروحانيين، وتُعلل خَوارقُ كثيــرةٌ مما يَحدُثُ فى استحضار الأرواح لهذا العهد، ومما يأتيه فقراء الهند، ومما كان يصنعه «هودينى» الأمريكــى: إذ كانــوا يغلّلونه بالسلاســل والقيود ثم يرونه طليقًا؛ ويحبســونه فى الســجون المحصَّنة يقوم عليها الحراس وتُمسِكُه فيها الأبواب والجدران ثم يجدونه فى بعض الفنادق.

وليس للعقل أن ينكر شيئا من هذا ونحوه، فإن تركيب الطبيعة ردٌّ عليه، ونقصُه هو ردٌّ على نفسه، والمستحيلُ على الأعمى هو أيسر الممكِنات على المبصِر.

فأنت ترى أن ذِكرَ البراق والملك فى أساس قصة الإسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة، وهو عينُه صلتها بالبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير.

* * *

والقصةُ بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرقُّ وينكشفُ ويستضىء كلما سما الإنسان بروحه، ويغلُظُ ويتكاثَـفُ ويتحجَّب كلما نزل بها، وهى من ناحية النبى ﷺ قصةٌ تَصِفُه بمظهره الكونىّ فى عظَمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله، ومن ناحية كل مسـلم من أتباعـه هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن مِعراجٌ سـماوىّ فـوق هذه الدنيا، ليشْـهَدَ ببصيرته أنـوارَ الحق، وجمالَ الخير، وتجسُّـدَ الأعمال الإنسـانية فى صورها الخالدة؛ فيكونُ بتدبُّره القصةَ كأنما يصعَدُ إلى السماء وينزل؛ فيسـتريحُ إلى الحقائق الأساسـية لهذه الحياة، فيدفع عن نفسه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح.

ومتى استنار القلبُ كان حيًّا فى صاحبه، وكان حيًّا فى الوجود كلّه. ومتى سَلِمَتْ الحيـاةُ من تعقيد الخيال الفاسـد لم يكن بين الإنسـان وبيـن الله إلا حياةٌ هى الحق والخير، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحب.

■■■

الإنسانية العليا*

من أوصاف النبى ﷺ: أنه كان متواصِلَ الأحزان، دائمَ الفكرة، ليست له راحة، طويـلَ السَّـكْت، لا يتكلم فى غير حاجة، ليس بالجافـى ولا المَهين، يُعظِّم النعمةَ وإن دقَّت لا يذمُّ منها شـيئًا، ولا تُغضبه الدنيـا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدِّىَ الحق لم يقم لغضبه شـىء حتى ينتصرَ له، ولا يغضبُ لنفسـه ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافضَ الطَّـرف، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السـماء، مـن رآه بَديهةً هَابَه، ومن خالَطَه مَعْرفةً أحبَّه، لا يَحسـبُ جليسُـه أن أحدًا أكرمُ عليه منه، ولا يَطْوى عن أحد من الناس بشْرَه، قد وَسع الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده فى الحق سـواء؛ يحسِّنُ الحسَـنَ ويقوِّيه، ويقبِّح القبيح ويُوهِيه، معتدلُ الأمر غير مختلِف؛ وكان أشـدَّ النـاس حياء، لا يثبِّـتُ بصرَه فى وجه أحد، له نورٌ يعلوه كأن الشـمس تَجرى فـى وجهه، لا يُؤيِسُ راجيَه، ولا يخيِّبُ عافيَه، ومن سـأله حاجة لم يردَّهُ إلا بها أو بمَيْسُور من القول؛ أجودُ الناس بالخير(1).

* * *

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التى لا يجدُ الكمالُ الإنسانىُّ مذهبًا عنها ولا عن شـىء منها، ولا يجدُ النقصُ البشرىُّ مَسَاغًا إليها ولا إلى شىء منها؛ ففيها المعنى التامُّ للإنسـانية، كما أن فيها المعنـى التام للحق، ومن اجتماع هذين يكونُ فيها المعنى التامُّ للإيمان.

هى صفاتُ إنسانِها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذَ عنه الحياةُ إنسانيتَها العالية؛ فهى بذلك من برهانات نبوّته ورسالته.

---

* انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعى.

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة، وجعلناها كالحديث الواحد.

ولو جمعتَ كلَّ أوصافه ﷺ ونظمتها بعضَها إلى بعض، واعتبرتَها بأسرارها العلمية – لرأيتَ منها كَوْنًا معنويًا دقيقًا قائمًا بهذا الإنسان الأعظم، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُـنَنِه وأصولِ الحكمةِ فيه، ولأيقنتَ أن هذا النبىَّ الكريمَ إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسىٌّ حىّ ألَّفتـه الحكمةُ الإلهية بعلْم من علمِها، وقوة مـن قوَّتها، لتتخرَّجَ به الأمةُ التى تُبدعُ العالمَ إبداعًا جديدًا، وتُنشِئَه النشأة المحفوظةَ له فى أطوار كماله.

ولن ترى فى الإنسـانية أسـمى من اجتماع هذه الصفـات بعضِها إلى بعض وإنى لأكادُ كلما تأملتها أحسـبُ هذا السموَّ قضاء وقدرًا بإنسان على الإنسانية كلها. وهى دليلٌ على أنه الإنسانُ الذى خُلِقَ للدنيا لا لنفسه؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناس من الحق، ولكن بما يكونُ للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشَها، فما تكونُ فى الوجود إلا لتقرّرَ وجودَها هى، ولا تنتهى حين تنتهى بذاتها إلا لتبدأ معانيها فى غيرها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ فى التاريخ غرسًا ليكونَ حدًّا لزمنٍ وأوَّلاً لزمن بعده، وما كانت حياتُه تلك إلا طريقةَ غَرْسِـه، وهو أبدًا قائم فى مكانهِ الاجتماعـى، إذْ كان الزمنُ كلما تقدم زاد فى إثباتهِ، وقد أصبح فى الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسـانٌ من الناس، فلن يتغيرَ أو يُمْحَى إلا إذا تغير أو مُحى المشـرقُ والمغرب.

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضَتْ به كُتُبُ الشـمائل من أمثالها، لا نقرؤها أوصافًـا ولا حِلْية، بل نراها صفحـةً إلهيةً مصَنَّفَةً أبدعَ تصنيـف وأدقَّه، ومن وراء تأليفِها تفسـيرٌ طويلٌ لا يتَهدَّى الفكرُ البشرىُّ لأحسَـن منه ولا أصحَّ ولا أكمل؛ فقد اجتمعت تلك الصفات فى إنسـانها اجتماعَ الأجزاء فى المسألة الرياضية: لا ينبغى أن تزيدَ أو تنقُص، إذ كان فى مجموعها ما وُجِدَ له مجموعُها.

ويكاد الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكونُ هو بعينه صورةً للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة؛ فإن كلَّ جزء منها موضوعٌ وضعًا لا يتم الكلُّ إلا به، حتى لا موضعَ فيهـا لقلَّة أو كثرة؛ وهذا معنى قوله ﷺ: «أدَّبنى ربى فأحسـنَ تأديبى»، وأنتَ إذا

دقَّقتَ فى هذا الحديث أدركتَ من مَعْنَاتِه أن هناك طبيعةً أخلاقيةً مفردةً تَجرى على قانونِها الذى وضعه الله لها وأحكمها به.

وأعجبُ ما يُدهِشنا من مجموع صفاته ﷺ أن فيها دليلاً بيِّنًا على أنه مخلوقٌ خلقةً متميزةً بنفسها، كخلقة القلب الإنسانى: نظامُه حياتُه وحياتُه نظامُه، وكأنما اعترَتْه حالةٌ نفسيةٌ كالتى تعترى القلبَ فى استشعار الخطَر فتُخرجُه من طبيعته إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاء الجسم بمَدَدٍ لا ينفذُ من القوة والصبر، يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءةً وظهرت بغتة؛ وفى هذه الحالة تتجه غرائزُ النفس كلُّها إلى جهة واحدة كأنها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛ فتَرجعُ على تناقُضِها واختلافِها مُتَعاونة يُؤَازرُ بعضُها بعضًا، وكان قانونُها الطبيعيُّ أن تَتَجاذَب وتتساقطَ وتفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى، فيجىء بها الشىء وضدُّه معًا: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة، والشهوات الثائرة والخمودِ الساكن، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز؛ ولكنها فى استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد، فيشدّ بعضُها بعضًا، ويتمم النَّقيضُ منها نقيضَه، وتَجرى كلها فى قانون واحد: هو الدفاعُ بأجزائها عن مجموعها؛ فترى النازعَ منها وإنه لمستقرٌّ فى أشدَّ من القيد، وكأن فيه غيرَ طبيعته.

وهل يُنْبئك مجموعُ صفاتِه ﷺ إلا أنه يعيشُ معيشةَ القلب إذا اختلف ما حوله وفجأتْه بغَتَاتُ الوجود فَتَجَاوَزَ أن يكون منبعًا للحياة إلى أن يكونَ حافظًا للحياة فى منبعها؟

وتلك الحالةُ - كما مرَّ بك - تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله، لا وجودَ شهواته وغرائزه؛ وكذلك عاش نبيُّنا ﷺ؛ فهو مدةَ حياته فى وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيلٌ لغَميزة أو لائمة، كأنه خُلُقٌ تَشُدُّه نيَّةٌ مستيقظة قد نبَّهها ما ينبِّه النفسَ من الغرَرَ والخطَر. ولعلَّ هذا الشعور فى نفسه ﷺ هو التفسيرُ لقوله: «نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله». إلى أحاديثَ كثيرة مما يجرى فى معنى هذه الكلمة الجامعة، يريد بها: أن نيةَ المؤمن لا تنطوى إلا على الخير الكامل، فهو

- ما دامت نيتُه على صَلاحِها وسِرُّه على إخلاصه - لا يَعُدُّ اليسيرَ من الشر يسيرًا، ولا يرى الكثير من الخَير كثيرًا؛ فالأصلُ القائمُ فى تلك النية المؤمِنة ألا يبدأ الشــرُّ كــى لا يوجَد، وألّا ينتهــىَ الخيرُ كى لا يفْنَى؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخير والكمال أبدًا، فى حين أن عملَه بطبيعتِه الإنســانية يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعًا، ثم لا يكونُ إلا عملاً إنسانيًا على نقصٍ واضطراب والتواء.

وقد لا يســتطيع المؤمنُ أن يأتىَ الخيرَ فى بعض أحواله، ولكنه يســتطيع دائمًا أن يَنْويَه ويرغَبَ فيه ويَعْزِمَ عليه، ليحقِّقَ ضميرَه فى كل ما يَهُمُّ به؛ ويَحصرَ أفكارَه فى قانون نيته المؤمنة. وهذا هو الأساسُ فى علم الأخلاق، لا أساسَ من دونه.

والنيةُ من بعدُ هى حارسُ العمل؛ فكلُّ إنسان يستطيع أن يذْعنَ وأن يأبَى، ومن ثَم تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافعَةً من ناحية، واســتجابةً ومُطاوَعة من الناحية الأخرى؛ فهى على الحقيقة متى صلُحَتْ كانتَ اســتقلالاً تامًّــا للإرادة، وكانت مع ذلك ضبطًا لهذه الإرادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانونُ المبدأ السامى.

ثم إنه لا ضابطَ لصحة العمل واستقامتهِ إلا النيةُ الصحيحةُ المستقيمة؛ فالتزويرُ والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ فى الأعمال، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خَلُصَتْ.

وهى كذلــك ضابطٌ للفضائل تُوجّه القلوبَ على اختلافهــا وتفَاوُتِها اتجاهًا واحدًا لا يختلف؛ فيكونُ طريقُ ما بين الإنســان والإنسان من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله.

وأشواقُ الروح بطبيعتها لا تنتهى، فيعارِضُها الجسمُ بجعل حاجاتِه غيرَ منتهية؛ يحــاول أن يَطْمِسَ بهذه على تلك، وأن يغلِّبَ الحيوانية على الروحانية، فإذا كانت النيةُ مستيقظةً كفَّتْه وأماتت أكثر نزَعاته، ووضعتْ لكل حاجة حدًّا ونهاية؛ وبذلك ترجــع النيةُ إلى أن تكونَ قوةً فى النفس يخرجُ بها الإنســانُ عن كثيرٍ مما يَحُدُّه من معانى الأرض...

وهى بعدَ هذا كلِّه تحملُ الإنســانَ أن ينظرَ إلى واجبه كأنه رقيبٌ حىّ فى قلبه، لا يُرائيه ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَع من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيين، ولا يُسكِتُه ما

تُسَــوِّل النفس، ولا يزالُ دائمًا يقول للإنسان فى قلبه: إن الخطأ أكبرَ الخطأ أن تنظِّمَ الحياةَ من حولك وتترك الفَوْضَى فى قلبك.

وجملةُ القول فى معانى النِّية أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسـم متُسَـاوقًا مع ظاهره، فتتعاونُ الغرائز المختلفةُ فى النفس تعاونًا سهلاً طبيعيًا مطَّردًا، كما تتعاونُ أعضاء الجسم على اختلافها فى اطِّرادٍ وسهولة وطبيعة.

***

وكلُّ صفــات النبــى ﷺ – مما ذكرناه وما لم نذكره – متــى اعتُبِرتْ بذلك الأصل الذى بينَّاه انتظمها جميعًا، فجاء بعضُها تمامًا على بعض فى نَسَــق رياضىّ عجيب، وظهــرت حكمةُ كل منها واضحةً مكشــوفة، ورأيتها فــى مجموعها تَصِفُ لك عُمرًا هندســيًا دقيقًا قد بلغ الغايةَ من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزء منه جزءًا، بل كلُّه أجزاؤه، وأجزاؤه كلُّه؛ كالوضع الهندسىّ: إما أن يكونَ بِكُلِّه، وإما ألا تكونَ فيه الهندسةُ كلُّها.

وليس مجموعُ تلك الصفات فى معناه إلا صنْعَةَ الإنسان صنعةً جديدة تُخرجُه موجودًا من ذات نفســه، وتكْسِــر القالَبَ الأرضىَّ الذى صُبَّ فيه وتُفْرِغُه فى مثل قالَب الكَوْن، فإذا هو غيرُ هذا الإنســان الضيّق المنحصر فى جســمه ودَواعى جســمه، فلا تُخضعُه المادة، ولا يُؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تَغرُّه الدنيا، ولا يُمسِكه الزمان؛ إذ كانت هذه هى صفات المســتعبَد بأهوائه لا الحُرِّ فيها، والخاضع بنفســه لا المســتقلّ بها، والمقبور فى إنسانيته لا الحىّ فوقَ إنسانيته؛ ومثلُ هذا المستعبَد الخاضع المقبور لا وجودَ له إلا فى حكْم حواسِّــه، فعملُه ما يعيش به لا ما يعيشُ من أجله؛ ويتصل بكل شىء اتصالاً مبتورًا ينتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكونَ فى الإنســان الاجتماعــىّ حيوانٌ، تقابلُه الحكمةُ فى الحيوان الأليف بإنســان، وحكمهما واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف. فلو أنك ســألتَ حيوانَ الأعصاب على صاحبِه الإنســان لقال لك: هو غَلَّتى ومَزْرعتى ولو ســألتَ كلبًا

عــن حبّه صاحبَه ومبلغ هذا الحب فى نفســه لما زاد فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظْمة...

ومتى كان الإنسانُ فى حكم حواسّه لم تعُد الأشياء عنده كما هى فى نفسها بمعانيها الطبيعيــة المحدودة، وانقلبتْ كما هى فى وهْمِه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشــعرُ المرء بائتلاف الوجود وتعَاونه، ولكن باختلافه وتناقُضه، فمن ثَم لا تكونُ أسبابُ اللذَّة إلا من أسباب الألم، ويدخلُ فى كل حب بغضٌ، وفى كلِ رغبةٍ طمعٌ، وفى كل خير شرٌّ، وفــى كل صريح خبىء، وهلمَّ جرًّا؛ إذ لابد مــن هذا كلّه متى غَلبَ الفانى على الباقى، ولابد من كل هذا فى تمثيل رواية الحواسِّ الخادعةِ التى أساسُها التغيّر والتقّلب، حتى لكأن النفسَ إنما تعيشُ بها فى ظاهرِ من الحياة لا فى الحياةِ نفسها.

وهذا الخِداعُ جاعلٌ كلَّ شــىءٍ منَ أشــياء النفس لا يبدأ إلا لينتهى، ثُمَّ لا ينتهى إلا ليبدأ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تناله، ولا يزال من ذلك مصدَرٌ لآلامها الحسـيَّة؛ ثــم إذا هى نالت منَالتَها سَـئِمت، فلا يزال من ذلــك مصدرٌ آخرُ لآلامها المعنوية. ولن يجىء الصحيحُ من غير الصحيح؛ فالكون كلُّه ليس إلا كَذِبًا فى النفس الكاذبةِ بحواسِّها.

ولذا كان أخصُّ أوصافه ﷺ راجعًا إلى خروجه من ســلطان نفسه، فلا يغضبُ لها، ولا يُطْلقهــا مــن الدنيا فيما تذمُّه أو تمدحُه، ولا يحبُّ فيهــا، ولا يبُغِضُ من أجلها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَســتلينُ لها فى مــأكلٍ ولا ملبس، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنســانية؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشــواقُها، وأملاكُها أعمالُها، وحسابُها فى طبيعتها، وحوادثُها من العقل لا من الحواس، وعظَمتُها إثباتُ ذاتِها فى غيرها، لا إثباتُ غيرها فى ذاتها؛ وغايتُها فى الباقى لا الزائل، وفى الخالد لا الفانى. ومــا دام الحاضرُ متحركًا فهو طارئٌ عابر أوْشَــكُ أمورِ الدنيــا زوالاً، والعملُ له على مقداره فى قلَّةِ لُبْثِه وهَوانِ أمره، والاهتمامُ أبدًا بما وراءه لا به.

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لآخرتها، وآخرُ النفس ما تؤدّى إليه أعمالُ هذه النَّية؛ فليس فى إنســان الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر؛ وبهذا يُقدَّر صمتُه وكلامُه، وحركتُه

وسكونُه، وما يأتى وما يَدَع، وما يُحب وما يكره، إذ كلُّ شىء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه.

وجماعُ الأمر ألاَّ يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةَ استهزاء بجانب ماضيه، ولا علامةَ استفهام، ولا علامةَ إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبى ﷺ باجتماعها وتسَاوُقها على حقيقة عظمى لم يتنبَّه إليها أحدٌ؛ وهى أن جميعَ خصائصه النفسية مُرْهَفَةٌ متيقظة، وهذا مما يَنْدُر وقوعُه وإمكانه؛ فإن الرجلَ من الناس ليَكونُ حيًّا بالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسه قد طاحَ بها الموت، أو هى مريضةٌ وذلك أولُ الموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبْه الموت؛ أما الحى العظيمُ فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه، وأما الحيُّ الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها، تملؤه الحياةُ فيملأ الحياة، ويتمدّد السرُّ فيه ليريه حقائقَ الأشياء ويَهْدِيَه ويدلَّه، فيكون بنفسه رؤيةً للناس وهدايةً ودلالة؛ ومثلُ هذا يعظم ثم يعظم حتى ليُرَى الفرقُ بينه وبين غيره كالفرق بين نورٍ لَبِس اللحم والدم، وبين تراب لَبِس الدمَ واللحم.

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتبَ أعلاها الامتيازُ فى النبوة، ثم تدنو إلى النبوة؛ ثم تنزلُ إلى الامتياز فى الحكمة؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشعر. فأكبرُ الشعراء قاطبةً كالنبىّ فى معناه إلا أنه نبىٌّ صغير، وإلا أنه فى حُدود قلبه.

وهذه القوى الثلاثُ هى التى أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسموِّ بها؛ فالشاعِرُ يستوحى الجمالَ إذا تألّه الجمالُ فى قلبه، والحكيمُ يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسِه، والنبىُّ يستوحى الألوهيةَ نفسَها.

* * *

«كان ﷺ متواصلَ الأحزان» ولكنها أحزانُ النبوّة تكسو الحياةَ فرحِ النفس الكبيرة؛ وهو فرحٌ كلّه حزن وتأمل، وفكرةٌ وخشوع، وطهْرٌ وفضيلة؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراء بطَرب الوجود وجمال الموجودات إلاّ شىء قليلٌ من حزن النبى.

«وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة» إذ هو مكلَّفٌ أن يصنعَ الإنسانَ الجديدَ ويُنقِّحَ الآدميةَ فيه. وفكرةُ النبى هى معيشتُه بنفسه مع الحقائق العليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ فى الناس، وهى الفرديةُ واستقلالُها وسموُّها؛ لأنها إطاقةُ النفس الكبيرة لوحدتها، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تُطيقها، فدأبُها ابدًا أن تبحثَ عما تُستَعْبَدُ له، أو تنسىَ ذاتها فيه، أو تستريحُ إليه من ذاتها. ومتى كانت النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها، فهى تفرُّ منه إلى ما يُلهيها عنه؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ فى امتلاء نفسِه؛ وعالَمُهُ الداخليُّ تسميِّه اللغة أحيانًا: الفكرة؛ وتسميه أحيانًا: الصمت.

«وكان ﷺ طويل السَّكْت لا يتكلم فى غير حاجة»، ومن الصمت أنواع: فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يُحيط به، ونوعٌ يغشى الإنسانَ العظيم ليكونَ علامةً على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ فى صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صَمْت الناس وكلامهم؛ ونوع رابعٌ هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح فى ساعة أعمالها؛ ونوع خامسٌ يكون صمتًا على دوِيٍّ تحته يشبه نومًا ساكنًا على أحلام جميلة تتحرك.

* * *

على هذا النَمَط يجب أن تفسَّر كلُّ أوصافه ﷺ؛ فهى بمجموعها طابَعٌ إلهىٌّ على حياته الشريفة، يُثْبِتُ للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسانُ الأفضل، وأنه الأقدر، وأنه الأقوى.

■■■

سمُوُّ الفقر* فى المُصْلِح الاجتماعى الأعظم

(١)

كان النبــيُّ ﷺ على ما يصفُ التاريخُ من الفقــر والقِلَّة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يتصفَ بالفقر، ولا تناله المعانى النفسيةُ التى تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بعَرض، فما كانت به خَلَّةٌ تحدث هدما فى الحياة فيْرَمِّمها المــال، ولا كان يتحركُ فى سَــعْيٍ يُنْفِق فيه من نفســه الكبيرةِ ليجمــعَ من الدنيا، ولا كان يتقلَّب بين البعيد والقريبِ من طمَعٍ أدرك أوّ طمعٍ أخفق، ولا نظر لنفســه فى الحِسْــبَة والتدبير لِتَدِرَّ معيشــتُه فيَحْتلِبَها ذهبًا أو فضةً، ولا استقرَّ فى قلبه العظيم مــا يجعلُ للدينــار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم؛ فــإن المعنى الحيَّ لهذا المال هو إظهارُ النفس رابيةً متجسِّــمةً فى صورة تكْبَر على قدر من السَّعَةِ والغنى؛ والمعنــى الحيُّ للفقر مــن المال هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً مُنْزَوية فى صورة تصغُرُ على قدرٍ من الضيِّق والعُسْرة.

إن فقرَهُ ﷺ كان من أنه يتَّســعُ فى الكونِ لا فى المال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبــرى التى لم يتنبَّه إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ به ومن أين تدبَّرته رأيتَه فى حقيقته معجزةً تواضعت وغيَّرت اسمَها؛ معجزة فيها الحقائقُ النفسيَّةُ والاجتماعيةُ الكبرى، وقد ســبقتْ زمنَها بأربعةَ عَشــرَ قرنًا، وهى اليــوم تُثبت بالبرهان معنىَ قوله ﷺ فى صفةِ نفسه: «إنما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة».

نحن فى عصر تكاد الفضيلةُ الإنســانية فيه تَلْحَقُ بالألفــاظ التاريخية التى تدل على ما كان قديمًا ... بل عادت كلمةً من كلمات الشــعر ترادُ لتحريك النَّسيم اللّغوىّ الراكد فى الخيال، كما تقول: الســحابُ الأزرق، والفجرُ الأبيض، والشفَقُ الأحمر،

* انظر صفحتى ٢٣٥، ٢٤١ من حياة الرافعى.

والتَّطَاريفُ الورديةُ على ذَيْلِ الشمس. وأصبح الناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهم بأعين فيها معنىً وحشيٌّ لو لمَسَ لضَرَب أو طَعَنَ أو ذَبَح.

وعَمِلتْ المدنية أعمالَهَا فلم تزد على أن أخرجت الشكلَ الشعرىَّ لإنسانها الفَنِّىّ مُتهَافِتًا ترفًا، ونعمةً، وافتنانًا بين ذلك من أيسر الحلال إلى الفظيع المُتَفَاحِش فى الإباحة؛ فكأنما وضعت المدنية عقلاً فى وحْش، فجاء وقد زاغتْ فيه الطبيعة من ناحيتين؛ ثم قابلتْه بالشكل الوحشىّ لإنسانها الفقير، فكأنما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان، فجاء وقد ضَلَّتْ فيه الطبيعةُ من ناحيتين؛ وكان مع الأول سَرَفُ الهوى بالطبيعة، وكان مع الثانى بالطبيعة سَرَفُ الحماقة.

وقد أصبح من تهكُّم الحياةِ بأهلِها أن يكونَ الفقيرُ فقيرًا وهو يعلم أن صناعتَه فى المدنيّة عَمَلُ الغِنىَ للأغنياء ... وأن يكون الغنىُّ غنيًّا وهو يعلم أن عملَه فى المدنية هو صنعةُ الفقرِ لضميره!

وخرجتْ من هذا وذاك مسائل جديدةٌ فى فلسفة المُعَايَشَةِ الإنسانية التى يسمونها «الاجتماع»؛ إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدُّها ونصِفُها لطَال بنا القول، وكلّها عاملةٌ على نزع الشعور العقلىّ من الحياة لتظهرَ أسخفَ مما هى، وأقبحَ مما كانت؛ حتى أصبحت الشمسُ تطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادة وتُلقِى ليلاً على النفس، فى حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غيرَ بثّ هذا النور العقلى فى الأشياء والمعانى لتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً، فتصبحُ أوضحَ مما هى فى نفسها، وأجملَ مما هى فى الطبيعة.

فى مثل هذه النَزعَات المتقاتِلَة التى صَعِدَتْ بالفلسفة ونزلَتْ، وجعلتْ من العلم فى صدر الإنسانية ملء سماءٍ من الغُيوم بسوادها ورعْدها وصواعقِها، وتركت العالَم يضجُّ ضجيجَه المزعجَ فى قلب كلّ حىّ حتى لتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوب الناس إذاعة الأصواتِ إلى أسماعهم فى «الراديو» ... فى مثلِ هذا البلاء الماحقِ تتلفَّتُ الإنسانيةُ إلى التاريخ تسأله درسًا من الكمال الإنسانىّ القديم تَطِبُّ منه لهذهِ الحماقات الجديدة، ولو علمتْ

لعلمتْ أن درسَ هذا العصر فى علاج مشاكَلِه الإنسانيةِ هو «محمد» ﷺ، الذى لن يبلغَ أحدٌ فى وصفه الاجتماعىّ ما بلغ هو فى قوله: «إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

***

هذا المُصْلِحُ الاجتماعىُّ الأعظم يُلقِى فقرَهُ اليْومَ درسًا على الدنيا العلميةِ الفلسفية، لا من كتابٍ ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلحُ من فكَّر وكتب، ووعظ وخطَب، ولكنهُ الحىُّ العظيمُ الذى تلتمسهُ الفكرة الْعظيمةُ لتحيا فيهِ، وتجعلَ له عُمـرًا ذهْنِيًا يكونُ مصرَّفـا على حكمها، فيكونُ تاريخـه ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرة وتاريخهَا.

وما كان محمدٌ ﷺ إلا عمرًا ذهْنِيًّا مَحْضًا، تمرُّ فيه المعانى الإلهية لتظهرَ للناس إلهيَّةً مفسَّـرة، وكلُّ حياتــه ﷺ دروسٌ مفنَّنةٌ مختلفةُ المعانى، ولكنها فى جملتها تخاطب الإنسانَ على الدهر بهذه الجملة: أيها الحىّ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنــت هنــاك؛ أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنـت فى الكذب، وإذا كانت الحيــاة فى الرجولة البصيــرةِ فلا تكن أنت فى الطفولة النَّزِقــة، فإن الرجلَ يَعرفُ ويُدْرك، فهو بذلك وراء الحقيقىّ؛ ولكنَّ الطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ الدنيا إلا بعينيه، فهو وراء الوهم، ومن ثم طيشُــه ونَزقُه، وإيثارُه كلَّ عاجل وإن قلّ، وعملُه أن تكونَ حياتهُ النفسـيةُ الضئيلةُ فى مثل توثُّبِ أعضاء جسمه، حتى كأنه أبدًا يلعبُ بظاهره وباطنِه معًا..

أيهــا الحــى، إذا كانت الحيــاةُ هنا فلا تكن أنــت هناك؛ أى الحيــاةُ فى ذاتِك الداخليةِ وقانونِ كمالها، فإذا استطعتَ أن تُخْرجَ للأرض معنىً سماويًا من ذاتك فهذا هو الجديدُ دائمًا فى الإنسـانية، وأنت بذلك عائش فــى القريبِ القريبِ من الروح، وأنت به شىء إلهى؛ وإذا لم تستطع وعشتَ فى دَمِك وأعصابك فهذا هو القديم دائمًا فى الحيوانية، وأنت بذلك عائشٌ فى البعيدِ البعيدِ من النفس، وأنت به شىء أرضىّ كالحجَرِ والتراب.

هنــا: أى فى الإرادة التــى فيك وحدك. ولا هناك: أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء. وهنا، فى أخلاقك وفضائِلك التى لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقًا من طرق الهِداية والحكمة؛ وليس هناك، فى أموالك ومَعايشِـك التى تجعلـك كاللــص مندفِعًا إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقًا إلى نَهْبَةٍ أو ســرقة. هنا، فى الروح، إذ تشعر الروحُ أنها موجودةٌ، ثم تعملُ لتثبتَ أنها شاعرةٌ بوجودها، ماضيةٌ إلى مصيرها، منتهيةٌ بجسدها إلى الموت الإنسانى على سنَّة النفس الخالدة؛ وليس هناك فى الحِسِّ، إذ يتعلق الحسُّ بما يتقلَّب على الجسم، فهو مهتاجٌ لشعوره بوَشـكِ فنَائــه فلا يحْدِثُ إلا الألم إن نــال أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجســمه إلى الموتِ الحيوانىّ بين آكل ومأكَول على سنَة الطبيعة الفانية.

أيها الحى، إذا كانت الحياةُ هنا فلا تكن أنت هناك.

***

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشـياء فيتعرَّفُ أسـرارَها، لا تكونُ له حياةُ الــذى يتعلــقُ بظاهرها ولا أخلاقُه ولا نظرته؛ هذا الأخيرُ هو فى نفســه شــىء من الأشياء له مَظهرُ المادة وخِداعُها عن الحقيقة؛ وذلك الأولُ هو نفسهُ سرٌّ من الأسرار له رَوْعَةُ السِّر وكشفُه عن الحقيقة. ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء ما لا يُطيقه الناسُ ولا يَضبْطونه إذا تكلَّفوه، بل يَنْخَرِقُ عليهم فيكونُ من العجز الغَلَط، ويحدثُ من الغلط الزَّلَل.

ونظرةُ نبينا ﷺ إلى هذا الوجود نظرةٌ شـاملة مدركــةٌ لحقيقة اللانهاية، فيرى بِدايــةَ كل شــىء مادىٍّ هى نهايَته فى التوّ واللحظة، فــلا وجودَ له إلا عارضًا مارًّا، فهو فى اعتباره موجودٌ غيرُ موجود، مبتدئٌ منتهٍ معًا؛ وبذلكَ تَبطُلُ عنده الأشــياء الماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسهِ العاليةِ إلا من أضعف جهاتها، ويجدُ لها الناسُ فى حياتهم الشجرةَ والفرعَ والثمرة، وما لها عنده هو جِذْرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شىء ولم يتعلق به شىء.

وكانــت الدنيا تطولُ الناسَ وتتقاصرُ عنــه، وكانت منقطعةَ النَّماء وهو ذاهب فى نموِّه الروحى، وكأنما هو صورة أخرى من آدمَ (عليه الســلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحيــاةَ جديدةً خاليةً مما جمع فيها الزمنُ وأهله من طمع وشَــرَه، وجاء آدمُ ليُعطِىَ الأرضَ ناسَــها مــن صُلْبِه، وجاء محمــدٌ ليُعطِىَ الناسَ قوانينَهم مــن فضائله؛ فآدم بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتتسع، ومحمدٌ بشخصه هو دنيا بُعثتْ لتنتظم.

وماذا يُفهَم من الفلسفةِ الأخلاقيةِ النبويةِ العظيمة؟ يُفهم منها أن الشهواتِ خُلِقت مع الإنسان تتحكم فيه، لينقلبَ بها إنسانًا يتحكَّم فيها؛ وأن الإنسانَ الصحيحَ الذى لم تُزَوِّرْه الدنيا يجب أن يكونَ ذا روح يمتدُّ فَيفيضُ عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلــى حتى يُصبحَ فى حكم النور وانطلاقِه وحريته، ولا ينكمشُ فيحصره جسـمُه فى غاياته وضروراتِه فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ فى حكم التراب وأسرِه وعبوديته. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بســبيلٍ منه، والانصرافُ عن الشــهوات والرذائــل – كلُّ ذلك إن هو إلا تَراجُعُ النفــسِ العاليةِ إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئًا بعد شــىء، لتُضىء على المادة فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تقيمُ لها وزنًا. فبينما الناسُ يَروْن الأموالَ والشــهواتِ مادةَ حياة وعمل وشعور، تراهــا هى مادةَ بحثٍ ومعرفةٍ واعتبارٍ ليس غير؛ وبهــذا تكون النفسُ العظيمةُ فى الدنيا كأســتاذ المعمل، تدخلُ المادة إلى معمله وهى مادةٌ وفكرة، وتخرج منه وهى حقيقــةٌ ومعرفة، وعلى أىّ أحوالها فهى إنما تُحَــسُّ فى ذلك المعمل بأصابعَ علميةٍ دقيقــةٍ ليس فيها الجمع ولا الحرص، ولكنْ فيهــا الذهنُ والفكر؛ وليس لها طبيعةُ الرغبةِ والغفلة، ولكن طبيعةُ الانتباه والتحَرُّز، وليست فى أسْرِ المادة، ولكنْ المادةَ فى أسرها ما شاءت.

ولا يسمَّى فقره ﷺ زُهدًا كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصولَه النفســية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخَ النبوىَّ بأرواح مظلمةٍ تريهم ما تُرى العينُ إذا ما اختلط الظلامُ ولَبِسَ الأشَــياء فتراءت مُجْمَلَةً لا تفصيلَ لهــا، مُفْرَغةً لا تَبْيِينَ فيها؛ وما بها من ذلك شىء، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لا تَغْمُرها.

وهل الزهدُ إلا أن تطردَ الجسـمَ عنكَ وهو معـك، وتنصرفَ عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سـخريةٌ ومُثْلَة، وفى رأيى تشـويهٌ للجسـم بروحه، وقـد تنعكسُ فتكونُ من تشـويه الروح بجسـمها؛ فليس يعلم إلا اللهُ وحده: أذاك تفسـيرٌ لإنسـانية الزاهد بالنور، أم هو تفسيرٌ بالتراب...

ولقد كان ﷺ يملك المالَ ويَجدُه، وكان أجْودَ به من الريح المرسَلَة، ولكنه لا يدعُه يتناسلُ عنده، ولا يتركه يَنْبُتُ فى عمله، وإنما كان عملُه ترجمةً لإحساسه الروحى؛ فهو رسولٌ تعليميّ، قلبُه العظيمُ فى القوانين الكثيرةِ من واجباته، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسـانية، وأن هذا الإنسـانَ مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميِّزة، وأن الديـنَ قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شـىء على شيئيَّته، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء، والمادةُ فناء وتحوُّل، ومن ثم تخضع الحوادثُ للروح المؤمنة وتتغير معها، فإن لم تخضَع لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغير الروحُ بها؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهى لا ينبغى أن يتصرَّفَ بما لا ينتهى.

مـا قيمـةُ العقيدةِ إلا بصدقها فى الحياة، وأكثرُ ما يَصنـع هذا المالُ: إما الكذبَ الصُّراحَ فى الحياة، وإما شُـبهةَ الكذب؛ ولهذا تنزّه النبىُّ ﷺ عن التعلق به، وزاده بعدًا منه أنه نبىُّ الإنسـانية ومثَلُها الأعلى، فحياته الشـريفةُ ليسـت كما نَرى فى النـاس: إيجادًا لحلّ مسـائل الفرد وتعقيدًا لمسـائل غيره، ولا توسُّـعًا من ناحية وتضييقًـا من الناحية الأخرى، ولا جمعًا مـن هنا ومنعًا من هناك؛ بل كانت حياته بعد الرسـالة منصرفةً إلى إقرار التوازنِ فى الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلافِ مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون؛ وبهذا العقل الكونىّ السليم تـرى المؤمنَ إذا عَرَضَ له الشـىء مـن الدنيا يفْتِنُه أو يَصْرفه عن واجبه الإنسـانى - أبتْ نفسُه العظيمةُ إلا أن ترتفعَ بطبيعتها، فإذا هو فى قانون السموّ، وإذا المادةُ فـى قانون الثقل؛ فيرتفعُ وتَتَهَـاوَى، ويصبح الذهبُ - وإنه ذهبٌ - وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب.

■■■

سمو الفقر فى المصْلِح الاجتماعى الأعظم

(٢)

قالت عائشةُ رضي الله عنها: لم يمتلئ جوفُ النبى ﷺ شِبَعًا قطّ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهَّاه؛ إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْه شَرِب.

وقالت: ما شَبع آلُ محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسولُ الله ﷺ.

وعنها: كنا آلَ محمد نمكثُ شهرًا ما نَسْتَوْقِدُ بنار، إنْ هو إلا التمرُ والماء.

وقالت: ما رَفع رسول الله ﷺ قَط غداء لعَشاء، ولا عَشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زَوجين؛ لا قميصين، ولا ردائين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال.

ويروى عنها، قالت: تُوفى رسولُ الله ﷺ وليس عندى شيءٌ يأكله ذو كَبِد، إلا شطرُ شعير فى رَفٍّ لى.

وقالت: توفى رسول الله ﷺ ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير.

وعن ابن عباس: كان رسولُ الله ﷺ يَبيتُ الليالىَ المتتابعةَ طاويًا، وأهْلُهُ لا يجدون عَشاءً، وإنما كان خبزهم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسَى فى آل محمد صاعٌ من طعام، وإنها لتسعةُ أبيات!» والله ما قالها استقلالاً، ولكن أراد أنَ تتأسَّى به أمتُه.

وعن ابن مجير قال: أصاب النبىَّ ﷺ جُوعٌ يومًا، فعمَدَ إلى حجر فوضَعه على بطنه، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ فى الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَه وهو مُهينٌ لها؛ ألا رب مُهينٍ نفسَه، وهو مكْرِمٌ لها».

وخُيِّـرَ ﷺ أن يكونَ له مثلُ «أُحُدٍ» ذهبًا فقــال: «لا يا رب؛ أجوعُ يومًا فأدعوك، وأشبعُ يوما فأحمدك!».

وكان يقــول فى دعائــه ويُكْثِر منه: «اللهم أحْيِنى مِســكينًا، وأمتْنى مســكينًا، واحشُرْنى فى زُمرة المساكين».

* * *

هذا هو ســيدُ الأمة، يُمسِــكهُ فى الحيــاة نبيًّا عظيمًا ما يُخْــرجُ غيرَه منها ذليلا محتقرًا، وكأنما أشرق صفاءُ نفسه على تراب الأرض فردّه أشعةَ نور، على حين يُلقِي النــاسُ على هذا التراب من ظلام أنفســهم فلا يَبْقى ترابًا بــل يرجعُ ظلامًا، فكأنهم إذْ يمشون عليه يَطَئون المجهولَ بخَوْفه ورَوْعتِه؛ ثم لا يستقر ظلامًا بل يرجعُ آلامًا، فكأنهم يَنْبُتون على المرض لا على الحياة؛ ثم لا يثبتُ آلامًا بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّبًا تكونُ منه نَزَوَاتُ الحمقِ والجنونِ فى النفس.

هؤلاء الذين تعيش أنفسُــهم فى التراب، ويتمرغــون بأخلاقهم فيه، ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناسًــا دُودًا كطبع الدُّودِ لا يقعُ فى شــىء إلا أفســده أو قذّره؛ أو قومًا سُوسًــا كطبع السُّــوسِ لا ينالُ شيئًا إلا نَخَره أو عابه، فهم يوقعُون الخللَ فى نظام أنفسهم، فإذا هى طائشةٌ تُخيِّل لهم كأنما اختلَّت نواميسُ الدنيا، وكأن الله قَبضَهم وبسط غيرَهم، وشَــغَلَهم وفرَّغَ مَن عداهم، وابتلاهم على مُسْــكةِ الرزق[1] بالشهوة المسعورةِ التى لا تتحققُ، فضرَبَهم بالمجاهَدة التى لا تنقطع؛ وأنعم على غيرهم فى بَسْطَةِ الرزق بالشجرةِ المسحورةِ التى لا تُقطَعُ منها ثمرة إلا نبت غيرُها فى مكانها.

إن ما وصفناه من فقر النبى ﷺ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضِرٌ، وأنه لم يجعلْ نفسَه فــى همّ المال، ولا جعلته نفسُــه فى هم الفقر، وأنه لقــى الحياةَ حاملاً لا محمولًا، واســتقرّ فيهــا هادئًا لا مضطربا - كل ذلك إنما يثبتُ للدنيــا أنه خُلقَ وبُعثَ وعاش

(١) مسكة الرزق: ضد بسطة الرزق، أى الضيق والسعة.

ليكـونَ درسًـا عمليًّا فى حل المشـكلات الاجتماعيـة، يعلم الناسَ أنهـا لا تتعقَّد بطبيعتهـا، ولكـن بطبائعهم فيها، ولا تسـتمرُّ بقوتها، ولكن بإمـدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتها، ولكن بجزعهم منها؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسها، ولكن من سوء أثرِهم عليها وسوء نظرهم لأنفسِهم ولها.

فـإذا قرأتَ الأحاديثَ التى أسـلفناها فلا تقرأها زهدًا وتَقلّـلاً، ولا فقرًا وجُوعا، ولا اختـلالاً وحاجـة، كما تُترجمها نفسُـك أو تُحِسُّـها ضرُورتُك؛ بـل انظر فيها واعَتبرْها بنفســه هو ﷺ، ثم اقرأها شـريعةً اجتماعيةً مُفصَّلة على طبيعة النفس، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسـان من قُوَى الدنيا عناصَرها الحيوية، لتُعطِىَ الحياةَ من ذلك قوةَ عناصرها.

والحيـاةُ العاملةُ غيرُ الحياة الوادعة، هما ذكرُ وأنثى؛ فأما الأولى فهى ما وصفنا وحكَينـا، وأمـا الثانيةُ فهى تَغَلّـلُ النعمة، وإطلاقُ قانونِ التناسـلِ فى المال ينمى بعضُـه بعضا، ويَنْبُتُ بعضُـه على بعض، ثم إقامةُ الحياة علـى الزينة ومُقوِّماتِها، وقيامُ الزينة على الخداع وطبائعِه، فيُقْبِلُ المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفَهُ عنهـا، ويحبُّ منها ما كان ينبغـى أن يباغِضَه فيها. وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ فى رجل قُوَّتُه القوةُ فهو هناك؛ وكل ما علمتَ ورأيتَ فى أنثى قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذى تراه فى فقره ﷺ هو السوادُ الحىّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروح النَّجْميّة السـاطعة؛ وذلك الترابُ هـو الترابُ الحىّ؛ ترابُ الزرع تحـت النّضرَة والخُضرَة؛ وتلك الحاجةُ الجسـمية هى الحاجةُ الحية الدافعة إلى حرية النفس؛ وذلك الإقلالُ مـن فهم اللذة هو الإقلالُ الحىُّ الذى يزيد قوةَ فهم الجمالِ فى السـماء والأرض وما بينهما؛ وذلك الضيقُ فى حَيِّزِ المَتاع للحاسَّة هو الضيقُ الحىُّ الذى يُوَسِّعُ حَيِّزَ المتاع للـروح. وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة، وذلك الاحتقارُ للعَرَض الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الخالدِ الباقى.

فليـس هنـاك خُبزُ الشـعير، ولا الجوعُ، ولا رهـنُ الدرع عنـد اليهودى. كلا، كلا، بل هناك حقيقة نفسـية عقلية، ثابتة متَّزِنة، قائمة بعناصرها السـامية: من

اليقيـن والعقل والحكمة، إلى الرفـقِ والحلم والتواضع، تخبرُ هـذه الدنيا العلميةَ الفلسفيةَ المفكِّرةَ أن ذلك النبىّ العظيمَ هو الرجلُ الاجتماعىُّ التامُّ بأخلاقه وفضائله، وهو الذى بُعِثَ لتنقيح غريزة تنازُع البقاء وكَسْـرِ هـذه الحيوانية، وقَمْعِ نزَواتـها، وإماتةِ دَواعيها، والسـموِّ بخواطرها؛ فهو بنفسه صورةُ الكمال الذى بُعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكنُ لا الممتنع، والحقيقىُّ لا الخيالى.

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ فى ثلاثين صاعا، ولا الفقرُ، ولا خُبْزُ الشعير. كلا، كلا، بـل هناك تقريرُ أن النصرَ فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثَّراء والمتاع، ولكن من المعاناة والشـدةِ والصبر؛ وأن التقدمَ الإنسـانىَّ لا يباع بيعًـا، ولا يؤخَذُ هَوْنًا؛ بل هو انتزاعٌ من الحـوادث بالأخلاق التى تتغلَّب على الأزَمات ولا تتغلب الأزَمَاتُ عليهـا، وأن هذا المالَ وهذه الشـهوات – فـى حقائق الحيـاةِ ومَصَائرها – ككُنوزِ الأحـلام: لا تكونُ كنـوزًا إلا فى مواضعها مـن أرض الغَفْلَةِ والنـوم، فلا لذة منها إلا بمقـدار خفيف من هذه الغفلة. وليس إلا الأحمقُ أو المخذولُ أو الضائعُ هو الذى يقطع العمرَ نائمًا أبدًا ليظلَّ مالكًا أبدًا لهذه الكنوز ... وهو يعلم أنه لابد مسـتيقظ، وأنـه متى انتبه فـى آخرته لم يجد منها شـيئًا ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٣٩].

كلا، كلا، ليـس هناك فقـرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هنـاك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغى أن تجدَ نفسَـك، وموضعَ نفسِـك، وإيمانَ نفسِـك، وعزَّةَ نفسِـك. فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسَـك إلى موضعها الحق، وأقررتَها فيه، وحبسـتهَا عليه، وَحددتهَا بالإنسانية من ناحية وبالله من الناحية المقابلة – رأيتَ إذنْ أن قيمتك الصحيحةَ فى أن تكونَ وسيلةً تُعطِى وتعملُ لتُعطِى، لاغايةً تأخذُ وتعملُ لتأخذ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنما أنت كالشجرةِ الطيبة تأخذُ ترابًا وتصنعُ حَلاوة.

وما قطّ نبتتْ شجرةٌ فى مكانها لتأكلَ وتشربَ وتختَزِنَ السّمادَ والتراب وتحصِّنَهما

وتمنَعَهما عن غيرها، ولو قد فعلتْ ذلك شجرةٌ لكان هلاكُها فيما تفعل، إذ تحاولُ أن تضاعِفَ فائدتَها من قانون العالم، فيكونُ طمعُها سريعًا في إفساد الصلةِ بينهما، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه، ومن ثم لا تجدُ في القانون نظامَها فيُهلِكُها الذي كان يُحييها، وتستعبدُ لحظّ نفسها، فيُفْقِدُها ذلك حريةَ الحياة التى كانت لها فى نفسها.

***

يقول نبينا ﷺ: «إن المؤمنَ بكل خير على كل حال، إن نفسَه تُنْزَعُ من بين جنبيه وهو يَحمدُ الله عزَّ وجلَّ». فهذا هو أسمى قانون اجتماعيٍّ يمكن أن تظفَرَ به الإنسانيةُ، وما يأتى لها ذلك إلا إذا أصبحتْ تلك المعانى التى أومأنا إليها شعورًا اجتماعيًّا عامًّا مقرَّرًا فى النفس، قائمًا فيها على إيمان راسخ بأن الفردَ هو صورة المجتمع لا صورةُ نفسه وحدها، وأن الناسَ كحبِّ القمح فى السُّنبلة، ليس لجميعه إلا قانونٌ واحد، فموضعُ كل حبة من السنبلة هو ثروتُها، عَلَتْ أو سَفَلَتْ، وكَثُرَ ما تأخذُه أو قلَّ؛ وإذا كان أساسُ الحياة فى الحبة منها أن تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادة الأرض، فتمامُ الحياة فيها أن يَغْمُرَها النورُ مِن حولها، وأن يستمرَّ النورُ من حولها يغمرُها.

فالحبة من السُّنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتُنْزَعُ وما بها أنها نُزِعتْ، ولكنها أدَّت ما تؤدِّى، وانقطعتْ من قانون لتتصلَ بقانون غيره، وما اغتنَتْ ولا افتقرتْ، ولا أكثرتْ ولا أخَفَّتْ بل حقَّقت موضِعَها، فإنها ما نبتَتْ لتبقى، وما نمتْ إلا لينقطعَ نماؤُها. وكذلك المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ، الصادقُ النظرِ فى الحياة: هو أبدًا فى قانونِ آخرتِه، فهو أبدًا فى عملِ ضميره.

والناسُ فى هذه الحياة كحَشْدٍ عظيم يتدفق من مَضِيق بين جبلين ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعًا أنهم مُفْضُونَ إلى هذه النهاية مرُّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة، وفى صبرِهم الوقاية، وفى نظامِهم التوفيق، وفى تعاونهم الحياة؛ فهم

بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانونَ جميعهم؛ فأيُّما رجلٍ شَــذَّ منهم فاضطربَ فطــاشَ، هَلَكَ وأهلك مَن حولَه، ومن عكَسَ منهــم موضِعَه ونكَصَ على عَقِبيه، أهلك مَــن حولَه وهَلَكَ. والموتُ أشــقى الموتِ هنا فى هذا المضيــق بين الجبلين – اعتبارُ الحاضِرِ حاضرًا فقط، والضجرُ منه، وجعلُ كلِّ إنسان نفسَه غاية. والحياةُ أهنأُ الحياة – اعتبارُ الحاضر بما وراءه والصبرُ على شدته، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة.

* * *

فذلــك معنى خبز الشــعير، والقلَّــة والضيق، ورهنِ الدرع عند يهودى من ســيِّدِ الخَلْق وأكملهم، ومن لو شــاء لمشــى على أرض من الذهب. فهو ﷺ يعلِّم الإنسانية أن الرجلَ العظيمَ النفسِ لا يكون فى الحياة إلا ضيفًا نازلاً على نفسه.

ومن معانى ذلك الفقرِ العظيم أن خبز الشعير هو رَمزٌ من رموز الحياة على التحلّل من خُلُقِ الأثَــرةِ، والبراءةِ من هوى التَّرَف؛ ورهنُ الدرعِ رمزٌ آخرُ على التخلُّص من الكبرياء والطمع؛ والعُســرةُ رمز ثالثٌ على مجاهدة الملَل الحىّ الذى يُفْسِــد الحياةَ كما يُفسد بعضُ النباتِ النبات. ومجموعُ هذه الرموز رمزٌ بحاله على وجوب الإيقاظ النفسىّ للأمة العزيزة التى تقود أنفسَها بمقاساة الشدائد ومجاهدةِ الطباع،لتكونَ فى كل فرد مادةُ الجيش، وليصلُحَ هذا الجيشُ قائدًا للإنسانية.

على أنه ﷺ حثَّ على طلب اليَسَار، والتغلُّلِ من الأعمال الشريفة بالغَلَّة والمال، فقال: «إنــك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء، خيرٌ من أن تَدعَهم عَالَةً يتكَفَّفون الناس.» ورأى عابدًا قد انقطع للعبادة حتى أكلتْ نفسُــه جســمَه، ووصفوا له من زُهدِه وعبادتِه، فقــال ﷺ : «مَن يعولُه» قالوا: كلّنا نعوله. فقال: «كلّكم خير منه!...» إلى أحاديثَ كثيرة مرويَّة، هى تمام القانون الأدنى الاجتماعى فى الدنيا، تثبت أن الحى إنْ هو إلا عملُ الحىّ.

ولكن حين يكون ســيد الأمة وصاحبُ شــريعتها رجلاً فقيــرًا، عامِلاً مجاهدًا، يكْدَحُ لعيشِــهِ، ويجوعُ يومًا ويشــبعُ يومًا، فلم يقلِّبْ يدَه فــى تِلادٍ من المال يرثُه،

ولم يجمعْهما على طَريفٍ منه يُوَرِّثه – فذلك هو ما بيناه وشـرحناه، وذلك كالأمر نافـذًا لا رُخْصَةَ فيه، على ألاَّ يتخذَ الغنىُّ من الفقير عبدًا اجتماعيًّا لفقرِ هذا ولمال ذاك؛ بل هى المساواةُ النفسية لا غيرُها وإن اختلفت طبقاتُ الاجتماع، والأكرمُ هو الأتقى لله بمعنى التقوى، والأقومُ بالواجب على معنى الواجب، والأكفأ للإنسـانية فى معانى الإنسانية.

فقرُ ذلك السـيدِ الأعظـم ليس فقرًا، بل هو كما رأيت: ضبطُ السـلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التملك، لقيام التعاوُنِ الإنسـانىّ على أساسـهِ العملىّ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بين المصالح الاقتصادية الطاغية: يمنع أن تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتهَلِك بها، ويُوجِبُ أن تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لتحيَا بها.

والنبى الفقيرُ العظيمُ هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى، كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون. ﷺ.

■■■

درس من النبوة

قالــوا: إنه لمــا نَصر اللهُ (تعالى) رســولَه وردَّ عنه الأحزابَ وفتــح عليه قُرَيْظَة والنَّضِير[1]، ظن أزواجُه ﷺ أنه اختصَّ بنفائسِ اليهود وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشــة، وحَفْصة، وأم حبيبة، وسَــوْدة، وأم سَــلمَة، وصفية، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرِية؛ فقعدنَ حوله وقلن: يا رسولَ الله، بناتُ كِسرى وقَيْصرَ فى الْحَلى والحُلَلِ، والإماء والخَوَل، ونحن ما تراه من الفاقة والضيق... وآلمَنْ قَلبَه بمطالبتهن له بتَوْسِعَة الحال، وأن يعاملَهن بمِا تُعامِلُ به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلوَ عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه، وذلك قولهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا[2] ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [سورة الأحزاب: الآيتان ٢٨ – ٢٩].

قالــوا: وبدأ ﷺ بعائشــة – وهى أحبُّهــن إليه – فقال لها: «إنــى ذاكرٌ لك أمرًا ما أُحــب أن تعجَلى فيه حتى تَسْــتأمِرى أبوَيك». قالت: ما هــو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أستأمرُ أبوىَّ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسولَه.

ثــم تَتَابَعْنَ كلّهن على ذلك، فســمَّاهن الله «أمَّهات المؤمنيــن»، تعظيمًا لحقهن، وتأكيدًا لحرمتهن، وتفضيلاً لهن على سائر النساء.

* * *

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة.

(٢) السراح: الطلاق، ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة – وهو – يختلف حسب السعة والإقتار.

هــذه هى القصة كما تُقرأ فــى التاريخ وكما ظهرت فى الزمــان والمكان، فلنقرأْها نحن كما هى فى معانى الحكمة، وكما ظهرتْ فى الإنسانية العالية؛ فسنجدُ لها غَوْرًا بعيدًا، ونعرفُ فيها دلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقًا فلسفيًّا دقيقًا للأوهام والحقائق.

وهــى قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد، ومن أجلهــا ذُكِرتْ فى القرآن الكريــم، لتكون نصًّا تاريخيًّا قاطعًــا يُدَافعُ به التاريخُ عن هــذا النبــىّ العظيم فى أمرٍ من أمر العقل والغريزة، فإن جَهَلة المبشــرين فى زمننا هذا، وكثيرًا من أهل الزَّيغِ والإلحاد، وطائفةً من قصَار النظر فى التحقيق – يزعمون أن محمدًا ﷺ إنما اســتكثَر من النساء لأهواءٍ نفســية محضةٍ وشهواتٍ كالشهوات؛ ويَتَطرَّقون من هذا الزعم إلى الشــبهة، ومن الشــبهةِ إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلــى قبح الــرأى؛ وكلّهم غبىٌّ جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلــك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصةُ التى أساسُها نفىُ الزينة وتجريدُ نسائه جميعًا منهاٍ، وتصحيحُ النيَّة بينه وبينهن على حياة لاتحيا فيها معانى المرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبدًا جوَّ الزَّهر ... وأمرُه من قِبَل ربِّه أن يخيِّرهنَّ جميعًا بين سرَاحهِن فيكنَّ كالنســاء ويجدنَ ما شــئن من دنيا المرأة، وبين إمساكِهن فلا يكنَّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتُها.

فالقصة نفسُــها ردٌّ على زعم الشــهوات، إذ ليســت هذه لغةَ الشــهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أســلوب غضبها أو رضاها. وما ههنــا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حــرصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بلغة الحاســة؛ والقصةُ بعد مكشــوفةٌ صريحة ليس فيها معنى ولا شبهُ معنى من حرارة القلب، ولا أثرٌ ولا بقيةُ أثرٍ من ميل النفس، ولا حرفٌ أو صوتٌ حرف من لغة الدم. وهى على منطقٍ آخرَ غير المنطَق الذى تُستمالُ به المرأة، فلــم تقتصر على نفى الدنيا وزينة الدنيا عنهن، بــل نَفَت الأمَلَ فى ذلك أيضًا إلى آخر الدهر، وأماتت معناه فى نفوســهن، بقَصْر الإرادة منهن على هذه الثلاثة: اللهُ فى أمره ونهيه، والرســولُ فى شــدائده ومُكابَدَتِه والدارُ الآخرةُ فى تكاليفها ومَكَارهها. فليس هنــا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياســةٌ لطبيعة المــرأة، ولا اعتبارٌ لمزاجها،

ولا زُلْفَى لأنوثتها؛ ثم هو تخييرٌ صريحٌ بين ضدين لا تتلوَّنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معًا، ثم هو عامٌّ لجميع زوجاتِه لا يستثنى منهن واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشىء من هذا، بل يخاطبُ فى المرأة خيالَها أولَ ما يخاطب، ويُشبِعُه مبالغةً وتأكيدًا، ويُوسِعُه رَجاءً وأملًا، ويقرِّبُ له الزمنَ البعيدَ، حتى لو كان فى أول الليل وكان الخلافُ على الوقت، لحقَّق له أن الظهَر بعد ساعة...

***

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أن النبى ﷺ لم يتزوَّج نساءه لمتاع مما يمتِّع الخيالُ به، فلو كان وَضْعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفنّ الناعم فى الثوب والحِلْية والتشكُّل كما نرى فى الطبيعة الفنيَّة، فإن الممثلةَ لا تمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظِرِه وجَوِّه ... وقد كانت نساؤه ﷺ أعرفَ به؛ وها هو ذا ينفى الزينةَ عنهن ويخيرهن الطلاقَ إذا أصررن عليها. فهل ترى فى هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحض؟ وهل كانت متابعَةُ الزوجات التسع إلا تسعةَ برهانات على هذا الكمال؟

وكأن النبيَّ ﷺ يُلقى بهذه القصة درساً مستفيضًا فى فلسفة الخيال وسوء أثره، على المرأة فى أنوثتها، وعلى الرجل فى رجولته؛ وأن ذلك تعقيدٌ فى الشهوات يقابله تعقيدٌ فى الطبع، وكَذِبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ فى الخلُق، وأنه صَرْفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانىّ والطيش والبطَر والفراغ، وتعويدُها عادات تُفسِد عاطفتهَا، وتُضيف إليها التصنّعَ فُتضعفُ قوتَها النفسيةَ القائمةَ على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها.

وكل محاسن المرأة هى خيالُ متخيِّل ولا حقيقةَ لشىء منها فى الطبيعة، وإنما حقيقتُها فى العين الناظرة إليها فلا تكون امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتونِ بها ليس غير.

ولو ردت الطبيعةُ على من يُشَبِّبُ بامرأة جميلة فيقول لها: هذه محاسنُكِ وهذه فتنتُك وهذا سحرك وهذا وهذا؛ لقالت له الطبيعة: بل هذه كلُّهاَ شهواتُكَ أنت[1]...

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقد النظر؛ فلا يفتن الأعمى جمالُ الصورة ولا سحرُ الشكل ولا فَرَاهةُ المنظر، وإنما يفتنه صوتُ المرأة ومَجَسَّتُها ورائحتُها.

فلا حقيقةَ فى المرأة إلا المرأةُ نفسُها؛ ولو أخِذتْ كلُّ أنثى على حقيقتها هذه لما فسدَ رجلٌ ولا شقيت امرأة، ولا انتظمتَ حياةُ كلّ زوجين بأسبابها التى فيها. وذلك هو المثلُ المضروب فى القصة.

يريد النبى ﷺ ليعلِّم أمتَه أن حَيف الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل، وأنه متى أخِذت المرأة لحظ الغريزة واختيارِها، كانت حياتُها استجابةً لجنون الرجل، وملأتها معانى التزيُّد والتصنُّع؛ فيُوشِك أن ينقلَها هذا عن طبيعتها السامية التى أكثرها فى الحرمانِ والإيثار والصبرِ والاحتمال، ويردَّها إلى أضداد هذه الصفات، فيقومُ أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادى والضجَر والتبرُّم والإلحاح والإزعاج، ويضعفُ معنى السلْبِ الراسخ فى نفسها من أصل الفطرة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفى الحياء ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفى الإخلاص ردٌّ لها عن أشياء أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفى قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشر.

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرجل والمرأة المتصنِّعة؛ فإذا كثُر المتصنِّعات لا يكون من النساء مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلول المشاكلِ معهن مشاكلُ أخرى...

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبى ﷺ يجعلُ نفسَه فى الزواج المثَلَ الشَّعبىَّ الأكملَ كما هو دأبه فى كل صفاته الشريفة، فهو يريد أن تكونَ زوجاته جميعًا كنساء فقراء المسلمين، ليكونَ منهن المثَلُ الأعلى للمرأة المؤمنِة العاملةِ الشريفةِ التى تَبْرَعُ البراعةَ كلَّها فى الصبر والمجاهدةِ والإخلاص والعفةِ والصراحة والقناعة، فلا تكونُ

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه، وخاصة فى كتاب: (السحاب الأحمر).

المرأة زينةً تطْلُبُ زينةً لتتمَّ بها فى الخيال، ولكن إنسـانيةً تطلبُ كمالهَا الإنسانى لتتمّ به فى الواقع.

وهذه الزينـــةُ التى تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورةَ المكر والخداع، والتعقُّد، وكلما أســرفتْ فى هذه أســرفتْ فى تلك، بل الزينة لوجه المرأة وجسمِها سلاحٌ من أسلحة المعانى: كالأظافر والمخالب والأنياب، غير أن هذه لِوحْشيةِ الطبيعةِ الحيةِ المفترِســة، وتلك لوحشــية الغريزةِ الحيَّة التى تريد أن تفتــرس. ولا تنكَر المرأةُ نفسُها أن الزينةَ على جسمها ثرثرةٌ طويلة تقولُ وتقولُ وتقول..

* * *

وإنما يكونُ أساسُ الكمال الإنسانى، فى الإنسان العاملِ المجاهد: لا يحصُرُ نفسَه فى شــىء يســمَّى متاعًا أو زينة، ولا يقدّر نفسَه بما يجمع لها أو بما يجمعُ حولها، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشــهوات عن الشــهوات. ونبينًّا ﷺ هو الغايةُ فى هذا. دخل عليه مرة عمر بن الخطاب، فإذا هو على حَصير وعليه إزارُه وليس عليه غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّرفى جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعير نحو الصاع، وإذا إهابٌ معلّق[1]، فابتدَرَتْ عيناى، فقال: ما يُبكيكَ يا ابنَ الخطاب؟ قال: عمر: يانبىَّ الله، ومالى لا أبكى وهذا الحصيرُ قد أثر فى جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيهــا إلا ما أرى، وذاك كســرى وقيصــرُ فى الثمارِ والأنهــار وأنت نبىُّ الله وصفوته وهذه خزائنك[2]؟

وجاء مرة من سفَرٍ فدخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها فرأى على بابها سِتْرًا وفى يديها قُلبَيْــنِ مــن فضة[3]، فرجع؛ فدخل عليهــا أبو رافع وهى تبكــى، فأخبرتْه برجوع أبيها، فسأله فى ذلك فقال ﷺ: من أجل الستر والسِّوارين.

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه ﷺ، وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر).

(٣) القلب (بالضم): سوار من الفضة غير ملوى، هو الذى يقال له اليوم: (الغويشة) وهو خفيف.

فلما أخبرها ابو رافع هتكت الستر[١] ونزَعت السوارين فأرسلتْ بهما بِلالاً إلى النبى ﷺ وقالت: قد تصدقتُ به، فضعْه حيث تَرى فقال لبلال: اذهبْ فبِعْه وادفعْه إلى أهلِ الصُّفَّة[٢]. فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشرَ قرشًا) وتصدق به عليهم.

يا بنتَ النبى العظيم! وأنت أيضًا لا يرضَى لك أبوك حِليةً بدرهمين ونصف وإنَّ فى المسلمين فقراء لا يملكون مثلهَا.

أىُّ رجل شَعْبىٍّ على الأرض كمحمد ﷺ، فيه للأمة كلِّها غريزةُ الأب، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحوَّل، وفيه الطبيعةُ التامة التى يكونُ بها الحقيقىُّ هو الحقيقى.

يا بنتَ النبى العظيم! إن زينةً بدرهمين ونصف، لا تكون زينةً فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صَدَقةً بدرهمين ونصف؛ إن فيها حينئذ معنىً غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفس غالبًا على حق الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكمًا على الإيمان بالخير؛ وفيها ماليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى؛ وفيها خطأ من الكمال إن صحَّ فى حساب الحلال والحرام لم يصحَّ فى حساب الثواب والرحمة.

تعالَوا أيها الاشتراكيون فاعرِفوا نبيَّكم الأعظم؛ إن مذهبَكم ما لم تُحْيِه فضائلُ الإسلام وشرائعهُ - إن مذهبَكم لكالشجرة الذابة تعلِّقون عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيط ... كلَّ يوم تَحِلُّون، وكلّ يوم تَربُطون، ولا ثمرة فى الطبيعة.

ليست قصةُ التَّخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى والفقر فى معانى المادة، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص فى معانى الروح؛ فهى صريحةٌ فى أن النبى ﷺ أستاذُ الإنسانية كلِّها؛ واجبُه أن يكونَ فضيلةً حية فى كل حياة، وأن يكونَ عَزاءً

---

(١) أى مزقته؛ وكذلك رأى مرة سترًا على باب عائشة رضي الله عنها فهتكه وقال: كلما رأيته ذكرت الدنيا. أرسلى به إلى آل فلان.

(٢) الصفة: الغرفة، وأهل الصفة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه.

فى كل فقر، وأن يكونَ تهذيبًا فى كل غنى، ومن ثَم فهو فى شخصه وسيرته القانونُ الأدبى للجميع.

وكأنه ﷺ يُريد ليعلِّم الأمةَ بهذه القصة أن الجماعاتِ لا تَصلُحُ بالقوانين والشرائع والأمـر والنهــى، ولكن بعمل عظمائها فــى الأمر والنهــى؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفســه وطبيعته يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّط لا الخاضع، ليكون أولُ استقلاله استقلالَ داخِله.

فليس ذلك فقرًا ولا زهدًا كما ترى فى ظاهر القصة، ولكنها جُرأةُ النفسِ العُظمَى فى تقريرِ حقائقها العملية.

***

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسـمية زوجاتهِ ﷺ : «أمَّهاتِ المؤمنين» بعد أن اختَرْن اللهَ ورســولَه والدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسـير يقولون: إن الله (تعالى) كافأهــن بهذه التســمية؛ وليس ذلك بشــىء ولا فيه كبيرُ معنى، وإنما تُشْـعِرُ هذه التســميةُ بمعنى دقيــق هو آيةٌ من آيات الإعجاز؛ فإن الزوجــة الكاملةَ لا تكملُ فى الحيــاة ولا تكملُ الحياةُ بهـــا إلا إذا كان وصْفُها مع رجُلها كوصف الأم: ترى ابنَها بالقلــب ومعانيه، لا بالغريــزة وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذ ممكنِةُ الســعادة لهذه الزوجة، وكلُّ شــقاء محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جهاد فيــه لذتُه الطبيعية، إذ يقومُ البيتُ علــى الحب الذى هو الحــبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينــةُ الحياة وجودَ الحيِّ نفسِــه لا وجودَ المادة، وتُبْنــىَ النفسُ على الوفاء الطبيعىّ كوفــاء الأمّ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسرُ عليه فى سبيلَ حقيقته أن يتغلَّب على الدنيا وزينتِها.

وآخرُ ما نستخرجُ من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة:

بِحَسْــبِ المؤمن إذا دخَلَ دارَه أن يجدَ حقيقةَ نفسِــه الطيبة، وإن لم يجد حقيقةَ كِسْرَى ولا قَيصر.

■■■

شهرٌ للثورة ...* فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافيًا فى فلسفةِ الصوم وحكمتهِ؛ أما منفعتُه للجسم، وأنه نوعٌ من الطب له، وبابٌ من السَياسة فى تدبيره؛ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول فى ذلك؛ وكأن أيامَ هذا الشهر المبارك إن هى إلا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ فى كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطةِ أنسجة الجسم؛ ولكننا الآن لسنا بصَددَ من هذا، وإنما نستوحى تلك الحقيقةَ الإسلامية الكبرى التى شرَعت هذا الشرعَ لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانيةِ فيها، كى لا تتبدَّلَ النفسُ على تغيرِ الحوادث وتَبَدُّلِها، ولكيلا تجهل الدنيا معانىَ الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معانى التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخرُ فى الألفاظ المعروفِة فى كل زمنٍ حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمن، فيُجلِّيها لوقتها حين يَضِجُّ الزمانُ العلمىُّ فى مَتَاهَتِه وحَيْرتَه، فيَشْغَبُ على التاريخ وأهلِه مُسْتَخِفًّا بالأديان، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائق، ويستقْصِى فى فنون المعرفة، ليستخلصَ من بين كُفرٍ وإيمان دينًا طبيعيًا سائغًا، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضْبِطُها بأسرار العلم، ويوجِّهُهَا بالعلم إلى غايتها الصحيحة، ويضاعف قُواها بأساليبه الطبيعية، ليحقِّقَ فى إنسانيةِ العالَم هذه الشَّيْئيَّةَ المجهولةَ التى تتوهمُها المذاهبُ الاجتماعية ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ولا قاربَهَا؛ فما برحتْ سعادةُ الاجتماع كالتجربة العلمية بين يَدى علمائها: لم يحققوها ولم ييأسوا منها، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب الساعة فى دَوْرَتها: تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا إلى حيثُ تبدأ...

❊ ❊ ❊

* كتبها فى شهر رمضان سنة ١٣٥٣هـ، وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

يضطربُ الاشتراكيون فى أوربا وقد عجزوا عجزَ مَن يحاول تغيير الإنسانِ بزيادةٍ ونقصٍ فى أعصابه؛ ولا يزال مذهبهُم فى الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل؛ ولو أنهم تدَبَّروا حكمةَ الصوم فى الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظامًا عمليًا من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصومُ فَقْرٌ إجبارىّ تَفرضُه الشريعةُ على الناس فَرضًا ليتساوَى الجميعُ فى بواطِنهم، سواء منهم مَن مَلَك المليونَ من الدنانير، ومَن ملك القِرشَ الواحد، ومَن لم يملك شَيئًا؛ كما يتساوَى الناسُ جميعًا فى ذهاب كِبريائهم الإنسانية بالصلاة التى يفرضُها الإسلامُ على كل مسلم؛ وفى ذهاب تَفَاوُتِهم الاجتماعى بالحجّ الذى يفرضُه على من استطاع.

فقر إجبارىٌّ يراد به إشعار النفسِ الإنسانيةِ بطريقة عملية واضحة كلَّ الوضوح، أن الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياة لا فيها، وأنها إنما تكونُ على أتمها حين يتساوَى الناسُ فى الشعور لا حين يختلفون، وحين يَتعاطَفُون بإحساس الألم الواحدِ لا حين يتنازَعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حقَّقْتَ رأيتَ الناسَ لا يختلفون فى الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكامِ هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبْةُ الإنسانية، وهو العقلُ العمليُّ على الأرض؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ فى ضرورةٍ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قُوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ.

ومن هنا يتناولُه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواءً؛ ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحْكِم الأمر فيحولُ بين هذا البطنِ وبين المادة، ويبالغُ فى إحكامه فيُمسِكُ حَواشيَه العصبيةَ فى الجسم كله يمنعُها تغذيتَها ولذتَها حتى نَفْثَةً من دخينة[1].

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها فى حالةٍ نفسيةٍ واحدة تَتَلَبَّسُ بها النفسُ فى مشارق الأرضِ ومغارِبها، ويُطْلِقُ فى هذه الإنسانيةِ كلَّها صوتَ الروح يُعلِّم الرحمةَ ويدعو

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة، وجمعها دخائن.

إليها، فَيُشْـبعُ فيها بهذا الجوع فكرةً معينَّة هى كلُّ ما فى مذهب الاشـتراكية من الحق، وهى تلك الفكرةُ التى يكوِّن عنها مساواةُ الغنىّ للفقير من طبيعته، واطمئنان الفقير إلى الغنىّ بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمســاواة)، يكون هدوءُ الحياة بهدوء النفسـين اللتين هما السَّـلْبُ والإيجابُ فى هذا الاجتماع الإنسانى؛ وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرةَ من الاشـتراكية بقى هذا المذهبُ كلُّه عَبَثًا من العَبث فى محاولة جعْلِ التاريخ الإنسانى تاريخًا لا طبيعةَ له.

***

من قواعد النفس أن الرحمة تنشـأ من الألم، وهذا بعضُ السـرِّ الاجتماعىّ العظيم فى الصوم، إذ يبالغُ أشـدَّ المبالغة، ويدقق كلَّ التدقيق، فى منع الغذاء وشبهِ الغذاء عن البطن وحواشـيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة؛ فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمةِ فى النفس، ولا طريقةَ غيرُهـا إلا النكباتُ والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مبُصِرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامة، وعلى نظام وعلى فَجْأة.

ومتــى تحقَّقتْ رحمةُ الجائــع الَغنىِّ للجائــع الفقير، أصبح للكلمة الإنســانيةِ الداخليةِ سلطانهُا النافذ، وحَكم الوازِعُ النفسىُّ على المادة؛ فيسمع الغنىُّ فى ضميره صوتَ الفقير يقول: «أعطنى». ثم لا يســمع منه طلبًا مــن الرجاء، بل طلبًا من الأمر لا مفرَّ من تلبيته والاستجابةِ لمعانيه، كما يُواسى المبتَلَى من كان فى مثل بلائه.

أية معجزةٍ إصلاحية أعجبُ من هذه المعجزة الإســلامية التى تقضى أن يُحْذَفَ من الإنسانية كلها تاريخُ البطن ثلاثين يومًا فى كل سنة، ليحلَّ فى محله تاريخُ النفس[1]؟ وأنا مُسْـتيقِنٌ أن هناك نسـبةً رياضيــةً هى الحكمة فى جعل هذا الصوم شــهرًا كاملًا من كل اثنى عشــر شهرًا، وأن هذه النســبةَ متحقِّقةٌ فى أعمال النفس للجسم، وأعمالِ

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه فى شهر رمضان، وهم يعوضون البطن فى الليل ما منعوه فى النهار، حتى جعلوا الصوم تغييرًا لمواعيد الأكل... ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده.

الجسم للنفس؛ كأنه الشهرُ الصّحيُّ الذى يفرضه الطبُّ فى كل سنة للراحة والاستجمام وتغييرِ المعيشة، لإحداثِ الترميم العصبىّ فى الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دَوْرة الدم فى الجسم الإنسانى وبين القمر منذ يكون هلالًا إلى أن يدخل فى المُحّاق؛ إذ تنتفخ العروقُ وتَربو فى النصف الأول من الشهر، كأنها فى (مَدّ) من نور القمر مادام هـذا النورُ إلى زيادة، ثم يراجعُها (الجَزْرُ) فى النصـف الثانى حتى كأن للدم إضاءةً وظلامًـا، وإذا ثبت أن للقمر أثرًا فى الأمراض العصبية، وفى مدّ الدم وجَزرِه[1]، فهذا من أعجب الحكمة فى أن يكونَ الصيامُ شهرًا قمريًّا دون غيره.

وفـى ترائى الهـلالِ ووجوبِ الصوم لرؤيته معنى دقيـقٌ آخر، وهو – مع إثبات رؤية الهلالِ وإعلانِها – إثباتُ الإرادة وإعلانُها، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوى فى التنبيه الإنسانى العامّ لفروض الرحمة والإنسانية والبرّ.

وهنا حكمة كبيرة من حِكَـم الصوم، وهى عملُه فى تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسـلوب العملـىُ، الذى يُدَرّبُ الصائم علـى أن يمتنع باختياره من شـهوَاته ولذّة حيوانيتــه، مُصِرًّا على الامتناع، متُهَيِّئًا لــه بعزيمته، صابرًا عليه بأخلاق الصبر، مُـزاوِلاً فى كل ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسـيةٍ لاكتسـاب الفكرة الثابتة ترسَـخُ لا تتغيَّر ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادى الغريزة.

وإدراكُ هذه القوة من الإرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سـامية، هى فى الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم، ففى هذين تَعرض الفكرةُ مارّةً مُرورَها، ولكنها فى الإرادة تعرِض لتسـتقرّ وتتحقَّق. فانظر فى أى قانون مـن القوانين، وفى أية أمة من الأمم، تجد ثلاثين يومًا من كل سـنة قد فُرضت فرضًا لتربية إرادة الشـعب ومزاولتِه فكرةً نفسـيّةً واحدةً بخصائصها ومُلابسـاتها حتى تستقرّ وترسـخ وتعودَ جزءًا من عمل الإنسان، لا خيالًا يمرُّ برأسه مَرًّا.

---

(١) قـال الجاحظ فـى (الحيوان): «ولزيادة القمر حتى يصير بدرًا، أثر بين فى زيادة الدماءَ والأدمغة وجميع الرطوبات».

أليست هذه هى إتاحةَ الفرصةِ العمليةِ التى جعلوها أساسا فى تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهواتِ المرء مُذْعنَةً لفكرِه، منقادةً للوازِع النفسىّ فيه، مُصَرَّفَةً بالحسِّ الدينىِّ المسيطِر على النفس ومشاعِرها.

أما والله لو عمَّ هذا الصومُ الإسلامىُّ أهلَ الأرض جميعًا، لآلَ معناه أن يكون إجماعا من الإنسانية كلِّها على إعلان الثورة شهرًا كاملاً فى السنة، لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومَحْقِ الأثَرَة والبخلِ فيه، وطَرْح المسألةِ النفسية ليتَدَارسَهَا أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مدةَ هذا الشهر بطوله، فَيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ امرَّأة إلى أعماق نفسِه ومَكامِنِها، ليختبرَ فى مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهمَ فى طبيعة جسمه – لا فى الكتب – معانىَ الصبرِ والثباتِ والإرادة، وليبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيُحقِّق بهذه وتلك معانىَ الإخاء والحرية والمساواة.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ فى الزمن؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قال الزمنُ لأهله: هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامى، ومن طبيعتكم لا من طبيعتى؛ فيُقْبِلُ العالَمُ كلُّه على حالة نفسيةٍ بالغةِ السموّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتها على معالى الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياةَ على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أجِيعَتْ من طعامها اليومىّ كما جاع هو، وكأنما أفْرِغَتْ من خسائسِها وشهواتها كما فَرَغَ هو، وكأنما أُلْزِمَتْ معانىَ التقوى كما أُلْزِمَها هو. وما أجملَ وأبدع أن تظهَر الحياةُ فى العالم كله – لو يومًا واحدًا – حاملةً فى يدها السُّبْحة ...! فكيف بها على ذلك شهرًا من كل سنة؟

إنها والله طريقةٌ عملية لرسوخ فكرةِ الخير والحق فى النفس؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل المادىّ؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانيةِ المحكومةِ فى ظاهرها بالقوانين، والمحرَّرة من القوانينِ فى باطنها – إلى قانونٍ من باطنها نفسِه يُطهِّرُ مَشاعرَها، ويسمو بإحساسها، ويَصْرِفُها إلى معانى إنسانيتها، ويُهذِّب من زياداتها، ويحذف كثيرًا من فُضُولها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءة الطفولة، فيجعلَها

صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليهــا من معانى الخير والصفاء والإشــراق؛ إذ كان من عمــل الفكرة الثابتةِ فى النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ويتصلُ بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى. والنفسُ فى هذا الشهر مُحْتَبَسَةٌ فى فكرة الخير وحدها، فهى تبنى بناءَها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهرًا من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسانىّ كفصول الطبيعة فى دَوَرَانها؛ ولَهُوَ والله أشبهُ بفصلِ الشتاء فى حلوله على الدنيا بالجوِّ الذى من طبيعته السحُبُ والغَيث، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها من بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يَكْسبهَا الصلابةَ والانكماشَ والخفَّة، ومن غايته إعدادُ الطبيعةِ للتفتُّح عن جمالِ باطِنها فى الربيع الذى يتلوه.

وعجيبٌ جدًّا أن هذا الشــهرَ الذى يَدَّخر فيه الجســمُ من قواه المعنوية فيُودِعُها مَصْــرِفَ روحانيَّتــه، ليجدَ منها عند الشــدائد مَدَدَ الصبر والثبــات والعزم والجلَد والخشــونة، عجيبٌ جدًّا أن هذا الشــهرَ الاقتصادىَّ هو من أيام الســنة كفائدة ٨ ١/٣ فى المائة ... فكأنه يســجِّلُ فى أعصاب المؤمن حسابَ قوَّتِه وربحه فله فى كل سنة زيادة ٨ ١/٣ من قوّته المعنوية الرُّوحانية.

وســحْرُ العظائم فى هذه الدنيا إنما يكون فــى الأمة التى تعرف كيف تدَّخر هذه القوّة وتوفِّرها لتســتمدّها عند الحاجة، وذلك هو ســر أســلافنا الأولين الذين كانوا يجــدون على الفقر فى دمائهم وأعصابهم مــا تجدُ الجيوشُ العظمى اليوم فى مخازن العَتَاد والأسلحةِ والذخيرة.

* * *

كلُّ ما ذكرتُه فى هذا المقال من فلســفة الصوم؛ فإنما اســتخرجتُه من هذه الآية الكريمــة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [ســورة البقــرة: الآية ١٨٣]. وقد فهمها العلمــاء جميعًا على أنها معنى «التقــوى»، أما أنا فأَوَّلتُهَا مــن «الاتِّقاء»؛ فبالصوم يَتَّقى المرءُ على نفسِــه أن يكونَ

كالحيوان الذى شـريعتُه مَعِدَتُه، وَألاّ يُعامِلَ الدنيا إلا بمواد هذه الشـريعة؛ ويتَّقى المجتمعُ على إنسـانيَّته وطبيعته مثلَ ذلك، فلا يكون إنسـانٌ مع إنسـانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ: يبيعه القوَّةَ كلهَّا بالقليل من العَلَف.

وبالصـوم يَتَّقى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفَه، فإن ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعه وأخلاقِه، وما خَلْفَه هو الجيلُ الذى سـيرثُ من هذه الطّباع والأخلاق، فيعمل بنفسه فى الحاضر، ويعمل بالحاضر فى الآتى[1].

وكلُّ ما شرحناه فهو اتقاءُ ضررٍ لجلْب منفعة، واتقاءُ رذيلةٍ لجلب فضيلة، وبهذا التأويل تتوجَّه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً، لا يأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنه شريعة اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامة؛ يتَّقى بها الاجتماعُ شرورَ نفسِه؛ ولن يتهذّبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذةِ هذا القانونُ العام الذى اسمُه الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن»....

ألا ما أعظمَكَ يا شـهرَ رمضان! لو عَرَفَكَ العالَم حقَّ معرفتِك لسَـمَّاكَ: «مدرسـة الثلاثين يومًا».

■■■

(١) يفسـر القـرآن بعضه بعضًـا، ومن معجزاته فى هذا التأويل الذى اسـتخرجناه أنـه يؤيده بالآية الكريمـة فى سـورة (يـس): ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... ﴾ [الآية: ٤٥] ويشـير إلى هـذا التأويل قول النبى ﷺ: «إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فـإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إنى صائم وإنى صائم».

الجنة: الوقاية يتقى بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقى شر حيوانيته وحواسه، فقوله: «إنـى صائم، إنى صائم»؛ أى إنى غائب عن الفحش والجهل والشـر؛ إنى فى نفسـى ولسـت فى حيوانيتى.

ثبات الأخلاق

لو أننى سُئلتُ أن أُجْمِلَ فلسفةَ الدينِ الإسلامىّ كلَّها فى لفظين، لقلتُ: إنها ثباتُ الأخلاق «ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانية كلّه فى حرفين، لما زاد على القول: إنه ثباتُ الأخلاق. ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدينة الأوربيةَ ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها فى كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليس ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعا جديدًا؛ وإنما هو يترقَّب من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسير، ويُثْبتَ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هى وسائلُ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدَّلَ فى الحىّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ، إذا تبدلتْ أحوالُ الحياة فصعِدَت بإنسانها أو نزلت؛ وأن الإسلام يأبَى على كل مسلم أن يكونَ إنسانَ حالته التى هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضَّعَة، ومن خمولِ المنزلة أو نَباهتِها؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التى انتهى إليها الكونُ فى سموِّه وكماله، وفى تقلُّبه على منَازله بعدَ أن صُفِّى فى شريعةٍ بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم.

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحْوال الحياة، فمن كان تقيًّا على الفقر والإملاق وحَرَمه الإعسارُ فنونَ اللذة، ثم أيسرَ من بعدُ؛ جاز له أن يكونَ فاجرًا على الغِنى وأن يتسمَّحَ لفُجوره على مَدِّ ما يتطوَّحُ به المال، وإن أصبح فى كل دينار من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أو فسادُها.

ومن وُلد فى بطن كُوخ، أو على ظَهرِ الطريق، وجب أن يبقى أرضًا إنسانية؛ كأن الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمِه وأعصابه إلا خَربةً آدميةً من غير هندسة ولا نظام ولا فن ... ثم يقابله مَن وُلِدَ فى القصر أو شبه القصر فله حكم آخر، كأن

اللهَ (سبحانه) قد ركَّب من عظمه ودمه وتكوينهِ آيةً هندسية وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفَةَ تدبير، وشيئًا مع شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكن الإسلام يقرر ثباتَ الخلُق ويُوجبه ويُنشئ النفسَ عليه، ويجعله فى حِياطة المجتمع وحراستهِ، لأن هناك حدودًا فى الإنسانية تتميز بحدود فى الحياة، ولابد من الضبط فى هذه وهذه، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراءه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كِفَّتَىْ ميزان شُدَّتا فى عَلاَقَة تجمعهما وتحرِّكُهما معا، فهى بذاتها هى التى تنزلُ بالنازل لتَدُلَّ عليه، وتَشِيلُ بالعالى لتبين عنه؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنيةُ هذه المدنية.

***

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم فى الإنسان فهى ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولن تتبدلَ السُّنَنُ الإلهيةُ التى تُوجدها وتُفنيها فهى مُصرِّفة لها قاضيةٌ عليها؛ وبين عمل هذه المادة وعملِ قانونها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفى هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحًا فى الدم.

هى الغرائز تعمل فى الإنسانية عمَلَها الإلهى، وهى محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكونُ من تعَاديها واختلاف بينها، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها؛ ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيحُ فى معناه قانونًا إلهيًّا على قوة كقوة الكون وضبط كضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبطِ يستطيع الخُلق أن يحوِّلَ المادة التى تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب، ولكنه يتحولُ معها إذا هو لاَنَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلا إنه فى طاعتِك، إذ هو قوةُ الفَصْل بين إنسانيتِك وحيوانيتك، كما أنه قوةُ المَزْج بينهما، كما أنه قوةُ التعديل فيهما، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعًا، ولولا أنه بهذه المثَابةِ لعاش الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكونَ له حينئذ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُه أو رذائلُه بمدح أو ذم.

فـلا عبـرة بمظْهر الحياة فى الفـرد، إذ الفردُ مقيدٌ فى ذاتِ نفسـه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده: فإنك ترى الغرائزَ دائبةً فى إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك فى إهلاكه فى النوع نفسِه بسُنَنٍ أخرى؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمرًا عارضًا كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التى بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها.

فالأخـلاقُ على أنها فى الأفـراد، هى فى حقيقتها حُكْـمُ المجتمع على أفراده؛ فقِوامها بالاعتبار الاجتماعىّ لا غير.

* * *

وحيـن يقع الفسـادُ فى المُجْمَع عليه مـن آداب الناس، ويلْتوِى ما كان مسـتقيمًا، وتَشْتَبِهُ العاليةُ والسـافِلة، وتُطَّرَحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعى، ويقومُ وزنُ الحكم فى اجتماعهـم على القبيح والمنكَر، وتجرى العِبْرةُ فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرَّمات، ولا يُعجِبُ الناسَ إلا ما يفسِدهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويَحِلُّ فى محل العادة؛ فهناك لا مِسـاكَ للخُلُقِ السـليم على فرد، ولا بد من تحوُّل الفرد فى حقيقته؛ إذ كان لا يجـىء أبدًا إلا متَصدِّعًا فى كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسورًا أو مثلوما، وكأنه منتقِلٌ من عالَم إلى عالم ثانٍ بغير نواميسِ الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفرادٌ من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل فى تاريخ الإنسـانية: لا يُبعَثُ أحدُهم إلا ليهَيجَ به الهَيْجُ فى التاريخ، ويَتطرَّقَ به الناسُ إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابه، وأما الحكماءُ الناضجون فهم دائمًا فى هذه الإنسـانيةِ أمكنةٌ بشريةٌ مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازِها فى أنفسـهم، فلهم فى ذاتِ أنفسـهم عصْمةٌ ومَنَعَة كالجبال فى ذات الأرض.

* * *

الأخلاقُ فى رأيى هى الطريقة لتنظيم الشخصية الفَردةِ على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاحُ فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه. وعندى أن للشعب ظاهرًا وباطنًا؛ فباطُنه هو الدينُ الذى يحكم الفردَ، وظاهرُه هو القانونُ الذى يحكم الجميع، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينىُّ المتصِلُ بالغيب مثلَه؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ الاختلال فى المَدنية الأوربية الجديدة؛ فهى فى ظاهر الشعب دون باطنه، والفردُ فاسِدٌ بها فى ذات نفسه إذا هو تحلَّل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحًا منتظمًا فى ظاهره الاجتماعىّ بالقوانين وبالآداب العامة التى تفرضُها القوانين، فلا يبرحُ هازئًا من الأخلاق ساخرًا بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقًا يَعَتدُّ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعُه، وإلا فهى ضارَّةٌ إذا كانت منها مَضَرَّة، وهى مؤلمة إذا حالتْ دون اللذات. ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مطلَقٌ فى باطنه غيرُ مقيَّد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان فى لغة الأهواء والنزَعات؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ، وليكن السببُ ما هو كائن...

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ فى أوربا إذا فَنِىَ المؤمنون بالأديان فيها أو كاثَرهم الملحدون، وهم اليومَ يبصرون بأعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى فى طوائفَ منهم قد خَرِبَتْ أنفسُهم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذى أومأنا إليه، فإذا أعصابُهم بعدَ الحرب ما تزال محاربةً مقاتِلةً ترمى فى كل شىء برُوح الدم والأشلاء والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى ... وانتهت الحربُ بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديمًا حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم؛ فأثبتوا فى كل أرضٍ هَدْىَ دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة، وكان وراء أنفسِهم فى الحرب ما هو من ورائها فى السِّلم؛ وذلك بثباتِ باطنهم الذى لا يتحول، ولا تستخفُّه الحياةُ بنزَقِها، ولا تَتسفَّهُهُ المدنيَّاتُ فتحملهُ على الطيش.

ولـو كانوا هم أهـلَ هذه الحرب الأخيرة بـكل ما قَذَفَتْ به الدنيـا، لبقيتْ لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية، لأن كلَّ مسلم فإنما هو وعقليتُه فى سلطانِ باطنه الثابتِ القارِّ على حدودٍ بينةٍ مُحصَّلةٍ مقسـومةٍ، تحوطُها وتُمسـكها أعمالُ الإيمان التى أحكمها الإسـلامُ أشـدَّ إحكام بفَرْضها على النفوس منَّوعةً مكررةً: كالصلاة والصوم والزكاة، ليمنعَ بها تغيرًا ويُحْدِثَ بها تغيرًا آخر، ويجعلها كالحارسـة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة[1].

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل؛ فإذا جُنَّ الموجُ فلن يَضِيرَه ما بقى الساحلُ ركينا هادئًا مشدودًا بأعضَادِه فى طبقات الأرض. أما إذا ماجَ الساحل ... فذلك أسلوبٌ آخرُ غير أسـلوبِ البحار والأعاصير؛ ولا جَرَمَ ألا يكونَ إلا خَسْفًا بالأرض والماء وما يتصلُ بهما.

* * *

فـى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل، هو قانـونُ ضبطِ القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة. ويقابلهُ فى الإنسان قانونٌ مثلُه لا بد منه لضبطِ معانى الإنسان وتصريفهـا وتوجيهها على مقتضى الكمال. وكلُّ فروض الدين الإسـلامىّ وواجباته وآدابه، إنْ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله؛ فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخَلْق الحِسِّ الأدبـى، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله فى ناموس طبيعيٍّ بإجرائه فى الأنُفس مَجرى العادة، وجعلهِ بكل ذلك قوةً فى باطنها، فتُسـمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضًا دينَّيةً؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية، وتكون أوامرَ وهى حقائق[2].

ومن ذلك أرانا – نحن الشرقيين – نمتاز على الأوربيين بأننا أقرب منهم إلى قوانين الكون؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها – وهى بطبيعتها

---

(١) فصلنا هذا المعنى فى كثير من مقالاتنا: كمقالة (حقيقة المسلم)، و (فلسفة الصوم) وغيرها.

(٢) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شـايعوه، ومن قلدوه، ومن انخدعوا فيه، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسـلامى كله، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر، فما زاد على أن جدد ثوبًا وقبعة...!

لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم، وكنا الطبقةَ المُصَفَّاةَ التى يَنْشدُونها فى إنسانيتهم الراهنةِ ولا يجدونها، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشِئ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا، فليس حقًّا علينا أن نأخذَ سيئاتِها فى حسناتها، وحماقتَها فى حكمتها، وتزويرَها فى حقيقتها؛ وأن نُسِيغَ منها الحُلوةَ والمرَّة، والناضجة والفجَّة؛ وإنما نحن نُحَصِّلها ونقتبسها ونَرْتَجعُ منها الرَّجْعَةَ الحسنةَ؛ فلا نأخذُ إلا الشىء الصالح مكانَ الشىء قد كان دونه عندنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة فى أدياننا وآدابنا؛ ولسنا مثلَهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم، بَيْدَ أن العجَبَ الذى ما يفرغُ عَجَبى منه، أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلا هدمَ تلك الضوابط التى هى كلُّ ما نمتاز به، والتى هى كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها، ويسمون ذلك تجديدًا، ولَهُوَ بأن يُسمى حماقة وجَهْلا أولى وأحق.

أقول ولا أبالى: إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه: فَصَنَعتْهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليد مَحْضٍ ومُتَابَعةٍ مُسْتعبَدَة، وأصبح عقلُهم - بحكم العادة والطبيعة - إذا فكَّر انجذب إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليه ولا يتحولُ عنه. وإذا صح أن أعمالنا هى التى تَعملُنا - كما يقول بعضُ الحكماء - فهم بذلك خَطرٌ أىُّ خطر على الشعب وقوميتِه وذاتيتِه وخصائصِه، ويُوشِكُ إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعُون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر...

* * *

إن أوربا ومدنيتَها لا تساوى عندنا شيئًا إلا بمقدار ما تُحقق فينا من اتساع الذاتيةِ بعلومها وفنونها، فإنما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوّتنا فى النزاع العالمىِّ بكل مظاهره أيّها كان؛ ولها وحدَها، وباعتبارٍ منها دون سواها، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونُهمل ما نهمل؛ ولا يجوز أن نتركَ الثبتَ فى هذا ولا أن نتسامَحَ فى دقةِ المحاسَبة عليه.

فالمحافظةُ على الضوابط الإنسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثةِ فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيقُ مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العملُ على اتحاد المشاعر وتمازُجها لتقويم هذا المظهر الشعبىّ فى جملته بتقويم أجزائه – هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق.

والإلحادُ والنزَعاتُ السافلة وتخانيثُ المدنية الأوربية التى لا عملَ لها إلا أن تُظْهِرَ الخَطرَ فى أجمل أشكاله .....، ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التدليسُ على الأمة بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمِرين لمحْقِ الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلها – تلك هى المَعاوِلُ الأربعةُ التى لا يَهدم غيرُها بناءَ الشرق.

فليكن دائمًا شعارُنا –نحن الشرقيين– هذه الكلمة: أخلاقُنا قبل مدنيتهم.

■■■

قلت لنفسى...
وقالت لى ...[1]

قلت لنفسى: ويحكِ يا نفسُ! ما لى أتحامَلُ عليك؛ فإذا وفَيْتِ بما فى وُسْعِكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلفْتُكِ أن تَسَعِى؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُّ أجْهَدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأُضنيكِ كلما ثابَت القوّة؛ فإن تكن لك همومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرها مما أجلِبُ عليك.

أنت يا نفسُ سائرةٌ على النَّهْج، وأنا أعتَسِفُ بكِ أُريد الطيرَانَ لا السيَّر، وأبتغى عملَ الأعمار فى عُمْر، وَأَسْتَحثُّكِ من كل هَجْعَةِ راحةٍ بفجرِ تعبٍ جديد، وكأنى لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُه بعضًا، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليك من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ ليُهَيِّئَ لك القوَّةَ التى تمتدُّ بك فى التاريخ من بَعدُ، فتذهبين حين تذهبين ويعيشُ قلبُك فى العالَم ساريًا بكلماتِ أفراحِه وأحزانِه.

وقالتْ لى النفس: أمَّا أنا فإنى معكَ دَأبًا كالحبيبة الوفيَّةِ لمن تُحبُّهُ: ترى خضوعَها أحيانًا هو أحسنَ المقاوَمة؛ وأما أنتَ فإذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعب فكيف تُرينى أنك تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليستْ دُنياكَ يا صاحبى ما تجدُه من غيرك، بل ما تُوجِده بنفسك؛ فإن لم تَزدْ شيئًا على الدنيا كنتَ أنتَ زائدًا على الدنيا؛ وإن لم تَدَعْها أحسنَ مما وجدْتَها فقد وجدْتَها وما وجَدَتْكَ؛ وفى نفسكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودها. وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتًا صغيرًا، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُلَمْلَمَةِ[2]، ودنيا بعضِهم

(١) كتبت فى ساعة ضجر، من هذه الساعات الطارئة على الروح، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده والعالم كله وحده؛ ذاك فى وجود نفسه خاصة، والآخر فى وجود الطبيعة كلها.

(٢) أى الصغيرة تقوم بالدُّور القليلة المجتمعة.

كالمدينـــة الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارَّةٌ بأكملهـــا، وإذا انفردَ امتدَّ فى الدنيا فكان هو الدنيا.

والقوَّة يا صاحبى تَغتذى بالتَعب والمُعَاناة؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جســمك، ألفَيْتَه غدًا فى جســمك قوةً من قُوَى اللحم والدم. وساعةُ الراحة بعد أيام من التعب، هــى فــى لذَّتها كأيام من الراحة بعد تعب ســاعة. وما أشــبهَ الحىَّ فــى هذه الدنيا ووَشْــكِ انقطاعِه منها، بمَنْ خُلِق ليعيشَ ثلاثةَ أيام معدودةً عليه ســاعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفَتُراه يَغْفُل فيُقدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسـرِفُ فيها ضُرُوبًا من لَهْوِهِ ولعبِهِ ومُجونِه، إلا إذا كان أحمقَ أحمق إلى نهاية الحُمْق؟

اتعَبْ تعبَكَ يا صاحبى، ففى الناس تَعَبٌ مخلوقٌ من عمله، فهو ليِّنٌ هَيِّنٌ مُسَــوَّى تســوية؛ وفيهــم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبَّارٌ متمرد له القَهــرُ والغَلبَة، وأنتَ إنما تكدُّ لتســموَ بروحِك إلى هموم الحقيقة العالية، وتســموَ بجسمك إلى مشقات الرُّوح العظيمة؛ فذلك يا صاحبى ليس تعبًا فى حفْرِ الأرض، ولكنه تعبٌ فى حَفر الكنز.

اتعبْ يا صاحبى تعبَكَ؛ فإن عنَــاء الروح هو عُمْرُها؛ فأعمالُك عُمْرُك الرُّوحانىُّ، كعُمر الجسم للجسم؛ وأحدُ هذين عُمْرُ ما يعيش، والآخر عُمْرُ ما سيعيش.

***

قلتُ لنفسى: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء. وإن عَمَلَ التغيير فى الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلما بُنيتْ، ثم بِناؤُها كلما هُدِمتْ؛ فما من شــىء إلا هو قائم فى الســاعة الواحدة بصورتين معًا؛ وكم من صديق خلطْتُه بالنفسْ يذهبُ فيها ذَهابَ الماء فى الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيتُ فى مكانه إنســانًا خياليًّا كمسألة من مسائل النُّحاة فيها قَولان ... ! فهو يَحتمل فى وقتٍ واحد تأويلَ ما أظنُّ به من خير، وما أتوقَّع به من شرّ! وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَس فى خاطرى قلتُ: آه، هذا الذى كان...!

أمَــا واللهِ إن ثيــابَ الناس لتَجعلُهم أكثرَ تشــابُهًا فــى رأى النفس، مما تجعلهم وجوهُهــم التى لا تختلف فى رأى العين: وإنى لأرى العالَم أحيانًا كالقطار الســريع

منطلِقًا برَكْبه وليس فيه مَن يقوده، وأرى الغفلَة المُفْرِطةَ قد بلغت من هذا الناس مبلغَ من يظنُّ أنه حيٌّ فى الحياة كالموظَّف تحت التجربة، فإذا قَضَى المدةَ قِيلَ له: ابدأ من الآن. كأنه إذا عاش يتعلَّم الخيرَ والشّر، ويدركُ ما يَصْلُح وما لا يصلح، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة - رَجَعَ من بعدها يعيش منتظمًا على استواء واستقامة، وفى إدراكٍ وتمييز. مع أن الخرافةَ نفسهَا لم تَقبل قطّ أن يُعَدَّ منها فى أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحانَ أجَلُه فأصبحوا لم يجدوه ميتًا فى فراشه؛ بل وجدوه مولودًا فى فراشه...!

وقالتْ لى النفسُ: وأنت ما شأنُكَ بالناس والعالَم؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقولَ: «إن الطريقَ مظلم» إنما قولُه إذا أراد كلامًا أن يقولُ: «ها أنذا مُضىء».

والحكيم لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَل، كما أنه لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ فى كَذِب الوهم؛ فإن هذا كلّه أثرُ الحياةِ البهيميَّة فى هذه البهيمة الإنسانية، لا أثرُ الروح القويَّة فى إنسانها. والحيوانُ هو الذى يجوعُ ويشبع لا النفسُ. وبين كل شيئين مَما يَعْتَورُ الحيوانيةَ - كالخلوِّ والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قُوَى الحيوان أشياءَها الكثيرة التى تتسلَّط بها على النفس، لتَحُطَّها من مرتبة إلى أن تجعلَها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أولُ الحكمة ضَبطَ الأدوات الحيوانية فى الجسم، كما توضَع اليدُ العالمةُ على مفاتيح القِطار المنطلِق يَتَسَعَّر مِرْجلُه ويغْلِى.

اعملْ يا صاحبى عملَكَ؛ فإذا رأيت فى العاملين من يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه، بل خذ اطمئنانَه إلى اطمئنانك، ودَعه يخلو وتَضَاعَفْ أنت.

إنه ليُوشِكُ أن يكونَ فى الناس ناسٌ «كالبُنوك»؛ هذه مُسْتَوْدَعَات للمال تحفظه وتُخرِج منه وَتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ للفضائل تحفظها وتخرج منها وتَزيدها. وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال، هو إطلاقُ النكبةِ مُسَدَّسَها على رجل تقتلُه؛ ولكن إفلاس (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبير على مدينةٍ تُدَمرها.

* * *

قلت لنفسى: فما أشدَّ الألَمَ فى تحويل هذا الجسد إلى شِبْهِ رُوحٍ مع الروح! تلك هى المعجزةُ التى لا توجَد فى غير الأنبياء، ولكنَّ العملَ لها يجعلها كأنها موجودة. والأسد المحبوسُ محبوسةٌ فيه قُوَّتُه وطباعُه؛ فإن زال الوجودُ الحديدىُّ من حوله أو وَهَنَت ناحيةٌ منه، انطلق الوحش. والرجل الفاضلُ فاضلٌ ما دام فى قَفَصِه الفكرىّ، وهو ما دام فى هذا القفص فعليه أن يكونَ دائمًا نَموذَجًا معروضًا للتنقيح الممكِن فى النفس الإنسانية: تُصيبُه السيئةُ من الناس لتختبرَ فيه الحسنة، وتبلوه الخيانةُ لتجدَ الوفاء، ويَكْرُثُه البُغضُ ليقابله بالحب، وتأتيه اللعنةُ لتجدَ المغفِرة؛ وله قلب لا يَتعبُ فيبلغُ منزلةً إلا ابتدأ التعبَ ليبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكر كلَّما جَهَد فأدركَ حقيقةً كانت الحقيقةُ أن يَجهد فيدركَ غيرها.

وقالت لى النفْس: إن مَن فاق الناسَ بنفسِه الكبيرة كانت عَظَمتُه فى أن يفوقَ نفسهَ الكبيرة؛ إن الشيءَ النهائّى لا يُوجَد إلا فى الصغائر والشرّ، أما الخيرُ والكمالُ وعظائمُ النفس والجمالُ الأسْنَى، فهذه حقائقُ أزليّة وُجِدَتْ لنفسها: كالهواء يتنفسَّه كلُّ الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى، ولا يُعْرَفُ أين ينتهى، وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض يُشْبِه أن تكون تلك الصفاتُ منبعثةً إلى النفوس من أنوار الملائكة، وبهذا كان أكبرُ الناس حظًا منها هم الأنبياء المتَّصلين بتلك الأنوار.

ومن رحمة الله أن جعل فى كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيرًا يجمع فكرةَ الخير والكمال وعظائِم النفس والجمالِ الأسْنَى، وقد تَعظُم فيه هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها، وقد تَصغُر فيه بعضُها أو كلها: ألاَ وهو الحبّ.

لا بدَّ أن تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانية فى نوع من أنواع الحب، من رقَّة النفسِ ورحمتِها، إلى هوى النفس وعشقِها.

وإذا بلغ الحبُّ أن يكون عشقًا، وَضَع يده على المفاتيح العصبية للنفس، وفتَح للعظائم والمعجزاتِ أبوابَها؛ حتى إنه ليجعلُ الخرافَة الفارغةَ معجزةً دقيقة ويملأُ الحياةَ بمعان لم تكن فيها من قبل، ويصبح سرُّ هذا الحب لا ينتهى؛ إذ هو سرٌّ لا يُدْرَك ولا يُعرف.

اجْهدْ جهدَكَ يا صاحبى، فما هو قفَصُك الفكرىُّ ذلك الشعاعُ الذى يحبسك، ولكنه صَقْلُ النفسِ لتتلقّى الأنوار، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غير ظاهرِ الحجَر لتكونَ به مرآة.

* * *

قلتُ لنفسى: فما أشدَّه مضَضًا أُعانيه! إن أمرى ليذهب فُرُطًا[1]. أكلما ابتغيتُ من الحياة مَرحا أطَربُ له وأهتزّ، جاءتنى الحياةُ بفكرة أستكِدُّ فيها وأدأب؟ أهذا السرورُ الذى لا يزال يقعُ بين الناس هو الذى لا يكاد يقع لى؟ وهل أنا شجرةٌ فى مَغْرسها: تنمو صاعدةً بفروعها، ونازلةً بجذورها، غير أنها لا تبرحُ مكانها؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته: لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً، ولا يَدعُها حتى تَدعَه معانى العظَمةِ التى نُصب لها؟

قالت لى النفس: ويحك! لا تطلب فى كونِكَ الصغيرِ ما ليس فيه؛ إن الناسَ لو ارتفعوا إلى السماء وتقلَّبوا فيها كما يَسيحُ أهلُ قارَّة من الأرض فى قارّةٍ غيرها، وابتغَوْا أن يحملوا معهم مما هناك تذكارًا صغيرًا إلى الأرض - لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها؛ فأنت سائحٌ فى سماوات.

أنت كالنائم: له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئًا مما يرى إلا وَصْفَه، وحكمتَه، والسرورَ بما التذَّ منه، والألَمَ بما توجَّع له.

لن تكونَ فى الأرض شجرةٌ بِرجْلين تذهبُ هنا وهَهُنا، ولكن الشجرة ترسل أثمارَها يتناقلُها الناس، وهى تُبدِع الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقرىّ ما يؤلفه بأشدِّ الكدّ وأعظم الجهْد، مُطْلِقَةً ضميرَها فى الفكرة الصغيرة، تَعقِدُها شيئًا شيئًا، ثم تعود عليها بالزيادة، ولا تزال كلَّ وقت تعود عليها حتى تستفرغَ أقصى القوة؛ ثم يكونُ سرورها فى أن تَهبَ فائدتها، لأنها لذلك وُجِدَتْ.

إن فى الشجرة طبيعيةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة؛ فالحياةُ فيها على حقيقتها، وأكثرُ ما تكون الحياةُ فى الإنسان على مَجازِها؛ وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ

(١) أى مجاوزًا فيه عن الحد.

والتلويـن؛ ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقَرَّ فيه سـرًّا من أسـرار الطبيعة الصادقة، ووهب له العاطفةَ القادرةَ التى تَصنعُ ثمارَها – فقد غَرسـه شـجرةً فى مَنْبتها لا مفرَّ ولا مَنْدوحـة، وقـد يُخَيَّل له ضعفُ طبيعته البشـرية أحيانًـا أن نَضرةَ المجد التى تعلوه وتتألَّقُ كشـعاع الكوكب، هى تعبُهُ وضجَره، أو أثرُ انخذاله وألمه ومسكَنتِه؛ وهذا من شـقاء العقل؛ فإنه دائمًا يضيف شـيئًا إلى شـىء، ويخْلِـط معنىً بمعنى، ولا يترك حقيقةً على ما هى؛ كأن فيه ما فى الطفل من غريزة التقليد؛ والعقلُ لا يرى أمامه إلا الإلهية، فهو يقلدها فى مُدَاخَلَة الأشياء بعضها فى بعض، لإيجاد الأسرار بعضِها من بعض.

ومـن ثَمَّ كانـت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتـةُ مَدْعَاةً للملَل العقلىّ فى الإنسـان، لا يـكادُ يُقيم عليها أو يتقيد بها، فما نال شـيئًا إلا ليطمـعَ فى غيره، وما فاز بلذَّة إلا ليزهَدَ فيها، وأجَلُ ما أحبَّه الإنسـان أن يناله، فإذا ناله وقع فيه معنى موته، وبَدَأ فـى النفس عُمرًا آخرَ من حالـة أخرى، أو مات ولم يَبْدَأ؛ فلا بدَّ لهذا الإنسـان مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ، فإن هو لم يجد خطأ فى شـىء ائْتَفَكَ لنفسـه[1] الخطأ المضحكَ فى شبه روايةٍ خيالية.

إنه لشِعر سخيف بالغُ السخافة أن يُتَخَيَّل الغريقُ مفكرًا فى صَيْدِ سمكة رآها ... ولكـنَّ هذا من أبلغ البلاغةِ عنـد العقل الذى يبحث عن وهم يضيفُه إلى هذه الحقيقة ليضحـكَ منها، كما يبحث لنفسـه أحيانًا فـى أجمل حقائقِ اللذة عـن ألم يتألم به ليَعْبَسَ فيه!

* * *

قلت لنفسـى: فهل ينبغى لـى أن أُحرِقَ دمى لأنى أفكِّر، وهـل أظلُّ دائمًا بهذا التفكير كالذى ينظر فى وجه حسـناءَ بمنظار مكبر؛ لا يريه ذلك الوجهَ المعشـوقَ إلا ثُقوبًا وتخريمًا كأنه خشـبةٌ نُزعت منها مسـاميرُ غليظة ...! فلا يجدُ المسكينُ

(١) كذب واخترع، ومنه حديث الإفك.

هـذه الحقيقةَ إلا ليفقدَ ذلك الجمال؟ وهل بُدٌّ من الشـبه بيـن بعض الناس وبين ما ارْتَصَد له من عمل يحيا به؛ فلا يكون الحوذىُّ حوذيًّا إلا لشَبَهٍ بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير...؟

وقالـتْ لى النفس: إن فـأسَ الحطَّاب لا تكونُ من أداة الطبيب؛ فخذ لكل شـىء أداتَـه، وكن جاهـلًا أحيانًا، ولكن مثلَ الجهـل الذى يَصْنَع لوجهِ الطفل بشاشـتَه الدائمة، فهذا الجهلُ هو أكبر علم الشـعور الدقيـق المرهَف، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشـعراء غمًّا وكمَـدًا، ولكانوا فى هذا الوجود، علـى هذه الأرض، بين هـذه الحقائق - كالذى قُيِّد وحُبس فى رهَجٍ تُثيره القَدَم والخُفُّ والحافر: لا يتنفَّس إلا الغبارَ يُثار مِن حوله إلى أن يُقْضَى عليه.

اجهـلْ جهلَك يا صاحبى فى هذه الشـهوات الخسيسـة؛ فإنها العِلـمُ الخبيثُ الذى يفُسـد الروح، واعرفْ كيف تقول لرُوحك الطَّفلْةِ فى ملائكيَّتها حين تُسـاوِرُكَ الشهوات: هذا ليس لى؛ هذا لا ينبغى لى.

إن الروحَ الكبيرةَ هى فى حقيقتها الطفلُ الملائكىّ.

وعِلمُ خسـائس الحياة يجعلُ للإنسـان فى كل خسيسة نفسًـا تتعلقُ بها، فيكونُ المسـكينُ بين نفسـين وثلاث وأربع، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازَعْنَه، فيضيعُ بهذه الكثرة، ويُصبحُ بعضُه بلاءً على بعض، وتَشْـغَلُه الفُضُول، فيعودُ لها كالمزْبَلَة لما أُلقىَ فيها، ويُمْحَقُ فى نفسـه الطبيعيةِ حسُّ الفرح بجمال الطبيعة، كما يُمْحَق فى المزبلة معنى النظافة ومعنى الحِسِّ بها.

هـذه الأنفسُ الخياليةُ فى هذا الإنسـان المنكود، هـى الأرواحُ التى يَنْفُخُها فى مصائبـه، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيـشُ فى وجوده وتعملُ فيـه أعمالَها، ولولاها لماتت فى نفسه مطامعُ كثيرة، فماتت له مصائبُ كثيرة.

انظر بالروح الشـاعرة، تَرَ الكونَ كله فى سمائه وأرضه انسجامًا واحدًا ليس فيه إلا الجمالُ والسـحرُ وفتنـةُ الطرب، وانظر بالعقل العالِم، فلـن ترى فى الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء.

وَمَدَى الروحِ جمال الكونِ كلِّه؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر، أو عظْمة من حيوان، أو نَسيجةٌ من نَبات، أو فِلْذَةٌ من معدن، وما أَشبهها.

اجْهلْ جهلك يا صاحبى؛ ففى كل حُسْنٍ غَزَلٌ بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع، وإلاّ أصَبْتَ فى كل حسنٍ هَمًّا وَمَشْغَلة...!

* * *

قلتُ لنفسى: إلى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذى كتمتهُ عنكِ.

وقالت لى النفس: وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذى كتمتَه عنى...

■■■

الانتحار*

(١)

حَدَّثَ المُسَيَّبُ بن رافع الكوفيُّ قال: بينا أنا يومًا فى مسجد الكوفة، ومعى سعيدُ ابنُ عثمــان، ومجاهد، وداودُ الأَزْدِىّ، وجماعةٌ – أقبلَ فتًى فجلس قريبًا منا، وكان تلقاءَ وجهى؛ لا أمُدُّ نظرى إلا انطلقَ فى سَـمْتِه ووقـف عليه، وكنا نتحدّثُ فرأيتهُ يتسمَّعُ إلى حديثنا؛ فلما تكلَّم سعيدٌ – وكان خافتَ الصوت من علَّة به، وكنا نسميه النملة الصَّخّابة– رأيتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقعُ فى سَـماعه حَسِيسُ نَمْلتِنا.

وكان سـعيد يقول: اجْتزْتُ أنا والشّعبىُّ[١] أمس بعمرانَ الخيَّاط، فمازَحه الشيخُ فقال له: عِندنا حِبٌّ[٢] مكسـور، تَخيطُه؟ قال: نعـم، إن كان عندك خيط من ريح! فقلتُ أنا: فاذهبْ فجئنَا بالمِغْزَل الذى يغزِلُ الهواء لنصنعَ لك الخيط.

قال مجاهد: هذا ليس بشـىء فى تَنادُرِ شـيخِنا وما يتَّفقُ له؛ أخبرَنى أن رجلاً جاءهُ فى مسـألة، فدخل عليـه البيت وهو جالس مع امرأته، فقـال الرجل: أيُّكما الشعبىّ؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال: هذه...!

قال المُسَّـيب: وضحكنا جميعًا، وأخذ نظـرى الغلامَ فإذا هو ناكِس حزنًا وهمًّا، وكأنه لا يتسـمَّع إلينا ليسـمع، بل ليشغلَ نفسَه عن شـىء فيها، فتتوَزَّعَ خواطرُه،

---

* انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست فى «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبى) توفى سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها، عن بضع وثمانين سـنة، وكان فى عصره أحد العلماء الأربعة فى الإسـلام: سعيد بن المسـيب فى المدينة (ذكرناه فى قصة زواج)، والحسن البصرى فى البصرة (ذكرناه فى قصة: بنته الصغيرة)، ومكحول فى الشام، والشعبى هذا فى الكوفة. وكان يشبه فى زمانه ابن عباس فى زمانه.

(٢) الحب (بكسر الحاء): هو الزير، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافيا، ويقال لرشحه: قطر حب.

فيتبــدَّد اجتماعُها على همِّه بصوتٍ من هنا وصــوتٍ من هنا، كما يفعل المحزونُ فى مغالبة الحزن ومُدَافَعتِه، يَشْغَلُ عنه بصرَه وقلبَه وسمعَه جميعًا، فيكون الحزنُ فيه وكأنه بعيدٌ منه.

فقلت فى نفسى: أمرٌ أماتَ الضحِكَ فى هذا الفتى وكَسر حِدّتَه وشبابَه، ثم تحوّلتُ إليــه وقلــت: رأيتُكَ يا بنىّ مقبلاً علينــا كالمنصرِف عنا؛ فما بالُــكَ لم تضحك وقد ضحكنا جميعًا؟

قــال: إليكَ عنى يا هذا؛ فأين منِّى الضَّحكُ وأنا على شَــفِير القبر، ورُوح التراب مالئٌ عينىَّ فى كل ما أرى، وكأنّ حُفرتى ابتلعت الدنيا التى أنا فيها لتأخذَنى فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رجْل فى الدنيا ورجل فى الآخرة!

قلت: فأعلمنى ما بك يا بنى؛ فلقد احتســبْتُ ولدًا لى كان فى مثل سِــنِّك وشبابك ولــم أُرزق غيــرَه، فقلْبى بعده مريــضٌ به، يتوســمُهُ مُفرَّقًا فى لِدَاتِــه، مُتوهّمًا أن وجوهَهم تجمعه بملامحه؛ فأنا من ذلــك أحبّهم جميعًا وأطيل النظر إليهم والتأمُّل فى وجوههم، ولســت أرى أحدًا منهم إلا كان لــه ولقلبى حديث! فإن رأيتُه حزينًا مثلك تَقطَّعتُ له من إشــفاقٍ ورحمة، وطالعَنى فتاىَ فى مثلِ همِّه وحزنه وانكساره؛ فيعود قلبى كالعين التــى غشَّــاها الدمع، تحمل أثر الحزنِ ومعناه وسرَّه؛ فبُثْنى ما تجدُ يا بنىَّ، فلعل لى ســببًا إلى كَشــفِ ضُرك أو إسعافِك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنــتَ من أمرٍ قريب المتنــاوَل هيِّنِ المحاوَلةَ، لم يجعله عنــدك كبيرًا أنه كبير، ولكنْ أنك أنت صغير.

قــال الفتى: مهــلاً يا عمّ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنــده الحيلة ولا تَنْقاد فيه الوسائل، ولا علاجَ منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذه.

قلت: يا بنىّ، هذه كلمة ما أحســبُ أحدًا يقولهــا إلا من أُخِذَ للقتل بجنايته ولم يَعفُ أهلُ الدم، فهل جنيتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قــال: إن الأمر قريــبٌ من قريب، فإنى تركــتُ أبى الســاعةَ مُجْمِعًا على إزهاق نفسه، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثَق من الباب!

قال المسـيَّب: فكأنما لدغتنى حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسـلمٌ يقتلُ نفسَه فَتناهَضْتُ، ولكنَّ الغلامَ أمسكَ بى وقال: إنه لا يزال حيًّا، وسيقتل نفسَه متى أظلم الليلُ وَهَدأت الرِّجل.

قلـت: الحمد لله، إن فى النور عقلاً، ولكن مـا الذى صار به إلى ما قلت، وكيف تركته لِقَدَرِه وجئت؟

قـال الفتى: إنه قال لى: يـا ولدى، ليس لك أبٌ بعدى، فـإن أردتَ اللحاقَ بى فارجع مع الليل لنُسْـلِمَ أنفسَـنا، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع الصبح لتُسـلِمَنى إلى غاسلى!

قلت: أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَك تُمْسِـُك يدَه وتردُّه عما يَهُمُّ به، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه؟

قال: لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه؛ فإن لم تمسكه يمينُه أمسـكه انتظارى، وقد فرغَتِ الحياةُ منا فلـم يبقَ إلا أن نفرغَ منهـا، ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه، لم يُرِ الناسَ من نفسـه ضعَةً ولا اسـتكانة: وإنما خرجتُ لأسـألَ هذا الإمام (الشعبىّ) وجهًا من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا، ونزلتْ به النازلاتُ، وتعذّر القُوت، واشتدّ الضُّرّ، وتَدَلَّت به المسكنةُ إلى حَضِيضها، وألجئ إلى أحوال دَقَّتْه دَقَّ الرَّحَى لما تدور عليه، ولم يَعُدْ له إلا رأىٌ واحد فى معنى الدنيا: هو أنه مكذوب مزَوَّر على الدنيا.

قلت: يا بنىّ، فإنى أراك أديبًا، فمن أبوك؟

قـال: هو فـلان التاجر، ظهر ظهورَ القمر ومُحَق محاقـه، وهو اليوم فى أحْلكِ الليالى وأشـدها انطماسـا؛ جَهَدَه الفقـر، ويا ليته كان الفقر وحـدَه، بل انتهكتْه العِلَـل، وليتها لم تكـن إلا العلِلَ مع الفقر، بل أخذ المـوتُ امرأتَه فماتت همًّا به وبى، ولم يكن له غيرى وغيرُها، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين، فهذا مـا كان يجعـل كلاًّ منا لا يفرَغُ إلا امتلأ، ولما ذهبَـت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها، وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياةُ فارغة

مــن المعنى، وكنا من أجلها نفهــم الأيام على أنها مجاهَدَةُ البقاء؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة...!

قلت: يا بنــىَّ، فإنك والله مع أدبك لَحكيم، وإنى لأنْفَسُ بك على الموت، فكيف ردَّتك حياةُ أمك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك؟

قــال: لو بقى أبــى حيًّا لبقيت، ولكن الدهر قد انتزع منــه آخِرَ ما كان يملك من أسـباب القوّة، حين أخَذَ القلبَ الشـفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا فكَّر فى الموت، فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تِلْقاء عدوّ لا يرحمه؛ إن عجز عن عدوّه فالرأىُ قتلُ نفِسه ليستريحَ من تنكيل العدو به.

***

قال المسيَّب بنُ رافع: وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ تَحلَّةً يطمئنُّ إليها أن يموتَ مسـلما إذا قتل نفسَــه كالمضطرّ أو المُكْرَه، فأشـفقتُ أن أكِسرَ نفسَه إذا أنا حدّثتُه أو أفتيتُه؛ وقلت: هذا مريض يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا؛ وكان إمامُنا (الشعبىُّ) حكيما لَحِنًا فَطِنًا، سَــفَر بين أميــر المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم، فحســدَنا العاهــلُ أن يكَون فينا مثلُه. وقلتُ: لعل الله يُحدِث به أمرًا. فأخذتُ بيد الفتى إليه، ومشيتُ أكلمه وأرفِّه عن نفسه. وقلت له: أما تدرى أنك حين فرغْتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضًا، وأن الزاهد المنقطعَ فى عُرْعُرَة الجَبل ينظر من صَوْمعته إلى الدنيا، ليس بأحكَم ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يــا بنىّ: إن الزاهد يحسـب أنه قد فرَّ من الرذائل إلــى فضائله، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله. وماذا تكون العفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والإحســانُ وغيرُهــا، إذا كانت فيمن انقطع فى صحــراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنســان ليس حوله إلا عشـرة أحجار؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدَةِ الرذائل جميعًا، لَهُوَ الخالى من الفضائل جميعًا!

يا بنـــىّ: إن من الناس من يختارهــم الله فيكونون قَمْح هذه الإنســانية: يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطَحَنون ويُعجَنون ويُخَبزون، ليكونوا غذاءَ الإنسانية فى بعض فضائله. وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن فى أعراقكم دم نبىّ يُقْتَل أو يُصْلب!

قال المســيَّب: وانتهينا إلى دار الشعبىّ، فطرقتُ الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وســلّمنا وســلّم، ثم بَدَرْتُ فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيْت وكيت، فترادَفَتْ عليه المصائبُ، وتوالت النكباتُ، وتواترت الأسقام ... ثم اقتصصْتُ ما قال ابنُه حرفًا حرفًا، ثم قلت: وإنه الآن مُوشِــكٌ أن يُزهِقَ نفسَــه وســيَتبعه ابنُه هذا؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يســألك: أيموت مســلمًا من ألجئ وأكْرِه واضطُرّ واسْتَضاق واختلَّ، فَتَحسَّــى سُــمًّا فَهلكَ، أو توَجّأ بحديدة فَقَضَى، أو ذَبَح نفسَه بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حــزّ فى يده بســكين فما رقأ دمُه حتى مات، أو اختنق فى حبلٍ ففاضت نفسُــه، أو ترَدَّى من شاهق فطاح...!

وأدرك الشيح معنى قولى: (هداه الله إليك) ومعنى ما أكثرتُ من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه؛ فعلم أنى لم أسأله الفُتْيا والنَّص، ولكنى سألته الحكمة والسياســة؛ فقال: هــذا والله رجلٌ كريم، أخذته الأنَفــةُ وعزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهب نكلِّمه والله المستعان.

ومشــينا ثلاثتنا، فلما شــارَفْنا الدارَ قال الفتى: إنه لا يفتح لى إذا رآكما، وربما اسْتَفَزَّ بنفسه فأزهَقهَا، وسَأتَسوَّر الحائطَ وأتدلَّى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده.

* * *

ودخلنــا، فإذا رجلٌ كالمريض من غير مرض، خوَّارٌ مســلوبُ القوّة، انزعج قلبه إلى الموت وما به جُرْأة، وإلى الحياة وما به قوّة؛ وصَغر إليه نفسَه أنها أصبحت فى معاملة الناس كالدرهــم الزائف لا يقبله أحد، وثابر عليه داءُ الحزن فأضناه وتركه رُوحًا تتقعقعُ فى جِلدها، فهى تهم فى لحظة أن تَثبَ وتندلق.

وسلَّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل، ثم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧].

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق: أيها الشيخ، قد صبرنا حتى جاء ما لا صبر عليه؛ وقد خَلونا من معانى الكلام كله؛ فما نقدر عليها إلا لفظةً واحدةً نملك معناها، هى أن ننتهى!

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كُوّةً مسدودةً فى الجدار، فقال لى: افتحْ هذه ودَع الهواء يتكلم معنا كلامَه. فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذ منها رَوْحُ الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغ إلىّ، فإذا أنا فرغتُ من الكلام فشأنَكَ بنفسك:

أعلمتَ أن رجلاً من المسلمين قد مَرِض، فأعْضلَ مرضُه فأثبتَه على سريره ثلاثين سنةً لا يتحرك، وطَوَى فيه الرجُلَ الذى كان حيًّا ونشر منه الرجلَ الذى سيكون ميتًا، فبقى لا حيًّا ولا ميتًّا ثلاثين سنة...؟

قال الرجل: وفى الدنيا من يعيش على هذا الحال ثلاثين سنة؟

قال الشيخ: صحّح الكلامَ واسألْ: أيَصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صبر عليه) وأىُّ شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضَع فى الكيس بل فى الجسم؟

أفتدرى مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين فى عظام مُمَدَّدةٍ على سريرها؟ إنه إمامُنا (عمرانُ بنُ حُصَين الخُزاعىّ)[1] الذى أرسله عمرُ ابن الخطاب يُفقِّه أهلَ البصرة، وتولىَّ قضاءها، وكان الحسن البَصرىُّ يحلف بالله ما قدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حُصين. ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناه مُثْبَتًا على سرير الجريد كأنما شدَّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عَصَبِه وذَوبانِ لحمه ووَهَنِ عظامِه، فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكى؟ قال: لأنى أراك على هذه الحال

(١) توفى سنة ٥٣ من الهجرة.

العظيمــة؟ قــال: لا تَبكِ؛ فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إلىّ. ثم قال: إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه، إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَل لكلِّ موضعٍ منها قوةَ الجميع، ولولا هذا لَدَكّ الجبلُ موضعَه وغارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤْمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدَّم؛ إذ كانت قوةُ روحِه قوّةً فى كل موضع، فالبلاءُ محمول على هِمَّةِ الروح لا على الجسـم، وهذا معنــى الخبر: «إن المؤمن بكلِّ خير علــى كلِّ حال، إن رُوحَه لتُنزعُ من بين جنبيه وهو يَحمد اللهَ عزَّ وجل!».

ثــم قال: ولكن ذاك هو المؤمــن، فمن آمن بالله فكأنما قال له: «امتَحِنّى!» وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش، أمَا تفرض عليك شجاعتُك أن تقول للقائد: «امتحِنّى وارْمِ بى حيث شِئت!» وإذا رَمَى بك فرجعْتَ مُثْخَنًا بالجراح ونالك البتْرُ والتشويه، أتُراها أوصافًا لمصائبك، أم ثناءً على شجاعتك؟

ثــم قال: إذا لــم يكن الإيمان بــالله اطمئنانًا فى النفس على زَلازِلهــا وكَوارِثها، لم يكن إيمانًا، بل هو دعوى بالفكْر أو اللسان لا يعْدُوهما، كدعوى الجبان أنه بطل، حتى إذا فَجَأه الرّوْعُ أحدَثَ فى ثيابه من الخوف ... ومِن ثم كان قتلُ المؤمن نفسَــه لبلاء أو مرض أو غيرِهما كفرًا بالله وتكذيبًا لإيمانه، وكان عملُه هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذى أحدث فى ثيابه!

والإيمــانُ الصحيحُ هو بَشَاشــةُ الروح، وإعطاءُ الله الرِّضى مــن القلب، ثقة بوعده ورَجَاةً لما عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان. وبالبشاشــة والرضى والثقة والرجاء، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانيًا مع العقل، فإذا ابْتُلىَ المؤْمنُ بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ لــه العقــل، وصار من أمره فى مثــل الجنون – بَرَزَ فى هذه الحالــة عقلهُ الرُّوحانىُّ وتولى سياسةَ جســمه حتى يُفيقَ العقلُ الأول. ويجىء الخوفُ من عذاب الله ونقمته فــى الآخرة، فيَغْمرُ به خــوفَ النفس من الفقر أو المــرض أوغيرهما فيقتلُ أقواهما الأضعف، ويُخرج الأعزُّ منهما الأذلّ.

فالاطمئنـــان بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيوىّ بالتســليم والرضى، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثوابًا وحسَنات، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانىٌّ له شأن عظيم فى تصريف الدنيا، يترك النفـسَ راضيةً مَرْضِيَّة، تقول لمصائبها وهى مطمئنة: نعم. وتقول لشــهواتها وهى مطمئنة: لا.

وما الإنســان فى هذا الكون؟ وما خيره وشــرُّه؟ وما ســخطُه ورضاه؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبَّر وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسُها...!

***

قال الشــيخ: وانظر، أما تُبْتلَى الشجرةُ الخضراءُ فى بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الإنسان؟ غير أن لها عقلاً روحانيًّا مستقرًّا فى داخلها يمسك الحياةَ عليها ويَترَبَّصُ حالاً غير الحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِه فالسعادةُ كلُّها فى داخلها، ولها دائمًا ربيعٌ على قدْرها حتى فى قرِّ الشتاء.

فالعقلُ الروحانىّ الآتى من الإيمان، لا عملَ له إلا أن ينشئ للنفس غريزةً متصرِّفةً فى كل غرائزها، تُكَمِّل شيئًا وتنقص من شيء، وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبرَ من مصائبها وأكبرَ من لذّاتها جميعًا.

وتلك الغريزةُ هى نفسُها معنى الرضى بالقدَر خيرِه وشرِّه، وهى تأتى بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضعُ فى النكبَات معانىَ شريفةً تنزع منها شرَّها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبةُ شــيئًا لــولا تأذِّى النفسِ بها، وإذا وقع التأويلُ فــى معانى النكبات أصبحت تعمــل عملَ الفضائل، وتغيرتْ طبيعتُها فيعود الفقر بابًا من الزهد، والمرضُ نوعًا من الجهاد، والخيبةُ طريقًا من الصبر، والحزن وجهًا من الرجاء، وهلمّ جرًّا.

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا فى غيرها، وما لذَّاتُ الدنيا إلا وسائلُ لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجدا مع الفقر بطلتْ عِزَّةُ المال وأصبــح حجرًا من الحجر؛ والبلبلُ يتغــرَّد بحَنْجرته الصغيرة ما لا تُغْنى فيه آلاتُ

التَّطْريب كلهُّا. وفى النفس حياةُ ما حَوْلها، فإذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفتْ أذلتَّها الدنيا!.

***

قال المسيَّب: ثم سكت الشيخ قليلاً، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه، وقد أشرق وجهه وتَنضّر وانقلب على روحه التى كان منصرفًا عنها، فعادت مصائبه تضغط روحًا لينةً كما تضغط اليد على الماء، وأيقن أن النكبةَ كلّها هى أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته، فيُنكَبَ أولَ ما ينكبُ فى صبره ويقينه.

ثم قال الشيخ: ولقد رأيتُ بعينىْ رأسى معجزةَ (العقل الروحانىّ) وكيف يصنع: رأيت عروة بن الزبير[1] وهو شيخ كبير، عند الوليد بن عبد الملك، وقد وقعت فى رجْله الأُكْلة: فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه، فدُعِىَ له من يقطعها، فلما جاء قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما. فقال عروة: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيك المُرْقِد. فقال عروة: ما أحِبّ أن أُسلَبَ عضوًا من أعضائى وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبُه!

ثم دخل رجالٌ أنكرهم عروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يُمسكونك، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصبر. قال أرجو أن أكفيَكم ذلك من نفسى!

قال الشيخ: فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة، وكيف استقبل البلاء، وكيف صبر وكيف احتمل. إنه انصرف بحسِّه إلى النفس فانبسطت روحُه عليه، وأخذ يكبّر ويهلّل ليبقى مع روحه وحدها، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنِه، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابُهُ بالنور الإلهى من معنى التكبير والتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبَه بالسكين وهو لا يلتفت، حتى إذا بلغ العظمَ وضعَ عليها المنشار ونشرها وعروةُ فى التكبير والتهليل؛ ثم جىء بالزيت مغليًّا فى مغارف الحديد فَحُسِمَ به مكانُ القطع، فَغُشىَ على عروةَ ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرَق عن وجهه،

(١) توفى سنة ٩٣ للهجرة.

ولم يُســمع منه فى كل هذه الآلام الماحقـة أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك: «جاء ما لا صَبرَ عليه... !».

* * *

قال المسيَّب: وأُرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقَوِى جأشُه، وانبعثت فيه الروحُ إلى عُمــر جديد، ونشــأ له اليقينُ من عقله الروحانىّ، وعــرف أن ما لا يمكن أن يدرَك، يمكن أن يترَك.

وجاء هذا العقل الروحانى فمرَّ بالمِنشــار على اليأس الذى كان فى نفســه فقطعه، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائمًا يقول: الله أكبر من الدنيا، الله أكبر من الدنيا!

ثــم أكبَّ على يد الشــيخ وهو يقول: صدقت؛ «إنْ كلُّ ذلــك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها!».

* * *

ماذا يصنع الإنســان إذا غلط فى مسألة من مســائل الدنيا إلا أن يتحرَّى الصواب، ويجتهــد فى الرجــوع إليه، ويصبر على ما يناله فى ذلك؟ وماذا يصنع الإنســان إذا غلطت فيه مسألة...؟

■■■

الانتحار

(٢)

قال المسيَّب بنُ رافع: وقام الشعبيُّ إلى الرجل فاعْتَنقَه بما آلَ أمرُه إليه، بعد إذ رأى النورَ يجرى على لونه ويترقرقُ فى دِيباجته؛ كأنما وَقَع الصلحُ بين وجهه وبين الحياة. ثم قال له: نِعْمَ أخو الإسلام أنت، فاستْعِذْ بالله من خذْلانه، فإنه ما خَذَلَكَ إلا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ الله تعارِضُه أو تُجارِيه فى قدرته، فيَكِلُكَ إلى هذه النفس، فتنتهى بك إلى العجز، وينتهى العجزُ بك إلى السخط؛ ومتى كنتَ عاجزًا ساخطًا، محصورًا فى نفسك؛ موكولاً إلى قدرتك، كنتَ كالأسد الجائع فى القَفْر، إذا ظن أن قوّتَه تتناول خَلْقَ الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبةَ، وأمثالَها من هذه المُهلِكات تقْدَحُ فى قلبك الشكَّ فى الله، وتُثْبتُ فى رُوعِك شرَّ الحياة، وتُهدى إلى خاطرك حماقاتِ العقل، وتقرِّر عندك عجزَ الإرادة؛ فتنتهى من كل ذلك ميِّتا قد أزهقتْك نفسُك قبل أن تُزْهِقَها!

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حق الإيمان، لسلَّطك الله على نفسك ولم يسلِّطها عليك؛ فإذا رمتْك المطامعُ بالحاجة التى لا تقدر عليها، رميتَها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه؛ وإذا جاءتك الشهواتُ من ناحية الرغبة المُقْبلة، جئتَها من ناحية الزُّهد المنصرف، وإذا ساوَرَتْك كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياء الآخرة.

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلامُ ضُروبا من فَرَحِ الفوز والانتصار على النفس وشهواتها، وكانت فنونًا من الخِذْلان والهمّ، وتعود موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسار. وعزيمةُ الإيمان إذا هى قويتْ حَصَرَت البلاءَ فى مقداره، فإذا حصرتْه لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئًا شيئًا، فإذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ

غامرًا مُتفَشِّـيًا يُجاوزُ مقدارَه بما يَصْحَبُه من الخوف والرَّوْع، فلا تزال معانيه تزَيد شيئًا شيئًا بما فيه وبما ليس فيه.

وللإيمـان ضوءٌ فى النفـس ينير ما حولها، فتـراه على حقيقته الفانيةِ وشـيكًا أن يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انْطَمسَـت الأشياء، فتتوهّمها النفس أوهامًا مُتباينةً علـى أحوالهـا المختلفة؛ كما يرى الأعمـى بِوهْمِه: لا عيْنُه مع الأشـياء تكون فى طبيعتها، ولا أشياؤه عند عينِه تكونُ فى حقيقتها.

* * *

قال المسـيَّب: وكانت الشـمسُ قد طفَّلَتْ للمغيب؛ فقال الإمام للرجل: قم فتوضّأ وأسـبْغ الوضوء، وسـأعلِّمك أمرًا تنتفع به فى دينك ودنياك: فإذا قمتَ إلى وُضوئك فأيقِنْ فى نفسك واعزِمْ فى خاطرك على أن فى هذا الماء سرًّا روحانيًّا من أسرار الغَيب والحياة، وأنه رمزٌ للسماء عندك، وأنك إنما تتطهّر به من ظُلمات نفسك التى امتدَّت على أطرافك، ثم سَـمِّ الله (تعالى) مُفيضًا اسـمَه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معًا، ثم تَمثَلْ أنك غسلتَ يديك مما فيهما ومما تتَعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنك آخِذٌ فيهما من السـماء لوجهك وأعضائك؛ وقرِّرْ عند نفسـك أن الوضوء ليس شيئًا إلا مَسـحةً سماويةً تُسـبغها على كل أطرافك، ليشعرَ بها جسـمُكَ وعقلك؛ وأنك بهذه المسحةِ السماوية تستقبلُ اللهَ فى صلاتك سماويًّا لا أرضيًّا.

فإذا أنت استشـعرتَ هذا وعملتَ عليه وصـار عادةً لك، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء، كلما اغتممتَ أو تكرَّهتَ أو تَسخطت أو غَشيك حزنٌ أو عَرض لك وَسْـواس؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسـلتَ الحياةَ وغسلتَ الساعةَ التى أنت فيها من الحياة[1]. وترى الماءَ تحسـبه هدوءًا ليِّنًا لينَ الرِّضى، وإذا هو ينسـابُ فى شعورك وفى أحوالك جميعًا.

قال المسـيَّب: وقمتُ أنـا فجدَّدتُ وضوئى على هذه الصفـة بتلك النية؛ فإذا أنا عند نفســى مستضيءٌ برُوحٍ نَجميةٍ لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوءُ فى أضعف معانيه

(١) هذه فى رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هى أسراره عندنا.

هو ما عَلمنا من أنه الطهارةُ والنظافة، أما فى أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغَسـلُ الوقتِ الإنسانى مما يخالطه كلما مرَّت ساعات، وابتداؤُه للروح كالنبات الأخضر ناضرًا مطلولاً متراطبًا بالماء.

ثم صلى بنا الشـيخُ، وأمرنى بالمبيت مع الرجل، كأنما خشَـى البَدوَاتِ أن تبدو لـه فتَنقُضَ عَزْمَه، أو هو زادنى عليه لأُغيِّر شـخصَه وأبدِّلَ وحدتَه التى كان فيها، أو كأنَّ الشـيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانُه الروحىُّ قد تنبّهَ بأكمله فوضعنى كالتنبيه له.

وجاءنا العشاءُ من دار الشيخ فطعمنا، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العَتَمة وجلسنا نتحدث، فاستنبأته نبأه، فقال: مهلاً. ثم نهض فتوضأ الثالثةَ وقال: تالله ما أعرِفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السماء والنفس، وما أعرِف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر.

* * *

قال المسيَّب: وأصبحنا فغدونا على الإمام؛ ثم لزمنى الرجلُ فى بعض أمورى، ثم وافينا المسـجدَ صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ؛ وكان الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقود، لا أدرى من سـاقَهم وجَمَعَهم؛ كأنما علمت الكوفةُ أن رجلاً مسلمًا كفَرَ بالله كفْرَةً صَلْعاءَ، وأنه سـيحضُر درس الشيخ، وسيحضر الشيخُ من أجله، فهبَّتْ الرياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها.

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال:

رَوَينا أن رجلاً كانت به جِراحَةٌ، فأتى قَرَنًا له فأخَذَ مِشْـقصًا[1] فذَبحَ به نفسَـه؛ فلم يُصَـلّ عليه النبىّ ﷺ، وترك جنازتَه مطرودةً تقتحم مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

(١) القرن (بفتحتين): جعبة النشاب. والمشقص: سهم فيه نصل عريض.

روينا فى الحديث عن النبىّ ﷺ أنه قال: «الذى يخنقُ نفســه يخنقُها فى النار، والذى يَطْعُنُ نفسَه يطعن نفسَه فى النار، والذى يقتحم يقتحم فى النار!»

روينا عنه ﷺ: «من قَتلَ نفسَه بشىء عُذِّب به يومَ القيامة!».

روينــا عنــه ﷺ قال: «كان رجلٌ به جراحٌ فقتل نفســه، فقال الله: بَدَرَنى عبدى بنفسِه فحرَّمتُ عليه الجنة!».

قال الشــعبىّ: يقول الله: «بَدَرَنى عبدى بنفسه...» أىْ بدرنى وتألَّه فجَعَلَ نفسَه إله نفسِه، فقَبضَها وتوَفَّاها، فكان ظالما.

بدَرَنى وتَألَّه فى آخرِ أنفاسِه لحظةَ ينقلبُ إلىّ، فكان مع ظُلمِه مغرورًا أحمق!

بدرنى وتألّه حين ضاق، فَهوَّرَ نفسَهُ فى الموت من عجزه أن يُمسِكَها فى الحياة، فكان عاجزًا مع ظُلمه وغُروره وحُمْقِه!

بدرنى وتألَّه على جهله بسـرّ الحياة وحكمتها، فلم يَسْـتَح هذا المخلوقُ الظالم المغرور فى حمقه وعجزه وجهله - لم يستح أن يجيئنى فى صورة إله!

بَدَرَنى وتألَّه، فطَبَع نفسَــهُ طابَعهَا الأبدىَّ من غىٍّ وتمرّد وســفاهة، وأرسَلها إلىّ مقتولةً يرُدُّها عَلَىّ.

بدرنــى وتألَّــه كأنما يقــول: إن له نصفَ الأمــر ولى النصف: أنــا أحييْتُ وهو أمات...!

بَدَرَنى عَبْدى بنفسِه فحرَّمتُ عليه الجنة!

قال الشــعبىّ: وإنما تحــرم الجنةُ على من يقتل نفسَــهُ، إذ ينقلبُ إلى الله وعلى روحه جِنايةُ يده ما تُفارقُها إلى الأبد: فهو هناك جِيفةٌ من الجِيَف مســمومةٌ أبدًا، أو مخنوقــةٌ أبــدًا، أو مذبوحةٌ أبدًا، أو مهشَّــمةٌ أبدًا، يقول الله له: أنــت بَدَرْتَنَى بنفســك، وجريتَ معى فى القَدَر مجرىً واحدًا، فستخلد نفسُك فى الصورة التى هى من عملك، وما قتلتَ إلا حسَنَاتِك.

قال الشــعبىّ: ولو عرف قاتلُ نفســه أنه ســيصنع من نفســه جيفةً أبديَّة، فمن ذا الــذى يعرف أنه إذا فعل كــذا وكذا تحوَّل حمارًا وبقى حمارًا، فيرضَى أن يتحول ويُسرعَ ليتحوَّل؟

مِـن ذلك نظر النبـيُّ ﷺ إلى جنازة ذلك الرجل الذى قتل نفسـه، كما ينظر إلى ذبابة توجَّهت بالسـبّ إلى الشـمس والكواكبِ والأفلاكِ كلها، ثم جاءته تقول له: اشهدْ لى.

* * *

قال الشيخ: ومِمّ يقتل الإنسانُ نفسه؟ أمَا إن الموتَ آتٍ لا ريب فيه ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنـه، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة؛ فما ضررُ الخيبة الصغيرة فى أمرٍ من أمور الحياة؟

إن المرء لا يقتل نفسـه من نجاح بل من خيبة، فـإن كانت الخيبةُ من مال فهى الفقـر أو الحاجة، وإن كانت من عافَية فهى المرضُ أو الاختلال، وإن كانت من عِزَّة فهى الذل أو البؤس، وإن كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهى العجز عن الشهوة أو التخيلُ الفاسد.

وليـس يخيبُ الإنسـانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادة، وإلا فالفقـرُ والحاجة، والمرضُ والاختلال، والذلُّ والبؤس، والعجز عن الشهوة وفسادُ التخيل، كل ذلك موجودٌ فى الناس، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه، وهو الغبار النفسـيُّ لهذه الأرض على نفوس أهلها. ويا عجبًا! إن العُميانَ هم بالطبيعة أكثرُ الناس ضحكًا وابتسـامًا وعبثًا وسخريةً، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليسـت الخيبةُ هى الشر، بل الشرُّ كله فى العقل إذا تبلد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب، أو فى الإرادة إذا وَهَنَت فبقيتْ متعلقةً بما لم يُوجَد. أفلا ترون أنه حيـن لا يُبالى العقلُ ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنىً ولا أثرٌ فى النفس، ولا يخيب الإنسانُ حينئذ، بل تخيب الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى الإسـلامُ على أهله التَّرَفَ العقلىَّ والتخيَّلَ الفاسـد، ويشتدُّ كلَّ الشدة فى أمر الإرادة، فلا يترخص فى شـىء يتعلق بهـا، ولا يزال يُنميها بأعمالٍ يومية تشـدُّ منها لتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً له، فإن للعقل أمراضًا كثيرةً يقيس فيها

درجـات من الطيش حتى يبلغَ الجنونَ أحيانًا؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل؛ هى لِينُه إذا تصلَّب، وهى حركتُه إذا تبلد، وهى حِلْمُه إذا طاش، وهى رضاه إذا سَخِط.

الإرادة شـىء بين الروح والعقل، فهى بين وجودَين؛ ولهذا يكون بها الإنسـان بين وجودين أيضًا، فيستطيع أن يعيشَ وهو فى الدنيا كالمنفصل عنها، إذ يكون فى وجوده الأقوى وجود روحه، وأكبرُ همِّه نجاحه فى هذا الوجود.

وهـذا النجـاح لا يأتى من المـال، ولا تُحقِّقه العافية، ولا تُيسِّـره الشـهوات، ولا يُسَـنِّيه التَّخيلُ الفاسد؛ ولا يكون من متاع الغرُور، ولا مما عُمرُه خمسون سنة أو مائة سـنة؛ بل يأتى مما عُمْرُه الخلود ومما هو باقٍ أبدًا فى معانيه من الخير والحق والصلاح؛ فههنا يُعين المرضُ بالصبر عليه مما لا تعين الصحة، و يُفيد الفقرُ بحقائقه ما لا تفيد الثروة؛ وهنا يكون العقل الإنسانى عاملاً أكثر مما هو متخيِّل، وقانعًا أكثر مما هو طامع؛ وههنا لا موضعَ لغلبة الشـهوة، ولا كبرياء النفس، ولا حُبّ الذات؛ وهذه الثلاثُ هى جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى فى أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسانُ هانئًا حتى فى أحوال الشقاء.

بـالإرادة المؤمنةِ القويـة ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائـقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاءُ إلى خيال الإنسان وفسادِ الإنسان...

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سـهلاً مَرنًا مِطواعًا، واسـتحال عليـه أن يفهم فكرةَ قتل النفس أو يُقرَّها، فإن هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْـتطْرق إلى العقـل إلا إذا تحجَّر وانحصر فى غرض واحدٍ قد خـاب وخابت فيه الإرادةُ ففرغَت الدنيا عنده.

ولو أن امرَأً تم عزمُهُ على قتل نفسه ثم صابَر الدنيا أيامًا، لا نْفَسح عزمُه أوْ ركَّ؛ إذ يلين العقلُ فى هذه المدة نوعًا ما، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسـافةً ما، فتتغيـر حالةُ النفس هَوْنًا ما؛ فالصبرُ كالتروُّح بالهواء على العقل الذى يكاد يختنق من احتباسه فى معنى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبه «ومَثَلُ العقل فى هذه الحال مثَلُ القائم فى إعصارٍ لفَّه بالتراب لفًّا وسـدَّ عليه مَنَافِذَ الهواء، وحبسه فى هذا التراب الملتفِّ

حَبْسَ الحشرة فى جوف القصَبة؛ فهو على اليقين أنها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ فى الزمن لا حالةُ الزمن؛ وأن الهواء الذى جاء بهذا الهمّ هو الذى يذهب بهذا الهمّ.

وكما أن الأرض هى شىء غيرُ هذا الإعصار الثائر منها، فالحياة كذلك هى أمرٌ آخرُ غيرُ شقائها.

***

قال الإمام: وفى كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتابُ الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثالُ الروحىّ للفرد الكامل، والآخر المثال الروحىّ للجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١].

وأما الثانية فهى قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩].

ففى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسانُ فوق هذه الحياة الفانية، فتمرُّ همومُها حولَه ولا تصدِمه، إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته فكأنْ لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قُوىً بالغةً تصرِّفها كيف شاءت، فلا يجىء الهمُّ قوةً تسحق ضعفًا، بل قوة تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهرًا يقلِّده الناسُ وينتفعون منه بالأسوة الحسنة، والأسوة وحدها هى علم الحياة.

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكينًا، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقى على الناس دروسَ نفسه القوية.

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبرُ أسباب الشرِّ فى الناس، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظرًا لا يبعث إلا الحِقدَ والسخط، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما فى الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة. ومَن جَعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره؛

وبها تسقط الفروقُ بين الناس عاليهم ونازِلهم؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنيِّ العالم؛ جَمع بينهما الاتفاق العقليُّ وسقط ما عداه.

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الإنسان عُمْرَه الطويل أو القصير كأنه فى يوم يُصبح منه غاديًا على الحَشر والحساب؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ مَعْنِيٍّ إلا بأسبابه؛ وبهذا تكون أمراضُه وآلامُه ومصائبُه ليست مَكارِهَ من الدنيا، بل هى تلك المكارهُ التى حُفَّت الجنةُ بها؛ ولا يضرُّه الحرمان لأنه قريب الزوال، ولا يغُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضًا.

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يَسُود الإنسان على نفسه؛ ومن كان سيِّدَ نفسِه كان سيدَ ما حولها يُصَرِّفه بحكمه، ومن كان عَبْدَ نفسِه صَرَّفه بحكمِه كلُّ ما حَوْله.

قال الشعبىّ: وأما المثالُ الروحيُّ للجماعة الكاملة، فهو فى وصف المؤمنين بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان.

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قِبَلَ من حوله ممَّن يُعايِشُهم ويتصل بهم لا من قِبل نفسِه، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم «رُحَمَاءُ بينهم» تَقرَّرت العظَمةُ النفسيَّةُ للجميع على السواء؛ ومن كانوا كذلك لم يَحقْروا الفقيرَ بفقره، ولم يُعظموا الغنيَّ لغِناه، وإنما يُحَقِّرُون ويعظِّمون لصفاتٍ ساميةٍ أو حقيرة. وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدرًا من الغنيِّ الشاكر، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هو الذى يجعل فقرَه عند نفسه شيئًا ذا قيمة فى الإنسانية.

ومتى تَصححتْ آراءُ الجماعةِ فى هذه المعانى المؤلمةِ للناس بَطَلَ ألمها واستحالت معانيها، وصار لا يَبلَى معنىً من معانى الحياةِ فى إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنىً جديدًا فى مكانِه، وتصبح الفضيلةُ وحدها غايةَ النفس فى الجميع؛ وبذلك يَصبر الفردُ على مصائبه، لا بقُوّته وحده، ولكن بجميع القوَى التى حوله. أفلَا تَرَوْنَ أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يضع فى ألَم السلاحِ لذةً يحُسُّها لحمُ الشجاعِ البطل؟

* * *

قال المسـيَّب بن رافع: فقام رجلٌ من المجلس، فقال: أيها الشـيخ، وإذا فَسـد النـاس وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتقطَّعتْ بينهم الأسـباب، ولم يعـودوا «رُحَمَاءُ بينهم»، وشَمتوا بالفقير، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه فى ألسنتهم كما يَطرَح الشاعر فى لسانِه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه – فما عسـى أن يصنعَ المسـكينُ حينئذ وكلُّ شىء يدفعه إلى قتل نفسه؟

وقال الشـعبىّ: ههنا الرجاءُ فى الله واليوم الآخر، وهو شـعورٌ لا يُشترَى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على من أراده؛ والفقيرُ والمبُتلَى وغيرُهما إنما يَصنع كلٌّ منهـم مِثالَه السـامى؛ فالصبر على هذا العَنَت هو صبرٌ علـى إتمام المِثال، وإذا وقع ما يسوءك أو يَحزُنُكَ فابحث فيه عن فكرته السامية، فقلَّما يخلو منها، بل قلما يجىء إلا بها[1].

قال المسيَّب: فقام آخر فقال: وكيف يصنع امرُؤٌ آلتْ أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه، أو بَلَغ الهمُّ مبلَغه من قلبه فهمَّ أن يقتلَ نفسه؟

قال الشعبىّ: فليجعل الخوفَ خَوْفَيْن: أحدهما خوفُه عذاب اللهِ خالدًا مخلَّدًا فيه أَبدًا؛ فيَذهَبُ الأقوى بالأضعف. وإذا ابتُلى فليضمَّ إلى نفسـه مَن هو أشـدُّ بلاءً منه؛ ليكون همُّهُ أحدَ همَّيْن، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ.

إن الإنسـانَ ونفسَـه فى هذه الحياة كالذى أُعطِىَ طفلاً نَزِقًا طَيَّاشًـا عارمًا متمرِّدًا ليؤدِّبَه ويُحْكِمَ تربيتَه وتقويمَه فيثبت بذلك أنه أُسـتاذٌ، فيَعطَى أجرَ صبرِه وعمله، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفل ساعة فيقتله. أكذلك التأديب والتربية؟

■■■

(١) فى كتابنا (المساكين) كلام كثير فى هذه المعانى.

الانتحار

(٣)

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وكان الإمامُ قد شَغَل خاطرَه بهذه القصة فأخذت تَمُدُّ مدَّها في نفسه، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّن لها في هَمِّه، وتفتَّق بها ذهنُه عن أساليبَ عجيبة يتهيأ بعضُها من بعضٍ كما يلدُ المعنى المعنى. فلما قال الرجُلان مَقالهما آنفًا وأجابهما بتلك الحكمةِ والموعظةِ الحسنة، انْقدَح له من كلامهما وكلامِه رأىٌ فقال:

يا أهلَ الكوفة: أنشدكم اللهَ والإسلامَ أيُّما رجل منكم ضاق بروحه يومًا فأراد إزهاقَها إلا كشف لأهل المجلس نفسَه وصدَقَنا عن أمره؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْبًا ولا عابًا، فإنما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَر في التعليم، وقد يكونُ ابتداءُ المصيبة في رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لنفسه أو لغيره؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألْأَ في سيفٍ بَريقُه.

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ علمٍ يَعلمهُ الناسُ من اللذات والنِّعم؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدوابّ ما لا يكون مثلُه ولا قِرابُهُ في العقلاء، ولا تَبلغــُهُ القُوى الآدميةُ في أهلها؛ بَيدَ أنه لو أُريد علمٌ من البؤس والألم والحاجةِ لما وُجد شرحُهُ إلا في الناس، ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا في الخاصة منهم.

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمَروا المساكينَ في تَطاوُلهم بأعناقهم إلا من أنهم يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذى يجهلُ الحقَّ عليه في غناه ويحسبُ نفسه مُخَلًّى لشهواته ونعيمه، كما هو دابــةُ العالم الذى يجهل الحقَّ عليه في علمه، ويزعم نفسه مخلًّى لعقله أو رأيه، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ

القصير، وهل يصحُّ فى الرأى أن يقال هذا أطولُ من هذا لأن الأول فوق السُّلَّم والآخر فوق رجليه...؟

* * *

قال المسيَّب: فقام شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطَّى الرقابَ والناسُ يَنْفرجون له حتى وقف بإزاء الإمام؛ وتَفرّسْتُه وجعلتْ عينى تَعْجمُهُ، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهه شبابًا على وجهه، أبلجُ الغُرّة مُتهلّل عليه بشاشةُ الإيمان وفى أساريره أثرٌ من تقطيب قديم، ينطق هذا وذاك أن الرجلَ فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباحَ الذى فى قلبه مرةً ثم أضاءه. وعجبتُ أن يكون مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يومًا، وأنا أرى بعينىَّ نفسَه هذه مُنْبثِقةً فى الحياة انبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ.

وتكلم هذا الرجل فقال:

أمَّا إذ ناشدتَنا اللهَ والإسلامَ وميثاقَ العلم ووحىَ الأقدار فى حكمتها، فإنى محدِّثُك بخبرى على وصفه ورَصْفه: أملقْتُ منذ ثلاثين سنةً ووقف بى من الدهر ما كان يجرى، وأصبحتُ فى مزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَر يريد أن يشربَ منه، وعجزتْ يدى حتى لَظُفْرُ دَجاجةٍ فى نبشها الترابَ عن الحبَّة والحشرةِ أقدرُ منى، وطرَقَتْنى النوائبُ كأنما هى تُساكِنُنى فى دارى، وأكلنى الدهرُ لحمًا ورمانى عِظامًا، فما كان يقفُ علىَّ إلا كلابُ الطريق، ولى يومئذ امرأةٌ أعقبتُ منها طفلاً ويلزمُنى حقُّهما ولا أستطيعه، وكان بيننا حُبٌّ فوق المعاشرة والألفة قد تركنى من امرأتى هذه كالشاعر الغَزِلِ من صاحبته، غير أن الشعر فى دمى لا فى لسانى.

فلما نَهَكتْنى المصائبُ وتنزلَتْنى من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وانكسر وجهُها وتَقبَّضَ من هُزاله: وايمُ الله يا فلانة لو جاز أن يُؤكلَ لحمُ الآدمى لذبحتُ نفسى لتأكلى وتَدِرِّى على الصبىِّ، ولقد هممتُ أن أركبَ رأسى وأذهبَ على وجهى لتَفقدانى فتفقدا شُؤمى عليكما، ولكن ردَّنى قلبى، وهو حَبَسنى فى هذه الدنيا الصغيرة التى بينكما، فليس لى من الأرض مَشْرقٌ ولا مغربٌ إلا أنتِ وهذا الصبىّ. ولستُ أدرى والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضرَ فرَجعنا

من حطَبها اليابس، وعادت الشمسُ لا تَغْذوها بل تمتص منها ما بقى، ولا تستضىء لها، ولكن تَسْتَوقِدُ عليها!

إن من فَقَد الخيرَ ووقع فى الشر، حَرِىٌّ أن يكون قد أصاب خيرًا عظيما إذا قتل نفسَه فخلُص من الشر والخير جميعًا، لا يُكْدِى ولا يَنْجَحُ، ولا يألَم ولا يَلَذُّ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرْها. أمَا إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرَّةٍ واحدةٍ وفى شىء واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعًا أنواعًا. قد ماتت أيامُنا، وتركنا نعيش كالموْتى لا أيامَ لهم، وزاد علينا الموتى فى النعمة والراحة أنهم لا يتطفّلون على أيام غيرهم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فاستعبرَت المرأةُ باكيةً، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت: كأنك تريد أن تَفجَعَنَا فيك؟ قلتُ: ما عَدَوْت ما فى نفسى، ولكن هل بقى فىَّ من تُفْجَعين فيه؟ أما ذهب منى ذاك الذى كان لك زوجًا وكاسبًا، وجاء الذى هو همُّك وهمُّ هذا الصبىّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذُ ولا تُعطِى؟

أمْ واللهِ لكأنى خُلقتُ إنسانًا خطَأً، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريد إرجاعى إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيتُ بينهما؛ يمرُّ الناس بى فيقولون إنسانٌ مِسكين: وأحسب لو نطقت الكلابُ لقالت عنى كلبٌ مِسكين. يا عجبا! عجبًا لا ينتهى! أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فى تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤة...

فقالت المرأة: والله لئن حَيِيتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح، ولئن مُتَّ عليه إنه لأقبحُ وأشد.

فقلت لها: ويحكِ وماذا تَنظر العينُ المبصِرة فى الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء؟

قالت: ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمنُ بنور الله؟

قلت: فانظرى أنت وخبِّرينى ماذا ترَيْن. أترَيْن رغيفًا؟ أترين إدامًا؟أترَيْنَ دينارًا؟

قالت: واللهِ إنى لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك. أرى قمرًا سيكْشِفُ هذه السُّدفَةَ المظلِمةَ إن لم يَطْلُع فكأنْ قَدْ.

قال: فغاظتنى المرأةُ ورأيتُها حينئذ أشدَّ علىَّ بِقلَّة ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذات يدى؛ ولولا حُبّى إياها ورحمتى لها لأوقعتُ بها. واستحكم فى ضميرى أنَ أُرْهِقَ نفسى وأدعَها لما كُتِب لها.

وقلت: إنَّ جُبنَ المرأة هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلها، وللقَدَر يدٌ ضعيفةٌ على النساء تَصْفَعُهنَّ وتمسحُ دموعَهن، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلةٌ تصفع الرجلَ وتأخذ بحلقه فتعصِرُه.

* * *

قال: وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية فى هذه الخليقة؛ أرحامٌ تَدفَع، وأرضٌ تَبْلَع. فحضرَنى هذا القولُ تلك الساعةَ وشُبِّه لى، واعتقدتُ أن هذا الإنسانَ شىء حقيرٌ فى الغاية من الهوان والضَّعة: حملتْه أمه كُرْهًا، وأثْقَلتْ به كُرها، ووضعته كُرهًا؛ وهو من شُؤمِه عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ لم يخرج منها حتى يَضْربَها المخاضُ فتتقلَّبُ وتصيح وتتمزّقُ وتَنْصَدع؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها، وربما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه. وإذا هى ولدته على أىِّ حالَيْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثل المطَارقِ المحطِّمة، أو سَرَاح ورَواح كما يتيسَّر - فإنما تلده فى مَشيمةٍ ودماءٍ وقذَرٍ من الأخلاط كأنما هو خارجٌ من جُرْح. ثم تتناولُه الدنيا فتضعُه من معانيها فى أقبحَ وأقذر من ذلك كله. ثم يستوفى مُدَّتَه فيأخذُه القبرُ فيكون شرًّا عليه فى تمزيقه وتعفينه وإحالته.

قال: وحضَرنى مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهل الزِّنديق الذى يُعرفُ (بالبَقْلىّ) - إذ كان يزعم أن الإنسان كالبَقْلة، فإذا مات لم يَرْجِع. وقلت لنفسى: إنما أنتِ بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ فى أرضٍ نَشَّاشةٍ[1]، قَتلهَا مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها.

---

(١) الأرض النشاشة: هى السبخة التى فيها الملح والماء.

قال: وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوَجَّأ بها، فتُبادِرنى المرأةُ وتحولُ بينى وبينها؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظ، وكانت روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولى، لو سَمِعوا سمعوا لها شَهيقًا وهى تَفور؛ فما أدرى أىُّ مَلَكٍ هبط بوحْى الجنة فى لسانى امرأتى.

قلت لها: إنها عَزْمةٌ منى أن أقتلَ نفسى.

قالت: وما أريد أن أنْقضَها ولستُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها.

قلت: فخلِّى بين نفسى وبين المُدية.

قالت: كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبىّ فَلْنَقْضِ معًا؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ولا ندعُ الصبىّ يتيمًا يصفُعه من يُطْعِمه، ويضرِبه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فى أولاد الناس أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قلت: هذا هو الرأى.

قالت: فتعالَ اذبح الطفل...

* * *

قال المسيَّب بن رافع: وما بلغ الرجلُ فى قصته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة؛ وتوهم كلُّ أب منهم أن طفلَه الصغيرَ مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشُقُّ حَلْقَهُ بالصُّراخ: يا أبى يا أبى؛ أدركْنى يا أبى.

أمـا الإمـامُ فدَمَعتْ عيناه وكنتُ بين يديه فسـمعتُه يقول: إنَّـا لله، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُّ نسيتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافرًا ولا فاسقًا فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شـيئًا واحدًا هو طريقةُ صَنعته حَطبًا... كأن الشيطانَ لعنه الله يقول لأتباعه؛ جَفِّفوه.

وكانت هُنَيْهاتٌ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

* * *

قـال الرجل: ففتحـتُ عينى وقلبى معًـا ورَمقْتُ الطفلَ المسـكينَ الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين؛ ونظرتُ إلى مَجْرى السـكينِ مـن حلقِه وإلى مَحَزِّها فى رقبته اللّينة؛ ورأيتُه كأنما تَفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة، ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتيـن ألاّ أذبَحَه، ورأيته يتوسـلُ بيديه الصغيرتين كأنه عـرف أنه منى أمام قاتِلـه، ثم خُيِّل إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفـض ويصرُخُ من ألم الذبح تحت يد أبيه؛ تحت يد أبيه التَّعِس.

يا ويلتاه! لقد أخذنى ما كان يأخُذنى لو تهدَّمت السماءُ على الأرض، وحسبتُ الكونَ كله قد انفجر صُراخًا من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلاّ ربُّه أمام القاتل.

فَهرْوَلْتُ مسرعا وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبىّ وأنا أقول يا أرحمَ الراحمين. يا من خلـق الطفلَ عالَمُهُ أمُّه وأبـوه وحدهما وباقى العالم هباءٌ عنده. يـا من دبَّر الرضيعَ فوهبه مُلكًا ومملكةً وغنىً وسـرورًا وفرحًا، كلُّ ذلك فـى ثَدْى أمِّه وصدرِها لا غير. يا إلهى: أنْسـنِى مثلِ هذا النسـيان، وارزقْنى مثلَ هذا الـرزق، واكفُلْنى بمثل هذا التدبير فإنى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه.

* * *

قال الرجل: ولقد كنتُ مغرورًا كالجيفة الراكدة تحسبُ أنها هى تفور حين فارت حشَـراتُها. ولقد كنـت أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقَه، ولا يلتمسُـها إلا فى أقذرِ القذر.

وما كدت أمضى كما تسوقُنى رِجلاى حتى سمعتُ صوتًا نَدِيًّا مطلولاً يُرَجِّع ترجيعَ الوَرْقاء فى تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية:

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨].

قال: فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقتْ كلَّ ما كان حولى ولمسَتْ مِصباحَ رُوحى المنطفئ فإذا هو يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره، وارتفعتْ نفسى عن الجَدْبِ الذى كنتُ فيه وكأنما لفّتْنى سحابةٌ من السُّحب، ففى روحى نسيمُ الماء البارِدِ ورائحةُ الماء العذْب.

لعن الله هذا الاضطرابَ الذى يُبتَلى الخائفُ به. إننا نحسبه اضطرابًا وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفس وذَهابُ بعضِها فى بعض، وتَضَرُّبُ الشرّ فى الخير والخير فى الشرّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حد، ولا تمتازُ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكون الزمنُ على المبتَلى كالماء الذى جَمدَ لا يتحركُ ولا يَتَسايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائمًا لا يزال فى أوله يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكون هَوْلُهُ انتهى أو يُوشك.

قال الرجل: وكنت أرى يأسى قد اعْترَى كلَّ شىء، فامتدَّ إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن؛ فلما سكَن ما بى إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام فى مكانٍ من الأمكنة؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلْف هذا المكانِ، فذلك حُكمهُ حُكم الشمسِ التى تطلُع وتغيب على الدنيا لإحيائها، وحكمُ الماءِ الذى تَهْمِى السماءُ به ليسقىَ الأرضَ وما عليها، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماوية فى مَدَارِها لا تُمسِكها ولا تَزِنُها إلا قوةُ خالقها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنىء الحقيرِ فى كل ذلك؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك؟

وما الذى فى يد الإنسان العاجزِ من هذا النظام كلّه فيَسُوغَ له أن يقول فى حادثةٍ من حوادثه إن الخير لا يبتدئ وإن الشر لا ينتهى؟

تعتَرِى المصائبُ هذا الإنسانَ لتمحوَ من نفسه الخِسَّةَ والدناءة، وتكسِرَ الشرَّ والكبرياء، وتَفثَأ الحدَّةَ والطيش؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيدَ بها طيشًا وحدَّة، وكبرياء وشرًّا، ودناءةً وخسة، فهذه هى مصيبة الإنسان لا تلك.

المصيبةُ هى ما يَنْشأ فى الإنسان من المصيبة.

* * *

قال: وردَّدت الآية الكريمةَ فى نفسى لا أشبعُ منها، وجعلتُ أُرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبه وأشجاه؛ فكانت نفسى تهتزُّ وترتجُّ كأنما هى تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب.

صبرُ النفسِ مع الذين يمثِّلون روحانيتَها تمثيلاً دائمًا بالغَداة والعشِيّ، وعلى نور الحياة وظلامها، يريدون وَجه الله الذى سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مال أو متاع. وتقييدُ العينيـن بهذا المثَل الأعلى كما يكون الأمرُ فى الجمال والحب؛ والربطُ على الإرادة كيلا تَتَفَلَّتَ فتُسِـفَّ إلى حقائر الدنيا المسـماة هُزُءًا وتهكمًا زينةَ الدنيا، تلك التى تشـبه حقائقَ الذباب العالية... فتكونُ قَذرةً نجسـةً، ولكنها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخَلْق الذُّبابى...

تلك والله هى أسـبابُ السـعادة والقوة. أما المصائبُ كلها، فهى فى إغفالِ القلب الإنسانى عن ذكر الله.

* * *

قـال: ولما صحَّـت تَوبتى، وقَوِىَ اليقينُ فى نفسـى، كَبُرَت روحى واتسـعت، وانبعثـت لها بواعث من غير حقائق الذباب، وأشـرق فيها الجمالُ الإلهىُّ سـاطعًا من كل شـىء، وكان الصبحُ يطلعُ علىَّ كأنه ولادةٌ جديـدة، فأنا دائما فى عُمر طفل، وجاءنى الخير من حيث أحْتَسـبُ ولا أحتسـب، وكأنما نمـتُ فانتبهتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحىُّ فى الزمن الحىّ.

ولقـد أفدْتُ مـن الآية طبيعةً لم تكن فىَّ، ولا يثبتُ معها الشـرُّ أبدًا، فأصبح من خصالى أن أرى الحاضرَ كلَّه متحركًا يمرُّ بما فيه من خيره وشـره جميعًا، وأسْتَشْعِرَ من حركته مثلما ترى عيناى من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحت رِحاله وهو يُغِذُّ السيَّر.

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشـى مطمئنًّا تائبًا متوكلاً حتى دعانى رجلٌ ذو نعمة ومُروءة وجاه، وكأنما كلّمه قلبُه أو كلمه وجهى فى قلبه فاستنبأنى، وبَثَثْتُه حالى واقْتَصَصْتُ قِصّتى. فقال: سـيُحييك الله بالطفل الذى كدتَ تقتله فارجع إلى دارك. ثم وجَّه إلىَّ

دنانير وقال: اتَّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال يبلغَ أشُدَّه. وقد صدق إيمانُه وإيمانى، فبارك لى الله ونما طفلُ المال وبلَغَ وجاوَزَ إلى شبابه.

* * *

قال المسيَّب: وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر، فقال الإمام: ما أشبه النكبَةَ بالبَيضة تُحسَبُ سجنًا لما فيها، وهى تحوطُه وتربِّيه وتُعينُه على تمامه، وليس عليه إلا الصبرُ إلى مدة، والرضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرجُ خَلقًا آخر.

وما المؤمنُ فى دنياه إلا كالفَرْخ فى بَيضته، عملُه أن يتكوَّن فيها، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل.

■■■

الانتحار

(٤)

قال المسيَّب بنُ رافعُ: ومدّ الإمامُ عينَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس؛ ثم جَلى بنظــره كأنما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَلَ، والصدق إذا كَذِبَ؛ ثم ردَّ بصرَه عَلَيَّ كأنه يُعَجِّبُنى من عجبِه؛ ثم سَجَا طرْفُه كأنما أنكرَ رأىَ عينيه فهو يلتمسُ رأىَ قلبه. وتبيَّنتُ فى وجهه انقباضًا خَيَّل إلىَّ أن الشيطانَ جاءه بهذا الرجل يُفْحِمُهُ به، يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحين يتحمَّس فى دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لا غِنى عنه فى إنشاء قصةِ كُفْر!

هذا هو ضيفُنــا (أبو محمد البَصْــرى)* يَتَخَوَّضُ الناسَ ليجــيءَ فيحدِّثَنا حديثَه فى قتْل نفســه والاثْــم برّبه؛ فلو قيل لى: إن قَوْسَ السـماء بأحمرهِ وأصفرِه وأزرقِه وأخضــرِه، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذارًا؛ لكان هذا كهذا فى تعاظُمِه وإنكارِه والعجَب منه؛ فأبو محمد من الرجالِ الحُمْس[1] الذين لو كَفَر أحدُهم ثــم قيل «إنه كفر»، لقَصَّــر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُــنْعتَها، كما يقَصِّر لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألَّى أن يعملَ عملاً يَخرجُ به من الكون، فلا يبقى فى أرضٍ ولا سماء ولا تناله يدُ الله! إن فى لفظ الكفر مع ذاك، وفى لفظ الجنون مع هذا – شيئًا من نفاق العقل وتأدُّبه فى أداء المعنى الأخرقِ الذى لا يُشْبِهُهُ جنونٌ ولا كفر.

ونعوذُ بالله من خذلانه؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ فى تشدُّده وإيغاله فى الدين – كالذى يصنعُ حبلاً يَفْتِلُه فَتلاً شديدًا فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق، ليكونَ أشدَّ له وأقوى،

---

* يعنى المؤلف بأبى محمد البصرى هذا صديقنا الأسـتاذ (م) ومن أجله أنشـأ هذه المقالات وقد سـبقت إشـادتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسـه – فانظر كل ذلك فى موضعه من كتابنا (حياة الرافعى) وأكثر ما يأتى فى هذا الفصل على لسان «أبى محمد البصرى» فهو من قوله بحروفه إلا قليلا من قليل.

(١) أى المتحمسين فى دينهم.

ثم يُجاذبه الشـيطانُ حَبْلَه، فإذا هو كان فى الوهَـن مثلَ العنكبوت اتخذتْ بيتًا فى سَـقْف حدّاد؛ فرأته يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حَلْقةً فى حلْقة، فذهبتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطًا فى خيط تزعمه سلسلة... !

إن مع كل مؤمن شـيطانَه يتربَّصُ به، فلهذا ينبغى للمؤمن أن يكونَ فى كل ساعة كالذى يشـعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة، فهو أبدًا محترِسٌ متهيّئٌ متجددُ الحواسّ مُرْهَفُها يسـتقبل بها الدنيا جديدةً على نفسـه بين الفترة والفترة: ومن هذا حِكمةُ أن يؤذنَ المؤذّن وأن تُقام الصلاةُ مرارًا فى اليوم، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن: الآن أبدأ إيمانى أطهرَ ما كان وأقوى.

***

وقـال الإمام: هيه يا أبا محمد! فقال البَصْرى وقد رأى الكراهةَ فى وجه الإمام: لا يُفْزِعنّك أيها الشيخ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن؛ وليس للأقـدار لغةٌ فتجرىَ على ألفاظنا؛ وقد نُسـمى النازلةَ تنزل بنا خسـارًا وهى ربح، أو نقـولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقةً تَيسَّـرتْ لتبديل الفكر. إنما لغةُ القدَرِ فى شىء هى حقيقةُ هذا الشىء حين تظهر الحقيقة؛ وكأيّن من حادثة لا تُصيب امرأً فى نفسـه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها. فتكونَ أعمالُ الطبيعة المعاديةِ أسبابًا فى أعمال العقل المنتصر.

وكثيرٌ من هذا البلاء الذى يُقْضَى على الإنسـان، لا يكون إلا وسائلَ من القَدر يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِه الخاصِّ به، فإن هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها، ولكن دائرةَ الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحدَه. والسعيدُ من قرَّ فى عالَمه هذا واستطاع أن يحكـم فيه كالملِك فى مملكته، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها؛ والشـقىُّ من لا يزال ضائعًا بين عوالم الناس، ينظر إلى هذا الغنىِّ، وإلى ذاك المجدود، وإلى ذلك الموفَّق، وهو فى كل هذا كالأجنبىِّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله، إذْ كلُّ شىء يصبح أجنبيًّا عن الإنسان ما دام هو أجنبيًّا عن نفسه.

لقد كنتُ ضالاً عن نفســى وعالَمِها، فكنتُ فى هذه الدنيا أستشـعر شعورَ اللِّص، أشياؤُه هى أشياءُ الناس جميعًا؛ واللصّ ينظر إلى أموال الناس بعينَى شاعرٍ مُتَحَبِّب كَلِف، وهى تنظر إليه بعينىْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذِر.

كنــتُ والله إن ضِقْــتُ بالناس أو وَسِــعْتُهم؛ رأيتُ فى ذلك معنــى من ضيق اللص وسَـعَتِه؛ هو على أىِّ حالَيه لا ينظر فى أعماق نفسه إلا شخصًا متواريا تحت الظلام يتسلَّلُ فى خَشْيَة وحذَر!

وكنتُ نَزِقًا حديدَ الطَبع سـريعَ البادرة؛ ومَن فَقدَ عالم نفســه وكان فى مَثَلِ اللص الــذى ذكرتُ؛ فإن هذه الطباع تكون هى أسـلحته يَدْفَع بها أو يعتدى. وما قطُّ تمّكن إنســانٌ من نفســه وأحاط بها ونفذ فيها تصرُّفه؛ إلا كان راضيًا عن كل شىء إذ يتصل من كل شــىء بجهته السامية لا غيرها، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشـياء؛ فما يــرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحانًا لفضائلــه وإثباتًا لها. وقد يكون عدوُّك فى بعض الأمور عينًا لك فى رؤية نفسك؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسَّةِ ونعمتُها.

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه – لأدركْنا ســرَّ الكمالِ الإنسانى؛ وهو أن يَقَرَّ الإنســانُ فى عالَم نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شــىء إلهــى، ليس فيه إلا قانونُه الواحدُ المســتمرُّ به إلى جهــة الكمال، المرتفعُ بــه مــن أجل كماله عن دوافع غيره؛ فنَظَرُ الإنســان إلى نقص غيــره هو أولُ نقْصه. والمؤمنُ كالغصن؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفســه، وإن عَطَلَ لم يَشْـحَذْ ولم يحسُدْ واستمرَّ يعمل بقانونه.

ولقد نشـأتُ فى مَغْرِسٍ كريم، على صورة من الحياة تُشبه صورةَ الثمرة الحُلوة، اجتمع لها من طبيعة مَغرسها ومَرْتَبتها ما تتعيَّن به من حلاوة ونَكْهةٍ ومَذاق؛ فلما عَقَلْـتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ فجاريتهم وخالطتهم، رَأيُتنــى منهم كالتفَّاحة ملقاةً فى البصَل... وكانت التفاحةُ حمقــاءَ فزادت حُمقًا، وكانت حديدةً فزادت حِدّة، وظنَّت أن الحكمــة قد مَسَـخَتْ فى الدنيا وبدَّلتْ إذ خلَقــت البَصَلة بعد أن خلقت التفاحة؛ ومــا عَلِمَتْ الخرقاءُ أن الكمالَ فى هذه الحياة مجموعُ نقائص، وأن للجمال وجهين:

أحدُهما الذى اسـمهُ القبح؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا؛ وأن البصلة لو أدركتْ ما يريد الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لسَـمَّتْ نفسـها هى التفاحَة، وقالت عن هذه إنها هى البصلة!

ولما رأت تفّاحتى أنها عاجزةٌ أن تجعلَ الشـجرَ كله فى مثل مرتبتها ومغرسِـها – قالت: إن الأمرَ أكبرُ من طبيعتى، وما دام سـر الكون مُغْلَقًا فلا تعريفَ له إلا أنه سِـرٌّ مغلَق، ولْيَبْقَ كلُّ شـىء فى طبيعة نفســه، فعلى هذا يَصلُح كلُّ شـىء ولو فى نفسه وحدها.

***

قــال أبو محمد: ولكن بقيتْ وَحْشــةُ الدنيــا وجفوَتُها، إذ لم أكـن اهتديتُ إلى عالَمى، ولا تأكَّدَتْ عقيدتى بنفســى؛ فكان كل ما حولى مُنْبجِسًـا فى رُوحى بِشرِّه، وكانــت الدنيا بهذا كالمتطابِقةِ فى رأيى علــى معنى واحد، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَبًا متعفِّفًا؛ وما أشبَه فراغَ الرجولةِ من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هى الرجولةُ البليدة!

والمــرأة تُضاعِفُ معنى الحياة فــى النفس، فلا جَرَمَ كان الخَــلاءُ منها مضاعَفةً لمعنــى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلــم وجَهلَه مَن جَهِل، فكنت أعيش من الكون فى فراغ ميّــت، وكنــت أُحِسُّ فى كل ما حولى وحشــةً عقليةً تُشـعرُنى أن الدنيا غيرُ تامَّة؛ وكيف تتمُّ فى عينى دنيا أراها غيرَ الدنيا التى فى قلبى؟

وعرفْــتُ أن كلَّ يوم يمضى على الرجل العَــزَب المتعفِّف لا يمضى حتى يهيئ فيه مرَض يوم آخرَ. ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالِكة، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحىّ الذى نَقَضَ آيَتها وافْتَاتَ عليها، وجعَلَ نفسَه كالإله لا زوجةَ له ولا صاحبة!

وايْــمُ الله إن الشـيطانَ لا يفرح بالرجــل الزانى وبالمرأة الزانية مــا يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسـلوبهما، أما فى هذين فالشيطانُ رذيلةٌ فى أسلوب فضيلة..! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم!

وقد عشتُ ما عشتُ بقلب مُغلَق وعقلٍ مفتوح؛ وليتنى كنت جاهلاً مغلقًا عقلُهُ، وكان قلبى مفتوحًا لأفراح هذا الكونِ العظيم!

ومضت أيامى يَضْربُ بعضُها فى بعض، ويُمرِضُ بعضُها بعضًا حتى انتهت مُنتهاها، وجاء اليومُ المُدْنَفُ الهالكُ الذى سيموت...

أصبحتُ فقلت لنفسى: كم تعيشين ويحك فى أحكام جسد مُختلّ لا تَصْدُقُ أحكامُه، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معكِ فى طبيعته؛ ففيم اجتماعُكما إلا على بلائى ونكَدى؟

لم تصطلحا قطّ على واجبٍ ولا لذّة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدُوَّان لا همَّ لكليهما إلا إفسادُ المسرَّةِ التى تَعْرِضُ للآخَر. وما أدرى بمن يسخَرُ الشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذى يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى اقترافَها، كالفاجر الذى يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحكِ يا نفس! إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدّم لى إلا رغيفًا وقالت: املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرَك. آه، آه! مُمْكنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلات[1]؛ إن هذا لا يُلْبِثُنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسِكنى على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر.

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همِّى وكبيرُه، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهَلكةِ التى لا باقيةَ لها، فإن وجهى المتَكلِّحَ المتقبِّضَ يَدُلُّ منى على أعصابٍ مُحتضرَة نَهَكتْها أمراضُها ووساوسُها، وإنما وجهُ الإنسان فى قُطوبه أو تَهلُّلِه هو وجهُه ووجهُ دنياه تَعبسُ أو تبتسم.

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة؛ فإن حِبَالةَ الصَّيد - صَيدِ الوحش - لا تكون من خَيط الإبرة...! وأرانى أصبحت كإنسان حجَرىّ ليس فى طبيعته الالتواءُ إلى يمينِ الحياة ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إلىَّ من صلابتى أنى الأسد، ولكنى أسدٌ من حجَر، لا تَفرِضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد!

* * *

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله فى الباقيات مستحيل.

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسى فى هذا الحِوار كالميّتة، لا تُجيب ولا تعترض ولا تُنكِر، وكنتُ أظنّها تُرَاودُنى على الحياة أو تردُّنى عن غوَايتى؛ فملأنى سكونُها جزَعا، وأيقنتُ أن الشيطانَ بينى وبينها، وأنه أخذ بمَنَافذِها، فأردتُ الصلاةَ فَثقُلْتُ عنها ورأيتُنى لا أصلُح لها، بل خُيِّل إلىَّ أنى إذا قمتُ إلى الصلاة فإنما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة!

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى إليه، ثم يأخذنى ويردُّنى، حتى توَهمتُ أنى جُننْت، وكأنما كان يريد اللعينُ بقيَّةَ إيمانى يجاذبُنى فيها وأُجاذبه، فلم ألبثْ أن مسّتنى خَبالٌ وألقيتُ هذه البقيةَ فى يديه!

ثم أفَقتُ إفاقةً سريعة، فرأيت (المصحفَ) يَرقُبنى قريب، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له: امنع الضربةَ عن قلبى. بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خَصمى فى موقفى لا ظَهيرى؛ كأنى جعلتُه مصحفًا عند زِنديق، فكان كلُّ إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفْتُ عن حَمل المصحف كما ثقلتُ عن الصلاة، فبقى الطاهر طاهرًا والنجسُ نَجسًا.

ولم تكن نفسى فىَّ ولا كنتُ فيها؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو، غير أنه هو ما يمكنُ أن يكونَ معقولاً من تَخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة: بقايا شعورٍ ضعيف، وبقايا فهم مريض، تَتَصَاغَرُ فيهما الدنيا، ويَتَحَاقَرُ بهما العقل.

فلما انتهيتُ إلَى هذا لم أعقلْ ما عملت، وكانت المُوسى قد أصابت من يدى عِرْقا ناشزًا مُنْتَبرًا، ففار الدَّمُ وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِبَ عنه الصخرُ فانشقَّ فانبَثق. وتحقَّقْت حينئذ أنه الموتُ فنظرتُ فرأيت...

***

قال المسَّيبُ راوى القصة: وتجهَّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عندما قال: «فنظرْتُ فرأيت».

وارتجَّ المسجدُ بصَيحةٍ واحدة: فرأيتَ ماذا؟ رأيتَ ماذا؟

وبَعَثَـتَ الصيحةُ أبا محمد فقال: رأيتُ ثلاثةَ وجوه أَشـرفَتْ من المصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة، وكان أوسطُها كالقمر الطالع، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجنةِ كلها وجهًا لكانتْه فى نَضرَته وبشاشـته. وغَمْغَمَت الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسـمعْ منها شيئًا، ولكنَّ نظرَها إلىّ كان يؤدّى لى معانيَها، وكأنها تقول: «أكذلك المؤمن...؟».

ثم غابت وتخلَّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنها نقائضُ تلك، وأعوذ بالله من أوسطِها، لو تمثَّلت آياتُ الجحيم كلُّها وجهًا لكانتْه فى نُكْره وهَوْله، وخُيِّل إلىَّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سورةٍ مِن سُوَر المصحف، ففكَّرتُ، فَوَقَعَ لى مما قام فى نفسى من اللَّعنة أنها: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد: الآية ١].

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيـا وتَغيَّمتِ الدنيا، فأيقَنتُ أن آثامى قد أقبلتْ علىّ ظُلمةً بعد ظُلمَةٍ، والتمعَ شيءٌ أحمر، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ فى عينىّ كأنه شُعَلٌ تتلوَّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع، وحسبتُها طرائقَ ممتدَّةً لرُوحى تذهب بها إلى الحجيم.

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدة بقيتْ حيَّةً تأكلُ فى قلبى أكلَ النار، وهى: «كيف تجرأتُ فوضعتُ بينى وبين الله حُمْقى؟».

* * *

ويقولون: إن أختى قد رأتنى أَتَشَحَّطُ فى دمى فصاحت، وجاء الناس على صوتها، وكان فيهـم طبيب، فبعد لأيٍ ما، اسـتطاع حبْسَ الدم، واحتال حيلتَه حتى أَسَـفَّ الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلتُ أثوبُ نَفَسًا بعد نَفَس، وراجعتُ قليلاً قليلاً...

ثم طافت الحياةُ على عينىّ ففتحتهما، فإذا الأشـياءُ تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنها تَـتَخَلَّقُ جديدةً تحت بصرى، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله!

وتماثَلْتُ شـيئًا بعد سـاعات، فأحسسـتُ أن نفسـى قد رجعتْ إلىَّ ساخرةً منى تقول: كيف رأيتَ عَمَلَ العقل أيّها العاقل؟

وبدأت الحياة تتجدّد، فأقسـمتُ بينى وبين نفسـى أن أجدّد إيمانى بالله. ولم أكد أفعل حتى أحسستُ أن قوةَ الوجودِ كلَّها مستقرَّةٌ فى روحى، وخُيِّل إلىَّ أنى أنا وحدى

القويُّ علي هذه الأرض قُوَّةَ جبالِها وصخورها ، على حين كان جســمى ممدّدًا كالميّت لا يتماسَكُ من الضعف!

فأيقنتُ حينئذ ما أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر: أيقنت أنها مُعجزةُ الإيمان الجديد الغّضّ، المتَّصِل بالله لتَوّه كإيمان الأنبياء دون أن تلمَسه شهوة، أو تعترضَه خاطرة، أو تكدّرَه ذرَّةٌ واحدة من فكر أرضيٍّ دَنِسَ.

* * *

قال المسيّب: ثم جلس المتحدّث، وكان الناسُ فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ســاعةً، ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه؛ فسكت الإمام ولم يتكلم، ليدعَ كلَّ نفسٍ تكلمُ صاحبها.

■■■

الانتحار

(٥)

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ الناسُ قليلاً بعد خَبَرِ (أبى محمد البَصْرى)؛ إذ كان كلٌّ منهم قد جَمعَ بالَه لمَا سمع، وأخذ يَحْدِسُ فى نفسه ويراجعُها الرأىَ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذ العصر وما يكاد النهارُ يُشْعِرُنا بإدباره، حتى اعترَضَتْ فى شمسه الغُبرةُ التى تَعتريها إذا دَنتْ أن تَغرُب. وكان إلى يسارى فتىً رَيَّانُ الشباب، حسَنُ الصورة، وَضىءٌ مُشرِقٌ، له هيئةٌ وسَمْت، أقبلَ على الأيام، وأقبلت الأيامُ عليه.

فسمعنى أطِنُّ على أُذن (مجاهدٍ الأزْدىّ)؛ وكنت أعرفُه شاعرًا فى كلامه وشاعرًا فى قلبه؛ فقلت له: إنه لم يبقَ من النهار يا مجاهد إلا مثلُ صبرِ المحّبِّ دَنا له المَوْعِد؛ ولم يبقَ من الشمس إلا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغَلائلَها، ولكن بعد أن تُسقطها من هنا ومن هنا، لترى جمالَ جسمها هنا وهنا!

فاهتزّ الفتى لهذه الكلمات، وسالت الرقَّةُ فى أعطافه، وقال: يا عمّ، أما ترى ما بقى من النهار كأنه وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَه وليس حوله إلا كآبةُ الزمن...؟

قلت: كأن لك خبرًا يا فتى، فإن كان شأنُك مما نحن فيه فَقُصَّه علينا وعَلِّلْنا به سائرَ الوقت إلى أن تجِبَ الشمس، ولعلك طائرٌ بنا طَيرةً فوق الدنيا.

قال: فَمَهْ؟

قلت: تقومُ فتتكلم، فإنى أرى لك لسانًا وبيانًا.

قال: أو يَحْسُنُ أن أتكلم فى المسجد عن صَرْعةِ الحب وصريعِه، وعاشقةٍ وعاشق؟

فبادر مجاهدٌ فقال: ويحك يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعًا؛ إن المؤمن ليصلِّى بين يدى الله وكتابُ سيئاته فى عنقه منشورٌ مقروء. وهل أوقاتُ الصلاة إلا ساعاتٌ قلبيَّة لكلّ يوم من الزمن، تأتى الساعةُ مما قبْلها كما تأتى توبة القلب مما عملَ الجسم؟

إنما يتلقَّى المسـجدُ من يدُخلُه لسـاعتِه التى يدخله فيها، ولو أنه حاسَبه عن أمسِ وأوَّلَ منه وما خَلاَ من قبل، لطرَدُه من العَتَبة! إن المسجد يا بنىّ إنما يقول لداخلِه: ادخلْ فى زمنى ودَعْ زمنَك، وتعالَ إلىَّ أيها الإنسانُ الأرضىّ، لتتحقَّقَ أن فيك حاسَّةً من السـماء، وجِئنْى بقلبك وفكرك، ليَشْـعُرا سـاعةً أنهما فىّ لا فيك[1]. ولسنا الآن يـا بنىّ فى مُتحَدَّثٍ كندِىِّ القوم يتطارحـون فيه أخبارَهم، بل نحن فى مجلسِ عالم تكلمـتْ فيه رَقَبَةُ هذا ورقبة هذا بما سـمعْتَ؛ فقُم أنتَ فاذكرْ عِلمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيش الحبّ والشباب الذى يُشبه الكلامُ فيه أن يكون كلامًا عن الصعود إلى القمر والقبضِ من هناك على البرْق!

***

قال المسـيَّب: فانتهضَ الفتى، ورأيـت مجاهدًا يتنهَّد كأنمـا انصدعتْ كَبِدُه: فقلت: ما بالُك؟ قال: إن شبابى قد مرّ علىَّ الساعةَ فنَسَمْتُ منه فى بُرْدَة هذا الفتى، ثم فقدْتُه فقدًا ثانيًا فهَرِمْتُ هَرَمًا ثانيًا، وجاءنى الحزنُ من إحساسـى بأنى شـيخٌ، حُزْنُ مَن هَمّ أن يدخل بابَ حبيبٍ ثم رُدّ...!

وتحدّث الفتى، فإذا هو يدُيرُ بين فَكَّيه لسانَ شاعرٍ عظيم ،يتكلم كلامَه بنفسَين: إحداهما بَشَريةٌ تصنع المعنى واللفظ، والأخرى عُلْويةٌ تُلقِىَ فيها النارَ والنور.

قال: إن لى قصةً أيها الشـيخ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذى دُفنتْ فيه معانيها؛ وقد تأتى القصةُ من أخبار القلب مُفْعَمَةً بالآلام والأحزان، لا يُراد بآلامها وأحزانها إلا إيجـادُ أخلاق للقلب يعيشُ بها ويتبدّل. والذى قُدّر عليه الحبُّ لا يكون قد أحبّ غيرَه أكثرَ مما يكون قد تعلم كيف يَنسى نفسَه فى غيره، وهذه كما هى أعلى درجاتِ الحبّ؛ فهى أعلى مَراتب الإحسان.

ومتى صَدق المرءُ فى حبّه كانت فكرتُه فكرتَين: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدة تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر؛ وهذه كما هى طبيعةُ الحب فهى طبيعةُ الدّين.

(١) ستأتى فلسفة المسجد فى مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب، وانظر مقالة (الله أكبر).

ولا شــىءَ فــى الدنيا غيرُ الحب يســتطيع أن يَنْقُلَ إلى الدنيا نــارًا صغيرة وجَنةً صغيرةً، بقدْر ما يكفى عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالة فوق البَشرية.

والفضائلُ عامَّتُها تعمل فى نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تَنقل إلا أقلَّه ويبقى فى الحيوانيَّة أكثرهُ: ولكنَّ الحبّ الصادقَ يقتلع الإنســانَ من حيوانيته بمرَّة واحدة، بَيْدَ أنه لا يكون كذلك إلا إذا قَتَله بآلامه؛ فهو كأعلى النسْكِ والعبادة.

كان من خَبرى أنى دُعيتُ يومًا إلى ما يُدْعى لمثْلهِ الشبابُ فى مجلس غناءٍ وشراب. يالهُ من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]، والبعوضةُ فى قصتى أنا كانت امرأة نَصرانيَّة.. قَيْنَة فلان المغنّية الحاذقة المحْســنة المتأدّبة، تحفَظ الخبرَ وتروى الشعر، وتتكلم بألفــاظٍ فيها حَلاوةُ وجهها، وتخلُقُ النّكتةَ إذا شــاءت خَلقَ الزهرة المتفتَّحة عليها سَقِيطُ النَدَى؛ وتجِدُّ بالحديث ما شاءت وتَهْزِل، فتجعل للكلام عقلاً وشهوةً تُضاعفُ بهما مَن تحدّثه فى شهواته وعقلهِ!

وستجرى فى قصتها ألفاظُ القصةِ نفسِها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم؛ فقد ذكر اللهُ الخمرَ بلفظ الخمر ولم يَقُل: «الماء الـذى فيه السُّــكْر»، ووَصفَ الشـيطانَ ولم يقل: «الملَك الذى عمِل عملَ المرأةَ الحســناء فى تكبُّرهــا»، وذكر الأصنامَ بأنها الأصنام، ولم يُســمِّها: «حاملة الســماء التى يصنعها الإنســان بيديه» وحكايةُ ما بين الرجل والمرأة هى كلامٌ يقبِّل بعضُه بعضًا ويلتزمُ ويتعانَق!

قال المســيب: فتبسم إمامُنا ونظرتْ عيناه تسألان ســؤالا. أما مجاهدٌ الأزدىّ فــكان مــن هِزّةِ الطَّرب كأنه علــى قَتَب بَعير، وقال: لله دَرُّه فتــىً، إن هذا لبيانٌ كحيلُ العَين...

ثم قال الفتى: وذهبتُ إلى المجلس وقد جعلتْه هذه المغنّيةُ من حواشيه وأطرافه كأنه تفسيرٌ لها هى. أما هى فجعلت نفسَها تفسيرًا لكلمةٍ واحدة هى: «اللذّة...»

قال المســيَّب: وطرب مجاهدٌ طربًا شديدًا، وســمعتُه يُخَافت بصوته يقول: «لله درُّها امرأة؛ هذه، هذه عَدُوّةُ الحُورِ العِين!».

ثــم قال الفتــى: وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلس إلى الشــرب، وما ذقتُ خمرًا قطّ، ولــن أتذوقَها ولو شــربها الناسُ جميعًا، ولــن أذوقَها ولو انقطع الغيــثُ ولم تَمْطُر الســماءُ إلا خمرًا؛ فإنى مذ كنت يافعًا رأيتُ أبى يشــربُها، وكانت أمى تلومه فيها وتشتدُّ فى تعنيفه وتحتَدِم، وكانا يتشــاحنان فينالُها بالأذى ويَنْدَرِئُ عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول. وسَــكِر مرة وغلبه السكرُ حتى ثارت أحشاؤه، فَذَرَعَه القَيْءُ فتوهَّمنى وعاءً، وجاء إلىّ وأنا جالسٌ فأمســك بى وقاءَ فى حِجْرى، حتى أفرغ جوفَه؛ وثارت أمّى لتنتزِعَه وأنشــأتْ تُعالجه عنى فتَصــارعَ جنونُه وعقلُها حتى كفَأته على وجهه كالإناء؛ فالتوى كالحيَّة بطنًا لظهر، واســتجْمع كالقُنفذ فى شَوكه، ثم لكَزَها برجله أســفلَ بطنِها فانقلبت، وأصاب رأسُها إجّانةَ[1] العجين فتثلَّم تثليمَ الإناء كأنما شُدِخَ ضربًا بحجَر، وانتثَر دماغُها على الأرض أمامَ عينىّ، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها فى الهواء، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهم أنها تحمينى وتدفعُه عنى؛ ثم سَكنتْ، ولو لم تمت من الشَّجَّةِ فى رأسِها لماتتْ من الضربة فى بطنها!

***

قال المسيَّب: وأطرق الفتى هُنَيهةً وأطرق الناسُ معه؛ فرفع مجاهد صوتَه وقال: رحمها الله! فقال الناسُ جميعًا: رحمها الله!

ثــم قال الفتــى: وكان عامَّةُ مَن فى المجلس يعرفون ذلــك منى، ويعرفون أنه لو ســاغ لإنسانٍ أن يشربَ دمَ أمِّه ما شربتُ أنا الخمر. فقالوا للمغنِّية: إن هذا لا يدخلُ فى ديوانِنا[2]. فنظرَتْ إلىّ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة؛ ثم قالت: تَشــربُ على وجهى؟ فقلتُ لها: إن وجهَك يقول لى: لا تشــربْ... فتضاحكَتْ وقالت: أهو يقول لــك غيرَ ما يقول لهــؤلاء؟ فهربتُ من كلامها بإطراقة أخــرى، ووَصلَت الإطراقتان

(١) هى ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب، وقد يوضع فيها الماء ليتوضأ منه، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما.

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

ما بينى وبين قلبها؛ وتنبَّه فيها مثلُ حُنوّ الأمّ على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتًا يشكوها إلى قلبها!

والتفتت لمن حضر وقالت لهم: لست أطِيبُ لكم ولا تنتفعون بى إلا أن تشربوا لى ولهُ ولأنفسكم، وانحطّ عليهم الساقى، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهى بين ذلك تغنِّيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهُها لهم من دُونى وإنما تُخالِسُنى النظرةَ بعد النظرة.

فوسوسَ لى شيطانى أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثل عَزْمتِكَ مع الخمر فإنما هما شىء واحد. ولكنى كنتُ أُحِدُّ النظرَ إليها، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المحبِّ للحبيب، ومرةً أغْضِى عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأنى بذلك كنت آخذها وأدَعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالت لى كالمُنكِرَة علىّ: ما بالُك تنظر إلىّ هكذا؟ ولكن هيئةَ وجهها جعلتْ المعنى: لا تنظرْ إلىّ إلا هكذا...!

وأسرع الشرابُ فى القوم وأفرطَ عليهم السُّكْر؛ فبقيتْ لى وحدى وبقيتُ لها وحدها؛ ثم تناولتْ عودَها وضمَّتْه إليها ضمًّا شديدًا أكثرَ من الضّم... وألمستْه صدرَها ونَهديها، ثم رنتْ إلىّ بمعنىً، فما شككْتُ أنها ضمَّةٌ لى أنا والعود؛ ثم غنَّتْ هذا الصوت:

ألا قاتلَ اللهُ الحمامةَ غُدْوةً
على الغصنِ؛ ماذا هيَّجتْ حين غنَّت
فما سكتتْ حتى أوَيْتُ لصوتِها،
وقلتُ: تُرى هذى الحمامةُ جُنَّتِ؟

***

وما وَجْدُ أعرابيةٍ قَذفتْ بها
صُروفُ النوى من حيث لم تَكُ ظنَّتِ...
إذا ذكَرتْ ماءَ العِضاهِ وطِيبَه،
وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خِبْتٍ أرنَّتِ...

بأكثر منى لَوعةً، غيرَ أننى
أُجمْجِمُ أحشائى على ما أجنَّتِ!

وغَنَّته غِناءً من قلبٍ يئنُّ، وصدرٍ يتنهد، وأحشاءٍ لا تُخفى ما أجنَّتْ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمى الدمعُ على صوتها، فيرتَعِش ويتنزّل قليلاً قليلاً حتى يئن أنينَ الباكية، ثم يعتلجُ فى صدرها مع الحب، فيتردد عاليًّا ونازلاً، ثم يرفضُّ الكلامُ فى آخره دموعًا تجرى.

* * *

قال المسيَّب: فنظر إلىّ مجاهد وقال: عدُوّةُ الجنةِ واللهِ هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنةُ من يكون معها. تقول له: كنتَ مع عدُوّتى!

ثم قال الفتى: وكان القوم قد انتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النوم وبقى نصفُ اليقَظةِ فى حواسِّهم، فكل ما رأوْه منا رأوه كأحلام لا وجود لها إلا خلف أجفانهم المُثْقَلةِ سكرًا ونُعاسًا. ووثبت المغنيةُ فجاءت إلى جانبى والتصقتْ بى، وأسرع الشيطانُ فوسوسَ لى: أن احذرْ فإنك رجلُ صِدْق، وإذا صدقتَ فى الخمر فلا تكذِبنَّ فى هذه، ولئن مسَسْتَها إنها لضَياعُكَ آخِرَ الدهر!

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطانى أسلم وأُعِنْتُ عليه كما أعين الأنبياء على شياطينهم. ولكن اللعينَ مضى يصُدُّنى عن المرأةِ دون معانيها، وكان منى كالذى يُدنى الماءَ من عَيْنى القتيل المتلهِّب جَوفُه ثم يجعله دائمًا فَوْتَ فمه، ولقد كنتُ من الفُحولةِ بحيث يبدو لى من شدةِ الفَورةِ فى دمى وشبابى أنى أجمع فى جسمى رجالاً عِدَّة، ولكن ضَرَبنى الشيطانُ بالخجل فلم أستطع أن أكونَ رجلاً مع هذه المرأة.

وعجبتْ هى لذلك وما أسرعَ ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة...! فقالت أحببتُك ما لم أحبَّ أحدًا؟، وأحببتُ خجَلكَ أكثرَ منك، فما يسرُّنى أن تأثم فىَّ فتدخلَ النارَ بحبى، ولو أنك ابتعتنى من مولاى؟ فقلت: بكم اشتراك؟ قالت: بألف دينار! قلت: وأين هى منى وأنا لو بعتُ نفسى ما حصَلتْ لى؟

فتمَّمَ الشـيطانُ موعظتَه، وقالت وأشارت إلى قلبها: إن قلبى هذا قَبلَك غنيًّا كنتَ أو فقيرًا، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراء أوّلَ ما تحبّ، وأنا – كما ترانى – أعيش فى السيئات كالمُكْرَهةِ عليها، فسأعمل على أن تكون أنت حسنَتى عند الله، أذهبُ إليه حاملةً فى قلبى حُبى إياك وعفتى عنك، ولئن كانت عفةُ من لا يشـتهى ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملة، إن عفةَ من يجدُ ويشـتهى لَتُعدُّ دينًا بحاله. ولا يزالُ حبى بِكرًا، ولا أزال فى ذلك عذراءَ القلب، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنى من أجْل أنفسهم، فألْبِسْنيه أنتَ من أجلك خاصة؛ وإن قوة حبى كالذى سـيتألم بك ويتعذّب منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك، ستكون هى بعينها قوةً لفضيلتى وطهارتى.

ثم تناولتْ عودَها وسوَّته وغنتْ:

فلو أنَّـا عـلـى حَـجَـرٍ ذُبِـحْـنَـا جَرَى الدّمَيَان بالخَبَر اليَقِينِ[1]

وجعلـتْ تتـأوّه فى غنائها كأنها تُذَبـح ذبحًا، ثم وضعت العـودَ جانبًا وقالت: ما أشـقانى! إذا اتفقت لى سـاعةُ زواجى فى غير وقتها فجاءت كالحلم يأتى بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء.

ثم سـألتنى: ما بالكَ لم تشـرب الخمر ولـم تدخل فى الديوان؟ فبدرَ شـيطانى المؤمن... وساق فى لسانى خبرَ أمى وأبى، فانْتَضَحَت عيناها باكيةً وتمَّ لها رأىٌ فىّ كرأيى أنا فى المسكر؛ وكان شيطانُها بعد ذلك شيطانًا خبيثًا مع أصحابها، وبَطْرِيقًا زاهدًا معى أنا وحدى!

ورأيتها لا تجالسـنى إلا مُتَزايِلةً كالعـذراء الخفرة إذا انقبضتْ وغطت وجهَها، وصـارت تخافنى لأنها تُحبنى، وهَيَّبَنى الشـيطانُ إليها فعـادت لا ترى فىّ الرجلَ الذى هو تحت عينيها الثَّيِّبتين... ولكن القِدّيسَ الذى تحت قلبِها البِكر.

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دمياهما على طريق واحد ثم التقيا، حكم عليهما أنهما كانا متحابين، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشانئين. وما أجملها خرافة وأشعرها.

ولـم يَعْدُ جمالى هو الذى يُعجبهـا ويُصبِيها، بل كان يعجبهـا منى أنى صنعة فضيلتها التى لم تَصنع شيئًا غيرى.

وانطلق الشـيطانُ بعد ذلك فىَّ وفيها بدهائه وحُنْكَتِه وبكلّ ما جَرَّب فى النسـاء والرجال من لَدُن آدمَ وحوّاءَ إلى يومى ويومها!... فكان يجذبنى إليها أشدَّ الجذب، ويدفعهـا عنـىّ أقوى الدفع، ثم يُغرينى بكل رذائلهـا ولا يغريها هى إلا بفضائلى. وألْقى منها فى دمى فكرةَ شـهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألقى منى فى دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرَّة. وكنت ألقاها كلّ يوم وأسمع غناءها؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كل ما فيها لكلّ ما فىّ، حتى لو التصقَ جسمُها بجسمى وسَارَ البَدَنُ البَدَنَ، وهَمَسَ الدمُ للدم، لكان هو هذا الغناء الذى تغنّيه.

وأصبحت كلما اسـتقمت لحبها تَلَوَّتْ عَلَىَّ؛ إذ لسـت عندها إلا الأملَ فى المغفرةِ والثواب، وكأنما مُسخْت حَبْلاً طولُه من هنا إلى الجنة لتتعلَّق به. وعاد امتناعُها منى جنونًا دينيًّا ما يفارقُها، فابتلانى هذا بمثل الجنون فى حبها من كلَف وشغَف.

وانحصرتْ نفسـى فيها، فرجعت معها أشدّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مَدّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهايةَ العالَم، وما ههنا إلا آخرُ بصرِه وأوّلُ جهلِه. وانفلتَ منى زِمامُ روحى، وانكسر ميزانُ إرادتى، واختلَّ استواءُ فكرى، فأصبحتُ إنسانًا من النقائـض المتعادية أجمُع اليقين والشـكَّ فيه، والحبَّ والبغضَ له، والأملَ والخيبةَ منه، والرغبةَ والعُزُوفَ عنها، وفى أقلِ من هذا يَخْطفُ العقل، ويَتَدَلَّه من يتدلَّه.

ثـم ابتُليتُ مع هـذا اللَّمَمِ بجنون الغيظ مـن ابتذالها لأصحابهـا وعفتها معى، فكنتُ أتطاير قِطعًا بين السـماء والأرضِ، وأجِدُ عليها وأتنكَّرُ لها، وهى فى كل ذلك لا تزيدنـى على حالة واحدة من الرَّهبانية؛ فكان يَطير بعقلى أن أرى جسـمها نارًا مشتعلة، ثم إذا أنا رُمتُه استحال ثلجًا، وقَرّحَت الغَيرة قلبى وفَتَّتَت كِبدى من عابدةِ الشيطان مع الجميع، الراهبةِ مع رجلٍ واحدٍ فقط!....

ورجعت خواطـرى فيها مما يُعْقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنـت أرى بعضَها كأنه راجعٌ من سـفرٍ طويل عن حبيـبٍ فى آخر الدنيا، وبعضَها كأنه خـارجٌ من دار حبيبٍ فى جِوارى، وبعضَها كأنه ذاهبٌ بى إلى المارستان...!

ورأيتُنـا كأننـا فى عالَمين لا صلةَ بينهما، ونحن معًـا قلبًا إلى قلب، فذهبَ هذا بالبقية التى بقيت من عقلى؛ ولم أرَ لى مَنْجاةً إلا فى قتْلِ نفسـى لأزهقَ هذا الوحش الذى فيها.

وذهبتُ فابتعتُ شَـعيرات من السمّ الوَحِىّ الذى يُعْجِلُ بالقتل، وأخذتُها فى كفى وهممـتُ أن أقْمَحَها وأبتلعَها، فذكرتُ أمى، فَظَهَرَت لخيالى مشـدوخةَ الرأسِ فى هيئـة موتها، وإلى جانبها هـذه المرأةُ فى هيئة جمالهـا، وثَبَتتْ على عينى هذه الرؤيا، وأدَمْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل، وإذا المرأةُ غيرُ تلك، وطَغَتْ عِبرة الموت على شهوةِ الحياة فمحتْها، وصَحّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هـذا الحب إلا أن تُقرَن فى النفس صورةُ امـرأةٍ ميتةٍ إلى صورة المرأةِ الحيَّة، وكلما ذُكِـرَتْ هذه جِىءَ لها بتلك، فإذا اسـتمر ذلك فإن الميّتـة تُميتها فى النفس وتُميت الشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدّ، فليجرّبه من شك فيه.

وانفتـح لى رأىٌ عجيب، فجعلتُ أتامل كيف آمن شـيطانى ثم كَفر بَعْدُ، على أن شـيطانها هى كَفَر فى الأول ثم آمن فى الآخر؟ فو الله ما كنتُ إلا غبيًّا خامدَ الفطنة، إذ لم يَسنَحْ لى الصوابُ حتى كدت أزهق نفسى وأخسر الدنيا والآخرة؛ فإن الشيطان – لعنه الله – إنما ردّنى عن الفاحشـة وهى ذنب واحد، ليرمينى بعدها فى الذنوب كلها بالموت على الكفر!

وردَّ إلـىّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلى. ومَن ابْتُلىَ ببلاء شـديد يزلزل يقينَه ثم أبصر اليقين، جاء منه شـخص كأنما خُلِقَ لسـاعته؛ فلعنْتُ شيطانى واستعذْتُ بالله من مكرِه، وألقيت السـمَّ فى التراب وغيَّبتُه فيه، وقلتُ لنفسى: ويحكِ يا نفس! إن الحياة تعمل عملاً بالحى، أفترضَين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفتِ وما علمتِ، ثم يكون عملُها بك أنت القعودَ ناحيةً والبكاءَ على امرأة؟

أيتها النفس، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصّاب، وبين سرقة لحم امراةٍ من دار أبيها، أو زوجِها، أو مولاها...؟

أيتـها النفس، إن أيمانَ أسلافِنا معنا؛ إن الإسلامَ فى المسلم.

* * *

قال المسـيَّب: وهنا طاش مجاهد واسـتخفه الطرب، فصـاح صيحةَ النصر: الله أكبر! وجاوبه أهلُ المسـجد فى صيحةٍ واحدة: الله أكبر! ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذّن لصلاة المغرب. الله أكبر...

■■■

الانتحار

(٦)

تتمة

قال المسـيَّب بنُ رافـع: وانفضَّ مجلسُ الشـيخ، ودَرَجَتْ بعده أعـوامٌ فى عدَّة الشهور من حَمْل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلَغها من خير الدنيا وشرّها، مما أعرفُ وما لا أعرف؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزدىّ، نسـمع الحَسَـنَ[1] ونأخذ عنه؛ فإنَّا لسائران يومًا فى سِكَّة بنى سَمُرَة، إذ وافقْنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبِلاً علينا، وكنا فقدناه تلك المدة، فأسرعَ إليه مجاهد فالتزمَه وقال: مرحبًا مرحبًا بذى نَسَـب إلى القلب. وسـلَّمتُ بعده وعانقته، ثم أقبلنا نسـأله، فقلت له: ما كان آخِرُ أوّلك؟ قال مجاهد: بل ما كان آخرُ أولها هى؟

فضحك الرجل وقال: ألنَّصرانية تعنى؟ قال: آخرُها من أولها كهذا منى؛ وأومَأ إلى ظله فى الأرض ممدوًا مشـبوحًا مختلِطًا غيرَ متميز؛ كأنه ثوبٌ منشـورٌ ليس فيه لابسـه، وكنا فى الساعة التى يصير فيها ظلُّ كلِّ شىءٍ مِثليْهِ فهو مَزْجُ المَسْخ بالمسْخ...

قال مجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يا رجل! كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا مـن أثْمانهـا؛ فنظرُه إلى فَراهـةِ الدابة من الدّوابّ وإلـى فراهة الجارية من الرقيق سواء.

قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا السـاعةَ على طريـق الإيوان[2] الذى يلتقى فيه تجارُ العراقِ والشـام وخُراسـان؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحَسُنتْ بها حالى

---

(١) الحسن البصرى: الإمام العظيم.

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة)، وكذلك كانوا يستعملونها.

وتَأَثَّلــتُ منها؛ غيــر أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر، فليس يَــزِنُ ولا يَقبِض، ولا يبيع ولا يشترى. أما «تلك» فأصبحتْ نسيانًا ذهب لسبيله فى الزمن!

قال مجاهد: فكيف كنتَ تراها وكيف عدْتَ تنظر إليها؟

قال: كنت أنظر إليها بعينىّ وأفكارى وشهواتى؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء، وكانت ألوانًا ألوانًا ما تنقضى، فلما دخل بينى وبينها الزمنُ والعقل، أبعدَها هذا عن قلبى وأبعدها ذاك عن خيالى؛ فنظرتُ إليها بعينىَّ وحدهما، فرَجعتْ امرأة ككل امرأة؛ وبنزولها من نفســى هذه المنزلةَ، رجعتْ أقل من نفســها ومن النساء، وهــذه القلَّةُ فيما عرفــتُ لا تُصيب امرأةً عند محبِّها إلا فعلت بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبر!

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التى كانت فيها... وأخطرْتَ فى ذهنك نِيَّةً مما بين الرجال والنساء، فهل تُراك واجدًا الشهوةَ والميلَ إلا النَّفْرةَ والمعْصِية؟ إن هذا الذى كان الحبَّ والهوى والعشقَ، هو بعينه الذى صار الإثم والذنبَ والضِلالة!

قال مجاهد: كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هى فى نفسك؟

قال: يا رحمةً قد رحِمْتُ بها فى نفســى يومئذ! أمَا والله إن الذى يقتل نفسَــه من حــب امرأة لَغبىّ. ويحهُ! فليتخلَّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفســها. وقــد جعل الله للحب طرَفين: أحدُهما فــى اللذّة، والآخرُ فى الحماقة؛ ما منهما بدّ. فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغَشّى بها على بصره، ثم إنْ هو اتجه بطرَفه السـعيد إلى حظِّه المقبِل واتفقت اللذّةُ للمحب، أيقظته اللذةُ من أحلامه؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشــقىّ إلى حظّه المُدْبر، وقعت الحماقاتُ فنونًا شــتَّى بين الحبيبين، وفعلتْ آخِرًا فِعلَ اللذة، فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضًا. وهذا تدبيرٌ من الرحمة فى تلك القوّة المدمِّرةِ المســماةِ الحبّ. أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام ما دام تحققُّها هو فناءَها؟

خذْ عنى يا مجاهد هذه الكلمة: «ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ،ولا هو شىءٌ يُدْرَك، ولكنّ من عظمَةِ الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكُه».

قال مجاهد: لقد علمتَ بعدَنا علمًا، فمن أين لك هذا وعمن أخذت؟

قال: عن السماء!

قال : ويلك! أين عقلُك، فهل نزل عليك الوحى؟

قال الرجل: لا، ولكن تَعَالَيَا معى إلى الدار فأحدِّثكما.

***

قال المسـيَّب: وذهبنا معه؛ فأُتينا بطعام نظيف فأكلنا، وأشعرتْنا الدارُ أن ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلَتْ عليه النعمة؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد: هيهِ يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيد. قال: هيهِ يا أبا عبيد...

فأفكَرَ الرجلُ سـاعةً ثم قال: عهدُ كما بى منذ تِسْـع فى مجلس الإمام الشـعبىِّ بالكوفـة؛ وقد كنتُ فى بقيةٍ من النعمة أتجمَّل بها، وكانت تُمسـكُنى على موضعى فى أعين الناس؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ وتنفضُّ حتى نكِد عيشى ووقعْتُ فى الأيام المقعَدَة التى لا تمشى بصاحبها، وانقلب الزمنُ كالعدوّ المُغيرِ جاء ليصْطَلِمَ ويُخْرِبَ ويُفسِـد، فأثَّر فىّ أقبحَ آثـاره، فبعتُ ما بقى لى وتحملتُ عـن الكوفة إلى البصرة، وقلت: إن لم تتغيّر حالى تغيَّرت نفسى، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر، بـل أكون قد بـدأتُ من الفقر كما يبـدأ غيرى، وأدعُ الماضىَ فـى مكانه وأمضى إلى ما يستقبلُنى.

فالتمسـتُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشـرين رجـلاً، فلما كنا فى الطريق، سـلبَنا اللصوصُ وحـازوا القافلةَ ومـا تَحويه، ونجوتُ أنا راكبًا فرسـى وعُمْـرى، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم، وأنها هى الأداةُ الإلهيَّة، والبـاقـى كلُّه هو من أنفسنا لأنفسنا والأمرُ فيه هيِّنٌ والخَطْبُ يسير.

وقلـت: لـو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمر النـاسُ بالناس لما نكَبونا، ولكنهم عرضـوا لنا عُروض اللصِ للمال والمتاع لا للناس، فوضعوا فينا الأيدىَ الناهبة؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشـرُّ إلا حالةً يتلبَّس بها من يسـتطيع أن يتخلصَ منها. فإذا كان ذلك فأصلُ السـعادة فى الإنسـان ألا يعبأَ بهذه الحالات متـى عرَضَت له؛ وهو

لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشرَّ كما يراه واقعًا فى غيره؛ فالمرأة العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالة من الفُجور، ونظرتْ إلى نفسها وحّظِ نفسها، فقد تعمىَ وتَزِلّ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها وإلى أثره على الفاجرة، كانت كأنما زادت على نفسها نفسًا أخرى تُريها الأشياء مجردةً كما هى فى حقائقها.

قال: ومضيت على وجهى تتقاذفنى البِقاعُ والأمكنةُ، وأنا أعانى الأرضَ والسماء، وأخشى الليلَ والنهار، وأكابدُ الألمَ والجوع، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح، قَطعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها، فأنضاه السفر وحَسرَه الكَلالُ ونَحتَه الثِّقل الذى يحمله، فجاء ببِنْيةٍ غيرِ التى كان قد خرج بها. وكانت أيامى هذه عمرًا كاملاً من الشقاء، جعلتنى أوقن أن هؤلاء الناسَ فى الحياة إنْ هم إلا كالدَّواب تحت أحمالها: لا تختار الدابةُ ما تحملُ ولا من تحمل، ولا يُترَكُ لها مع هذا أن تختارَ الطريق ولا مدةَ السير؛ وليس للدابة إلا شيئان: صبرُها وقُوتُها؛ إن فقدتهما هلكتْ، وإن وَهَنَا فيها كان ضعفُها بحسب ذلك.

إن هناك أوقاتًا من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانيةِ البشر جميعًا، لا تبالى كيف وقع وفى أىّ وادٍ هلَك، فلا ينفع الإنسانَ حينئذ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال، وصبره الذى هو أقوى القوّة، وقناعتِه التى هى أغنى الغنى، وجهلِه الذى هو أعلمُ العلم، وتوكُّلِه الذى هو إيمانُ فطْرته بفطرته. لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعيمًا، ولا متاعًا ولا منزلةً، ولا حظًّا ولا جاهًا، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقَّاءِ من السقّاء؛ ولعلك لو سألتّهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل: إن الذى فوق ظهرى ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض؛ ولقال لك الثانى: إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمْح!

ولكنَّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطَوِّحُهُ البؤسُ والشقاءُ وراء الإنسانية، لا ينظر لغير الناس، فيزيده ذلك بؤسًا وحسرة، ويَمحَقُ فى نفسه ما بقى من الصبر، ويقلبُ رضاه غيظًا، وقناعتَه سخطًا، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلِكة أعجزها أن تُهلك أحدًا

فلا تجد من تُدَمِّرُه غيرَ صاحبها؛ فإذا هي وجدتْ مَسَاغًا إلى الناس فأهلكتْ وعاثَتْ وأفسدتْ، جعلتْ صاحبَها إما لصًّا أو قاتلاً أو مجرمًا، أىَّ ذلك تيسر!

* * *

قال: وكنتُ أعرف فى البصرة فلانًا التاجر من سَراتِها ووجوهِ أهلها، فاستطرقْتُه؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خُراسان، وليس يعرفنى أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحدًا غيرَه؛ فكأنما نُكبتُ مرة ثانية بغارةٍ شرٍّ من تلك، غير أنها قطعت علىّ فى هذه المرة طريقَ أيامى، وسلبتْنى آخرَ ما بقى لنفسى، وهو الأمل!

ورأيتُ أنه ما من نزولى إلى الأرض بُدّ، فأكونَ فيها إنسانًا كالدابة أو الحشَرة: حياتُها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخَر من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوىُّ الكريم، قبل أن تسخرَ هى منى إذا جئتها وأنا الطامعُ العاجز!

وفى الأرض كفاية كلَ ما عليها ومن عليها، ولكن بطريقتها هى لا بطريقةِ الناس؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغيير والتبديل وتحوُّل شيءٍ إلى شيء، فهذا الظّبىُ الذى يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أكِلَ ولا أنه افْتُرِسَ ومُزّق، بل هو عندها قد تحول قوةً فى شيءٍ آخر ومضى؛ أما عند الناس فذلك خَطْبٌ طويل فى حكاية أوهامٍ من الخوف والوجَل؛ كما لو اخترعتَ قصةً خرافية تحكيها عن أسد قد زَرَعَ لحمًا... فتعهَّده فأنبتَه فحصدَه فأكلَه، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكِلِه، وجعل يشكو ويقول: ليس لهذا زرعْتَنى أنت، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعًا فى الإنسانية عامتِها وفى الأشياء جميعِها؛ فإذا وقع فيه هو ضجَّ وسَخِط، كأن له حقًّا ليس لأحدٍ غيره، وهذا هو العجيبُ فى قصة بنى آدم، فلا يزالُ فيها على الأرض كلماتٌ من الجنةَ لا تقالُ هنا ولا تُفهَم هنا؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسان خالدًا لا يقع فيه التغيير والتبديل. ومن هذا كان خيالُ اللذةِ فى الأرض هو دائمًا باعثَ الحماقةِ الإنسانية.

قــال أبو عُبيد وذهبــتُ أعتَمِلُ بيدىّ وجســمى على آلام من الفاقــة والضُّرّ، ومن الخيبةِ والإخفاق، ومن إلجاءِ المســكَنة، وإحــواج الخَصَاصة؛ فلقد رأيتُنى وإنّ يدى كيــدِ العبد، وظهرى كظهر الدّابة، ورجلى كرجل الأســير، وعنقى كعنق المغلول، ويطلعُ قرصُ الشــمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلا بقُرص من الخبز، ولقد رأيتنــى أبــذُلُ فى صيانة كلّ قطرةٍ من ماء وجهى ســحابةً من العرَق حتى لا أســأل الناس، ويا بؤسًا لى إن سألتُ وإن لم أسأل!

ومــا كان يُمســكنى على هذه الحياة المُرَمَّقَةِ، تأتى رَمقًــا بعد رَمَق فى يوم يوم – إلا كلامُ الشعبىّ الذى سمعتُه فى مسجد الكوفة، وقولُه فيمن قتل نفسَه؛ فكان كلامُه نورًا فى صدرى يُشــرق منه كلّ يوم مع الصبح صبحٌ لإيمانى. ولكن بقيتْ أيامُ نعمتى الأولى ولها فى نفســى ضَرَبانٌ من الوجَع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضَرَبَ عليــه، فكان الشــيطانُ لا يجد منفذًا إلىَّ إلا منها. وفقــدت الصديقَ وعونَه، فما كان يَقبل علىّ صديقٌ إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول!

قال مجاهد: والحبيب؟

فتبسَّــم الرجل وقال: إذا فرغَت الحياةُ من الذى هو أقلُّ من الممكن، فكيف يكون فيها الذى هو أكثرُ من الممكن؟ إن جوعَ يوم واحدٍ يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِــعرَ فيها، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةً واحــدةً مُعَــطَّرة... والبؤس يَقَظةٌ مؤلمة فى القلب الإنســانىّ تُحَرَم عليه الأحلام؛ وما الحبُّ من أوَّله إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض!

* * *

قال أبو عُبيد: وتَضَعْضَعْتُ لهــذه الحياة المخزيةِ وأبْرَمَتْنى أيامُها، وحملتُ فىَّ الميَّتَ والحىّ، ورأيتُ الشيطانَ – لعنه الله – كأنما اتخذنى وعاءً مُطَّرَحًا على طريقه يُلقى فيه القُمامة...، وظهر لى قلبى فى وساســهِ كالمدينــة الخَربةِ ضَرَبَها الوباء، فأعمرُ ما فيها مَقْبرَتُها؛ وعاد البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يســتحى، فلا أراه إلا فى أرذلِ

أشـكالهِ وأبردِها؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شـيء مـن الحياء فيأتى فى أسلوبِ معتذِر كالمرأة الدميمةِ فى نقابها.

وقلت لنفسى: ما هو والله إلا القتل، فهذا عُمرٌ أراه كالأسيرِ أقِيم على النَطع وسُلَّ عليه السـيف، فما ينتقم منه المنتقِمُ بأفظعَ من تأخير الضربة، وما يرحمه الراحم بأحسنَ من تعجيلها!

وبـتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ فى قتلهـا وأحدّثها حديثَ الموت، فسـدَّدتْ رأيى فيه وقالت: ما تصنعُ بجسم كالمتعفّن أصبح كالمقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته؟ بَيْدَ أنى ذكرتُ كلام (الشعبىّ) فى ذلك المجلس وأنا أحفظه كلَّه، فجعلتُ أهُذُّه[1] ما أترك منه حَرْفًا، واتخذته متكلمًا مع نفسى لا كلامًا، كنتُ كلَّما غلبنى الضعفُ رفعتُ به صوتى وأُصغيتُ كما أصغى إلى إنسان يُكلِّمنى فرأيتُ الشيطانَ بعد ذلك كاللصّ إذا طمع فى رجل ضعيفٍ منفردٍ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانيًا قويًّا فهرب!

قال أبو عُبيد: ونالنى رَوْحٌ من الاطمئنان وجدتُ له السكينةَ فى قلبى فنمت، فإذا الفزعُ الأكبر الذى لا ينساه من سمع به، فكيف الذى رآه بعينيه؟

رأيتُنـى ميّتًا فى يد غاسِـله يُقلِّبه ويغسـله كأنه خِرْقة؛ ثـم حُمِلتُ على النعش كأن الحامليـن قد رفعونى يقولون: انظروا أيهـا الناس كيف يصير الناس؛ ثم صلى علىّ الإمامُ الشـعبىّ فى مسجد الكوفة، ثم دُلِّيتُ فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ علىّ، وتركت وحيدًا وانصرفوا!

ومـا أدرى كـم بقيتُ على ذلك؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخَ فـى الصُّور وبُعْثرت الأمواتُ جميعًا، فطِرنا فى الفضاء، وكانت النجومُ غبارًا حولنا كتراب العاصفة فى العاصفة؛ وإذا نحن فى عَرَصَات القيامة وفى هول الموقف!

وتوجَّهتُ بكلّ شـعرة فى جسـمى إلى الرجاء فى رحمـة الله؛ ورأيتُ أعمالى رؤيةً أحزَنَتْنى، فهى كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين،

---

(١) الهذ: الإسراع فى القراءة.

أرى منهم الواحدَ بعد الواحد فى الساعة بعد الساعة نـدَروا وتَبَعثَروا وضاعوا كأعمالى الصالحة!

وذكرتُ أنى كدتُ أقتل نفسى فرارًا بها من العُمر المؤلم؛ فنظرتُ، فإذا الزمنُ قد ظهر فى أبديَّتِهِ، ورجع الماضى حاضرًا بكل ما حَوَى كأنه لم يمض، وإذا عمرى كلّة لا يـكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل، فحمدتُ الله أنى لم أفتَدِ ألمَ اللحظة القصيرةِ القصيرة، بعذاب الأبدِ الخالدِ الخالد.

وجِيءَ علـى أعين الخلْقِ بأنعم أهل الدنيا وأكثرِهم لـذّاتٍ فى تاريخ الدنيا كلَّه، فصاح صائحٌ: هذا أنعمُ مَن كانَ علىَ الأرض منذ خَلَقها الله إلى أن طواها. ثم غُمِسَ هذا المنَعَّمُ فى النار غَمْسَـةً خفيفةً كنَبضةِ البرْق، وأُخْرِجَ إلى المحشرَ، وقيل له والناسُ جميعًا يسمعون: هل ذُقتَ نعيمًا قطّ؟ قال: لا واللهِ.

ثم جِيءَ بأتعسِ أهل الأرض وأشـدِّهم بؤسًا منذُ خلُقت الأرض، فغُمسَ فى الجنة غَمْسَـةً أسرعَ من النسيم تحرَّكَ ومر، ثم أُخْرِجَ إلى المحشر وقيل له: هل ذُقت بؤسًا قطّ؟ قال: لا والله.

وسـمعنا شـهيقَ جهنمَ وهى تفـور تكاد تَميَّزُ مـن الغيظ؛ فأيقنت أن لها نفْسًـا خُلقـت من غضَبِ الله. وخرج منهـا عنُقٌ عظيم هائل، لو تضرَّمت السـماء كلها نارًا لأشـبهته، فجعل يلتقـطُ صنفًا من الخلق، وبـدأ بالملوك الجبابـرة فالتقطهم مرَّةً واحدة كالمغناطيس لتُراب الحديد؛ وقَذفَ بهم إلى النار؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياء المفسـدين فأطارَهم إليها؛ ثم جعل يأخذ قومًـا قومًا، وقد ألجمنى العرَقُ من الفزع؛ ثـم طِرتُ أنا فيه، ونظرتُ، فإذا أنا مُحْتبسٌ فى مُظلمة نارية كالهاوية، ليس حولى فيها إلا قاتلو أنفسِهم، ولو أن بِحار الأرض جُعلَ فيها البحرُ فوق البحر فوق البحر، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبعْدِ ما بين الأرض والسماء، ثم تُسْجَرُ نارًا تَلَظَّى، لكانت هى الهاويةَ التى نحن فىَ أعماقها؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبى: أن عُصاةَ المؤمنين الموحِّديـن إذا ماتوا على إيمانهم كانوا فى النار أحياءً وجوارحُهم مَوْتى؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبَّحته فكُرمَت بذلك حتى على جهنم، ثم يعذَّبون

عذابًا فيه الرحمة، ثم يُخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار، فكان إلى جانبى رجلٌ قتلَ نفسه ،فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمِن: اخرج فإن إيمانك ينتظرك. فصاح الذى إلى جانبى: وأنا، أفلا ينتظرنى إيمانى؟ فقيل له: وهل جئت به؟

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة، فلا يخرجُ الصوتُ من حَلقه، إذ كان قد فَرَاه وبقى مَفْريًّا! وأبصرتُ آخرَ قد طعن فى قلبه بمدية، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيةٌ صالحة، فلا تزال تسلُخ ولا تزال تبحث!

ورأيت آخر كان تَحسَّى من السم فمات ظمآنَ يتلظَّى جوفُه ،فلا تزال تَنْشأ له فى النار سحابةٌ رَويةٌ تَبْرُقُ بالماء، فإذا دنتْ منه ورَجاها، انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تَنشأ وتنفجر!

وقال رجل: إنما كنت مجنونًا ضعيفًا عاجزًا فأزهقتُ نفسى. فنودِىَ: أو ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ، وقوىٌّ لا ضعيف، وقادرٌ لا عاجز؟ كنتَ تعقل بالأقلّ أنك ستموت، وكنت تَقوَى على أن تصبر، وكنت تقدر أن تترك الشرّ.

وقال رجل عالم قد حزَّ فى يده بسكين فمات: «لم يكن الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شىء يدرك». فصرخ فيه صوتٌ رهيب: «ولكنَّ من عَظَمةِ الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكه!».

* * *

قال أبو عُبيد: ثم انتصب بإزائى شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمعُ التماعَ الزجاج فيه الخمر، فقام فى وجهى وقال: بماذا جئت إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كان إلا أن سمعت النداء: شفَعَت فيك الخمرُ التى لم تشربها، اخرج، إن إيمانَك ينتظرك.

فصحت: الحمد الله! وتحرك بها لسانى، فانتبهت.

لقد علمت أن الصبرَ على المصائب نعمة كبرى لا يُنعِم الله بها إلا فى المصائب.

■■■

وحى القبور*[1]

ذهبتُ فى صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفســى بنفسى إلى المَقْبَرَة، وقد مات لى من الخواطر مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنت أمشــى وفىَّ جِنَازَةٌ بمُشَـيِّعيها؛ من فكرٍ يَحمل فكرًا، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطرًا، ومعنىً يَبكى، ومعنىً يُبكَى عليه.

وكذلــك دأبــى كلما انحدرتُ فى هذه الطريق إلى ذلك المـكان الذى تأتيه العيونُ بدموعها، وتمشــى إليه النفــوسُ بأحزانِها، وتجىء فيه القلــوبُ إلى بقاياها. تلك المقابــرُ التى لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأســماء ولا بالألقاب، ولكن بهذا النداء: يا أحبابَنَا، يا أحزانَنَا!

ذهبتُ أزورُ أمواتى الأعزاءَ وأتصلُ منهم بأطراف نفســى، لأحيا معهم فى الموت ســاعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا عِلى أمر الآخرة، فأنســى وأذكر، ثم أنظرُ وأعتبرُ، ثم أتعرَّف وأتَوسَّم، ثم أسْتبْطِنُ مما فى بطن الأرض، وأستَظْهِرُ مما على ظهرها.

وجلستُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرجَت الذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لتجعلَها مادةً جديــدةً لأحزانها؛ وانفتح لى الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس، وكأن دهرًا كاملاً خُلق بحوادثه وأيامِه، ورُفع لعينىَّ كما تُرفَع الصورةُ المعلقةُ فى إطارها.

أعرف أنهم ماتوا، ولكنى لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيَّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام؛ وهذه هى بقيةُ الــروح إذا امتزجت بالحب فى روحِ أخرى: تترك فيها مالا يُمحَى لأنها هى خالدة لا تُمحَى.

---

* أنشأها فى صبيحة يوم العيد وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

ذهــب الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يقيموا فى الدنيا؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا ليس غير، فهذه هى الحياة حين تعبِّر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحرِصها.

الحيــاةُ مدةُ عمــل، وكأن هذه الدنيا بكل مــا فيها من المتناقضــات، إن هى إلا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانبًا منه، ثم يقال له: هذه الأداةُ فاصنع ما شئتَ، فضيلَتك أو رذيلَتك.

❊ ❊ ❊

جلســتُ فــى المقبرة، وأطرقــتُ أُفكر فى هذا المــوت. يا عجبًــا للناس! كيف لا يستشــعرونه وهو يَهدمُ من كل حىّ أجزاءً تحيط بــه قبل أن يهدمَه هو بجملته؛ وما زال كلُّ بُنْيان من الناس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خَرابُه، يَتَأَكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك!؟

يــا عجبًا للنس عجبًا لا ينتهى! كيــف يجعلون الحياةَ مدةً نزاع وهى مدةُ عمل، وكيــف لا تبرحُ تَنْزُو النَّــوازِى بِهم فى الخلاف والباطل، وهــم كلما تَدَافَعوا بينهم قضيــةً من النــزاع فضربوا خَصْمًا بخصم وردّوا كيْدًا بكيــد، جاء حكمُ الموت تكذيبًا قاطعًا لكل من يقول لشىء: هذا لى؟

أمَا والله إنه ليس أعجبُ فى السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لإثبات أن أحدًا منهم لا يملك منها شيئًا، إذ يأتى الآتى إليها لحمًا وعظمًا، ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحمًا وعظمًا. وبينهما سفاهةُ العظمِ واللحمِ حتى على السِّكِّين القاطعة...

تأتى الأيامُ وهى فى الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها؛ فمن جاء من عمره عشــرون ســنةً فإنما مضــت هذه العشــرون من عمره. ولقد كان ينبغى أن تُصَحَّــحُ أعمالُ الحياة فى الناس علــى هذا الأصل البَينِ، لولا الطباعُ المدخولةُ، والنفوسُ الغافلةُ، والعقولُ الضعيفةُ، والشــهواتُ العارمة؛ فإنه ما دام العمرُ مُقْبِلاً مُدْبِرًا فى اعتبار واحد، فليس للإنسان

أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوبًا له ومحسوبًا عليه فى وقت معًا؛ وتكونُ الحياةُ فى حقيقتها ليست شيئًا إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانىُّ هو الحىَّ فى الحىّ.

* * *

وما هى هذه القبور؟ لقد رجعتْ عند أكثر الناس مع المَوْتَى أبنية ميتة؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوْا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحىُّ المُتَغَلْغلُ فى الحياة إلى بعيد؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو فى الطّرَف الآخر رَدٌّ على البيت الذى هو بناءٌ قائم لفكرة البَدْء والاستمرار؛ وبين الطَّرَفين المَعْبَدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذى يحيا فى البيت وفى القبر، فهو على الحياة والموتِ كالقاضى بين خَصمين يُصْلح بينهما صُلحًا أو يَقضى.

القبرُ كلمةُ الصدق مبنيةً متجسِّمةً، فكل ما حولها يَتَكَذّبُ ويتأوّل، وليس فيها هى إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت فى الأحياء كلمةُ الموت من غرور أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة، بقى القبرُ مُذَكِّرًا بالكلمة شارحًا لها بأظهرِ معانيها، داعيًا إلى الاعتبار بمدلولها، مبينًا بما ينطوى عليه أن الأمرَ كله للنهاية.

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمرَ الماضىَ كأنه غيرُ ماض، فيعملُ فى إفراغ حياته من الحياة[1] بما يملؤها من رذائله وخسائسه؛ فلا يزال دائبًا فى معانى الأرض واستجماعِها والاستمتاع بها، يتلو فى ذلك تِلْوَ الحيوانِ ويقْتَاسُ به، فشريعتُه جَوْفه وأعضاؤه؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُه مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذى يملكُه ويعلُفه، ولو سُئل الحمارُ عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حِمارى.....

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ فى الأرض إلى آخرِ الدنيا، معناها أن الإنسانَ حىٌّ فى قانون نهايته، فلينظرْ كيف ينتهى.

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها، فالحياةُ هى الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها؛ طريقةِ إكراه الحيوان الإنسانىّ على ممارسة

---

(١) أى من إنسانية الحياة.

الأخلاقيةِ الاجتماعية، وجعلها أصلاً فى طباعه، ووزن أعمالهِ بنتائجها التى تنتهى بها، إذ كانت روحانيتُه فى النهايات لا فى بداياتها.

فى الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتًا تعملُ أعمالَها؛ فإذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتًا يخلَدُ هو فيها؛ فهو من الخير خالدٌ فى الخير، ومن الشر هو خالدٌ فى الشر؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتيةً وراجعة.

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تَبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة، فلا يترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحْسَم فى بدئه ويُقتل فى أول أنفاسه، وكذلك الشأنُ فى كل ما لا يَحسنُ أن يبدأ، فإنه لا يجوز أن يمتدَّ: كالعداوة والبغضاءِ، والبخل والأثرة، والكبرياءِ والغرور، والخداع والكذب؛ وما شابكَ هذه أو شابَهَها، فإنها كلَّها انبعاثٌ من الوجود الحيوانىّ وانفجارٌ من طبيعته؛ ويجب أن يكون لكل منها فى الإرادة قبرٌ كى تَسْلَم للنفس الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية.

* * *

يا من لهم فى القبور أموات!

إن رؤيةَ القبر زيادةٌ فى الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معانى السلام العقلىّ فى هذه الدنيا.

القبر فمٌ ينادى: أسرعوا أسرعوا، فهى مدة لو صُرِفت كلها فى الخير ما وَفَتْ به؛ فكيف يضيع منها ضَياعٌ فى الشر أو الإثم؟ لو وُلد الإنسان ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكتَهلَ وهَرِمَ فى يوم واحد، فما عساه كان يُضِيع من هذا اليوم الواحد؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه فى ساعة موته إلا أقصرَ من يوم.

ينادى القبر: أصلحوا عيوبكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحها؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هى، بقيت كما هى إلى الأبد، وتركَها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبرُ أيضًا؛ فليس ينظر فى هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمُ محكمةٍ على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون.

فى القبر معنى إلغاءِ الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيامه، وأن يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشر والإثم، وأن يُميت فى نفسه خواطرَ السوء؛ فمن معانى القبر ينشأ للإرادة عقلُها القويُّ الثابت؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكانًا فى زمن هذا العقل، كما لا يجد الليلُ محلاًّ فى ساعات الشمس.

ثلاثةُ أرواح لا تَصلُح روحُ الإنسان فى الأرض إلا بها:

روحُ الطبيعة فى جمالها، وروحُ المعبد فى طهارته، وروحُ القبر فى موعظته.

■■■

عروسٌ تزَف إلى قبرها *[1]

(١)

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمى أيامًا.

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِـقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها.

أيــامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتى فى أحزانِهــا وهمومِها؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشــباب القلبِ، تبدو الأشـياءُ فى مُجارى أحكامها كالمســحورة؛ فإن كانت مُفرِحَةً جاءت حاملةً فرَحَيْن، وإن كانت مُحْزِنَةً جاءت بنصف الحزن.

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشـباب الجسم بِقُوىً مختلفة: منها الشمسُ والهواءُ والحركةُ، ومنها الفرَحُ والنسيانُ والأحلامُ!

***

وشـبَّتْ العذراءُ وأُفرِغَـتْ فى قَالب الأنوثةِ الشمســيِّ القمرِى، واكتســى وجهُها ديباجةً من الزَّهَر الغَضّ، وأودعتها الطبيعةُ سِــرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمــال لأنها فنُّ حيــاة، وجعلتْها تِمثالاً للظَّرف: وما أعجبَ سِــحرَ الطبيعةِ عندما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقــة والحَنَان وجمــال النفس؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عندمــا تَمْهَرُ العذراءَ من هذه الصفات مَهرَها الإنسانى!

وخَطبــت العذراءُ لزوجها، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شــهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر.

---

* هى زوج ولده سامى، وانظره خبره وخبرها فى «عود على بدء» من كتاب (حياة الرافعى).

وماتــت عذراءَ بعد ثلاث ســنين، وأُنزِلَتْ إلى قبرها فى اليوم الثالث من شــهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر!

وكانت الســنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطِّعُهُ المرض، يتنظَّرون به العُرْس، وينتظر بنفسه الرَّمْس!

يا عجائبَ القدرَ! أذاك لحنٌ موســيقىٌّ لأنينِ اســتمرَّ ثلاثَ سنوات، فجاء آخرُه موزونًا بأوَّله فى ضبط ودقَّة؟

أكانت تلك العذراء تحملُ ســرًّا عظيمًا ســيُغيِّر الدنيا، فــردت الدنيا عليها يومَ التهنئة والابتسامِ والزينة، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ والدموع والكفن؟

(٢)

واهًا لك أيها الزمن! مَن الذى يفهمك وأنت مُدَّةُ أقدار؟

واليــومُ الواحدُ على الدنيا هو أيــامٌ مختلفةٌ بعدد أهلِ الدنيا جميعًا، وبهذا يعود لكل مخلوق سِرُّ يومِه، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحِه، وليس إليه لا هذا ولا هذا.

وفــى اليوم الزمنىِّ الواحــدِ أربعمائةِ مليون يوم إنســانىّ على الأرض! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعًا وعشرين ساعة؛ يا للغباوة...!

وكلُّ إنســان لا يتعلَّق من الحياة إلا بالشــعاع الذى يُضىء المكانَ المظلمَ فى قلبه، والشمسُ بما طلعتَ عليه لا تستطيع أن تُنير القلبَ الذى لا يضيئُه إلا وجهٌ محبوب.

وفى الحياة أشياء مكذوبةٌ تكَبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس، وفى الحياة أشياء حقيقية تَعْظُــم بالنفس وتَصغُر بالدنيــا؛ وذَهَبُ الأرض كلّه فقرٌ مُدْقعٌ حيــن تكون المعاملةُ مع القلب.

أيتها الدنيا؛ هذا تحقيرُك الإلهىُّ إذا أكبركِ الإنسان!

* * *

ويا عَجبا لأهل السوء المغتَرِّين بحياة لا بدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الإنسان إلى آخرها هو أوّل فكرهِ فى حقيقتها؟

فعندمــا تَحيــنُ الدقائقُ المعــدودةُ التى لا تَرقُمُها الســاعةُ ولكــن يرقمها صدرُ المُحْتَضَر... عندما يكون مُلْكُ الملوكِ جميعًا كالتراب لا يَشترى شيئًا البَتَّة...

... مــاذا يكون أيُّها المجرمُ بعدما تَقْتَــرفُ الجناية، ويقومُ عليك الدليل، وترى حولك الجندَ والقضاة، وتقفُ أمامك الشريعةُ والعدل؟

* * *

أعمالُنــا فى الحياة هى وحدَها الحياة، لا أعمارُنا، ولا حظوظُنا. ولا قيمةَ للمال، أو الجاه، أو العافية، أو هى معًا – إذا سُلِبَ صاحبُها الأمنَ والقرار! والآمِنُ فى الدنيا مــن لــم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه. والســعيد فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السماوات.

كيــف يمكــن أن تخدعَ الآلــةُ صاحبَها وفيها (العــدَّادُ): ما تتحــرَّكُ من حركة إلا أشْــعَرَتْه فَعَدَّها؟ وكيف يمكن أن يكْذِبَ الإنســانُ ربَّه وفيــه القلبُ: ما يعملُ من عمل إلا أشعره فعدَّه؟

(٣)

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام.

أفرأيتَ أنتَ الغِنَى عندما يُدْبِرُ عن إنســان ليتركَ له الحســرةَ والذكرى الأليمة؟ أرأيــتَ الحقائــقَ الجميلةَ تذهبُ عن أهلها فلا تتركُ لهــم إلا الأحلامَ بها؟ ما أتعبَ الإنسانَ حين تتحوَّل الحياةُ عن جسمه إلى الإقامة فى فكره!

وما هى الهمومُ والأمراض؟ هى القبرُ يســتبطىء صاحبَه أحيانًا فينفضُ فى بعض أيامه شيئًا من ترابه...!

رأيتُ العَروسَ قبل موتها بأيام، فيالله من أسـرار الموت ورهبتها! فَرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشـياءُ من معانيها! وتخلَّى هذا الجسـمُ عن مكانه للرُّوح تَظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَداع!

وتحـوَّل الزمنُ إلى فكرِ المريضـة؛ فلم تَعُدْ تعيشُ فى نهـار وليل، بل فى فكر مُضىء أو فكر مظلم!

يا إلهى! ما هذا الجسـمُ المتهدِّمُ المقْبِلُ على الآخـرة؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُه، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه؟

لقد وثِقَتْ أنه الموت، فـكان فكرُها الإلهىُّ هو الذى يتكلم؛ وكان وجهُها كوجه العابد: عليه طَيفُ الصلاةِ ونورها. والروحُ الإنسانية متى عبَّرت لا تعبر إلا بالوجه.

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال؛ إذ هى ابتسامةُ آلام أيقنتْ أنها مُوشِكةٌ أن تنتهى! ابتسـامةُ روح لها مثلُ فَرحِ السـجين قد رأى سـجَّانَه واقفًا فى يده السـاعة يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له: انطلِقْ!

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأننى آتٍ من الدنيا...! وتَنسَّمتْ منى هواءَ الحياة، كأننى حديقةٌ لا شخص!

ومَن غيرُ المريض الْمُدْنَف، يعرف أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنىً أبدًا إلا العافية؟ مَن غيرُ المريضِ الْمُشْفِى على الموت، يعيشُ بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه؟

تلـك حالةٌ لا تنفع فيها الشـمسُ ولا الهـواء ولا الطبيعةُ الجميلـة، ويقوم مقامَ جميعِها للمريض أهلُه وأحبَّاوه!

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسـرى حَرْبٍ أُجلِسوا تحت جِدار يريد أن ينقضّ! وكانت قلوبُهم من فزعها تَنبضُ نبضًا مثلَ ضَرَبات المَعاول.

وباقتـراب الحبيبِ المحتَضرِ من المجهـول، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر، فتختلط عليه الحياةُ بالموت، ويعود فى مثل حَيرةِ المجنون حين يُمسـكُ بيده الظلَّ

المتحرّكَ ليمنعَه أن يذهب! وتَعْروه فى ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل، تُهيِّئ له جلالَ الحسّ الذى يشهد به جلالَ الموت!

* * *

وحانت ساعةُ ما لا يُفْهم، ساعةُ كلّ شىءٍ، وهى ساعةُ اللاشىءِ فى العقل الإنسانى! فالتفتت العروسُ لأبيها تقول: «لا تحزَنْ يا أبى...» ولأمها تقول: «لا تحزَنى يا أمى...!».

وتبسمت للدموع كأنما تحاولُ أن تكلمَها هى أيضًا؛ تقول لها: «لا تبكى...!» وأشفقت على أحيائها وهى تموت، فاستجمعت روحَها ليبقىَ وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق! وقالت: «سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين، سأتركُ تذكارى بينكم تذكارَ عروس!...».

ثم ذَكرَتِ الله وذكرَّتهم به، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله». وكررتْها عشرًا! وتملأتْ روحُها بالكلمة التى فيها نورُ السماوات والأرض، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسمِ الأعظمِ الذى يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأ حتى وهىَ فى أحزانها.

ثم استقبلت خالقَ الرحمةِ فى الآباء والآمهات! وفى مثل إشارةِ وداعٍ من مسافرٍ انبعث به القِطار، ألقت إليهم تحيةً من ابتسامتها وأسلمت الروح!

(٤)

يا لَعجائب القدر! مشينا فى جنازة العروس التى تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يبارِكْ لها أحد! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائط فى الطريق إعلانًا قديمًا بالخط الكبير الذى يصيح للأعين؛ إعلانًا قديمًا عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك...!».

واخترقنــا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصَّــى، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! واخترقنا المدينــةَ كلَّهــا، فلما انقطع العُمرانُ وأشــرفنا علــى المقبرة، إذا آخــرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك...!».

■■■

موت أمّ*[1]

رجعتُ من الجَنازة بعد أن غبَّرْتُ قدميَّ ساعةَ في الطريق التى ترابُها ترابٌ وأشعة، وكانت فى النعش لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ، هى زوجةُ صديق طَحْطَحَتْها الأمراضُ ففرّقتها بين علل الموت، وكان قلبُها يُحييها فأخذ يُهلكُها، حتى إذا دنا أن يَقْضِيَ عليها رحمها الله فقضى فيها قضاءَه. ومن ذا الذى مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه فى علَّته كالعصفورة التى تَهْتَلِكُ تحت عينى ثعبانٍ سلط عليها سمومَ عينيه!.

كانت المسكينةُ فى الخامسة والعشرين من سنّها، أما قلبُها ففى الثمانين أو فوق ذلك؛ هى فى سن الشباب وهو متهدِّمٌ فى سن الموت.

وكانت فاضلةً تقيةً صالحة، لم تتعلم ولكنَّ علْمَها التقوى والفضيلة. وأكملُ النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب فهى تنظر إلى الحياة نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ وتخلق مشاكل؛ ولكنها تلك التى تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان تُقِرُّ فى كل شىء معناه السماوى، فتؤمنُ بأحزانها وأفراحها معًا، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها رحمةً معروفة أو رحمةً مجهولة. هذه عندى تسمى امرأة، ومعناها المعبدُ القُدسى؛ وتكون الزوجةَ، ومعناها القوةُ المُسْعِدة؛ وتَصيرُ الأمَّ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجِها ونفسِها.

ومهما تبلغ المرأةُ من العلم فالرجلُ أعظم منها بأنه رجل، ولكنَّ المرأةَ حقَّ المرأةِ هى تلك التى خُلقت لتكونَ للرجل مادةَ الفضيلة والصبرِ والإيمان، فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوة، أى زيادةً فى سروره ونقصًا من آلامه.

* هى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف، وانظر «عمله فى الرسالة» من كتاب «حياة الرافعى».

ولـن تكونَ المرأةُ فـى الحياة أعظمَ من الرجل إلا بشـىء واحد، هو صفاتها التى تجعل رجُلَها أعظمَ منها.

* * *

ومشـيتُ من البيت الذى ألبستْه الميتةُ معنى القبر، إلى القبر الذى ألبسَ الميتةَ معنى البيت. وأنا منذ مشيتُ فى جنازة أمى (رحمها الله) لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء، ولكن مع الموتى، فأتبعُ من الميت صديقًا ليس رجلاً ولا امرأة، لأنه من غير هذه الدنيا؛ وأمشى فى ساعةٍ ليست ستين دقيقةً، لأنها خرجت من الزمن؛ ولا أرى الطريـقَ من طرق الحياةِ، لأننى فى صحبة ميت؛ وتصبح للأرضِ فى رأيى جغرافيةٌ أخرى عَمِىَ الناسُ عنها لشدة وضوحها، كالألوهية خفيتْ من شدة ما ظهرتْ.

يقولـون: إن ثلاثـة أرباع الأرضِ يَغمرهـا البحر. أما أنا فأرى فى تلك السـاعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذى وصفوا، ولكن خِضَمٌّ آخرُ زخَّار مُتَضرِّب، هو ذلك البحرُ الترابىُّ العظيمُ المسمى «المقبرة».

يقولـون: إن الحياةَ هى... هى ماذا - وَيْحكم - أيها المغرورون؛ أفلا تَرَون هذه الصلةَ الدائمةَ بين بطنِ الأم وبطن الأرض؟

* * *

لعمرى كيـف تجعلُ هذه الحياةُ للناس قلوبًا مـع قلوبهم، فيحسُّ المرء بقلب، ويعمـلُ بقلب آخر: يعتقـد ضررَ الكذب ويكذب ويعرف مَعَـرَّة الإثم ويأثم، ويُوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون؛ ويمضى فى العمر منتهيًا إلى ربه، ما فى ذلك شك، ولكنه فى الطريق لا يعمل إلا عمل مَن قد فَرَّ من ربه...؟

هبَّـت الريحُ فى السَّحَرِ على روضةٍ غناءَ فطابت لها، فعقـدتْ عُقدتَها أن تتخذَ لهـا بيتًا فى ذلك المكان الطيـب لتقيم فيه... يا لها حكمةً من التدبير! تزعم الريحُ الإقامـةَ على حين كلُّ وجودِهـا هو لحظةُ مرورِها، وتحلُـم بالقَرار فى البيت وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنُها من المعنى إلا أسخفُ ما في الحُمق!

هَمَدَ الحيُّ وانطفأت عيناه، ولكنه تحرك فى تاريخه مما ضيَّقَ على نفسه أو وَسَّع، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرةٍ أو كالعمياء؛ فلو تكلم يصف الحياةَ الدنيا لقال: إن هذه النجومَ على الأرض مصابيحُ مأتمٍ أقيم بليل وما أعجبَ أن يجلس أهلُ المأتم فى المأتم ليضحكوا ويلعبوا!

ولو نطق الموتى لقالوا: أيها الأحياء، إن هذا الحاضرَ الذى يمر فيكونُ ماضيَكم فى الدنيا، هو بعينه الذى يكون مستقبلَكم فى الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون. وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى: من العظماء إلى الفقراء؛ ولكنها تنقلب فى الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة؛ إن التامَّ على الأرض مَن تمَّ بمتاعها ولذاتها، ولكن التامَّ فى السماء من تمَّ بنفسه وحدها.

* * *

يا أسفا! لن يقولَ الميتُ للحى شيئًا، ومن يدرى؟ لعلنا ونحن نُلْحِدُ للموتى ونُنزِلهم فى قبورهم، يَرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين، وأننا مدفونون فى القبر الذى يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجْلِ نملة لتُدْفَن فيها نملة...

الحياة... أتريد أن تعرفَها على حقيقتها؟ هى المُبْهَماتُ الكثيرةُ التى ليس لها فى الآخرِ إلا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

* * *

ورجعنا مع الصديق إلى بيته، وله خمسةُ أطفالٍ صغارٍ لو أنهم هم الذين انتُزعوا من أمهم لترك كلٌّ واحد على قلبها مثل المِكْواةِ المحمِيِّ عليها فى النار إلى أن تحمَرَّ، ولكنَّ أمهم هى التى نُزعت منهم، فكان بقاؤهم فى الحياة تخفيفًا لسَكْرةِ الموت عليها. وغَشِيتْها الغَشيةُ فماتت وهى تضحك، إذ تراهم نائمين

تحـت جَناح الرحمة الإلهية الممدود، وقالت: إنها تسـمع أحلامَهم. وكانوا همْ عقلَها فى ساعة الموت!

تبارك الذى جعلَ فى قلب الأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو، ودنيا من خَلْقِ أولادها!

تبارك الـذى أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعانى، فجعـل فرحَها صورةً كبيرة من فرح صغارِها!

* * *

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسـة، وكأنه ثمانيةُ أرطالٍ من الحياة لا ثمانيةُ أعوامٍ من العمر؛ جاء إلينا كما يجىء الفزَعُ لقلوبٍ مطمئنة، إذ كان فى عينيه الباكيتين معنًى فقد الأم!

وطغَتْ عليه الدموعُ فتناول منديلَه ومسـحَها بيده الصغيرة، ولكنَّ روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها!

وظهرَ الانكسـارُ فـى وجهه يعبِّرُ ببلاغـةٍ أنه قد أحسَّ حقيقـةَ ضعفِه وطفولتهِ بـإزاء المصيبة التى نزلتْ به، وجلس مستسـلِمًا تترجم هيئتُه معانىَ هذه الكلمة: «رفقًا بى!».

ثـم تطير من عينيه نظراتٌ فى الهواء، كأنما يحسُّ أن أمَّه حوله فى الجو ولكنه لا يراها!

ثم يُرخِى عينيه فى إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنما يرجو أن يرى أمَّه فى طَويَّته!.

ولا يُصَدِّق أنها ماتت، فإن صوتَها حى فى أذنيه لا يزال يسمعه من أمس!

ثم يعود إلى وجهه الانكسـارُ والاستسـلامُ، ويتململ فى مجلسه، فينطقُ جسمُه كله بهذه الكلمة: «يا أمى!».

* * *

أحسَّ – ولا ريب – أنه قد ضاع فى الوجود، لأن الوجودَ كان أمَّه.

ولمس خشـونةَ الدنيا منذ الساعة، بعد أن فقدَ الصدرَ الذى فيه وحده لينُ الحياة لأن فيه قلبَ أمه وروحَها.

وشـعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير، لأن تلك التى كان يملك فيها حقَّ الرحمة قد أُخذَتْ منه وتركْته بلا حقّ فى أحد؛ وليس لأحد أُمَّان!

ولبِسته المسكَنَةُ، لأن له شيئًا عزيزًا أصبح وراء الزمانِ فلن يصلَ إليه!

ولبسته المسكنةُ، لأنه صار وحدَه فى المكان كما هو وحدَه فى الزمان!

وارتسـم على وجهه التعجب، كأنه يسـألُ نفسَـه: «إذا لم تكن أمى هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثـم تَغَرْغَـرَتْ عيناه فيُخرِجُ منديلَه ويمسـح دمعَه بيده الصغيـرة، ولكن روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها!

* * *

ونهض الصغيرُ ولم ينطق بذاتِ شَفَة؛ نهض يحمل رجولتَه التى بدأت منذ الساعة!

انتهت – أيها الطفلُ المسـكينُ – أيامُك من الأمّ؛ هذه الأيام السـعيدةُ التى كنتَ تعرف الغدَ فيها قبل أن يأتىَ معرفتَك أمسِ الذى مضى؛ إذ يأتى الغدُ ومعك أمُّك!

وبدأتْ – أيها الطفلُ المسكين – أيامُك من الزمن، وسيأتى كلُّ غدٍ محجَّبًا مرهوبًا؛ إذ يأتى لك وحدك، ويأتى وأنت وحدك!

الأمّ...؟ يا إلهى، أىُّ صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايتَه من الروح إلا فى الأمّ؟.

■■■

قصة أب*

حدثنى المسكينُ فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال:

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسَأ بالولَد فى آثارهم، ومدَّ بالنسل فى وجودهم، وزاد منه فى أرواحهم أرواحًا، وضمّ به إلى قلوبهم قلوبًا، وملأ أعينَهم من ذلك بما تَقرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانت لم تجد ثم وَجَدَت؛ فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوّةَ التى تُرجِعهم أطفالاً مثلَهم فى كل ما يسرُّهم، فيكبَر الفرَحُ فى أنفسهم وإن كان فى ذات نفسه ضئيلاً صغيرًا، ويعظُم الأملُ فى أشيائهم وإن كان هو عن شىء حقير لا يُؤْبَه له.

وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلا الحقيقةُ الأخرى: وهى القوةُ التى يتحولُ بها الكونُ فى قلب الوالدين إلى كنز من الحب والرحمة وجمالِ العاطفةِ، بسحْرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلة، أو بكلمةٍ منهما أو حركة، على حينِ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريبًا منه بمال الدنيا، ولا بمُلكِ الدنيا.

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً، ولكنه ابتلانى بأن أكون أبًا، وأخرج لى من أفراح قلبى أحزانَ قلبى! ولقد كنت كرجلٍ ملك دارًا يستمتعُ بها، فتمنى أن يُشْرِعَ[1] فى جانب منها غرفة يزَخرفها، فلما تم له ذلك وبلغ المقْتَرَحَ، انهدمت الدارُ وبقيت الغرفة قائمة!

عَمْرَك اللهَ، أيشعرُ هذا الرجلُ فى نكبته بالغرفة أم بالدار؟ وهل تراه زاد أو نَقص؟ وياليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت؛ فإن الحجارةَ تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم، ولكن مَن ذا يُحيى الزوجةَ ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأولَ والآخِر!

---

* هو الصديق الأديب عبدالله عمار، وانظر «عمله فى الرسالة» من كتاب «حياة الرافعى».

(١) أى يفتح غرفة إلى الشارع.

إنها طفلة وُلِدَتْ وكأنما أُخرِجتْ من تحت الرَّدم، إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدِم، وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكونَ أمُّها قد ولدتها فى الصحراء ثم أُكرِهتْ أن تدعَها وحدها فى ذلك القَفرِ تصرخُ وتبكى! فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أولَ ما انقطعتْ من حنانِ الأمِ ورحمتها.

طفلةٌ وُلدت صارخةً، لا صرخةَ الحياة، ولكن صرخةَ النوْح والندْب على أمها.

صرخةٌ حزينةٌ معناها: ضعونى مع أمى ولو فى القبر!

صرخةٌ ترتعِدُ، كأن المسكينةَ شعرتْ أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذى يُدفئها!

صرخةٌ تتردد فى ضَرَاعة، كأنها جملةٌ مَركَّبةٌ من هذه الكلمات: «يا ربَ ارحمنى من حياةٍ بلا أم!».

* * *

قال المسكين وهو يبكى امرأتَه:

ولما ضَرَبها المخاضُ، ضاعفتْ قوتَها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعَفَةً بمولودها، وستكون روحين لا روحًا واحدة، وتلد لى الحياةَ والحبَّ الإلَهىّ معًا، وتأتى لقلبى بمثل طفولته الأولى التى يستحيل أن تأتى الرجلَ إلا من زوجه. كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدَّ منها؛ ولكن ما أسرعَ ما تبيَّنَت أنه الموتُ، إذ عُضّلت وعَسُرَ خروج مولودِها.

وجاءها الجِراحىُّ بِمْبضعِه، وكأنها رأته ذابحًا لا طبيبًا، فجعلت تعبِّر بعينها، إذ لم تملكْ فى آلامها القَاتلةِ غيرَ لغةِ هاتين العينين.

كانت بنظرةٍ تبكى عَلَىّ وعلى بؤسى، وبأخرى تبكى على بؤس مولودها وشقائه؛ وبنظرةٍ تودّعنى، وبأخرى تدعو الله لى جزاءَ ما أحسنتُ إليها؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لنفسها، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكادُ أُجَن.

نظرات نظرات...

يا إلهى! لقد خُيِّل إلىَ أن ملَكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرآةً تُحيط به، فأنا أراه موتًا متعددًا لا موتًا واحدًا، وكلُّ نظرةٍ من عينىْ زوجتى إلىّ كانت منها هى نظرةً، وكانت عندى أنا مرآةَ الروح للروح.

ولكنهــا لم تنس أنها تموت لوضْع مولودها، وأن هذه الآلامَ الدموية الذابحة هى الوسيلةُ لأن تتركَ لى بقيةً حيةً منها؛ فيا للرحمة والحنان والحب! لقد ابتسمت لى وهى تموت؛ وهى تلد؛ وهى تذْبَح!

* * *

ليســت رحمةُ المرأةِ المحبةِ خيالاً إلا إذا كانت حرارةُ الشمسِ التى تُحيى الدنيا خيالاً أيضًا؛ إن هذا القلبَ النِّســوىَّ المستقرَّ فوق أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرحةً بآلامها، وتغَدوه وتقُاســمه حياةَ نفسها - هذا القلب يحملُ الحبَّ أيضًا صابرًا راضيًا فرِحًا بآلامه، ويغدوه ويقاسمه حياةَ نفسه.

وللرحمة الإلهيَّةِ أدلة كثيرةٌ تدل الإنســانَ عليها دلالاتِ مختلفة؛ فالشمسُ تدل عليها بالضوء الذى تطعم الحياة، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفَّســه الحياة، والمــاء يدل عليها بالضوء الذى تَشــربه الحياة، وهكذا إلــى أن يأتىَ فى الآخر قلبُ المرأة فيدلَّ على رحمة الله بالحب الذى تقومُ به الحياة.

ابتسامةُ الحب غالَبت زفراتِ الموت التى تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها، وأعادت الحيــاةَ لحظةً إلى وجه زوجتى لأراها آخرَ ما أراها فى صورة المُحبةِ لى، فكان كلُّ جمالِ نفسِها منتشرًا على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحُها وعواطفُها تودِّعنى ودَاعًا حزينًا متبسمًا يتكلم؛ يتكلمُ بعجزه عن الكلام.

ابتســامةٌ لا ريب أن فيها أشــياءَ ليســت من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقِها؛ فكأنما التمعتْ بأشعةٍ من الخُلد تَرِفُّ رفيفَها على وجه الحبيب ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ أن حبَّه أقوى من الموت.

* * *

قال المســكين: ونَثَــرَ الطبيبُ ذا بطْنهــا فكانت طفلة، وما كانــت زوجتى تقترح أن يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانت مســتيقنةً أنها تضعهــا أنثى، وصنَعتْ لها ثيابَها،

ووشَّتْها بزينة الأنوثة، وعرضتْ أسماءَ البناتِ فاختارت اسمَها أيضًا، وكنت أكره ذلك منها وأريدُ ولدًا لا بنتًا، فكانت تُغايظِنى بعملها وإصرارِها غيظ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاء.

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدةَ الحَمْل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كنت أعجب لذلك؛ فلما قضى الله فيها قضاءَه، علمت أن ذلك أمرٌ من أمر الروح، فكان الإلهامُ فيها أنها على بابِ قبرها، وأنها لن ترى طفلتَها، ولن تعيشَ لها، فعاشت أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها: تضمُّ ثيابَها إلى صدرها، وتحملَها على يدها، وتُناغيها وتقبّلها، وتأخذها من الوهْم وتردُّها إليه؛ وكذلك نَعِمَتْ المسكينةُ بالمسكينة!

لكِ الله يا معجزةَ الرحمة، يا نفسَ الأم!

* * *

ولما قيل: ماتت. جعل يكلمنى المتكلمُ ولا أعقِل؛ فإن الكلمةَ التى تأتى بالمصيبة المتوقَّعَةِ طال ارتقابُها، لا تأتى بمعان لغويةٍ كغيرها من الكلام، بل بأسلحةٍ تَضربُ فى النفس وفى العقل، وتُثْخِنُهما جِراحا وفتْكا.

وجعلنى موتُها كأنى ميتٌ يحمل نفسَه، ما حولَه إلا المشيّعون؛ وأحسست كأن قوةً أخذتْ بإحدى رجلىَّ فوضتعها فى الآخرة وتركت الثانيةَ فى الدنيا، ولَحقَنى من الجزع ما اللهُ عالمٌ به، ووَجِدْتُ أحْرَقَ الوجْد، وبكيتُ أحرَّ البكاء؛ وجعلتْ أفكارى تنحدِرُ من رأسى إلى حلقى فأختنقُ بها ثم لا يُنفِّسُ عنى إلا الدمع، كأن أعضائى اختلَّتْ مما ضغَطَنى من الحزن، فأنا أتنفسُ برِئتىّ وعينىّ.

بموتها شعرتُ بها، ولعلَّه من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذة الحب كاملةً إلا فى آلام الحب وحدها، وكانت فى حياتها تضع من روحها فى سرورى، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة: يجد مُحبُّها فى كل سرورٍ لمحاتٍ روحانية؛ وكذلك فعلتْ بعد موتها، فجعلتْ روحَها فى أحزانى؛ ولولا أن روحَها فى أحزانى لقتلتْنى المصيبة.

وكنت أدْلِفُ وراء النعشِ وقد بَطَل فى نفسى الشعورُ بالدنيا، وكان الناسُ يمشُون حولى بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون

إلى كل مكان؛ أما أنا فكنتُ أمشى بما فيَّ من الحب منكسِرًا منْخذِلا متَضَعْضِعًا، لأنى وحدى سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق.

وثَقُـلَ الناسُ على قلبى، ورجع كلُّ أمرِهم عندى إلى العَيب والنقيصة، إذ كان لى عقـلٌ طارئ من الحالة التى أنا فيها ليس مثله لأحـدٍ منهم، وكنت وحدى المصابَ بينهم، فكنتُ وحدى بينهم العاقل.

أنا أمشى لأنتهىَ إلى آخرِ مصيبتى، وهم يمشون لينتهوا إلى آخرِ الطريق؛ وشَتَّانَ ما نحن وشتَّان!

ولما رأيتُ قبرَها ابتدرتْ عيناى تنظران بالدموع لا بالنظَر، ورأيتُ الترابَ كأنه غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السـحُبِ الداكنةِ تتهيأ فى سمائها تحت الظلام لتُخْفَى كوكبًا من الكواكـب؛ وظهر لى القبـرُ كأنه فَمُ الأرضِ يخاطبُ الإنسـانَ بحزم صارم، يخاطبُ الفقيرَ والغنىّ، والضعيفَ والقوىّ، والملوكَ والصعاليك: «أن كلَّ قوةٍ تُنزَعُ هنا».

* * *

قال المسـكين: وكما يجدُ الإنسـانُ فى أيام المطر رائحةَ النسـيم المبتلّ بالماء، كنتُ أسْـتَرْوِحُ فى رَجْعَتى إلى الدار رائحةَ نسـيم مبتلّ بالدمـوع؛ وحضَرْتُ المأتمَ وعزّانى الناسُ، فكنت فيهم كالمأسـور بينهـم: لا أتمنى إلا أن يَدَعونى فأنجوَ على وجهـى، ولا أرى إلا إنهم يجرِّعوننى الوجودَ غُصَصًا كما تجرعتُ الفقدَ غُصةً غُصةً؛ إلى أن تفرقوا مع سواد الليل فانكفأتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شىء قد تغيَّر ولمسه الموتُ لَمْسَـةً، وإذا الدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء: ما ثَمّ شىءٌ إلا ليطالِعَنى بأن مسراتى قد ماتت!

ولاح الصبـحُ لعينىَّ السـاهرتين صبحًـا فاترًا تبيَّنتُ فيه الخجـل، كأنه يقول: «لم أطلُـعْ لك»، فانسـللتُ من البيت، وذهبتُ أمشـى فى دنيا هـى الكآبةُ المضيئةُ سَـخِرت الأقدارُ منها بإظهارهـا فى هذا الضوء مَظهرَ وجهِ العجـوزِ المتصابيةِ فى زينةٍ لا تزيدها إلا قبحًا!

ومضيتُ على وجهى لا غايةَ لى، أضرِبُ فى كل جهة كأنما أريد أن أهربَ من نفسى! وما خطر لى قط أنى فى يوم جديد، بل كنتُ عند نفسى لا أزالُ أمس، وتغيَّر عندى الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تترك ما فيها، والآخرُ قبرُ ميِّتةٍ لا يردُّ ما فيه.

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الموجودُ ليعذِّبَنا بالتذكُّر أنه كان موجودًا!

***

قال المسكين ثم أعادتنى قدماىَ إلى البيت لأرى طفلتى – وما كنت رأيتها – ولقد كانت ولادتُها أولَ الحياةِ لها، وأولَ الحياة لى أيضًا؛ إذ لولاها لانتحرتُ غيرَ شكّ.

يا ويلَتا! لم تلتقِ عينى بعينِ الطفلة حتى انفجرتْ تبكى. أتبكين لى يا ابنتى أم علىّ؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة، أم هو صوتُ قلبك اليتيم؟

أصوتُكِ أنت، أم هى روحُ أمكِ تصرخُ ترثى لى، وتتوجعُ لفرْطِ ما قاسيت!

يا ابنتى، إنما أنتِ الحقيقةُ الصغيرةُ التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة، خيالاتِ الأيام السعيدةِ التى مرَّت!

يُخلَق المواليدُ من اللحم والدم! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقتِ من اللحم والدم والدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتت! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا؟

مسكينة، مسكينة؛ لو أن نواميسَ العالم متغيرةٌ لشىء لتغيرتْ من أجل بؤسكِ فردَّت لك الأم؛ ولكنها لن تتغير، وما بكاؤنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ الحياة فى أجسامنا الأرضية، كلُّ ذلك طبيعةً، ولكنَّ بقعةً أنظفُ من بقعة، وأراكِ يا ابنتى كالبيتِ الذى هُدِم أوّلَ ما بُنى يملؤه ترابُه!

لن تتغيرَ النواميس، فلن تَجدى عطفَ الأم، ولكن لن يتغيرَ قلبى أيضًا، فلن تُحرمى عطفَ الأب.

وإذا صبـر الناسُ على الحياة فمن أجلكِ يا مسـكينة! مـن أجل ضعفِك وانقطاعِك سـأعانى الصبـرَ لك، وأعانـى الصبرَ لـى، وأعانى الصبـرَ عن أمك، سـأصبرُ على الصبر نفسه!

يا ابنتى، يـا ابنتى، لماذا وضعتْك الأقدارُ من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمكِ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتِبتْ من أهل البؤس والهمِ، فلم أتزوج إلا لتصنعَ لى حبيبى دموعـى، ثـم لم تمت إلا بعد أن تركـتْ لى حبيبةً أخرى سـتظل زمنًا طويلا تصنَع لى دموعى!

■■■

السَّمكة

حدَّث أحمدُ بنُ مِسكينٍ الفقيهُ البَغدادى قال: حصَلْتَ فى مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين، وعالِمُها يومئذ شيخُ خُراسان أبو عبد الرحمن[1] الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم؛ وهو رجل قلبُه من وراء لسانِهِ، ونفسُه من وراء قلبِه، والفلكُ الأعلى من وراء نفسِه، كأنه يُلَقَّى عليه فيما زعموا.

وكان يقال له عندهم: (لُقمانُ هذه الأمَّة)؛ لِمَا يُعجبهم من حِكَمِه فى الزهد والموعظة، وقد حضرتُ مجالسَه وحفظتُ من كلامه شيئًا كثيرًا، كقوله: مَن دخل فى مذهبنا هذا (يعنى الطريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصالٍ من الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع، والموتُ الأسودُ احتمال الأذى، والموتُ الأحمر مخالفةُ النفس، الموتُ الأخضر طرحُ الرِّقاع بعضِها على بعض (يعنى لبس المرقعة والخَلَقِ من الثياب).

وقلت يومًا لصاحبه وتلميذه (أبى تراب) وجارَيْتُه فى تأويل هذا الكلام: قد فهمنا وجَه التسمية فى الموت الأخضرِ ما دامت المرقعةُ خضراء؛ فما الوجهُ فى الأبيض والأسود والأحمر؟ فجاء بقولٍ لم أرضَه، وليس معه دليل، ثم قال: فما عندك أنت؟ قلت: أما الجوعُ فيُميت النفسَ عن شهواتها ويتركُها بيضاءَ نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سواد الوجه عند الناس، فهو الموتُ الأسود؛ وأما مخالفةُ النفس فهى كإضرام النار فيها، فذاك الموتُ الأحمر.

قال أحمد بن مسكين: وكنتُ ذاتَ نهارٍ فى مسجد (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغَلَه بعضُ الأمر فراثَ عليهم، فقالوا: مَن يَعِظنا إلى أن يجىءَ الشيخ؟ فالتفت إلىّ أبو تراب وقال: أنت رأيتَ الإمام أحمدَ بنَ حَنْبل، ورأيت

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها، توفى سنة ٢٣٧ للهجرة.

بِشْـرًا الحافى وفلانًا وفلانًا، فقم فحدِّث الناسَ عنهم، فإنما هؤلاء وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة. ثم أخذ بيدى إلى الأسـطوانة التى يجلسُ إليها إمامُ خراسـان فأجلسنى ثَمَّة وقعد بين يدىّ.

وتطاولَـت الأعناق، ورمانى النـاسُ بأبصارهم، وقالوا: البَغْـدادى! البغدادى! وكأنما ضُوعفْتُ عندهم بمجلسـى مرةً وبنِسْـبتى مرةً أخرى، فقلت فى نفسى: والله ما فى الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسـود موعظة، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسد شعرُ هذه الألوانِ معناه، وإنما يجبُ أن يكونَ كما يجب أن يكون؛ ولا موعظةَ فـى كلام لم يمتلـئ من نفس قائله، ليكونَ عملاً فيتحوّلَ فـى النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلامًا؛ وإنه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسـامع يَسمعُه، لكنه تأليفُ النفس لنفس أخرى تراها فى كلامها، فيكون هذا الكلام كأنه قَرابةٌ بين النفسين حتى لكأن الدمَ المتجاذِبَ يجرى فيه ويدورُ فى ألفاظه.

* * *

وكنتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة فى بغداد، فقصصتها عليهم، فكانت القصةُ كما حكيتُها: أنى امتُحِنْتُ بالفقر فى سـنة تسـعَ عشرةَ ومائتين؛ وانحَسَمَتْ مادتى وقَحِطَ منزلى قَحطًا شـديدًا جمع علىَّ الحاجة والضُّرَّ والمسكَنة؛ فلو انكمشتِ الصحراءُ المجدبةُ فصَغُرتْ ثم صغرُت حتى ترجعَ أذرُعًا فى أذرع، لكانت هى دارى يومئذ فى محلَّة باب البَصرةِ من بغداد.

وجاء يومٌ صَحْراوِىٌّ كأنما طلعت شمسُه من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُب، ومرَّت الشمسُ على دارى فى بغداد مرورَها على الورقة الجافةِ المعلَّقة فى الشجرة الخضراء؛ فلم يكن عندنا شـىء يُسـيغُه حَلْقُ آدمىٍّ، إذ لم يكن فى الدار إلا ترابُها وحجارتُها وأجذاعُها؛ ولى امرأة ولى منها طفلٌ صغير، وقد طَوِينا على جوع يَخْسِـفُ بالجوف خَسفًا كما تَهْبطُ الأرض؛ فَلَتمَنَّيْتُ حينئذ لو كنا جُرْذانًا فنَقْرضَ الخشب! وكان جوعُ الصبىّ يزيدُ المرأةَ ألما إلى جوعها، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاوية.

فقلت فى نفسى: إذا لم نأكل الخشبَ والحجارة فلنأكلْ بثمنها. وجمعتُ نيتى على بيع الدار والتحوُّلِ عنها، وإن كان خروجى منها كالخروج من جِلدى: لا يسمَّى إلا سلخًا وموتًا؛ وبت ليلتى وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلَّب إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنَّةِ التى عملتْ فيها.

ثم خرجتُ بغَلَسٍ لصلاة الصبح؛ والمسجدُ يكون فى الأرض ولكنَّ السماءَ تكون فيه، فرأيتُنى عند نفسى كأنى خرجتُ من الأرض ساعة. ولما قُضِيَت الصلاةُ رفع الناسُ أكفَّهم يدعون الله (تعالى)، وجرى لسانى بهذا الدعاء: «اللهمَّ بك أعوذ أن يكون فقرى فى دِينى، أسألك النفعَ الذى يُصلِحُنى بطاعتك، وأسالك بركةَ الرضى بقضائك، وأسالك القوّةَ على الطاعة والرضا يا أرحمَ الراحمين».

ثم جلستُ أتأملُ شأنى، وأطلتُ الجلوسَ فى المسجد كأنى لم أعُدْ من أهل الزمن فلا تجرى علىَّ أحكامه، حتى إذا ارتفعَ الضُّحَى وابيضَّت الشمسُ جاءت حقيقةُ الحياة، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيع الدار، وانبعثْتُ وما أدرى أين أذهب، فما سرتُ غيرَ بعيد حتى لقينى (أبو نصر الصياد) وكنتُ أعرفه قديمًا، فقلت: يا أبا نصر! أنا على بيع الدار؛ فقد ساءت الحالُ وأحْوَجَت الخَصاصة، فأقِرضنى شيئًا يُمسِكُنى على يومى هذا بالقِوام من العيش حتى أبيعَ الدار وأوَفِّيك.

فقال: يا سيدى! خذ هذا المِنديلَ إلى عيالك، وأنا على أثَرِك لاحِقٌ بك إلى المنزل. ثم ناوَلنى منديلا فيه رُقاقتان بينهما حلوى، وقال: إنهما والله بركةُ الشيخ.

قلت: من الشيخُ وما القصة؟

قال: وقفتُ أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة، فمرَّ بى أبو نصر بِشْرٌ الحافى[1] فقال: مالى أراك فى هذا الوقت؟ قلت: ما فى البيت دقيقٌ ولا خبز ولا درهم ولا شىء يباع. فقال: اللهُ المستعان؛ احمل شبكتَك وتعالَ

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى، توفى سنة ٣٢٧ للهجرة، وكان واحد الدنيا فى ورعه وتقواه؛ وقيل له: (الحافى) لأنه كان فى حداثته يمشى إلى طلب العلم حافيًا، إجلالا لحديث النبى ﷺ.

إلـى الخَندق؛ فحملتُها وذهبتُ معــه، فلما انتهينا إلى الخندق قال لى: توضَّأ وصلّ ركعتين. ففعلت، فقال: سَـمِّ اللهَ تعالى وألقِ الشـبكة. فسمَّيت وألقيتها، فوقع فيها شـىء ثقيل، فجعلتُ أجره فشَـقَّ عَلَىَّ؛ فقلت له: سـاعدنى فإنـى أخاف أن تنقطعَ الشـبكة، فجـاء وجرَّها معى، فخرجت سـمكةٌ عظيمة لـم أر مثلهَا سِـمَنًا وعِظَما وفَراهــة. فقال: خذها وبعها واشـتر بثمنها ما يُصلح عيالَك. فحملتها فاسـتقبلنى رجل اشـتراها، فابتعتُ لأهلى ما يحتاجون إليه، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشـيخ فقلت أهدى له شيئًا، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب، فقال: من؟ قلت: أبو نصر! قال: افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخــلْ، فدخلتُ وحدثتُه بما صنعت فقــال: الحمد لله على ذلك. فقلت: إنى هيأتُ للبيت شيئًا وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رقاقاتان فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة! اذهبْ كُلْه أنت وعيالُك.

* * *

قال أحمد بن مِسـكين: وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفًا لحسـبتُه مائدة أنزِلت من السـماء، ولكنَّ كلمةَ الشـيخ عن السمكة أشبعتنى بمعانيها شبَعًا ليس من هذه الدنيا، كأنما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمار الجنة؛ وطَفِقْتُ أردِّدها لنفسـى وأتأملُ ما تَفْتُقُ الشهواتُ على الناس، فأيقنتُ أن البلاءَ إنما يصيبنا من أننا نفسرُ الدنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودة، فإذا استقرَّ فى أنفسنا لفظٌ من ألفاظ هذه الشهوات، اسـتقرت به فـى النفس كلُّ معانيه مـن المعاصى والذنوب، وأخذتْ شـياطينُ هذه المعانى تَحومُ على قلوبنا، فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشـياطين، عاملينَ لها، ثم عاملين معها، فتُدْخِلُنا مَداخِلَ السُّوء فى هذه الحياة، وتُقْحِمُنا فى الوَرْطَةِ بعد الورطة، وفى الهلَكة بعد الهلكة.

ومـا هذه الشـياطينُ إلا كالذبـاب والبعوضِ والهَـوامّ، لا تحـومُ إلا على رائحةٍ تجذبهـا، فإن لم تجـد فى النفس ما تجتمعُ عليه، تفرقتْ ولـم تجتمع، وإذا ألمَّت الواحدةُ منها بعد الواحدة لم تثبتْ. فلو أننا طردنا من أنفسـنا الكلمات التى أفسدت

علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ، لكان للدنيا فى أنفسنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلها، ولكانت لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهر من أعمالنا.

فالشيخ لم يكن فى نفسه معنىً لكلمة (التلذُّذ)، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ الواحد، طَرَد معانَى الشرّ كلها، وصَلحَ له دينُه، وخَلصَتْ نفسُه للخير ومعانى الخير. ولو أن رجلاً وضع فى نفسه امرأةً يعشِقُها، لصارت الدنيا كلُّها فى نفسه كالمخْدَع: ما فيه إلا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليه وأسبابِه إليها...

وقد كنتُ سمعتُ فى درس شيخنا أحمدَ بن حنبل هذا الحديث: «لولا أن الشياطينَ يَحومون على قلوب بنى آدمَ لنظَروا إلى مَلَكُوت السموات». فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشيخ فى السمكة، وقد علَّمنيها هذا الصيَّاد العامى؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعانى، والمعانى يُوجدُها اللفظُ المستقرُّ فى القلب استقرارَ غرَض أو شهوةٍ أو طمع؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعانى، فقد أمِنَ مُنازَعَتَها له وشَغْلَها إياه، فيصبحُ فوقَها لا بينَها؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعْميه ويعترِض نظرَه إلى الحقائق، انكشفتْ له هذه الحقائق فانكشف له المَلَكُوت؛ فإذا وقع بعدُ فى واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحَلوى)، استَعْلَتْ الأشياءُ عليه فحجبَتْه، وعاد بينَها أو تحتَها، وعَمِىَ عَمَى اللذة؛ والحِجابُ علىالبصر كأنه تعليقُ العَمَى على البصر.

وكنتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخِنا أحمد بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدى المعتصم بالسِّياط حتى غُشىِ عليه[1] فلم يتحوّلْ عن رأيه؛ فعملتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعلْ فى نفسه للضرب معنَى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدميّ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان لَجزِعَ وتحوَّل، ولو ضُرِب ضربَ الإنسان لتألَّمَ وتغير؛ ولكنه وضعَ فى نفسه معنَى ثباتِ السنَّة وبقاءِ الدين، وأنه هو الأمةُ كلُّها

(١) كان هذا فى سنة ٢١٩ هجرية وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به، فأفتى القاضى ابن أبى دؤاد بقتله وشغب عليه. ثم ضرب بين يدى المعتصم، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه.

لا أحمــدُ ابن حنبل، فلو تحوَّل لتحوَّل الناسُ، ولو ابتَدَع لابتدَعُوا؛ فكان صبُره صبرَ أُمةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فَرد، وكان يُضرَب بالســياط ونفسُــه فوقَ معنى الضرب، فلو قَرَضُوه بالمَقَاريض ونشــروه بالمَنَاشير لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمُه إلا ثوبًا عليه، وكان الرجلُ هو الفكرَ ليس غَيْر.

هؤلاء قومٌ لا يَروْن فضائلَهم فضائلَ، ولكنهم يَروْنها أماناتٍ قد ائتُمِنُوا عليها من الله لتبقَى بهم معانيها فى هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعون فى الأمم زَرعًا بيَدِ الله، ولا يملكُ الــزرعُ غيــرَ طبيعته، وما كان المعتصمُ وهو يريد شــيخَنا على غيــر رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح: أثْمِرى غيرَ التفاح.

* * *

قال أحمدُ بن مسكين: وأخذتُ الرقاقتين وأنا أقولُ فى نفسى: لعن الله هذه الدنيا! إن من هَوانِها على الله أن الإنســانَ فيها يَلْبَسُ وجهَه كما يلبَسُ نعلَه. فلو أنَّ إنســانًا كانــت له نظــرةٌ ملائكيةٌ ثم اعترضَ الخلقَ ينظُر فى وجوههــم، لرأى عليها وُحُولاً وأقــذارًا كالتــى فى نعالِهم أو أقــذرَ أو أقبح، ولعله كان لا يَــرى أجملَ الوجوه التى تَسْتَهيمُ الناسَ وتَتَصَبَّاها من الرجال والنساء، إلا كالأحذية العتيقة...

ولكنى أحسستُ أن فى هاتين الرقاقتين سرَّ الشيخ، ورأيتُهما فى يدى كالوثيقتين بخيــر كثير، فقلت: على بَركة الله. ومضيتُ إلى دارى؛ فلما كنتُ فى الطريق لقيتْنى امرأة معها صبىٌّ، فنظرتْ إلى المنديل وقالت: يا سيدى، هذا طفلٌ يتيم جائع ولا صبرَ له على الجوع، فأطعِمْه شــيئًا يرحمك الله. ونظر إلىَّ الطفلُ نظرةً لا أنســاها؛ حسبتُ فيها خُشــوعَ ألف عابد يعبدون الله (تعالى) مُنْقَطِعين عن الدنيا؛ بل ما أظن ألفَ عابد يســتطيعون أن يُرُوا الناسَ نظرةً واحدةً كالتى تكون فى عين صبىّ يتيم جائع يســأَلُ الرحمة. إن شــدةَ الهمّ لتجعلُ وجوهَ الأطفال كوجوهِ القدّيسين، فى عينٍ من يراها من الآباء والأمهات، لِعَجْز هؤلاء الصغار عن الشــّر الآدمىّ وانقطاعِهم إلا من الله والقلبِ الإنسانىّ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنه يَصْرُخُ بمعانيه يقول: يا ربَّاه يا رباه!

قال أحمدُ بن مِسكين: وخيِّل إلىَّ حينئذ أن الجنةَ نزلتْ إلى الأرض تَعْرِضُ نفسَها على من يُشْبعُ هذا الطفلَ وأُمَّه، والناسُ عَمْىٌ لا يُبصرونها، وكأنهم يمرون بها فى هذا الموطِن مرورَ الحميرِ بقصرِ الملِك: لو سُئِلتْ فَضَّلتْ عليه الإصْطَبلَ الذى هى فيه...

وذكرتُ امرأتى وابنَها وهما جائعان مُذْ أمس، غيرَ أنى لم أجدْ لهما فى قلبى معنى الزوجة والولد: بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلِها، فأسقطتُهما عن قلبى ودفعتُ ما فى يدى للمرأة وقلت لها: خذى وأطعمى ابنَك، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإنَّ فى دارى لَمن هو أحوجُ إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بى لتقدمتُ فيما يُصْلِحُك. فدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وجهُ الصبىّ، ولكنْ طَمَّ على قلبى ما أنا فيه فلم أجد للدَّمعة معنى الدمعة، ولا للبَسْمة معنى البسمة.

وقلت فى نفسى: أما أنا فأطوِى إن لم أصِبْ طعامًا، فقد كان أبو بكر الصديق يطوِى ستة أيام، وكان ابنُ عُمر يطوى، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم؛ ولكن مَن للمرأة وابنها بمثلِ عَقْدِى ونيَّتى؟ وكيف لى بهما؟

ومشيتُ وأنا مُنْكَسرٌ منْقبض، وكأنى كنت نسيتُ كلمةَ الشيخ: «لو أطعِمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة». فذكرتُها وصرفتُ خاطرى إليها وشَغَلتُ نفسى بتدبُّرها وقلتُ: لو أنى أشبعتُ ثلاثةً بجوع اثنين لحُرمتُ خمسَ فضائل[1] وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا، فما يستقيم الأمر إلا كما صنَعت.

وكانت الشمسُ قد انبسطَتْ فى السماء وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى، فملتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر فى بيع الدار ومن يبتاعها، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأنه مُسْتَطَارٌ فَرحًا، فقال: يا أبا محمد، ما يُجلِسُكَ ههنا وفى دارك الخيرُ والغنى؟ قلت: سبحانَ الله! من أين خرجت السمكةُ يا أبا نصر؟

---

(١) يريد: جوعه، وجوع امرأته، وجوع ابنه؛ ثم شبع هذه المرأة، وشبع ابنها. فهذه خمس فضائل.

قال: إنــى لَفى الطريق إلى منزلــك، ومعى ضَرُورةٌ من القُــوتِ أخذتُها لعيالك، ودَراهمُ اســتَدنتُها لك، إذا رجلٌ يَسْــتَدِلُّ الناسَ على أبيــك أو أحد من أهله، ومعه أثقالٌ وأحمال، فقلت له: أنا أدلك. ومشــيتُ معه أســأله عن خبرَه وشأنه عند أبيك. فقــال: إنه تاجر مــن البَصْرة، وقد كان أبــوك أوْدعه مالاً من ثلاثين ســنةً، فأفلس وانكســرَ المال ثم ترك البصرةَ إلى خُراسانَ، فصلح أمرُه على التجارة هناك، وأيْسرَ بعد المِحْنَة، واستَظْهرَ بعدَ الخِذْلان، وأقبلَ جَدُّه بالثَّرَاء والغِنىَ؛ فعاد إلى البصرة، وأراد أن يتحلَّــلَ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحُه فى هذه الثلاثين ســنةً، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا.

***

قال أحمدُ بن مســكين: وأنقلِبُ إلى دارى فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلت: صدق الشــيخ: «لو أطعمنا أنفسَــنا هذا ما خرجت الســمكة»! فلو أن هذا الرجلَ لم يلقَ فى وجهه أبا نصر، فى هذا الطريق، فى هذا اليوم ،فى هذه الساعةِ، لما اهتدى إلىَّ؛ فقد كان أبى مغمورًا لا يعرفُه أحدٌ وهو حى؛ فكيف به ميتًا من وراء عشرين سنة؟

وآلَيْتُ لَيعلمَنَّ اللهُ شــكرى هــذه النعمة؛ فلم تكن لى همــةٌ إلا البحثَ عن المرأة المحتاجــة وابنِها، فكفيتهما وأجريتُ عليهما رِزقًا، ثم اتَّجَرْتُ فى المال، وجعلتُ أرُبُّه بالمعروف والصَّنِيعةِ والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزداد ولا ينقُص، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْت.

وكأنى قد أعجبتنى نفســى، وســرّنى أنى قد ملأتُ سِجلاتِ الملائكة بحَسناتى، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبتُ عند الله فى الصالحين، فنمتُ ليلةً فرأيتُنى فى يوم القيامة والخَلْقُ يموجُ بعضُهم فى بعض، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الإنســان الضعيف، يُسْــألُ عن كل ما مســه من هذا الكون. وســمعتُ الصائحَ يقول: يا معشــرَ بنى آدم! سَــجَدَت البهائمُ شــكرًا لله أنه لم يجعلها من آدم. ورأيتُ الناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورهم مخلوقة مجسَّــمة، حتى لكأن الفاسقَ على ظهره مدينةٌ كلها مُخْزيات!

وقيل: وُضعَت الموازينُ. وجيء بى لوزن أعمالى، فَجُعِلتْ سيئاتى فى كِفة وألقيتْ سجلاتُ حسناتى فى الأخرى، فطاشَت السجلات ورجَحَت السيئات، كأنما وزنوا الجبلَ الصخرىّ العظيم الضخمَ بلُفافةٍ من القطن.

ثم جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعد الحسنةِ مما كنت أصنعهُ، فإذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس: كالرّياء والغرور وحبّ المْحمَدَة عند الناس وغيرها، فلم يَسْلمْ لى شىء، وهلكتْ عنى حُجَّتى، إذ الحجةُ ما يُبَيِّنُه الميزان والميزانُ لم يدلَّ إلا على أنى فارغ.

وسمعتُ الصوتَ: ألم يبق له شىء؟ فقيل: بَقِى هذا.

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقى، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ بهما على المرأة وابنِها! فأيقنتُ أنى هالك؛ فلقد كنت أُحْسِنُ بمائة دينار ضَرْبةً واحدةً فما أغنت عنى، ورأيتُها فى الميزان مع غيرها شيئًا معلَّقًا، كالغَمام حين يكون ساقِطًا بين السماء والأرض: لا هُو فى هذه ولا هو فى تلك.

ووُضعت الرقاقتان، وسمعتُ القائل :لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أبى نصر الصياد. فانخذَلْتُ انخذالاً شديدًا، حتى لو كُسِرْتُ نصفين لكان أخفَّ علىَّ وأهون. بَيْدَ أنى نظرتُ فرأيت كِفة الحسناتِ قد نزلتْ منزِلةً ورَجَحَت بعضَ الرُّجحان.

وسمعتُ الصوت: ألم يبقَ له شىء؟ فقيل بَقىَ هذا.

وأنظر ما هذا الذى بقى، فإذا جوعُ امرأتى وولَدى فى ذلك اليوم! وإذا هو شىء يُوضَع فى الميزان، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلَتَا بالسَّوِيَّة. وثَبَتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك والنَّجاة.

وأسمعُ الصوت: ألم يبق له شىء؟ فقيل بقى هذا.

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكتْ من أَثَرِ المعروفِ فى نفسها، ومن إيثارى إياها وابنَها على أهلى. ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها فى الميزان فَفارتْ، فطمَّتْ كأنها لُجَّةٌ، مِن تحتِ اللجة بحر، وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتْ من اللجَّة

وقَع فى نفسى أنها رُوح تلك الدموع، فجعلتْ تعظُم ولا تزال تعظم، والكفةُ ترجَحُ ولا تزال ترجح، حتى سمعتُ الصوت يقول: قد نجا!

وصحتُ صيحةً انتبهتُ لها، فإذا أنا أقول: «لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة!».

■■■

الزاهدان*

(٢)

قال أحمدُ بن مسكين: انتشر حديثُ السمكةِ فى أهلِ (بلْخ). واستفاضَ بينهم، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم السبت، فلما دار السبتُ من أسبوعه لقيَنى شيخُهم حاتمُ ابن يوسف (لقمانُ الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك فى هذه المدينة قمرٌ طَلَع بلَيْل فلا يَعِظ الناسَ فى يوم السبت غيرُك؛ ومن سمع فكأنه عايَن، وليس على ألسنةِ أهلِ بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلا موعظُتك وحديثُك.

والكلامُ عن الصالحين فى مثلِ ما وصفتَ وحكيتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسُموٌّ إلى معانيهم؛ وليس فى القول بابٌ له موقعٌ كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلُقهم الله فى البشرية خلقَ النور: يُضيء ما حوله من حيث يُرى، ويعملُ فيما حوله من حيث لا يُرى، وفى ظاهرِه الجمالُ والمنفعة، وفى باطنِه القوةُ والحياة. ولستُ أقول لك اذهبْ فحدِّث الناس، ولكنى أقول اذهب فاعْطِ الناسَ عقلاً من الحديث.

قال ابنُ مِسكين: فلما صلينا العصرَ، قدَّمنى أبو تراب فجلستُ فى مجلسى ذاك، وهَتَفَ بى الناسُ يريدون الحديث عن بِشر الحافى وما سَقَطَ لى من أخباره، على الطريقة التى حدثُتهم بها من قبل، فابتدأتُ بذكر موته (رحمه الله) وأن يومَه كأنما اجتمع له أهلُ خمسٍ وسبعين سنة[1]، إذ خرجتْ جنازتُه بعد صلاة الصبح، فلم يحصُلْ فى قبره إلا فى الليل مما احتَشَد فى طريقه من الخلق، حتى لكأن فى نعشه سرًّا من أسرار الجنة يطالِعُهم به الموتُ فخرجوا ينظرون إليه، وكانوا يصيحون فى جنازته: هذا والله شرفُ الدنيا قبلَ شرفِ الآخرة.

* هذا هو الفصل الثانى من قصة السمكة.

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة.

ثم قلت: حدَّثنى حسينٌ المَغَازلى[1]: أن بشرًا (رحمه الله) كان لا يأكلُ إلا الخبزَ تورُّعا عن الشـبهات واكتفـاء لضرورة الحياة بالأقلِّ الأيسـر، وكان يقول فى ذلك: يَدٌ أقصرُ من يد، ولقمةٌ أصغر من لقمة. وسـئل مرة: بأىِّ شـىء تأكل الخبز؟ فقال: أذكـر العافيةَ فأجعلُها إدامًا. وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج، وكان يرى هذا نقصًا فى نفســه حتى فضَّل الإمامَ أحمد بن حنبل بأشـياء: منها أن له أهلا؛ غيرَ أنه قيل لــه ذاتَ يوم: لو تزوجتَ تم نُسْـكُك. فقال: أخافُ أن تقـومَ الزوجةُ بحقى ولا أقوم بحقها. فكانت هذه النية فى نفسه أفضلَ من زواجه.

وكان مـع هذا لا يؤاكِل أحدًا، ولا يسـعَى إلى لقاء أحد، حتــى إنه لما رغب فى مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخى)، أرسل إليه (الأسودَ بنَ سالم) وكان صديقًا لهما، فقال لمعروف: إن بشـر بن الحارث يريد مؤاخاتَك وهو يستحِى أن يُشافِهَك بذلك، وقد أرسـلنى إليك يسـألك أن تعقدَ له فيما بينه وبينك أُخُوَّة يحتَسِبُها ويعتدُّ بهـا؛ إلا أنه يشـترط فيها شـروطًا: أولُها أنه لا يحب أن يشـتهر ذلـك، وثانيها ألا يكـون بينك وبينه مُـزَاوَرَة ولا مُلاقاة. فقال معروف: أما أنـا فإذا أحببتُ أحدًا لــم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهارًا، وأزوره فى كل وقت، وأوثِرُهُ على نفســى فى كل حال؛ وأنا أعقد لبشـر أخوةً بينى وبينه، ولكنى أزوره متى أحببت، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى.

قال حسين المغازلى: وكان هذا كلُّه من أمر بِشْر معروفا فى بغداد، لا يجهله أحد مــن أهلها، إذ لم يكن لبغداد إمام غيرَه وغيــرَ ابن حنبل؛ فما كان أكثرَ عجَبى حين كنــتُ عنده يومًا وقد زاره (فَتْــح الموْصِلى)، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلىّ وقال: اشتر لنا أطيبَ ما تجد من الطعام، وأطيبَ ما تجد من الحلوى، وأطيبَ ما تجد

(١) نسبة إلى عمل المغازل، وكان حسين هذا صديقًا لبشر، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها، ومن كلامه لابن أخته عمر: يا بنى، اعمل بيدك؛ فإن أثره فى الكفين أحســن من أثر السجدة بين العينين. هكذا كانوا رحمهم الله.

مــن الطِّيب. وما قال لى مثلَ ذلك قط، وهو الــذى رأى الفاكهة يومًا فقال: ترْكُ هذه عبادة! وهو القائل لأبى نصر الصياد: لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة[1].

فذهبتُ فاشــتريتُ وانتقيتُ وتَخيَّرت، ثم وضعتُ الطعــامَ بين أيديهما، فرأيته يأكلُ معه وما رأيته أكل مع غيره، ورأيته منبسِــطًا إليه وما لى عهدٌ كان بانبســاطِه إلى أحد. وقد كنتُ أخبرتُه فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل، عَلِمتُه من ادريس الحــداد : فإنه لما زالت المِحنةُ بعد أن ضرِب بين يدى المعتصم وصُرِفَ إلى بيته، حُمل إليه مالٌ كثير من سَــرَوات بغداد وأهل الخير فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيرًا، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه، وإلى الأقلّ من أيسره، وإلى الشىء من أقلِّه، فجعل عمُّه اســحق يَحْسُبُ ما ورد ذلك اليوم، فكان خمسين ألفَ دينار، فقال له الإمام: يا عم ،أراك مشغولا بحساب ما لا يفيدك. قال: قد رددتَ اليوم كذا وكذا ألفًــا وأنت محتاج إلى حبة من دانق. فقال الإمــام: يا عم ،لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لمَّا تركناه.

***

قــال المغَازلى: فنمتُ تلك الليلةَ وأنا أفكر فى صنيع الشــيخ، وقد تعلَّق خاطرى بــه: كيف انقلبت الحالُ معه، وأىّ شــىء هذه الحال؟ وجعلــتُ أكدُّ ذهنى لأعرفَ الحقيقةَ العقلية التى سَــلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّط النعيمُ على نفسه، وأنا أعلم أن للقوم علوما روحانيةً ليست فى الكتب، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء، ومنها، ومنها؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشــهوات؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فــى جميعها طائلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتنى عيناى، وأنا من وَهَج الفكر نائمٌ كالمريض، وقد ثَقُل رأسى واختلط فيه ما يُعقَل بما لا يُعقل.

---

(١) مر هذا فى مقال (السمكة).

فرأيتُ أولَ ما رأيت مَلِكًا جبارًا يحكم مدينةً عظيمة، وقد أطلق المنادىَ فى جمْع كلَ أطفالِ مدينته، فجىء بهم من كل دار، ثم رأيته قد جلس على سريره وفى يده مِقراضٌ عظيم، قد اتخذه على هيئة نَصلين عريضين لو وُضعَتْ بينهما رقبةٌ لفَصَلاها عن جسمها؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابعَ إحدى قدميه فى شِقَّى المقراض فيقرضُها، فإذا هى تنتاثر أسرعَ مما يقرِضُ المِقَصُّ الخيط، ثم يَرمى بالطفل مغشيًّا عليه، ويتناول غيرَه فيبتُر أصابعَه، والأطفال يصرخون؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمْضِىَ فيه هذا الغَيظ فأقرضَ عنقَه بمقراضه.

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيرًا، فلما جاءت قدمُ الطفل بين شِقَّى المقراض صاح: ياربّ، يا ربّ. فإذا المقراضُ يلتوى فلا يصنع شيئًا، وكأن فيه حجرًا صَلْدًا لا قدمًا رَخْصَة. فتميَّز الجبارُ من الغيظ وقال: مَن هذا الطفل؟ فسمعتُ هاتفًا يهتف: هذا بشر الحافى! لا يبلغ تاجُ مَلكٍ فى الأرض أن يكونَ لقدمه الحافيةِ نعلاً عند الله!

وكان إلى يمينى رجل يَتَوَضّأ وجهُه صلاحا وتقوى. فقلت له: مَن هذا الطاغية؟ ولم اتخَذَ المقراضَ لأقدام الأطفال خاصة؟

فقال: يا حسين! إن هذا الجبار هو ذُلُّ العيش، وهذا وَسْمُه لأهلِ الحياة على الأرض، يحقِّق به فى الإنسان معنى البهيمة أولَ ما يَدِبُّ على الأرض، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدَم.

قلت: فما بالُ هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض؟

قال: إن لله عبادًا استخصَّهم لنفسه، أولُ علامته فيهم أن الذلَّ تحت أقدامهم، وهم يجيئون فى هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التى هى نفسُها طبيعةُ الذل؛ فإذا اطَّرح أحدُهم للشهواتِ وزهد فيها، واستقام على ذلك فى عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة، فليس ذلك بالزاهد كما يصفُه الناس، ولكنه رجل قوىّ اختارته القدرةُ ليحمل أسلحةَ النفس فى مَعاركها الطاحنة، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم فى معاركه الدامية: هذا يُتَعلَّم منه فن، وذاك يُتَعلَّم منه فنّ آخر،

وكلاهما يُرمَى به على الموت لإيجاد النوع المستعزِّ من الحياة، فأولُ فضائله الشعورُ بالقوة، وآخر فضائله إيجادُ القوة.

* * *

قال المغازلى: وضرَب النومُ على رأسى ضربةً أخرى، فإذا أنا فى أرضٍ خبيثة داخِنَةٍ، قد ارتفع لها دُخان كَثيفٌ أسود يتضرَّبُ بعضُه فى بعض، وجعلتُ أرى شُعَلاً حُمرًا تذهبُ وتجىء كأنها أجسامٌ حية، فوقع فى وهمى أن هؤلاء هم الشياطينُ: إبليسُ وجنودُه، وسمعتُ صارخا يقول: يا بُشرَى! فلتبك السماءُ على الأرض، لقد أكلَ بِشْرٌ الحافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حَجَرُها ومَدَرُها، وذهبُها وفضتُها! فعارضه صائحٌ أسمع صوتَه ولا أرى شخصَه: ويلك يا زَلَنْبور[1]! إن هذا شرٌّ علينا من عامَّة نُسكه وعبادته؛ فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطيقه بِشر؛ إنه إعناتٌ سلَّطه على نفسه، فإنى دفعتُ هذا (المغازلىّ) الأعمى القلبِ ليزَيِّنَ له ما فعل أحمدُ بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته، زهدًا وورعًا، وقوةَ عزم، ونفاذَ إرادة؛ وقلتُ: عسى أن تتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فَيَحْسُدَ أو يَغَار، أو تُعْجِبه نفسه فيكونُ لى من ذلك لَمَّةٌ بقلبه فأوسوِسُ له، فإنَّا نأتى هؤلاء من أبوابِ الثواب كما نأتى غيرَهم من أبواب المعاصى، ونتورعُ مع أهل الورَع كما نَتَسخَّفُ مع أهل السُّخف؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد، فقد أعطى القوةَ على جعل شهوات نفسِه أشخاصًا حيةً يعاديها ويقاتِلُها، فإذا أنا جعلتُ شهوتَه فى اللذة قتلَ اللذة، وإذا جعلتها فى الكآبة قتلِ الكآبة، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذى يتقشَّف ويتعفَّف، ويتخفَّف ويتلفَّف، فإن كثيرًا ما تكونُ هذه هى أوصافَ الذُّل والحمق، ويكونُ لها عملُ العبادة وفيها إثمُ المعصية. ولكنَّ الزاهِد حق الزاهد من أدار فى هذه الأشياء عينًا قد تعلمت النظرَ بحقه والإغضاء بحقه؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر إن لَبَّسناه عليه فى صورة الخير، ولا معنى الخير إن زوَّرناه فى صورة

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى، وفى بعض النسخ التى بأيدينا أنه خنزب لازلنبور....

الشـر، وبذلك يضع نفسَـه فى حيث شـاء من المنزلة، لا فى حيث شاءت الدنيا أن تضعَه من منازلها الدنيئة.

وما أكلَ بشـرٌ هذه الطيِّبات إلا ليُبادِرَ بها وسوسـتى ويردَّنى عن نفسه وعن اللَّمَّة بقلبـه، فلو أنه أعجبه زهـدُ ابنِ حنبل ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسـه لَحَبطَ أجرُه؛ فبهذه الطيباتِ عالجَ نفسَه علاجَ مريضٍ، وقد غيَّر على جوفه طعامًا بطعام، كما يبدّل على جلده ثوبًا بثوب؛ ولا شهوةَ للجلد فى أحدهما.

***

قال المغازلى: وثقُلَ النوم علىّ ثَقلةً أخرى، فرأيتُنى فى وادٍ عظيم، وفى وسط مثلُ الطَّوْد من الحجارة قد رُكمَ بعضُها على بعض، ورأيتُنى مع بشر أقص عليه خبرَ أحمد ابن حنبل؛ فقال: انظر ويحك؛ إن الناسَ يسمونها خمسين ألف دينار، وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألفَ حجرٍ لو أصابتْ أحمد لقتلتْه ولكانت قبرَه آخرَ الدهر.

إن المالَ يا بنى هو ما يعملُه المال لا جوهرُه من الذهب والفضة، فإذا كنتَ بمَفَازةٍ ليس فيها من يبيعك شـيئًا بذهبـك، فالترابُ والذهبُ هناك سـواء؛ والفضائل هى ذهـبُ الآخرة؛ فهنا تجدِّد بالمال دنياك التى لا تبقى أكثرَ من بقائك، وهناك تجدد بالفضائل نفسَك التى تخلدُ بخلودها.

ومعنـى الغنى معنىَ مُلْتبِسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشـهواتِ فيه، فحين يردّ أحمدُ بنُ جنبل خمسـين ألفًا، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسَـه فى هذا العملِ وَجْهًا من التصحيح.

***

قال حسـين المغازلى: وغطَّنى النوم فى أعماقه غطَّةً أخرى؛ فإذا أنا فى المسجد فـى درس الإمـام أحمد وهو يحدث بحديـث النبى ﷺ: «إذا عظَّمـتْ أمتى الدينارَ والدرهم، نُزعَ منها هيْبةُ الإسـلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر،

حُرموا بركة الوحى» وهمّ أن يتكلم فى تفسيره[1] ولكنه رآنى فأمسكَ عنه وأقبل علىّ فقال: يا حسـين! إذا اجتزأ شيخُك بالرغيف فهذا عنده هو قدْرُ الضرورة؛ فإن أكلَ الطيبـاتِ فقد عرضتْ حالٌ جعلت هذه الطيبات عنـده هى قدرَ الضرورة؛ وفى هذه النفوس السماوية لا يكون الجزءُ الأرضىُّ إلا محدودًا، فلا يكون محصولُه إلا ما ترى من قدر الضرورة.

ولمـا صغُرَ الجزء الأرضىُّ فى نفوس المسـلمين الأولين ملَكـوا الأرض كلَّها بقوة الجزء السماوىِّ فيها، إذ كانت إرادتُهم فوق الأطماع والشهوات، وكانت بذلك لا تذلُّ ولا تضعف ولا تنكسـر؛ فالآدميةُ كلُّها تنتهى إلـى بعـض صُـوَرٍ، وهؤلاء هم الذين محلُّهم فى أعلاها.

يا حسين! ألا وإن ردَّ خمسين ألفَ دينار هو كذلك قدرُ الضرورة.

قال حسـين: وذهبـتُ أعترض على الإمام بما كان فى نفسـى مـن أن هذا المالَ وإن لم يكن من كسْـبه، فقد كان يتحول فى يده عملاً من أعمال الخير؛ وأُنْسِـيتُ أن هذه الصَّدَقاتِ هى أوساخُ الناس وأقذارُ نفوسهم؛ فلم أكد أفتح فمى حتى رأيتُ الكلامَ يتحـولُ طينًا فى فمى ليذكرنى بهذا المعنى؛ وكدتُ أختنق فانتفضتُ أتنفَّس، فطار النومُ والحلمُ.

■■■

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين.

إبليس يعلّم*[1]

(٣)

قال أحمد بن مِسكين: ودار السبتُ الثالثُ، وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمتْ حَلْقَتَهُم؛ فقام رجلٌ من عُرْض المجلس فقال: إن الحسنَ بن شُجاع البلخى تلميذَ الإمام أحمد بن حنبل[2]، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديثَ عن الشيطان، حفظنا منها قوله ﷺ: «إن المؤمنَ يُنْضِى شيطانَه كما يُنضى أحدُكم بعيرَه فى سفره». وكان الحسن يقول فى تأويله: إن شيطانَ الكافر دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطان المؤمن مَهزولٌ أشعثُ أغْبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطان ويدَّهِن ويلبسَ ليكون له أن يجوعَ مع المؤمن ويَعرى ويتشعَّثَ ويَغْبَرّ؟

قال ابن مسكين: فقلت فى نفسى: لا حول ولا قوة إلا بالله! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل؛ فإن إبليسَ إذا أراد أن يَسْخرَ من العالم ويُسمِعَه طَنْزَه وتهكمه[3]، حرَّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو؛ كأنما يقول له: تَنبَّه ويحك على معناىَ، فأنت تتكلم وأنا أعمل، وأنت صورةٌ من الردّ عَلَىَّ، ولكنى حقيقةٌ من الرَد عليك، وما أنت فى محاربتك لى بالوعظ إلا كالذى يريد أن يضربَ عُنُقَ عدوه بمائة اسمٍ وُضِعَتْ للسيف...

قال: وكنت قد سمعت خبرًا عجيبًا عن أبى عامر قَبيصةَ بن عُقْبة الكوفى المحدِّث الحافظ الثقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل[4]؛ وهو الرجلُ الصالح العابد الذى كان يقال

---

* انظر الفصلين السابقين.

(١) داعبنا إبليس (لعنه الله) مداعبة ثقيلة فى كتابة هذا المقال، وسنقص للقراء حكايته فى مقالة: (دعابة إبليس).

(٢) توفى ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤هـ، وكان من حفاظ (بلخ).

(٣) الطنز: التهزؤ والتهكم، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة.

(٤) توفى سنة ٢١٥هـ.

لــه: (راهبُ الكوفة)؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسِــه فى داخله كأنما جَسَـدُه جِدارٌ بين نفســه وبين الدنيا، فقلت والله لأغيظنَّ الشــيطانَ بهذا الخبر، فإن أســماء الزهَّاد والعبَّاد والصالحين هى فى تاريخ الشــياطينِ كأسماءِ المواقع التى تنهزمُ فيها الجيوش، وما الرجلُ العابد إلا صاحبَ الغَمَرات مع الشيطان، وكأنه يحتملُ المكارهَ عن أمة كاملة بل عن البشـرية كلِّها حيث كانت من الأرض، فالناسُ يحســبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون التركَ أيســرَ شــىء، وما علموا أن الزهد لا يســتقيم للزاهد حتى يجعلَ جســمَه كأنه نظام آخرَ غيرِ نظام أعضائه؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النفس. ومعجــزةُ الزاهد أنه مكلــفٌ أن يُخرج للناس أقوى القوة مــن المعانى التى هى عند الناس أضعفُ الضعــف؛ ولو أن مَلِكًا عظيما تعب فى جمع الدنيا وفتْح الممالك حتى حِيزَتْ له جوانبُ الأرض، لكان عملُه هذا هو الوجهَ الآخرَ لتعبِ الزاهد فى مُجاهَدَةِ هذه الدنيا وتركِها.

* * *

قال أحمد بن مســكين: وقصصــتُ عليهم القصة فقلت: كان أبــو عامر قَبيصةُ بن عُقبة كثيرَ الفكر فى الشــيطان، يــوَد لو رآه وناقَلَهُ الــكلامَ؛ وكان يتدبَّر الأحاديثَ التى صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّــر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخَطأ على الأرض؛ والخطأ يكونُ صوابًا محوّلاً عن طريقته وجِهَتِه، ولهذا كان إبليسُ فى الأصل مَلَكا من الملائكَة وتحوَّل عن طبيعته حين خُلق آدمُ (عليه الســلام)، أى وُجِدَ فى الكون روحُ الخطأ حين وُجِد فيه الروحُ الذى سيُخطئ.

فلمــا هبــط آدمُ من الجنة وحُرِمَها هــو وزوجُه وذرّيتُــه، كان إبليسُ (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واســتمراره على الدهر، فكأن هذه الآدميةَ أُخْرِجت من الجنــة، وأُخرجت معها قوةٌ لا تَزال تَصُدُّها عنها، ليضطربَا فى الكِفاح مَلِيًّا من زمن هو عمرُ كل إنســان، وهذا هو العدلُ الإلهى: لــم يَعرف آدمُ حقَّ الجنة، فعُوقب ألاَّ يأخذَها إلا بحقها، وأن يقاتل فى سبيل الخير قوةَ الشر.

وبات أبو عامر ذاتَ ليلة يفكر فى هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ،ثم هَوَّمَ فكان بين اليقَظة والنوم، وذلك حين تكونُ العينُ نائمةً والعقلُ لا يزال منتبهًا، فكأن العينَ متراجعَةٌ تُبصر من تحتِ أجفانها بصرًا يُشاركها فيه العقل.

فرأى شيخُنا أبو عامر صورةَ إبليسَ جاءه فى زِىّ رجل زاهدٍ، حَسَنِ السَّمْتِ، طيِّبِ الريح، نظيفِ الهيئة، وكاد يُشَبَّهُ عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه، فإن عينى الكاذب تَصْدُقان عنه، وقد علم الله أن الكاذبَ آدمىّ قَفْرٌ كالمَتَاهَة من الأرض، فجعل عينيه كالعلاماتِ لمن خاض الفلاة.

وظهر الشيطانُ زاهدًا عابدًا تقيا نقيا كأنه دين صحيحٌ خُلِقَ بَشرًا، فصرَخ فيه أبو عامر: عليكَ لعنة الله! أمعصيةٌ فى ثوب الطاعة؟

قال إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقل المعصيةُ إنها طاعةٌ لم يُقَارِفْها أحد. وهل خُلقت الشهواتُ فى نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس، وجعْلِ كلِّ منها طاعةً لشىء ما؛ فتقع المعصية بأنها طاعةٌ لا بأنها معصية؟ أو لا ترى يا أبا عامر أن الحيلةَ مُحكمةٌ فى الداخل من الجسم أكثرَ مما هى محكمة فى الخارج عنه، وأنه لولا أن هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لما كان لظاهر الوجود كلِّه فى الإنسان معنىً ولا عمل؟

قال الشيخ: عليك لعنة الله! فما أرى الموتَ قد خلق إلا ردًّا عليك أنت، ليتبيَّنَ الناسُ أنك الممتلئُ، ولكنك الفارغ الفارغ؛ بل كل شهواتك سخرية منك وردّ عليك، فلا طعْم للذة من لذاتك إلا وهى تموت، وإنما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضِى؛ ومتى قالت اللذةُ: قد انتهيت. فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف.

قال إبليس: يا أبا عامر، ولكن اللذة لا تموت حتى تَلدَ ما يُبقيها حية، فهى تلد الحنينَ إليها، وهو لا يسكن حتى يعودَ لذة تنقضى وتلد.

قال الشيخ: معانى التراب، معانى التراب؛ كل نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها، ولكن (عليك لعنة الله) لماذا جئتنى فى هذه الصورة؟

قــال إبليس: لأنى لا ألبسُ إلا محبــةَ القلبِ الآدمى، ولولا ذلك لطردتْنى القلوبُ كلها وبطَلَ عملى فيها، وهل عملى إلا التلبيسُ والتزوير؟ أفتدرى يا أبا عامر أنى لا أعترِى الحيوانَ قط.

قال الشــيخ: لأن الحيوان لا ينظر إلى الشــىء إلا نظرةً واحدةً، هى نظرُه وفهمُه معًا، فلا محلَّ للتزوير مع هذه النظرة الواحدة؛ وصدق الله العظيم: «هل أُنبِّئكم على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين؟ تَنَزَّلُ عَلى كلِّ أفَّاك أثيم». فأنت أيها الشيطانُ التزوير، والتزويرُ موضعُــه الكذب؛ فمن لم يكذبْ فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء، فليس لك عنده عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمك الله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزء والســخرية من أن أعظم العقلاء الزهَّــاد العبَّادِ، هو فى جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلا نظرةٌ واحدة فى كل شىء؟

قال الشــيخ: عليك وعليــك...؛ إن الحيوانَ شــىء واحدٌ، فهو طبيعةٌ مســخَّرة بنظامها، ولكن الإنســان أشياءَ متناقِضَةٌ بطبيعتها، فألوهيتُه أن يُقِرَّ النظامَ بين هذه المتناقِضَاتِ، كأنما امتُحِنَ فأعطىَ من جســمه كونًا فيــه عناصرُ الاضطرابِ، وحوله عناصرُ الاضطراب، ثم قيل له دَبِّره.

فضحك إبليس. قال الشيخ: مم ضحكْتَ لعنك الله؟

قال: ضحكتُ من أنك أعلمتَنى حقيقةَ الإبليسية، فالزهَّادُ هم الصالحون لأن يكونوا أعظمَ الأبالسة...

قال الشيخ: عليك لعنة الله، فما هى تلك الحقيقة التى زعمت؟

قال إبليس: والله يا أبا عامر، ما غلا إنسانٌ فى زَعْم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هى الإبليسية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقةَ الزهد والعبادة. فلا تقلْ إنها ألوهيةٌ تُقِرُّ النظامَ بين متناقِضاتِ الإنسان ومتناقضاتِ الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخَر منى لعنك الله؟ فمتى كنتَ تعلَم الحقيقة والفضيلة؟

قــال إبليس: أو لم أكنْ شــيخَ الملائكــة؟ فمن أجدرُ من شــيخ الملائكة أن يكونَ عالمَهَا ومعلِّمَها؟

قال: عليك لعنة الله؛ فما هى حقيقة الزهد والعبادة؟

قال إبليس: حقيقتها يا أبا عامر، هى التى أعجزتنى فى نبيكم.

قال الشيخ: ﷺ؛ فما هى؟

قال إبليس: هى ثلاث بها نظامُ النفس، ونظامُ العالم، ونظامُ اللذات والشهوات: أن تكونَ لك تقوى، ثم يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى، ثم يكونَ لكَ نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعتْ هذه الثلاثُ فى إنسان إلا قَهَرَ الدنيا وقَهر إبليس.

فــإن كانت التقوى وحدَها - كتقوى أكثرِ الزهَّاد والرهبان - فما أيســرَ أن أجعلَ النظــرَ منها نظرَ الغفلة والجبن والبــلادة والفضائلِ الكاذبة، وإن كان الفكرُ وحدَه - كفكر العلماء والشــعراء - فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظرَ الزَّيغ والإلحادِ والبهمية والرذائلِ الصريحة.

قال الشــيخ: صدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١].

قــال إبليس: يا أبا عامر! ما يضرنى والله أن أفسِّــرَ لك، فإن قارورةً من الصِّبْغ لا تَصْبــغُ البحر، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماء المصلحين فأضَعُ فى الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة، ومائة ألف رجل فاسق، ومائة ألفِ مخلوق ظالم، فلو أنك صَبَغْتَ البحرَ بملء قارورةٍ حمراء لما صبغتَ البحرَ الإنسانيَّ بالزاهد والمصلح، ما دام المصلحُ شيئًا غيرَ السيف، وما دام الزاهد شيئًا غيرَ الحاكم.

قال الشيخ: لعنك الله من شيطانٍ عارِم، فإذا وضعتَ المصلحَ بين مائة ألف فاسد، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده؟

قــال إبليــس: ومائــة ألــف امــرأة فتَّانــة مفتونة يــا أبــا عامــر، كل واحدة تحسبُ جسمَها...

فصرخ الشيخ: اغْرُبْ عنى عليك لعنة الله!

قـال إبليـس: ولكن الآيـة الآية يا أبـا عامر. لقد لقيـتُ المسـيحَ وجرَّبته هو كان تفسيرَها.

قال الشيخ: عليه السلام! وعليك أنت لعنة الله! فكيف قال؟ وكيف صنع؟

قـال إبليس: ألقيتُ به جائعًا فى الصحراء لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظن أنه يجد، ولا يرجـو أن يظن؛ ثم قلتُ له: إن كنتَ رُوحَ الله وكلمتَه كما تزعمُ، فُمرْ هذا الحجَرَ ينقلـب خبزًا. فكان تقيًّا، فتذكّـر فإذا هو مُبْصِر، فقال: ليـس بالخبز وحدَه يحيا الإنسـان، فمثلُ هذا لو مات جوعًا لم يتحوَّل، لأن الموتَ إتمامُ حقيقته السامية فوقَ هـذه الدنيـا، ولو مُلِئتْ له الدنيا خبزًا وهو جائع لـم يتحوّل، لأن له بَصرًا من فوقِ الخبز إلى حقيقته السماوية؛ فليس بالخبز وحده يحيا؛ بل بمعان أخرى هى إشباعُ حقيقته السماوية التى لا شهوةَ لها.

ثـم ارتقيتُ بـه إلى ذِروة جبلٍ وأريتُـه ممالكَ الخافِقَين، كشـفتُها كلَّها لعينيه وقلت له: هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لى. فكان متقيًا، فتذكّر فإذا هو مُبصِر: أبصر حقيقةَ الخيال الذى جَسَّمتُه له، وعلم أن الشيطان يُعطى مثلَ معانى هذه الممالكِ فى جَرعة خمر، كما يُعطيها فى سـاعة لذة، كما يُعطيها فى شـفاء غيظ بالقتلِ والأذى؛ ثـم لا يبقَى من كل ذلك باقٍ غيـرُ الإثم، ولا يصحُّ منه صحيـح إلا الحرام. ومَن مَلَكَ الدنيا نفسَـها لم يبقَ لها إذا بقيتْ فهى خَيال فى جَرعة الحياة، كما هى خيالٌ فى جرعة الخمر.

يا أبا عامر؛ إن هذا النظر، الذى وراءه التذكُّر، الذى وراءه التقوى، التى وراءها الله – هذا وحدَه هو القوةُ التى تنتاول شهوات الدنيا فُتصفِّيها أربعَ مرات حتى تعودَ بها إلى حقائقها الترابيةِ الصغيرةِ التى آخرُها القبر، وآخر وجودِها التلاشِى.

فالبصرُ الكاشفُ الذى يُجرِّد الأشياء من سِحرها الوهمِى، هذا هو كلُّ السر.

* * *

قال الشيخ: لعنك الله؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن؟

قال إبليس: يا أبا عامر، هذا سـؤالٌ شيطانى... تريد – ويحكَ – أن تحتالَ على الشيطان؟ ولكن ما يضرنى أن أفسرَها لك.

ليس الإيمانُ هو الاعتقادَ ولا العملَ، ولو كان من هذين لما شَقَّ على أحد ولصلُحت الدنيـا وأهلُها؛ إنمـا الإيمانُ وضعُ يقين خفىٍّ يكونُ مع الغريـزة فى مَقَرّها، ويصلُح أن يكونَ فى مقرّها لتَصْدُرَ عنه أعمالُ الغريزة؛ وهذا اليقينُ لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقينًا ثابتًا بما هو أكبرُ من الدنيا، فيرجع إليه الإنسانُ فيتذكر فُيبْصِر. هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن. فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان.

والعملُ الشيطانىُّ لا يكونُ إلا فى إفساد هذا اليقين ومعارضةِ الخيالِ العظيم الذى فيـه بالحقائـق الصغيرة التى تظهرُ للمغفل عظيمة، كما تُشَـبُّ نـارٌ أكبرُ من قُرص الشمس ثم يقال للأبله: انظرْ بعينيك، فيصدّق أنها أكبرُ من الشمس.

ومتى صغُر هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه فى النفس، فأيسرُ أسبابِ الحياة حينئذ يُفسد المعتقَدَ ويُسقِطُ الفضيلة؛ وبدرهم واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذ.

أما إذا ثبت اليقين فالشيطانُ مع الإنسانُ يصغرُ ثم يصغُر، ويَعجز ثم يعجز. حتى ليرجـعُ مثـلَ الدرهم إذا طمعَ الطامـعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنىَّ الكثيـرَ المال لِصًّا من اللصوص بهذا الدرهم.

قـال الشـيخ: لعنك الله! فإن لم تسـتطع إفسـاد هـذا اليقين فكيـف تصنع فى فتنة المؤمن؟

قال إبليس: يا أبا عامر، إن لم أستطع إفسادِ اليقين زدتُه يقينًا فيفسد، واستحسانُ الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أولَ أعماله السافلة؛ وبأى عجيب يكون الشيطانُ شيطانًا إلا بمثل هذا؟

* * *

قال أحمد بن مسـكين: وغضب الشـيخ، فمدَّ يدَه فأخذ فيها عُنُقَ إبليس وقد رآه دقيقًـا، ثم عَصَره عَصْرًا شـديدًا يريد خنْقَه؛ فقهقه الشـيطانُ سـاخرًا منه. ويتنبه الشيخ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى...

■■■

الدينار والدرهم

(٤)

قال أحمدُ بن مِسـكين: وأزِفَ تَرحُّلى عن (بلخ)، وتهيأتُ للخروج، ولم يبق من مدة مَقِيلى بها إلا أيامٌ يجىء فيها السبتُ الرابع، وكان قد وقعت مُمَاراةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) أبى إسحق إبراهيم بن يوسف الباهلى[١] تلميذ أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة، ويزعمون أنه شـحيحٌ على المال، وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْـتَغَّلات كثيرة[٢]، فكأنما غَشيَتْه غمامتى، فهو لا يرى أن أتكلمَ فى الزهد، ويحسبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العبَّاد، ونَفْضَ الأيدى من الدنيا، وسُوءَ المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد، وخذلانَ القـوة فى البدن، وما جرى هذا المجرى من تزويـر الحيَاة بالأباطيل التى زَعَمَ أنها أباطيـلُ الطاعات وما أقرَبَهـا من أباطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتى قد سـمعنى ولا حضرَ مجلسى، ولولا الذى لم يعرفْه من ذلك لقد كان عرف.

وجادلتُه فرأيتُه واهـنَ الدليل، ضعيفَ الحجة، يُخَمِّنُ تخمين فقيه، وينظر إلى الخفايـا من حقائق النفوس نظرَ صاحب النص إلى الظاهـر، كأن الحقيقة إذا أُلقيتْ علـى الناس مضتْ نافـذةً كفتوى المفتى... ويزعم أن الوعظَ وعـظ الفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكـون حرامًا لا يُقارفُه أحد، وهذا حلالٌ. فيكون حلالاً لا يتركه أحد، وهـو كان بعيدًا عن حقيقـة الوعظ ومَدَاخله إلى النفس وسياسـتِه فيها، ولا يعرف أن الحقيقـة كالأنثى: إن لم تُزَيَّنْ بزينتها لم تَسْـتَهْوِ أحدًا؛ وأن الموعظةَ إن لم تَتَأدَّ فى أسلوبها الحىِّ كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغييـر، كنفوس الأنبياء ومن كان فى طريقة رُوحهم، وأن هذه الصناعَة

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٣٣٩هـ.

(٢) المستغلات: أصول الأموال، وبمعنى تغلّل واستغل.

إنمـا هى وضعُ نور البصيرة فى الكلام، لا وضعُ القياسِ والحجة، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد، إنما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقة لتكونَ به شيئًا فى الحياة والعمل. لا شيئًا القول والتوهمُّ، فيكون إلهامُها فيه كحرارة النار فى النار: من وَاتَاها أحسَّها.

ولعَمـرى، كم من فقيهٍ يقول للناس: هذا حــرام. فلا يزيد هذا الحرامَ إلا ظهورًا وانكشـافًا مـا دام لاً ينطقُ إلا نطقَ الكتب، ولا يحســن أن يصلَ بين النفس والشَّرع، وقد خلا من القوة التى تجعله روحًا تتعلق الأرواحُ بها وتضعُه بين الناس فى موضعٍ يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذُ قريب، راجعٌ إليها بعدَ قريب.

والفقيهُ الذى يتعلق بالمال وشهواتِ النفس، ولا يجعل هَمَّه إلا زيادة الرزق وحظَّ الدنيا – هو الفقيهُ الفاسـدُ الصورةِ فى خيَال الناس، يُفْهِمُهم أولَ شـىء ألا يَفهموا عنــه؛ إذ حِرْصُــه فوق بصيرتِه، ولــه فى النفوس رائحةُ الخبــز، وله معنى خمسٌ وخمسٌ عشـرة[1] ... وكأن دنياه وَضَعَت فيه شـيئًا فاسـدًا غريبًا يُفسِدُ الحقيقة التى يتكلم بها؛ ولست أدرى ما هو هذا الشىء، ولكنى رأيتُ فقهاءَ يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نَص كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ثم لم أجد لكلامهم نفعًا ولا ردًّا، إذ يُلْهِمون الناسَ بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه؛ وتَسْـخرُ الحقيقةُ منهم – على خَطَرِهم وجلال شـأنِهم – بذاتِ الأسـلوبِ الذى تسخَرُ به من لص يعظ لصا آخر فيقول له: لا تَسرِق.

* * *

قال ابنُ مسكين: فلما دار يومُ السبت أقبل الناسُ على المسجد أفواجًا، وكانوا قد تَعَالَموا إزْمَاعى الرحيلَ عن بلدهم – وجاء (لقمانُ الأمة) فى أشياعه وأصحابه، وجاء أبو إســحق المفتى فى جماعته؛ واستقر بى المجلس فنفَذْتُ الناسَ بنظَرى، فكأنهم من كثرتـهم نَبَاتٌ غطَّى الأرض، فأذكرنى هذا شـيخَنا السرىَّ بنَ مُغلِّس السقَطى[2]،

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسـابية) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه اسـتخراج الدراهم من النصوص.

(٢) السقط: ردىء المتاع (روبابيكيا)، وبائعه: السقطى. وهذا الإمام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع، وله كلام إلهى مشرق، وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣هـ.

وكان قد لزم دارَه فى بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قَصَد إليه، وهممتُ أن أجعلَ الموعظةَ فى شرح كلمته المشهورة: «لا تَصِحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدُهما للآخر: «يا أنا». وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه: منذ ثلاثين سنةً وأنا فى الاستغفار من قولي: (الحمد لله). فقال صاحبُه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريقٌ، فاستقبلنى رجلٌ فقال: نجا حانوتُك. فقلتُ: الحمد لله. فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت؛ إذ أردتُ لنفسى خيرًا من الناس!

قال ابن مسكين: ولكنى أحببتُ أن أكلم المفتى ومالَ المفتى؛ فحدثتهم حديث معرفتى بالسَّرىّ: أنى سمعتُ يومًا (غَيْلان الخياط) يقول: إن السرى كان اشترى كُرَّلوز[1] بستين دينارًا، وأثبته فى رزنامجه[2] وكتب أمامه: ربحهُ ثلاثة دنانير[3]؛ فلم يلبث أن غلا السعرُ فبلغ تسعين دينارًا؛ فأتاه الدلال الذى كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين دينارًا. وكان الدلال رجلاً صالحًا، فقال للشيخ: إن اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين. قال السرىّ: ولكنى عقدتُ بينى وبين الله عقدًا لا أحلُّه، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين دينارًا. فقال الدلّال: وأنا قد عقدُت بينى وبين الله عقدًا لا أحله، ألا أغشَّ مسلما، فلست أشترى منك إلا بتسعين؛ فلا الدلّال اشترى منه، ولا السرىُّ باعه..!

قال أحمد بن مسكين: فلما سمعت ذلك لم تكن لى همةٌ إلا أن ألقى الشيخَ وأصحَبَه وآخذَ عنه، فلم أعرِّجْ على شىء حتى كنت فى المسجد الذى يصلى فيه، فأجده فى حَلْقته وعنده ممن كنتُ أعرفهم: عبدُ الله بن أحمد بن حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلى بن سعيد الرازى، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجَرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نَضْرةُ روحه، وكأنما يُمدُّه بالنور عِرقٌ من السماء، فهو يتلألأ للعين، ولا يملك الناظر إليه إلا أن يُحِسَّ فى ذاتِ نفسه أنه الأدنى، من رؤيته فى ذاتِ نفسِه أن هذا هو الإنسانُ الأعلى.

---

(١) الكر (بضم الكاف): مكيال عظيم يقدرون به فى الحساب، وهو أربعون إردبًا مصريًا.

(٢) أى دفتر حسابه.

(٣) خمسة فى المائة.

ورأيتُ على وجهه آلامًا تمسَحُه مِسْحةَ الأشواق لا مِسْحَةَ الآلام، آثارُ ما يجدُه فى روحــه القوية، لا كآلام الناسِ التى هى آثار الحرمان فى أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوهَهم إلا مِسحَةَ الغم والكآبة.

ومــا يخطئ فى تمييز آلام السـماء على هذه الوجوه السـعيدة من آلامِ الأرض فى الوجــوه الأخرى، فــإن الأولى تَتندَّى على رُوح الناظر بمثل الطَّــلّ إذا قَطَّرَه الفجر، والأخرى تَتَثَوَّرُ فى روحه كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربت الريحُ الأرض.

كان الشــيخُ فى وجودٍ فوق وجودنا؛ فلا تتلوَّن له الأشـياء ولا تعدو عنده ما هى فى نفســها، ولا يحملُ الشــىء له إلا معناه من حيث يَصلُح أو لا يصلُح، ومن حيث ينبغى أو لا ينبغى. فإنما تتلون الأشـياء عندما يضع الشـيطانُ عينَه فى عين الناظر إليهــا؛ وإنما تزيد وتنقُص فــى القلب عندما يكونُ روحُ الشـيطان فى القلب؛ وإنما يَشتبِه ما ينبغى وما لا ينبغى عندما يأتى الشىء من جهتين: جهتِه من طبيعته هو، وجهتِه من طبيعتنا نحن. وبهذا قد يجمع الإنســانُ المالَ ثم لا يجد فى المال معنى الغنى، وقد تتفقُ أســباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل. وكم من إنســانٍ يجدُ وكأنه لم يجدْ إلا عكسَ ما كان يبغِى، وآخَرَ لم يجدْ شيئًا ووجد بذلك راحتَه.

* * *

قال ابنُ مســكين : وما كان أشدَّ عجبى حين تكلم الشيخ، فقد أخذ يُجيب عَمَّا فى نفســى ولم أســأله، كأن الذى فى فكرِى قد انتقل إليه؛ فروَى الحديث: «إذا عظَّمَتْ أمتى الدينارَ والدرهم، نزع منها هيبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهىَ عن المنكر، حُرموا بَركةَ الوحى». ثم قال فى تأويلِهِ:

إن مَلَــكَ الوحــى ينزل بالأمر والنهى ليُخضعَ صَوْلَةَ الأرض بصَولة الســماء، فإذا بقــى الأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر، بقى عملُ الوحى إلا أنه فى صورة العقل، وبقيــت روحانيــةُ الدنيا إلا أنها فى صــورة النظام، وكان مــع كل خطأٍ تصحيحُه؛ فيصبحُ الإنســانُ بذلك تنفيذًا للشــريعة بين آمرٍ مُطاع ومأمور مطيع، فيتعامل الناس على حالةٍ تجعل بعضَهم أستاذًا لبعض، وشيئًا منهم تعديلاً لشىء، وقوةً سندا لقوة؛ فيقومُ العزمُ فى وجه التهاون والشــدة فــى وجه التراخى، والقدرةُ فى وجه العجز،

وبهذا يكونون شركاء متعاونين، وتعودُ صفاتُهم الإنسانيةُ وكأنها جيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضهُ بعضا فتكونُ الحياة مفسَّــرةً ما دامت معانيها الساميةُ تأمرُ وتُلهِمُ إلهامَها وما دامت ممثَّلةً فى الواجب النافذِ على الكل.

والنــاس أحــرارٌ متى حكمتْهــم هذه المعانى فليســت حقيقةُ الحرية الإنســانية إلا الخضــوعَ للواجــب الذى يحكم وبذلك لا بغيرِه يتصلُ ما بين الملكِ والسُّــوقة، وما بين الأغنياء والفقراء اتصالَ الرحمة فى كل شىء واتصالَ القسوةِ فى التأديب وحده. فبركةُ الوحى إنما هى جعلُ الإنسانيةِ عملاً شرعيًّا لا غير.

أمــا تعظيــمُ الأمة للدينار والدرهم، فهو اســتعبادُ المعانــى الحيوانيةِ فى الناس بعضِها لبعض وتقطُّعُ ما بينَهم من التشابُكِ فى لُحْمةِ الإنسانية، وجعلُ الكبير فيهم كبيرا وإن صَغُــرَتْ معانيه، والصغيرِ فيهم صغيرا وإن كَبر فى المعانى، وبهذا تموجُ الحيــاة بعضُها فى بعض، ولا يســتقيم الناسُ على رأيٍ صحيــح، إذ يكونُ الصحيحُ والفاســدُ فى مِلْكِ الإنسان لا فى عملِ الإنســان فيكنز الغنىُّ مالا ويكنز الفقيرُ عداوةً كأن هذا قَتَل مالَ هذا وكأن أعمالا قتلت أعمالا، وترجعُ الصفاتُ الإنســانيةُ متعاديةً وتُباع الفضائلُ وتشــترى ويزيد من يزيدُ ولكن فى القسوة وينقُصُ من ينقص ولكن فى الحريــة وتكون المنفعةُ الذاتيةُ هى التــى تأمرُ فى الجميع وتنهَى ويدخُل الكذبُ فى كل شــىء حتى فى النظرِ إلى المال، فيرى كلُّ إنســان كأنما دِرْهمهُ ودينارُه أكبرُ قيمة من دينارِ الآخر ودرهمهِ فإذا أعطى نقَص فغَشَّ وإذا أخذ زاد فسَــرق وتُصبح النفوسُ نفوســا تجاريَّة تُســاومُ قبلَ أن تنبعثَ لفضيلة وتُماكِس إذا دُعيتْ لأداء حق ويتعامل الناسُ فى الشــرف على أصول من المَعِدة لا من الــروح، فلا يقالُ حينئذ: إن رغيفين أكثرُ من رغيف واحد كما هى طبيعة العدد بل يقال: إن رغيفين أشــرفُ من رغيفٍ كما هى طبيعة النفاق.

أما التجارةُ – وهى التفســيرُ الظاهــرُ لمعانى النفوس – فُتصبح بين الغِش والضررِ والمماكَرَة، وتكونُ يقَظَةُ التاجر من غفلة الشارى، وتَفسُدُ الإرادةُ فلا تُحدِثُ إلا آثارَها وما التاجرُ فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلُقِ فى الموضع المتقلِّب فكلمتُه كالرقْم من العدد لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مما فيه، ويُمتَحَن بالدينار والدرهم أشــدّ

مما يمتحن العابدُ بصلاته وصيامه فأتاه برجل أثنى عليه خيرا، فقال له عمر: أنتَ جارُه الأدنى الذى يعرفُ مَدْخَلَه ومخرجَه؟ قال: لا. قال: فكنتَ رفيقَه فى السفر الذى يُستَدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملتَه بالدينار والدرهم الذى يَستبِينُ به ورَعُ الرجل؟ قال: لا.

قال عمر: أظنك رأيتَه قائما فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن يَخفِضُ رأسَه طورا ويرفعه أخرى؟ قال: نعم.

قال: فاذهب فلستَ تعرفه!

وإنما التاجرُ صورةٌ من ثقة الناس بعِضهم ببعض، وإرادة الخير واعتقادِ الصدق، وهو فى كل ذلك مظهرٌ توضَعُ اليدُ عليه كما تَجسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحتَه.

فإذا عظَّمت الأمة الدينارَ والدرهم، فإنما عظَّمت النفاقَ والطمعَ والكذب والعداوةَ والقسوةَ والاستبعاد، وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حُدودا فاصلة بين أهلِها حتى لتكون المسافةُ بين غنى وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعَدَ ما بينهما، وإنما هيبةُ الإسلام فى العزة بالنفس لاً بالمال، وفى بذلِ الحياة لا فى الحِرْص عليها، وفى أخلاقِ الروح لا فى أخلاق اليد، وفى وضع حُدود الفضائل بين الناسِ لا فى وضع حُدود الدراهم، وفى إزالةِ النقائص من الطباع لا فى إقامتها وفى تَعاوُن صفاتِ المؤمنين لا فى تَعادِيها، وفى اعتبار الغنى ما يُعْمَلُ بالمال لا ما يُجمَعُ من المال، وفى جعلِ أول الثروة العقلُ والإرادةُ، لا الذهب والفضة..

هذا هو الإسلامُ الذى غلَب الأمم، لأنه قبل ذلك غَلَبَ النفسَ والطبيعة.

■■■

دُعابةُ إبليس*[1]

أمَا إنى ســأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقَتْ لا أُزيِّنها بخيال، ولا أتَزَيدُ فيها بخبر، ولا أولِّد لها معنى، فإنما هى حكايةُ خُبْثِ الخبيثِ: فنُّها حِذْقُه ودَهاؤه ورَقَّتُها غلْظتُه وشرُّه، ومعانيها بلاؤُه ومِحْنتُه، وأعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم والله المستعان.

لمــا فكرتُ فى وضــع مقالة (إبليس) من أحاديث (ابن مســكين) وأدرتُ رأيى فى نهجهــا وحدودِهــا ومعانيها، جعل فكرى يتقَّطع فى ذلــك يذهبُ ويجئ كأن بينى وبينه منازَعة، أو كأن فى نفسى شيئًا يَثنينى ويقطّعنى عن العزَم، وخُيِّل إلىَّ حينئذ أن (إبليــسَ) هذا منفَعــةٌ من المنافع.. وأنه هو قانونُ الطبيعــةِ نَصُّ مادته الأولى: ما أعجبَك فهو لك ونَصُّ مادته الأخيرة: ما احتجتَ إليه فثمنُه أن تقدرَ على أخْذِه...

وهَجَسَ فى نفســى هاجسٌ: أن (إبليسَ) قائم فى لفظ الحرية كما هو قائم فى لفظ الإثم، وأنه إن يكنْ فى قلوب الفُسَّاقِ فهو أيضا فى أدمغة الفلاسفة وإن كان فى سقوط أهــل الرذيلــة إلى الرذيلة، فهو كذلــك فى سموِّ أهلِ الفن إلى الفــن.. قال الهاجس: وإن (إبليــسَ) أيضا هو صاحــبُ الفضيلةِ العملية فى هذا العصرِ المــادى، فهو مِنْ ثَمَّ حقيقٌ أن يلقِّبوه «صاحبَ الفضيلة...».

ولكنى لم أحِفلْ بهذه الوســاوس ولم أعُجْ على شــىء منها واستعنتُ اللهَ وأمضيْتُ نيَّتــى على الكتابة وأخذتُ أقلّبُ الموضوع وأنبِّه فكرى له، وأستَشْــرِفُ لما يؤدِّى إليه النظــر وأتطلَّع لما يجىء به الخاطر وألتمسُ ما أبنى عليــه الكلامَ كما هى عادتى فلم يقع لى شــىءُ ألبتة، كأنما ذهَبَ أولُ ابتداءِ الموضوع فلا أولَ له ولا سبيلَ إلى اقتحامِه

* انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

(١) الدعابة: المزاح واللعب، وكل ما سيرد فى هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئا.

وكأنــه من وراءِ العلم فلا يُبلَغ إليه، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقةِ الحياة كلِّها فى كلمة وإبليس كلمة فيها حماقةُ الحياة كلها.

***

ومن عادتى فى كتابة هذه الفصولِ التى تنشـرها (الرسـالة)[1]، أن أدعَ الفصلَ منها تقلِّبــه الخواطرُ فى ذهنى أيامَ الثلاثــاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للقوة التى فى نفسى فتتولَّد المعانى من كل ما أرى وما أقرأ وتَنْثَالُ من ههنا وههنا ويكون الكلام كأنه شىء حىٌّ أريدَ له الوجودُ فوُجِد.

ثم أكتب نهار الجمعة ومن ورائه ليلُ السـبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتْنى فترةٌ أو كنتُ على سفر أو قطعنى عن الكتابة شىءٌ مما يَعْرِض.

وفى أسبوعِ إبليس (لعنه الله) مرت الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَـلٌ لا نشـاطَ معه، واضطرابٌ لا مِسـاكَ له. وأطلــتُ التفكيرَ يوم الخميس فكانت تعترينى خواطرُ مضحِكَة: فيعرِضُ لى مرة أن أصوِّر إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسَ الجميــل.. وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكونَ شـيخا كبعض رجــال الدين الذين لا تــزالُ تطَّلعُ على خائنة منهم ليقالَ إبليسُ التقىُّ المصلىّ... وحِينًا أظن أنه يريد أن يكونَ كاتبًا مؤلفًا شـهيرًا لِيقَال إبليس المفكِّـر المصْلِح... وخطر لى أخيرا أنه يريد أن يكون حاكما ملحِدا فاجرا ليكون إبليسَ التام لا إبليس الناقص...

***

ولما ذهبت الأيامُ الثلاثةُ باطِلًا خُيِّلَ إلىَّ إبليسَ (أخزاه الله) يسألنى عن المقالة: إلى أى شىء انقلبتْ...؟ فشقَّ ذلك عَلَىَّ واغتَمَمْتُ به، غيرَ أنى اطمأننْتُ إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتــين وكانت قد غربت شمسُ الخميس، فقلتُ: فلأخرجُ لأتفرَّجَ مما بى وعسى أن أجمعَ نفسى للتفكير إذا جلستُ فى الندىّ ولعله يقع ما أستَوْحيه أو ينفتحُ لى بابٌ فى القراءة.

---

(١) مجلة الرسالة، وكل مقالات هذه الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها، إلا فصولا قليلة.

وخرجتُ فلم أجاوز الدارَ حتى ابتدرنى من هَبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أن نسيبًا لنا من العظماء توفى أخوه اليوم فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، ضاع يومُ جمعة إذ لابد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم ثم قلت: لعل فى هذا السفر استجماما ونشاطا فأستدركَ الأسبوع كلَّه في يومين، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ولا يدَ لإبليس فى الموت والحياة فليس إلا اطِّراحُه وقلةُ المبالاة به وإنما هى خَطَراتٌ من وساوسه.

وأصبحتُ فى القاهرة ومشيتُ فى الجنازة قبل الظهر مَسِيرَةَ ساعة كاملة وكانت الشمسُ ساطعة تتلألأ وأنا مُثْقَلٌ بثياب الشتاء وكنت أتوقع أن يكونَ اليومُ من أيام الريح المجنونة فلما انتهينا إلى الصحراء هبّت الريح هبوبًا لينا ثم زَفَّتْ فكانت إلى الشدَّة ما هى ولكنها ماضية تَسْفِي الرملَ فى الأعين فيأخذُ فى أجفانى أُكالٌ وتَهْييج وليس معى شىء أتّقيها به غيرَ أنى شغلتُ فكرى برؤية المقابر وجعلتها فى نفسى كالمقالة المكتوبة سَطرا وراءَ سطر وقلت: ههنا الحقيقةُ فى أول تفسيرها وغيرُ المفهوم فى الحياة يُفْهَم هنا.

ثم رجعتُ مُنَدَّى الجسم بالعرق وعَلَىَّ نَضْحٌ منه، وكان القميصُ من الصوف وبصدرى أثرٌ من النزلةِ الشُّعبية وإذا تَنَدَّى الصوفُ وجب نزعُه وإلا فهى العلةُ ما منها بد..

ثم لم تكن إلا ساعةٌ حتى انْخَرقَت الريحُ وجعلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ الجوُّ، فأيقنتُ أنه الزكام وقلتُ فى نفسى: هذا بابٌ على حِدَة، والمقالة ذاهبةٌ لا محالة فسيتخَلَّفُ الذهن ويتبلَّد والشيطانُ كريم فى الشرّ يُعطى من غير أن يُسأل..

وثَقُل ذلك عَلَىَّ فكان الغمُّ به علة جديدة بيدَ أنى لم أزل أرجو الفرصة فى أحد اليومين: السبت والأحد، وقلت: إن من البلاءِ الفكرَ فى البلاءِ، ولعل من السلامة الثقةَ بالسلامة فإذا نبّهتُ العزيمةَ رجوتُ أن يتغلغل أثرها فى البدن كلّه فيكون علاجًا فى الدم يَحْدُثُ به النشاط ويُرهَفُ منه الطبع وتجمُّ عليه النفس وفى قوة العصَب كهربائيةٌ لها عملُها فى الجسم إذا أحسن المرء بعْثَها فى نفسه وأحكم

إفاضتَهـا وتصريفَها على طريقة رياضيـة ولَهِيَ الدواء حين يَعجز الدواء وهى القوةُ حين تُخذَل القوة.

فاعتزمتُ وصمَّمتُ واحتَلتُ على الإرادة وتكثّرتُ من أسـباب الثقة وترصَّدتُ لها السـوانحَ العقليةَ التى تَسْـنَحُ فى النفس وقلت لإبليس: اجهـدْ جُهْدَك، فما تذهبُ مذهبا إلا كان لى مذهب ولكنَّ اللعينَ أخطر فى ذهنى قول القائل يسخَر فيه من ذلك الكاتب البغدادى[1].

لو قيلَ: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغْتَدى يوما وليلتَــه يَعُــدُّ ويَحْسُـــبُ،
ويقول: مُعْضِلَةٌ عجيـبٌ أمرُهــا ولئن فهمتُ لها، لأمْرِىَ أعجــبُ
خمسٌ وخمسٌ ستــةٌ، أو سبعـــةٌ، وقولان قالهما الخليلُ وثعلــبُ....

* * *

ثــم أجمعت الرجوعَ من يوم إلى (طنطا) لأتقى الـبردَ بعلاجه إن نالنى أثره وكان عَلَــيَّ وقت إلى أن يقـومَ القطار، فذهبت فقضيت واجبا مــن زيارة بعض الأقارب فى ضاحية (الجيزة) ثم ركبت الترام الذى أعلم أنه ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد.

وجلسـت أفكر فى إبليـسَ ومقالته والترام ينبعثُ فى طريقه نحو ثلث السـاعة حتى بلغ الموضع الذى ينعرجُ منهِ إلى المحطة وهو بحيالِ (جمعية الإسـعاف) حيثُ تنشـعبُ طرق أخرى وكنت منصرفا إلى التفكير مسـتغرقا فيه طائفَ النظَرات على الجـوّ، فما راعنى إلا اختلافُ منظرِ الطريق؛ وأنتبهُ فإذا الترام يَمْرُقُ مروقَ السـهم فى تلك السبيلِ الصاعدةِ إلى (الجيزة).. من حيث جئت.

فلعنت الشـيطانَ وتلبثت حتى وقف هذا الترام فغادرتُه ورجعت مُهَرْولا إلى ذلك المنشَـعَب فصادفـت تراما آخر فوثبتُ إليــه كأنى أُحْمَل إليه حمـلا ودفعتُ الأجرة وانطلــق فإذا هو مُنَصَبٌّ فى تلك الطريقِ عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيثُ جئت...

---

(١) قيل هذا الشـعر فى وصف مروان الكاتب وهو رجل من بغداد وكان كاتبا على الخراج فسـخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع.

ولا أستطيع الانحدارَ منه وهو منطلق فتَسخّطتُ ولعنتُ الشيطان مرة أخرى، ورأيت أن عَبثَه قد تَرادَفَ فلما سكَن الترام رجعتُ مهرولا إلى ذلك المنشَعب ولم يبقِ من الوقت غيرُ قليل.

وأنظرُ ثَمَّ فإذا ترامٌ وراء ترام وإذا وقعتْ حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق... فجعلتُ أغلي من الغيظ ولعنتُ هذا الدَّعّابَـةَ الخبيث وأذكرنى اللعينُ نادرةَ الأعرابى عضه ثعلب فأتى راقيا فقال له الراقى: ما عضَّك؟ فاستَّحى أن يقول ثلعب وقال: كلب. فلما ابتدأ الرجلُ برُقْيَة الكلب قال له الأعرابى: واخْلِطْ بها شيئا من رُقْية الثعالب...

***

ثم إنى لم أر بدًّا من بلوغ المحطة على قدميَّ لأتمَّ على عزيمتى فى مراغمَةِ اللعين فأسرعتُ أطوى الأرض وكأنما أخوضُ فى أحشائهِ وكان بصدرى التهابٌ فهاجَ بى غير أنى تجلَّدت واتسَعْتُ لاحتماله وبلغتُ حيث أردت.

ثم ذهبتُ ألتمس فى القطار عربة خاصة أعرفُها كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفِّهون بها بعضَ الترفيه على طائفة من المسافرين، وأصبتُ فيها مكانا خاليا كأنما كان مهيَّأ لى بخاصة... فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبُه ألمانيا لتَفاوُتِ خَلْقِهِ وعُنْجُهِيَّتِه، وجلستُ أنفِّس عن صدرى ثم أقبلتُ أسخَر من إبليسَ ونِكايَتِهِ وجعلتُ أتعجَّب مما اتفق من هذا التدبير.

وتحرك القطار وانبعثَ وكان الأوربى إلى جانبى مما يَلِى النافذةَ وقد تركها مفتوحة فأحسستُ الهواء ينصبُّ منها كالماء البارد وأنا مُتَنَدٍّ بالعرَق وترقبتُ أن يُغلقَها الرجلُ فلم يفعل، فَصابرتهُ قليلًا فإذا هو ساكنٌ مطمئن يتَرَوّحُ بالهواء وكأنما يَشرَبُه وتأملتُه فإذا شيخ فى حدود الستين أو فوقها غيرَ أنه على بقية من قوة مصارع فى اكتناز عَضَله واجتماع قوته ووَثاقةِ تركيبه فأيقنتُ أن الهواءَ من حاجته وهممتُ أن أنبهَه أو أقومَ أنا فأغلق النافذة ولو شئتُ أن أفعل ذلك فعلت غيرَ أن الشيطان (أخزاه الله) وَسْوَسَ لى: أن هذا رجل أجنبى غَربى وأنت مصرىّ شرقى فلا يَحسن بك

أن تُعلِمهَ وتُعلم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعفُ على حينِ أنه هو الأَسَنُّ وكيف لا تَقوم لما يقوم له وقد كنتَ تُباكرُ الماء الباردَ فى صميم الشتاء وكنتَ لا تلبس فى أشد أيام البرد غير ثياب الصيف، وكنت تحمل كذا وكذا ثِقْلا للرياضة، وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة وكنتَ تلوى بيديك عودَ الحديد وكنت وكنت...

فتذمَّمتُ واللهِ مما خطَر لى وأنِفتُ أن أنبهَ الرجل، ورأيتُ عملى هذا ضعفا وفُسولة لم أعبأ ولا بالعرَق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام وتركتُ الأوربى وشأنَه وأقبلتُ على كتاب كان فى يدى وتناسيتُ أن هذه النافذةَ جهةٌ من تدبير إبليس وكان القطارُ مزدحما بالراجعين من المعرض الزراعى الصناعى وبعضُ الناس وقوفٌ فلا مطمعَ فى مكان آخر...

ولبثتُ ساعةً ونصفَ ساعة فى تيَّار من هواء (فبراير) ينصبُّ انصبابا ويَعْصِفُ عَصْفا وكأنى أسبحُ منه فى نهر تحت ظلمة الليل الماطر والناس معجَبُون بى وبالأوربى وهذا الأوربى معجَبٌ بى أكَثَر منهم وقد رأى مكانى وعرف موضعى وكان إلى يمينى مجلسٌ بقى خاليا ولم يُقْدِم أحدٌ على أن يجلسَ فيه خوفا من الهواء ومن الرجل الأوربى...

ثم تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا) ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين فوالله الذى لا يُحْلَفُ بغير اسمه عز وجلَّ لقد كان إبليسُ رقيعا جلْفا باردا ثقيل المزاح إذ لم أكَدْ أتهيأُ للقيام حتى رأيتُ الرجل الأوربى قد مدَّ يدَه فأغلق النافذة...

* * *

ورجعتُ إلى دارى وأنا أقول: ثم ماذا يا إبليس ثم ماذا أيها الدُّعْبُب[1] وحاولتُ بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركْ لشىء من ذلك وكانت الساعة العاشرة ليلاً فصليتُ وأويتُ إلى مضجعى.

ثم أصبحتُ يوم السبت، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة): أنه سيطبع عددين معا فيريدُ لهما مقالتين إذ تُغلقَ المطبعة فى أيام عيد الأضحى وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولا مما قاسيت فكيف لى باثنتين؟

(١) الدعبب (بالتشديد): بمعنى والمداعب والدعابة.

واختلَطَ فى نفســى همٌّ بْهمَ، وما يُفْسِدُ عَلَيَّ أمرى شىء مثلُ الضيق، فإذا تضايقتُ كنــتُ غيرَ من كنت ولكنى تيقظتُ وتنبهتُ وأمَّلــتُ العافية مما أجدُه من ثقْلة البرد وضَعْفَتــه وأحدثــتُ طمعا فى النشــاط إذا جلســتُ للكتابة فى الليل فإنــى بالنهار أعمل للحكومة.

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب وجلســتُ متفتِّرا مُعْتَلاً وثقُلَ رأســى من ضَرْبة النافذة وتســلط على ظَنُّ المرض العجز عــن الكتابة وانتقَضَ الأمرُ كله فرأيتُنى أشــقُّ على نفســى بلا طائل فكان من صواب التدبير عندى أن أستجِمَّ بالنوم ثم أنهضَ فى السَّحَر للكتابة فأوصيتُ من يوقظنى وحرَّرنا الساعةَ المنبِّهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل.

وأحســستُ أنــى جائع وأن معدتى مشــحوذةٌ، ونســيتُ كلَ ما أعــرف من الطب وجاءونى بشِواء وحَلوى وما بينهما، فحططتُ فيه ولَففْتُ الآخرَ بالأول ثم قمتُ أريد النوم فإذا الطعامُ كان أشدَّ عليَّ من نافذة القطار، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام وساء الهضمُ فى الدماغِ والبطنِ جميعا!

وجعلتُ أتناوم وأرخِي أعضائى وأتوهَّم الكرى وأستَدْنِيه بكل ما أعرف من وسيلة ثم لا أزداد على ذلك إلا أَرَقا وتمرَّد الفكر وأحسستُ رأسى يكاد ينفجر وصرتُ أتَمَلْمَلُ ولا أتَقَارُّ وتوهَّمتُ أن لو كان لى عقلان ما اســتطعتُ كتابةَ المقالة عن إبليس لعنه الله وأذكرنى الخبيثُ نادرةَ مضحكَة: أن رجلا كان يركب حمارا ضعيفا وكان يبعثُه فلا ينبعث فجعل يضربه فقيل له: ارفُقْ به فقال إذا لم يقدرْ يمشى فَلِمَ صار حمارا....؟

* * *

وقذفتُ بنفســى من الفراش ونظرتُ فى الســاعة فإذا هى موشِكَةٌ أن تبلغ الثانية ولم أحِسَّ الرقادَ بعد فأسرعت إلى المنبِّهة وحرّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحا وأيقنتُ أن الشيطانَ يُرهِقُنى طُغيانا وكَيدا فطَفِقْتُ ألعنه وما أحسبُه إلا قد رأى اللعن مَدْحا فهو يستزيدنى...

ثم رجعتُ أحاول النومَ فما كان هذا الليلُ إلا شيئا واحدا أولُه آخرهُ إلى أن طلع الفجر.

وجــاء يوم الأحد وهو يومُ عُطْلة الأوربيين فما أشـدَّ عجبى إذ تركنى فيه إبليس كأنهم لا يَدَعُون له وقتا فى هذا اليوم.

والآن يزيِّن لى الخبيث أن أختم هذه المقالة بـ ..... بـ .....

ولكن لا . لا.

■■■

الشيطان*

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدَّقَّاق: كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرىُّ العجمىُّ رضي الله عنه رجلا صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ مما فوقَ العقل، كأنما هو سِـُّر من الأسـرار الجاريةِ فى هذا الكون قد بلغ بنفسه رتبةَ النَّجم فى أفُقِه البعيد ففيه أهواءُ الإنسان وشهواتُه وطباعُـه إلا أنها كنُور النجم فى تألُّقِه ولألائه من إشـراق روحهِ وصفائها وقد ارتفع بآدميته فوقَ نفسها؛ فأصبح فى الناس ومعه سماؤه يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا.

والرجـلُ إذا بلـغَ هذا المبلغَ كان حيًّا كالميت سـاعةَ احتضارِه: ينظرُ إلى كل ما فى الحيـاة نظـرةَ من يتركُ لا من يأخذ ومَن يعتبرُ لا من يَغْـتَّر، ومن يَلْفظُ لا من يَتذوّق ومن يُدرك السـرّ لا من يتعلَّق بالظاهر ويرى الشـهوات كأنهـا من لغة لا يعرفها، فهى ألفاظ فيها معانى أهلِها لا معانيه، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا وفى النفوس مثلُ الهشـيم: إذا وقعتْ فيه المعانى المشتعلةُ استطارَ حَريقًا وتَضَرَّمَ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ الماء؛ فإذا خالطَتّْهُ تلك المعانى انطفأتْ به وخمدتْ.

وقد سألتُ الشيخَ مرة: كيف تَحدثُ الكراماتُ والخوارقُ للإنسان؟ فقال: يا ولدى إن الإنسانَ من الناس المحجوبين يتصرَّفُ فى جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئًا فـإذا أبلىَ فى المجاهدة ووقَـع فى قلبه نور، تصرَّف فـى روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسـمه شيئًا، فمن أطاق أن يَنسـلخَ من بشريته، واتسـعتْ ذاتُه فى معانى السماء بمقـدارِ ما ضاقت من معانى الأرض، وكان مُعَدًّا لأن يتحققَ فى روحانيته مُعانًا على ذلك بطبيعة فوق الاعتدال – فقد شـاع فى الكـون، وأصاب له وجهًا ومذهبًا إلى تلك القوةَ التى تَهدِمُ فى العـالم وتبنى، وتُفرِّق وتَجمع، وتنقلُ الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فإن الكونَ كلَّه جوهرٌ واحدٌ هو النور، حتى الجبلُ هو نورٌ صَخْرِىّ، وحتى البحرُ هو

* انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

نــورٌ مائىّ، وحتى الحديدُ والذهــب والتراب، كلُّ ذلك نور[1] صرَّفتْه القدرةُ الإلهية تصريفَها المعجز، فكان على ما نرى: طاهرٌ مخيَّلٌ يلائم نقصا وعجزنا، وحقيقةٌ قارّةٌ علــى غير ما نرى ومن ذا يعقــل أن الصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكــنْ له إلا عقلُ عينه وحواسِّــه؟ ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [ســورة النمــل: الآيــة ٨٨]؟ فالجبــالُ جامــدةٌ ثابتة، غيرَ أنها تمــرُّ بأرضها وتموجُ فى نفســها؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشــفَ نورُ كلامِه للعقل الإنسانىّ، فستكون هذه الآية عِلْما جديدا فى الأرض، يُثبت أن السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد.

ويالها سُــخرية بالإنسان وجهله! إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى، فكل شىء فى الدنيــا هو ردٌّ على النظر الإنســانىّ، ويكاد الجبلُ العظيم يكــون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان: «كذَبْت!».

فالشأنُ فى الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسَلِّطَ الإنسانُ الروحانىُّ ما فيه من ســرّ النور على ما فى بعض الأشــياء من هذا السر وتلك هى طاعةُ بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادة ويتصلُ بخالقها.

فإذا بقى فى الرجل الروحانى شــىءٌ من أمر جســمِه يقــول: «أنا....»لم يكن فى الرجــل من تلك القدرة ذَرة؛ فإن هو حاولَ أن يَخْرِقَ العادَة، أبى الكونُ أن يعرفَه إلا كما يعرفُ حجرا مُلقى يحاول أن يتصرّف بالجبلِ الذى هو منه فينقلَه أو يزحزحَه أو يزلزلَه.

ولا خير على الأرض مطلقًا إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ «أنا....» فى إنســانها، ولا شــرّ علــى الأرض مطلقًا إلا وهو إضافةُ حقوق إليهــا: فحين لا يبقى لها حقٌّ فى شــىء عند نفسها، يجبُ لها الحق عندئذ على كل شــىء. وهذه هى الكرامة، تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق.

(١) كلمــة (النور) هذه هى التى يعبر عنهــا اليوم بالكهرباء وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون.

فمن أراد أن تتصلَ نفســهُ بالله، فلا يكنْ فى نفســه شىء من حظ نفسه، ولا يؤمنْ إيمــانَ هؤلاء العامة: يكون إيمانُهم بالله فكرة تُذكَر وتُنْسَــى أما عملُهم فهو إيمانُهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشــربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذَرَّةٌ مــن أرواحهم، على خلافِ غيرهم مــن الناس؛ فهؤلاء كل أرواحهــم فى مَطَاعمهم ومناعمهم ومن ثَمَّ لا يَجرى الشيطانُ من الأوّلين إلا فى مَجارٍ ضيقةٍ أشدَّ الضيق لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكر أو شهوة أو حُلُم من أحلام الدنيا أما الآخـرون فالشيطانُ فيهم هو تيَّارك الدم يَعُب عُبابُه فى الأسفل والأعلى.

* * *

قال أبو الحســن: وكنا يومئذ فى دمشــق، فنبهنى كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوَروه أو صارَعُوه، فقلت للشيخ: إن من حقك علىّ أن أســألَك حقِّى عليك، وما فى نفســى أحبُّ إلى ولا أعجبُ من أن أرى الشــيطانَ وأكلمــه وأسمعَــه وأنت قادرٌ أن تنقلَنــى إليه كما نقلتنى إلى مــا دخلتَ بى عليه من عوالم الغيب.

قال الشيخ: وماذا يردُّ عليك أن تَرى الشيطانَ وتكلمه؟

قلت سبحانَ الله! لا يُجدى علىّ شيئا إلا أن أسخَرَ منه.

قال الشيخ: فإنى أخشى يا ولدى أن يكونَ الشيطانُ هو الذى يريد أن تراه وتسمعَه... !

قلت: فإنى أريد أن أسألَه عن سره فيكون علما لا سخرية.

قال: لو كَشَفَ لك عن سره لما كان شيطانا فإنما هو شيطانٌ بسرِّه لا بغيره.

قلت: فأريد أن أرى الشيطان لأكونَ قد رأيت الشيطان!

قال الشــيخ: لا حولَ ولا قوة إلا بالله! لو كنتَ يا أبا الحسن بأربع أرجُلٍ لهربتَ من الشيطان بثلاث منها وتركته يجرك من واحدة!.

قلت: يا ســيدى فلو كنتُ حمارا لبطل عملُ الشــيطان فى أرجلى الأربع كلها، إذ لا حاجةَ به إلى إغواء حمار!

فتبسم الشيخ وقال: ولا بد أن تَرى الشيطانَ وتكلمه؟

قلت: لا بدّ

قال: إنه هو يقولها فَقُم!.

* * *

قال أبو الحسن: وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمر خارق بقيتُ معه غائبا عن الحس، كأنه يُبْطِلُ منىّ ما أنا به أنا، فأصبحُ ظِلاًّ آدميًّا معلقا به.

ولا تقع الخوارقُ إلا لمن وجد القوةَ الْمُكمِّلَةَ لروحه، وهذه القوة تُستَمدُّ من الشيخ الواصل، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميِّزةٌ فى الأرض، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة، إذ تقع فى جوّها فتُورقُ وتُثمر، كالشجرة: جَوٌّ يكسوها، وجَوٌّ يُذْبِلُها، وجوٌّ يسلُبها، سلبا وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جَوٌّ.

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتنا وقد أشرفنا على بناء عظيم، ورأيتُ أقواما يَتلَقَّونَ الشيخَ ويسلمون عليه ويتبركون بمقدَمِه؟ فأنكرَتْهم نفسى ووجدتُ منهم وَحْشَةً، فالتفتَ إلىّ الشيخ وقال: هؤلاء من الجنّ، وما إليهم قَصَدنا، فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى.

ثم ننتهى إلى البناء العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدْخِلون الشيخَ وأنا خلفه، ويمرون بنا على دنيا مخبؤة تُعجِزُ الوصفَ، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، فيقولون: هذه كنوزُ سليمان وذخائرُهُ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزا كنزًا، فرأينا ثَمّ نعيما ومُلكا كبيرا، ثم انتهينا آخِرًا إلى مغارة خسِيفة كأنها عِرقٌ من عروق جسم الأرض، يتفَجَّرُ منها دوىٌّ كالرعدِ القاصف، إلا أنه فى السمع كخُوَار الثور إلا أنه ثورٌ خُيّلَ إلىّ أن رأسه فى قَدر جَبَل عظيم يتعلق به غَبْغَبٌ[1] فى قَدْر جبل آخر، على جسم يَسُدُّ الخافقين فخُوارُه كأنه صُراخُ الأرض، وإذا أنا بأقبحِ مكان منظرا وأنتنهِ ريحًا، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيف.

---

(١) غبغب الثور وغببه: ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل.

فقلــت: مــا هذا؟ قالوا: هذا ســجنُ إبليس، وهــو هنا فى هذه المغــارة منذُ زمن سليمان عليه السلام.

قلت: أفَمَسْجونٌ هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبال حديدا يَرْبِضُ به فى مَحْبسِه، فلا ينزحزحُ ولا يَتَحَلْحَل.

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فسادًا فكيف به لو كان طليقًا؟ قالوا: فلو أنه كان طليقًا لا سْــتَحْوَذَ على الناس كافَّةً، فيجتمعُ أهلُ الأرض على شــهوةٍ واحدة لا شيء غيرُهــا، فيبطلُ مع هذه الشــهوة الواحدة كلُّ تدبير بينهم، فلا تقومُ لهم سياســة، ولا يكونُ بينهــم وازع؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهــاجَ بها، فأنيابها فى لحمهــا، لا يــزال يَعَضُّ بعضها، بعضا، فليس لجميعها إلا عمل واحد يُســلِمها إلى الهلاك، ويُصبح ظهرُ الأرض أعْرَى من سَراة أديم.

وإنما يَصلُحُ الناسُ باختلاف شــهواتهم وتَنَافُرها وتنازُعها: فبعضها يحكم بعضًا وشيء منها يَزَعُ شيئًا، ومن تخلَّص من نَزوَة قَمَع بها نزوةً أخرى؛ كالمتزوّج المحْصَن: يحكــمُ بالجلد والرجْم على من ليســت له امرأةٌ فزنــا؛ وكالغنِىّ الواجد: يحكم على اللصّ الذى لم يجدْ فسرق وهلمَّ جرا.

وما ينَشــأ الناس فى ثلاثة أعمار، فَيشــبُّون ويكتهلــون ويهرَمُون، إلا لتختلفَ شــهَواتُهم وتختلــفَ مقاديرُ الرغبةِ فيها، فتتحقَّقُ من ثَــمّ تلك الحكمةُ الإلهية فى التدبير ويجدُ الشرعُ محلَّه بينهم، كما يجدُ العِصيانُ بينهم محله.

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كُهول أو شيوخ، لبادتْ فى جيل واحد؛ وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدَها فى الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدَها، فلا بدّ من شيء يَظهرُ به شيء غيرهُ كالضّد؛ والضد؛ والمعركةُ إذا انتصر كلُّ من فيهــا كــانت هــزلاً وكــانت شيئا غيرَ المعركة.

قال أبو الحسن: وقلتُ لهم: فإذا كان الشيطانُ سجينا قد ربَضَتْ به أثقالُه، حتى لَهُو فى سجن مبالغة فى كفِّه والتضييق عليه – فكيف يَفتِنُ الناسَ فى أرجاء الأرض

ويُوسْـوسُ فـى قلوبهم حتى، لَهو يَدٌ بينٌ كلّ يدَين وحتى لَهـو العينُ الثالثةُ لعينَى كلِّ إنسان؟

قالوا: إن فى روحه النارية قوةً تَفْصِل منها وتنتشـر فى الأرض، كشُعاع الشمس من الشـمس: هذه كُرَةٌ ناريةٌ ميِّتة معلَّقة على الأجسام مُرْصَدَةٌ لها، وتلك كرةٌ نارية حيَّة معلقة على النفوس مُرصَدَة لها، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهل الدنيا.

قلـت: لعلكـم أردتم أن تقولوا: خراب الدنيـا وأهلِ الدنيا فغَلِطّـم فكان ينبغى أن يجىء بَدَلُ الغلط....

فقال أحدهم: يا أبا الحسـن، خَرَق الثوبُ المسمارَ. جاز هنا لأمن اللَّبْسِ أن يكونَ المفعـولُ به – وهو الثوبُ – مرفوعا وفاعلُه – وهو المسـمار – منصوبًا، هل جئتَ – ويحك – تطلبُ النحوَ أو تطلب الشيطان....؟

* * *

قال أبو الحسن: فقطَعنى الجنِّى – والله – وأخجَلنى ونظرتُ خلسة إلى الشيخ أراه كيف يسخَر منى، فإذا الشيخ قد امَّلس فلا أراه، وإذا أنا وحدى بين الجنّ وبإزاء هذا السـاخرُ وضِعَت عينُه فى جبهته وشُـقَّ فمُه فى قَفاه..! فَسُرِّىَ عنى وزال ما أجدُه، وقلت فى نفسـى: الآن أبلغ أرَبى من الشيطان ويكونُ الأمرُ على ما أريد فلا أجدُ من أحتَشِم ولا تَقْطَعُنى هيبةُ الشيخ..!

ووقع هذا الخاطر فى نفسى فاستعذت بالله ولعنتُ الشيطان وقلت: هذا أولُ عَبَثِه بى وجعلُه إياىَ من أهلِ الرياء، كأن لى شـأنًا فى حضور الشـيخ وشـأنا فى غيابه، وكأنى مُنافق أُعْلِنُ غيرَ ما أسِرّ وقلت: إنا لله! كِدتَ يا أبا الحسن تَتَشَيطن!

ثم همتُ أن أنكصَ على عقبىَّ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلَّى عنى لأكونَ هنا بنفسى لابه، وما أنا هنا إلا به لا بنفسى، فيُوشِك إذا بقيتُ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف، ووقفتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفع يثُور ثوَرانَه حتى تملأ المكانُ به، ثم رقَّ ولطفَ.

واسْتَضْرَمَتْ منه نارٌ عظيمة لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضطرم بعضُها فى بعض، ويُسمَع من صوتها مَعمَعة، قوية ثم خَمدَت.

وانفجرَ فى موضعها كالسَّـدّ المنْبثقِ من ماء كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنه صَديدٌ يَتَقَيَّحُ فى دم، ثم غاض.

وتَنبَّعتْ فى مكانه جَمْأةٌ منتِنةٌ جعلت تَربُو وتَعظمُ حتى خِفتُ أن تَبتلعَنى وأذهبَ فيها، فسميتُ الله تعالى فغارت فى الأرض.

ثم نظرتُ فإذا كلبٌ أسـودٌ مُحْمَرُّ الحَمَاليق، هائلُ الخلقة مسْتأسِد، قد وقفَ على جِيفة قَذِرة غاب فيها خَطْمُه يَعُبُّ مما تَسِيل به.

فقلت: أيها الكلبُ أأنت الشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنه إنسانُ فى بهيمة قد امتزَجا وطغَىَ منهما شيء على شيء أما وجهُه فأقبحُ شيء منظرا تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله..

ونطق فقال: أنا الشيطان!

قالت: فما تلك الجيفة؟

قال: تلك دنياكم فى شـهواتها وأنا ألْتَقمُ قلبَ الفاسـق أو الآثمِ منكم، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجيفة.

قلـت: عليك لعنة الله وعلى الفاسـقين والآثمين، فكيف كنـَت دخانا ثم انقلبتَ نارا، ثم رجعت قَيحًا، ثم صرتَ حمأة، ثم كنت كلبا على جيفة؟

قـال: لا تلعن الفاسـقين والآثمين؛ فإنهم العبَّاد الصالحـون بأحد المعنيين وأنت وأمثالُـك عُبَّـاد صالحون بالمعنـى الآخر، أليس فـى الدنيا حياءٌ ووقاحـة؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتى أنا على الله! منكم فى زهدكم حِرمانُ الحرْمان، وفقْر الفقر، ولقـد أهلكتمونـى بُؤسًـا غيـر أنـى معهم لذّةُ اللذة، وشهوةُ الشهوة، وغنىَ الغنىَ، لاتتمُّ لـذةٌ فىالأرض، ولا تحلو لذائقها وإن كـانـت حـلالاً، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً مـن معانىّ أو وقاحة من وقاحتي! حتى لأجعلُ الزوجةَ لزوجها مثلَ الشـعر البليغ إذا اسـتعار لها معنى منى، وكلُّ ما فسـدت به المرأة فهو مَجازى واستعارتى لها أجعلُها به بليغة...

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلَّها تجاهدون إثْمَ ساعة واحدة من حياة عبادى، فانظر – رحمك الله – لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هى جهنَّمكم أنتم فكيف تكون جهنمُ هؤلاء المساكين؟

إنك رأيتَنى دخانا لأنى كذلك أنبعثُ فى القلب الإنسانى، فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كَنت كالاحتيال لإضرام النار بالنفْخ عليها؛ فمن ثَمّ أكونُ دخانا، فإذا غَفَل عنى صاحبُ القلب تضرَّمتُ فى قلبه نارا تطلب ما يُطفئها؛ ثم يُواقع الإثمَ والمعصية ويقضى نَهْمَتَه فأبْرُدُ عن قلبه، فيكونُ فى قلبه مثل الحرق الذى بَرِدَ فتأكَّلَ موضعُه فتقيَّح، ثم يختلط قيحُ أعماله بمادته الترابية، الأرضية، فينقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال تربو وتنتفخ كما رأيت.

قلت: أعوذ بالله منك! أفلا تعرفُ شيئا يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْد؟

فقهقه اللعين وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن إذ تسأل الشيطانَ أن يخترع التوبة! أما لو أن شيئا يَخترع التوبة فى الأرض لاخترعها القبر الذى يَدْفِنُ فيه بعضُكم بعضًا كُلَّ طرفة عين من الزمن، فتُنزلون فيه الميتَ المسكينَ قد انقطع من كل شىء وتتركونه لآثامه، وحسابِ آثامه، والهلاكِ الأبدىّ فى آثامه؛ ثم تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثام بعينها!

قلت: عليك وعليك أيها اللعين؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربَتْه الريح أو انطفأ ما تحته!

قال: أوّه! لقد أو جعْتَنى كأنما ضربْتَنى بحبل من نار؛ إن نبيَّكم عَرفها ولكنكم أغبياء، تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنه كلامُ إنسان فى وقته لا كلامُ النبوّة للدهر كلِّه وللحياة كلِّها؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس، فإنى أضعُ المعانىَ التى تعمل، لا الحكمة المتروكةَ لمن يعملُ بها ومن لا يعمل.

أتدرى يا أبا الحسن، لماذا أعجزنى أسلافكم الأوّلون مثل: عُمر وأبى بكر؟ حتى كان إسلامُهم من أكبر مصائبى فتركونى زمنا – وأنا الشيطان – أرتابُ فى أنى أنا الشيطان...؟

قلت: لماذا؟

قال: أراك الآن لم تَلْعنَ، فلستُ قائِلها إلا إذا تَرّحمْتَ علىّ.

قلت: عليك وعليك من لَعَنَات الله! قل لماذا؟

قال: أسائِلٌ ويأمر؟ وطُفَيْلىٌ ويَقْتَرِح؟ لا بد أن تترحَّم!

قلت: يرحمُنا الله منك! قل لماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ فى لفظةِ رحمة، لا إلاَ؛ أن تترحَّم علىّ أنا إبليس الرجيم!

قلــت: فيُغنِى اللهُ عن علمك؛ لقد ألهَمْتنيهــا روحُ النبىّ ﷺ : إن النبوّة كانت هى بأعمالها وصفاتِها تفسـيرا للألفاظ على أسمى الوجــوه وأكملِها، فكان روحُ النبى ﷺ لتلك الأرواح كالأم لأبنائها، وقد رأوه لا يغضبُ لنفسه ولا لحظ نفسِه، وذلك لا يستقيم إلا بالقَصْد فى أمر النفس، وجعلِ ناحيةِ الإسـراف فيها إسـرافا فى العمل لسـعادة الناس. وكلما ارتدَّ الإنســانُ لنفســه وحظوظِها ارتدّ إليك – أيها اللعين – وأقبلَ على شــقاء نفسه، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك – أيها الرجيم – وأقبل على سعادة نفسه، وترْكُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر؛ وصبرُ الأنبياء والصّديقين ليس صبرا على شــىء بعينه فى الحياة، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلَّها، وإلا كان فسادا فى القوة ووقعَ به الخِذلان.

فهذا الصبرُ المُعْتزِمُ المصمِّم، الذى يُوَطِّنُ به الرجلُ نفسَــه أن يكونَ رجلا إلى الآخر – هو تعبُ الدنيا، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنســان فى الدنيا والمؤمنُ الصابر رجلٌ مُقْفلٌ عليه بأقفال الملائكة التى لا يَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا ولذلك قال النبى ﷺ : (إن المؤمنَ يُنْضِ شـيطانَه كما يُنْضِ أحدْكم بعيرَه، فى سـفره، كأنه يقول: لو لم يصبر المسافر دائبا معتزما مدةَ سفره كلَّها لما أنْضَى بعيرَه، ولو لم يصبر المؤمنُ دائبا معتزما مدة حياتِه كلَّها لما أنضى شيطانَه.

فصاح الشـيطان: أوَّه، أوّه! ولكن قل لى يا أبا الحسـن: ما صَبْرُ رجل مؤمن قوىِّ الإيمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفِيقَ من سُكْر الغِنى، فتخَلص من نزوَات الشاطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسـمُّونها الدنانير؛ وقد أردتُه على أن يكذبَ، فرأى الإيمانَ

أن يَصْـدُق، وجَهَدتُ به أن يغضَب، فرأى الحكمةَ أن يهْدأ؛ وحاولتُ منه أن يطمعَ، فرأى الراحةَ أن يرضىَ؛ وسَوَّلتُ له أن يَحْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألاَّ يُبالى؛ وأخذ لنفسه من كل شيء فى الحياة بما يثقُ أنه الإيمانُ والصبرُ والهدوء والرضا والقناعة؛ وأحاط نفســهَ من هذه الأخلاق بالسـعادة القلبية واجْتزأ بها؛ وقَصَـر نظرَه على الحقيقة؛ ووجد الجمالَ فى نفســه الطيِّبة الصافية؛ وأجرى ما يُؤلمه وما يَسُـرُّه مَجرًى واحدًا؛ ونظر إلى العمرِ كله كأنه يومٌ واحد يَرْقُب مغرِب شمسه؛ وأخذ من إرادته قوة أنسَته ما لم تُعطِه الدنيا، فلم يَحْفِلْ بما أعطت الدنيا وما مَنَعتْ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كمـا يعيش المؤمن فى الجنة: هذا فى قصر من لؤلـؤة أو ياقوتة أو زَبَرْجَدَةٍ وذاك فى قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل.

قال الشيطان: فلما أعجزَنى صلاحا ورضى وصبرًا وقناعَة وإيمانًا واحتسابًا، وكان رجلا عالما فقيها - سوَّلتُ له أن يخرجَ إلى المسجد ليعِظَ الناسَ فينتفعوا به ويُبَصِّرهم بدينهم، ويتكلمَ فى نص كلام الله؛ فَعقَد المجلس ووَعظَ، وانصرفوا وبقى وحده.

فجاءت امرأة تسـأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن؛ وكانت امرأة جَزْلة غَضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشى قصيرة الخَطْو مُتَّاقِلَةً كالمتضايِقة من حَمْلِ أسـرار جمالها وأسـرار بدنِها الجميل؛ فبَعْض مشـيتها يَقَظَةٌ وبعضُهـا نومٌ فاترٌ تخالطــة اليقَظة؛ ولا يراها الرجلُ الفَحْـلُ التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواء نفسَــه قد أصبح من حولها أنثى، مما تَعْصِفُ به ريحُها العَطِرة عِطر زينتها وجسمِها.

وكان الواعظ قد ترمَّل من أشــهر؛ وكانت المرأة قد تأيَّمَتْ من سَـنوات؛ فلما رآها غَضَّ طرْفَه عنها؛ ولكنها سـألته بألفاظها العذْبة عن أمور هى من أسـرار طبيعتها، وسألته عن طبيعِتها بألفاظها فسمع منها مثلَ صوت البلَّور، يتكسَّر بعضُه على بعض.

وتحدّثتْ له وكأنها تتحدّثُ فيه: فســمعَ بأذنــهِ ودمِهِ، ثم كان غَضُّ عينِه أقوى لرؤية قلبه وجَمْع خواطره.

ورأى صوتَها يَشْـتَهِى؛ وعانقتْه رائحتهُا العطريــة النفَّاذة؛ وأحاطته بجو كجوِّ الفِراش؛ وعادت أنفاسُها كأنها وسْوَسَةُ قُبَل؛ وصارت زَفَراتها كالقِدْر إذا استَجْمعَتْ غَلَيانا؛ وطلعتْ فى خياله عُريانة كما تَطلعُ للسكران من كأس الخمر حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جسمٌ يبدو من الَّلين والبَضاضة والنَّعَمة كأنه من زَبَد البحر؟

قال أبو الحســن: وكنتُ كالنائم، فما شــعرت إلا بصوت كصَكّ الحجر بالحجر، لا كتكسُّر البلور على بعض، وسمعتُ شيخى يقول:

أفَسَقْت.....؟

■■■

تاريخٌ يتكَّلم....*

أيعرفُ القراء أن في الأحلام أحلامًا هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكَمةُ الوضع مُتَّسقُة التركيب بديعةُ التأليف، تجعلُ المرء حين ينام كأنه أسلم نفسهَ إلى (شركة من الملائكة)، تَسيحُ به في عالَم عجيب كأنما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة؟

إن يكنْ في القراء من لا يعلمُ هذا فلْيعلَمْه منى؛ فإني كثيرا ما أكتبُ وأقرأ في النوم، وكثيرا ما يُلْقى عَلَيَّ من بارع الكلام، وكثيرا ما أرى ما لو دوّنْتُه لَعُدّ من الخوارق والمعجزات.

وهذه القصةُ التى أرويها اليومَ، كانت المعجزةُ فيها أنىّ مشيتُ فى التاريخ كما أمشى فى طريق ممتدّة، فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها فعشتُ معهم وتَخَبَّرتُ من أخبارهم، ثم رجعتُ إلى زمنى لأقصَّ ما رأيتُه على أهل سنة ١٣٥٣م....**

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم فى أحوال ثقيلة على النفس ما تَنطلقُ النفسُ لها، أوّلُها سوءُ الهضم؛ ومتى كان البَدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ فى النفس إلا دائرة: تَذهب ما تذهبُ ثم لا تنتهى إلا فى سوء الهضم عينه. فجلستُ فى النَّدِيّ الذى أسْمُرُ فيه أحيانا فكان لجوِّه وزنٌ أحسستُه كما يُحس الغائصُ فى الماء ثِقَلَ الماء عليه؛ ودخَّنتُ الكَرْكَرَة[1] فلم تكن هواء ودُخانًا يَتروَّحُ بل كانت من ثقلها كالطعام يدخلُ على الطعام؛ ونظرتُ ناحية فأخذتْ عينى رجُلا فِيليَّ الخِلْقة، مُنْطادَ البطن كأنما نُفخَ بطنُه بالآلات، يَحمِلُ منه مقدار أربعة من بطون البَدينِاتِ الحواملِ كلُّ منهنَّ فى الشهر التاسع من حَمْلها.. وكان معى إلى كل هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يوميَّة أريدُ قراءتَها..!

---

* يعنى بهذه المقالة والتى بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المغفور له – وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

** تاريخ إنشائه هذه المقالة.

(١) الكركرة: اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة، أخذا من صوتها، كما صنع العرب فى تسميتهم (القطا) أخذا من صوت هذا الطير، وكما هى طريقتهم؛ وجمع الكركرة: كراكير بالياء للخفة.

ثم جئتُ إلى الدار والمعركةُ حاميةٌ فى أعصابى؛ وما كان سوء الهضم مَنْوَمَةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلتُ بيتَ كُتُبى وأردتُ كتابًا أىَّ كتاب تنالُه يدى، فخرج لى كتابٌ فى خُرافات الأوّلين وأساطيرِهم وهَذَيانهم وسوء هضمهم العقلىّ... كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديُونيس وسميراميس وإيسـيس وأتوبيس وأثرغتيس... فاستعذتُ بالله وقلت: حتى الكتُبُ لها فى هذه الليلة أعصابٌ قد نالتْها الثِّقْلةُ والألم؟

وبات الليلُ يقظان معى وبقيتُ مُتَمَلْمِلا أتقلَّب حتى أخذ الصداعُ فى رأسى، فانقلب التعبُ نومًا وجاء من النوم تعبٌ آخر، وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام فى قُنبلة تسـتقرُّ بى حيث تريد لا حيث أريد:

* * *

ورأيتُنـى فى قوم لا أعرفُ منهم أحدا قد اجتمعوا جَماهير، وسمعتُ قائلاً منهم يقول: «السـاعَة يمرُّ مولانا العالى» فقلت لمن يلينى: «مَن يكونُ مولانا العالى؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلت: «ممن؟» فألهاه عن جوابى تَشَـوُّفُ الناس وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكبا حمارا أشـهب؟ فصاحـوا: «القمر القمر[1]» ورَفَع الرجـلُ الذى يُناكِبُنى صوتَهَ يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالى!».

قلـت: إنا لله! لقـد وقعت فى قوم مـن الزنادقة يُعارِضون «التحيـاتُ والصّلَواتُ والطَّيبـاتُ لله»، ثم مرّ صاحبُ الحمار بحذائـى، وغمزه الرجلُ عَلَىَّ، فقال: ما بالكُ لا تقـول مثَله؟ قلت: أعوذُ بالله من كُفر بعد إيمان فكأنما أراد أن يَلْطِمَنى فرفع يده، فصِحْتُ فيه: كما أنتَ - ويلكَ - وإلا قبضتُ عليك وأسـلمتك للبوليس وشـكوْتُك إلى النيابة، ورفعتُك إلى محكمة الجُنَح.

قال: ماذا أسمع؟ الرجل مجنونٌ فخذوه وأحاط بى جماعةٌ منهم ولكنه تَرَجَّل عن حماره وأخذ بيدى ومشينا، فقلت: من أنت يا هذا؟

(١) القمر: اسم ذلك الحمار، وسيمر ذكره فى القصة.

قـال: أراكَ من غير هذا البلد؛ أمَا تَعـرف الحاكم بأمر الله؟ فأنا هو. قلت: انظُرْ – ويحكَ – ما تقول فما أظنُّكَ إلا مَمْرُورا لقد كتبتُ أمس كتابا إلى مجلة (الرسـالة) أرّخْته ١٣ من ذى الحجة سـنة ١٣٥٣م و ١٨ من مارس سـنة ١٩٣٥م وأرسـلتُ به مقالة «الخروفين»[1]...

قـال: ماذا أسمع؟ نحن الآن فى سـنة ٣٩٥؛ فالرجل مجنـون، أو لا فأنت أيها الرجلُ من معجزاتى. لقد جئتُ بك من التاريخ فسترى وتكتب، ثم تعودُ إلى التاريخ فتكونُ من معجزاتى، وتقصُّ عنى وتشهدُ لى...!

قلت: فإنى أعرف أعمالك إلى أن قُتِلْتَ فى سنة ٤١١...!

قال: أوَ إله أنت فتَخلُقَ سـتَّ عشرةَ سنة بحوادثها؟ لقد كدتَ من أفَنِكَ وغَباوتك تُفسِد علىَّ دعوى المعجزة!

وهاج الصداعُ فى رأسى، وبلغ سوء الهضم حدَّه، واشتبكتْ سِيناتُ إيسيس وأتوبييس إلخ بسـين إبليس ومرتْ بين كلِّ هذا حـوادثُ الطاغية المعتوهِ المتجبّر، فرأيته يبتدع فـى كل وقت بِدَعا، ويخترع أحكاما يُكْـرِهُ الناسَ على أن يعملوا بها، ويعاقبُهم على الخـروج منها، ثم يعودُ فينقض أمرَه، ويعاقـبُ على الأخذ به، كأن الذى نَقضَ غير الـذى أبْرَم، وكأنه حين يتبلـد فيُعجزُه أن يخترعَ جديدا – يَجعَـل اختراعَه إبطالَ اختراعِه.

ورأيته كأنما يعتدُّ نفْسَـه مُخَّ هذه الأمة، فلا بـّد أن يكونَ عقلا لعقولها، ثم لابد أن يَسْتَعْلِىَ الناسَ ويستبدّ بهم استبدادَ الشريعةِ فى أمرها ونَهْيها فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمال الشـريعة الإسلامية، وظنَّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصرِ من أذهان الناس وقَتْلَ التاريخ الإسلامىّ بتاريخٍ قاتلٍ سفَّاك.

وسَـوَّل له جنونُه أنه خُلقَ تكذيبا للنبوة؛ ثم أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل فى نفسه أنه خلق تكذيبا للألوهية؛ وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحملُ الأمةَ بالقهر والغلَبة

(١) مرت هذه المقالة فى الجزء الأول.

على ألاتصدّقَ إلا به هو، وفى سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صنَع، فجاء تاريخه لاينفى ألوهيةَ ولا نبوَّة، بل ينفى العقلَ عن صاحبه؛ وجاء هذا التاريخُ فى الإسلام ليتكلم يوما فى تاريخ الإسلام...

* * *

رأيتُنى أصبحتُ كاتبا لهذا الحاكم، فجعلتُ أشهد أعمالَه وأُدوِّن تاريخَه، وأقبلتُ على ما أفْرَدَني به وقلتُ فى نفسى: لقد وضعتنى الدنيا موضعًا عزيزا لم يرتفع إليه أحد من كتَّابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً فى العلم.

ودوّنتُ عشرة مجلَّدات ضخمة انتبهتُ وأنا أحفظها كلَّها، فإذا هى جُملٌ صغيرة، جَعلَ الحُلم كلَّ نبذة منها سفرا ضخمًا كما يُخيَّل للنائم أنه عاش عمرا طويلا وأحدثَ أحداثًا ممتدَّة، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة.

وهذه هى المجلَّداتُ التى قلتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ...

المجلد الأول

ابتُلِىَ هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التى من نفسه فإنى أراه قد خُلقِ وفى مُخِّه لفُافَةٌ عَصَبية من يَهودية جَدّه رأسِ هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدى عبُيد الله، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حدَّاد يهودى، فاتفق أن جرى ذكرُ النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدَّاح، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية، وأنها آيةٌ فى الحُسن؛ وكان لها من الحداد ولد، فتزوَّجها الرجُل وأدَّب ابنها وعلَّمه، ثم عرَّفه أسرارَ الدعوة العَلَوية وعَهدَ إليه بها.

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدرُ بالوراثة مطبوعا على خيره أو شرّه، لا يَدَ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه، فيكونُ قَدَرا يَتسَلْسلِ

فى الخلْق ليحدثَ غاياته المقدورة، فمتى وقع فى مخ إنسان فالدنيا به كالحُبْلَى ولابد أن تتمخَّض عنه.

هـذه اللِّفافةُ اليهودية فى مخّ هذا الطاغية سـتُحَقِّقُ به قولَ الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٨].

فهو لن يكونَ العدوَّ للإسلام دون أن يكون الأشدَّ فى هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكَرَة، وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ فى الجوّ إلا تخرقُ بمنظرها عينيه من بُغضِه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويلٌ لها منه!.

وأمـا النقيصةُ الثانيةُ فقـد ابْتُلىَ بقوم فتنوه بآرائهـم ومذهبهم، وهم حمزةُ بن علـى والأخرم، وفلان، وفلان.. وقد لفَّقوا للدنيا مذهبا هو صورة عقولهم الطائشـة، لا يجـىء إلا للهدم، ثم لا يضعُ أولَ مَعاوِله إلا فى قُبة السـماء ليهدمها...! ولو أنا جمعـتُ هذا المذهبَ فى كلمة واحـدة لقلتُ: هو حماقةٌ حمقـاء تُريد إخراجَ الله من الوجود لإدخال الله فى بعض الطُّغاة!

ويتلقبـون فى مذهبهـم بهذه الألقاب: العقـل، الإرادة، الإمـام، قائم الزمان، علة العلل...!

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيّدُ به الإسـلام، ليتألَّفَ الجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه، وكان فـى ذلـك لئيمَ الكَيْدِ دنىء الحيلة، يهودىَّ المكْـر؛ فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسـير والحديث والفُتْيا، وبَذَلَ فيها الأموال، وجعل فيها الفقهاء (والمشـايخ)، وبالـغَ فى إكرامهم والتَّوْسِـعَةِ عليهم، والتَّخَضُّع لهم، ودَخَـل فى ظلال العمائم... وأحضَر لنفسه فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يُعلِّمانه ويُفقِّهانه، وكان أشْبهَ بُمرِيد مع شـيخ الطريقة يَتَسَـعَّدُ به ويَتَيمَّن؛ أشـرفُ ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء، وأسعدُ أوقاتِه اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ: رأيتُك فى الرؤيا ورأيتُ لك...!

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية، هى بعينها ربا اللُّفَافِة – اليهودية فى مُخّه؛ تُصْلحُ بإقراضِ مائة، وفيها نيةُ الخراب بالستين فى المائة...! فإنه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرفُ إقبالَهم عليه وثِقتَهم به، حتى طَلبت اللفافةُ اليهوديةُ رأسَ المال والرّبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها، وأبطلَ العيدَين وصلاةَ الجمعة، وقَتَلَ الفقهاء معهم فقيهيه وأستاذَيه، وعادَ كالمُريد المنافق مع شيخ الطريقة، يقول فى نفسه: إن هناك ثلاثةً تعمل عملا واحدا فى الصَّيد: الفخّ، والعمامة، واللّحية...!

إن هذا الطاغيةَ ملِكٌ حاكم، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئا واقعا، فيقتلَ علماء الدين بإهلاكهم، ويقتلَ مدارسَ الدين بإخرابها ولو شاء لاستطاع أن يشنُقَ من المسلمين كلَّ ذى عمامة فى عمامته، ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً، ولا يعلَم أنه لهوانِهِ على الله قد جعلَه الله كالذبابة التى تُصيبُ الناسَ بالمرض، والبعوضِة التى تقتل بالحَّمى والقملةِ التى تَضْربُ بالطاعون، فلو فَخَرتْ ذبابةٌ، أو تبجَّحَتْ قملةٌ، أو استطالتْ بَعوضةٌ، لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه فى العالم، وهل فعلَ أكثر مما تفعل؟

لقد أوْدَى بأُناس يقوم إيمانُهم على أن الموتَ فى سبيل الحق هو الذى يُخْلدُهم فى، الحق وأن انتزاعَهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعُهم فى حقيقتها وأن هذه الروحَ الإسلامية لا يَطْمِسُها الطغيانُ إلا ليجلوَها.

إنه والله ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله، وأعوزَه ذلك النوعُ السامى من الموت الأولِ الذى كان حياةَ الفكرِ ومادةَ التاريخ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها..!

لقد أحياهم فى التاريخ، أما هم فقتلوه فى التاريخ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعنةِ من المسلمين جميعا!

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلاميَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عن النفس، وأن محوَ الأخلاقِ الإسلامية العظيمةِ هو نفسُه إيجادُ أخلاق، وأن الإسلامَ كان جريئا حين

جاء فاحتلَّ هذه الدنيا، فلا يطردُه من الدنيا إلا جَراءةُ شـيطانٍ كالذى توَقَّحَ على الله حـين قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سـورة ص: الآية ٢٨]. ولهـذا أمر الناسَ بسبّ الصَّحابة، وأن يُكْتَب ذلك على حِيطان المساجد والمقابر والشوارع!

أخـزاه الله! أهى روايةٌ تمثيلية يُلْصِق الإعلانَ عنها فى كل مكان؟ لو سمع لسـمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول: أخزاه الله...!

المجلد الرابع

هذاالفاسـقُ لا يركبُ إلا حمارا أشهبَ يسمِّيه: (القمر)، وقد جعل نفسَه مُحْتَسِبا لغايةٍ خبيثة؛ فهو يدورُ على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود. فمن وجده قد غشَّ؛ أمرَ الأسودَ...! ووقف هو ينظر ويقول للناس: انظروا...!

ومن غَلَبةِ الفُسوق على نفسه وعلى شيعتهِ أنّ داعيتَه (حمزة بن على) نَوَّه بالحمار فـى كتابه وأومأ إليه بالثنـاء، لخصال: منها أن....! وكتبَ حمـزةُ هذا فى بعض رسائله: أن ما يرتكبه أهلُ الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكَر والفحشاء – إنما يُرتكَب فى طاعته...!

هذه طبيعة كلّ حاكم فاسق مُلحد، يرى فى نفسه رذائلَه عُريانةً، فلا يكونُ كلامُه وعملُه وفكرُه إلا فُحشا يَتعرَّى، وإن فى هذا الرجل غريزة فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْر الحيوان الإنسانىّ الأول، فما من رَيْب أن فى جسمه خلِية عصبيَّةً مُهْتاجَةً، مازالت تَسْـبَحُ بالوراثة فى دماءِ الأحياء، متلفِّفةً على خصائصها، حتى استقرَّتْ فى أعصاب هذا الفاسق، فانفجرتْ بكل تلك الخصائص.

ولسـتُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ فى مَرَدِّها إلا إلى طغيـان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحـاول هدمَ الإسـلام، لأنه ديـنُ العفة ودينُ صَـوْنِ المرأة، يُلزمُها حجـابَ عِفَّتها وإبائها، ويمنعُها الابتَذالَ والخلاعة، ويُعينها أن تتخلَّص ممن يشـتهيها، ولو كان الحاكم... إنه يمقتُ هذا الدين القوىّ، كما يمقتُ اللصُّ القانون، فهو دينٌ يَثْقُل على غريزته الفاسـقة، ولكلِّ غريزة فى الإنسان شعورٌ لا مَهْنأ لها إلا أن يكونَ حرّا حتى

فى التوهُّم؛ وهل يُعجبُ السكِّيرَ شىءٌ أو يُرضيه أو يَلَذه، كما يُعجبه أن يرى الناس كلهم سُكارى، فَينَتْشِ هو بالخمر وتسكَر غريزته برؤية السكْر؟

ومازال رأىُ الفُسَّاق فى كل زمن أن الحريةَ هى حريةُ الاستمتاع، وأن تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلَّذة.

المجلد الخامس

يزعـم الطاغيةُ أنه يُعِـزُّ قومَه، ومـا أراه يُعزهم، لكنه يمتحـنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على الأمم، يتجرَّأ شـيئا فشـيئا، مُتَنَظِّرا ما يَتَسَهَّل مترقبا ما يمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنَا الإسـلامية هى أمواتُنا دَفنوا أنفسَـهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنّ عند نفسه أنه يهدمُ قبورا لا أخلاقا.

ولقد سَـخِرَ منه المصريون بنكتة من ظَرفهم البديع، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأة من الورق الذى يُشْـبِه الجلدَ، وألبسـوها خُفَّها وإزَارها، حتى لايشكَّ من رآها أنها آدمية، ثم وضعوا فى يدها قِصَّة وأقاموها فى طريقه، فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذَ من يدها القصةَ وقرأها، فإذا فيها سَـبٌّ له ولآبائه، وسـخريةٌ من جنونه ورُعونته المضحِكة؛ فغضب وأمر بقتل المرأة، فكانت هذه سـخرية أخرى حين تحقَّق أنها من الورق، وأخذته النكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد، فاستَشَاطَ وأمر عبيدَه من السودان بتحريق الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْىِ النساء والفُجورِ بهن، حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتِهم من العبيد، بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض.

اندلعتْ ثورةُ الفجور فى المدينة، لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيقِ المستقر فى هذا الطاغية.

المجلد السادس

وهـذه رُعونَةٌ من أقبح رُعوناته، كأن هذا الحيوانَ لا يحسـبُ نسـاء الأمة كلِّها إلا نسـاءَه، فيأمرهن بأمر امرأتهِ، وكأن النساء فى رأيه إن هُنَ إلا استجاباتٌ عصبيَّةٌ تُطْلَق وتُرَدّ.

إن لموجة الفسق فى الغريزة الطاغية جَزْرًا ومدا يقعان فى تاريخ الفُسَّاق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمر أن يُمنَع النساءُ من الخروج ليلا ونهارا، لا تطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة، وأمرَ الخفَّافين ألا يصنعوا لهنَّ الأخفافَ والأحذيَةَ ولما علم أن بعضَ النساء خرجْن إلى الحمامات هَدَم الحمامات عليهن!

ولو مدَّت الموجةُ فى تفسق الفاسق لَفَرضَ على النساء الخروجَ والاتصال بالرجال والتعرضَ للإباحة.

إن الصلاحَ والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاحُ نظافةً فى الروح وسموًّا فى القلب.

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيَهدم كلَّ قديم؛ وإنى لأخشى والله أن يأمرَ الناسَ فى بعض سَطَوَات جنونه: أن كلَّ من له أبٌ أو أمّ بلغ الستين فليقتلْه، لتخلُص الأمةُ من قديمها الإنساني...!

كأنه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ، ويحكمُ على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثِهم من الأسلاف، فما هو إلا أن يهلِك حتى ينبعثَ فى الدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّتِه فى بطن الأرض، ونتْنُ أعماله على ظهر الأرض، إن هذا الرجلَ المسلَّط، كالغبارِ المُسْتَطَار لا يُكْنَس إلا بعد أن يقَع...

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناس الملوخيَّا الخضراء والفُقَّاع، والتُّرمُس والجِرْجيرَ، والزبيبَ والعنب – هوى قديمٌ فى طباع الناس فنهى عن كل ذلك، لا يُباع ولا يُؤكل، وظهر على أن جماعة باعوا أشياء منها فضَربهم بالسيّاط وأمر فَطِيف بهم فى الأسواق، ثم ضَرب أعناقَهم، كأن الذى يحملُ الملوخيَّا الخضراء على رأسه ليبيعَها يلبس عمامة خضراء...

أهذا – وَيْحَه – تجديدٌ فى الأمة أم تجديدٌ فى المِعدة...؟

المجلد الثامن

لا يرضىَ الطاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيةَ الأمة كلِّها، فلا يترك شيئا رُوحانيًّا له فى أعصاب الناس أثرٌ من الوقار، وبمن يَسْتظهِرُ – ويْلَه – إذا مُحِقتْ روحانيةُ

الأمة وأشـرفت نَزْعتُها الدينيةُ على الانحلال؟ كأنه لا يعلم أن حقيقةَ الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُسْتَمدُّ من إيمانها الأعلى الذى يدفعُها فى سِلْمها إلى الحياة بقوّة، كما يدفعهـا فى حربها إلى الموت بقوة؛ وكأنه لا يعلـم أن التاريخَ كله تُقرِّره فى الأرض بضعةُ مبادئ دينية.

هـذا الحاكم الأخـرقُ هو عندى كالذى يقول لنفسـه: لم أسـتطعْ أن أفتح دولة، فلأفتـحْ دولةً فى مملكتى... لقد أمر بهدم الكنائـس والبِيَع، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفا ونيِّفًا.

أىّ مجنونٍ أسـخف جنونًا من هذا الذى يحسـب النفوسَ الإنسانية كالأخشاب؛ تَقْبَل كلُّها بغير استثناء أن تُدقَّ فيها المسامير...؟

سـيعلم إذا نَشِبَتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى، أنه كسر أشدَّ سيوفه مضاء حين كسَرَ الدين!

المجلد التاسع

هـذه هى الطامَّـةُ الكُبرى، فلا أدرى كيف أكتُبُ عنهـا: لقد تطاوَل المجنونُ إلى الألوهية فادَّعاها وصار يكتب عن نفسه: باسم الحاكم الرحمن!

ولـو كان أغبى الأغبياء فى موضعه لاتَّقى شـيئا، لا أقـولُ تقوى الدينِ والضمير، ولكن تقوى النِّفاقِ السياسـى؛ فـكان يحملُ الناسَ على أن يقولـوا عنه: «أبانا الذى فى الأرَضِين...!».

وإلا فأىُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأىّ حُمق وتَهوُّر، أن يكونَ إلهٌ على حمار، وإن كان اسـُم حماره القمر!

المجلد العاشر

سـيأخذُه الله بامرأة؛ ولكل شـىءٍ آفةُ من جنسـه؛ لقد بلغ من وَقاحةِ غريزته أن ائْتَفَكَ أخته الأميرة (ستّ المُلك)، ورماها بالفاحشة، وهى من أزكى النساء وأفضلِهن، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد عملتْ أنها تُدبِّر قتلَه وأنها اجتمعت

لذلك بسـيف الدين، فسأُمسِـكُ عن الكتابة فى هذا المجلد، وأدع سائرَه بياضا حتى أذهبَ إليهما فأعينَهما بما عندى من الرأى، ثم أعود لتدوين ما يقع من بَعد...

* * *

ورأيتُ أنى اجتمعتُ بهما واطمأنَّا إلىّ، فأخذنا نُدِيرُ الرأى:

قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته: «والرأى عندى أن تُتْبِعَه غلمانا يقتلونه إذا خرج فى غد إلى جبل المقطم فإنه ينفرد بنفسه هناك!».

فقلت أنا: «ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير».

قالت: «فما الرأىُ والتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إن لنا علمًا يسـمونه (علم النفس)، لـم يقع لعلمائكم، وقد صحَّ عندى من هـذا العلم أن الرجلَ طائشُ الغريزةِ مجنونُها، وأن الأشـعةَ اللطيفةَ السـاحرةَ التى تنبعـثُ من جسـم المرأة هى التى تنفجرُ فـى مخِّه مرّةً بعد مرة؛ فـإذا خَبَتْ هذه الأشـعة وبطَلت الغريزة، بَطَلتْ دواعى أعمالـه الخبيثةِ كلَها، وكَفَّ عن محاولتَه أن يجعلَ الأمةَ مملوءةً من غرائز جسـمهِ وشـهواتِه، لا من فضائلِها ودينِها، فلو أخذتم برأيى وأمضيُتموه فإنه سيُنكر أعمالَه إذا عرضها على نفسهِ الجديدة، وبهذا يُصلح ما أفسد وتكون حياتُه قد نطقتْ بكلمتها الصحيحة كما نطقتْ بكلمتها الفاسدة فإذا...».

قال الأمير: «فإذا ماذا؟».

قلت: «فإذا خُصِى.....».

فضحكتْ ستُّ الملك ضحكةً رنَّتْ رنينا.

قلت: «نعم إذا خُصِى هذا الحاكم...».

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول، ورمتنى بمنديلٍ لطيف كان فى يدها أَصاب وجهى، فانتبهتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِى هذا الحاكم......».

■■■

كُفْرُ الذُبابة* ...

قــال كَلِيلة[1] وهو يَعِظ دِمْنَةَ ويُحَذّرُه ويَقضــى حقَّ الله فيه؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغــرورُ وزَهَاه النَّصر، وظهر منه الجفــاء والغِلْظة، ولقى الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنَتًا شديداً:

..... واعلــم يــا دمنةُ أن ما زعمتَــه من رأيك تامًّا لا يعَتريــه النقص، هو بعينه الناقــصُ الذى لم يتمّ، والغــرورُ الذى تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء، لعله هو الذى يُثبت أن غيرَ رأيك فى الآراء هو الصحيح.

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذى خيال، لصدّقَ كلُّ إنسان فيما يزعم، ولو صدَق كلُّ إنسانا فيما يزعمُ، لكذَب كل إنسان؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ليجىء حقُّ الجميع مــن الجميع، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثْبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنْتقص، ويصحَّ الصحيحُ ما دامت الشــهادةُ له، ويفسُــدَ الفاسد ما دامت الشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء.

قال دِمنة: وكيف كان ذلك؟

قــال: زعموا أن أرنبًا سمعت العلماء يتكلّمون فى مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها، وكيف تكونُ القارعة؛ فقالوا: إن فى النجوم نجومًا مُذَنبةً، لو التف ذنَــب أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هَوَاءً كأنها نفخةُ النافخ، بل أضعف منها كأنهــا زَفرةُ صدرٍ مريــض، بل أو هى كأنها نَفْثَةٌ من شــفتين. فقالــت الأرنب: ما أجهلَكم أيها العلماء! قد والله خَرفتُم وتَكذَبّتم واســتَحْمَقْتُم، ولا تزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا - قالوا: وأرتهم ذَنَبها....!.

---

* انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعى، يعمد إليه حين يريد تقرير المعانى بالتمثيل والمحاورة. (الرسالة). وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) فى الجزء الأول.

قال كليلة: وكم من مغرور يُنْزِل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء فيقول: كَذَبــوا وصدَقْتُ أنا، وأخطئُوا جميعا وأصبتُ، والْتَبَس عليهم وانكشَــف لى، وهم زعموا وأنا المســتَيْقِن، ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هَنَةٍ تتحرّك فى ذنبها.

وكان يُقــال: إنه لا يُجاهِــرُ بالكفر فى قوم إلا رجلٌ هــانَ عليهم فلم يَعبثوا به، فهو الأذلُّ المســتضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلَم يعبأ بهم، فهو الأعز الطاغية؛ ذاك لا يخشَــونه فيَدعُونه لنفسه وعليه شهادةُ حُمَقِه، وهذا يخشونه فيتركون معارَضَتَه وعليه شهادةُ ظُلمه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا.

وقالــت العلماء: إن كنتَ حاكمًا تَشْــنُقُ من يخالفُك فى الرأى، فليس فى رأســك إلا عقــلٌ اسمه الحبل، وإن كنتَ تَقتل مَن يُنكر عليك الخطأ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الجديد، وإن كنت تحْبسُ من يعارضُك بالنظر؛ ففيك عقلٌ اسمه الجدار، أما إن كنتَ تُناظِــرُ وتجادل، وتقنــعُ وتقتنع، وتدعو الناسَ على بَصــيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى – ففيك العقلُ الذى اسمه العقل.

* * *

قال كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كنتُ قائدا مُطاعا، وأميرًا مُتَّبَعًا، لا يُعصَى لى أمر، ولا يُــرد عَلَــىَّ رأى ولا ينكرَ منى مــا يُنكرَ من المخلوق إذا أخطــأ، ولا يقال لى دائمًا إلا إحــدى الكلمتين: أصبتَ ثم هى دائمًا أصبت؛ ولايَلْقانــى أحدٌ من قومى بالكلمة الأخــرى، رَهْبةً من سَــخَطى رَهْبَةَ الجُبنَــاء، أو رغبةً فى رضــاىَ رغبةَ المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّتْ نيَّاتُهم وخلَصَ لى باطنُهم جميعاً – فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالنى نقصُهم إلى نقص العقلِ بعد كماله، وردَّتنى فُســولتُهم إلى فُســولة الــرأى بعد جَوْدته، فأخْلِقْ بى أن أعتبرَ وضْعَهم إياىَ فى موضع الآلهة، هو إنزالَهم إياى فى منزلة الشــياطين؛ وإلا كنتُ حقيقًا أن يُصيبنى مــا أصاب العَنْزَ التى زعموا لها أنها أُنْثى الفيل...

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان فى إحدى خَرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء، وكان فيها عَضْرفُوطٌ كبير[1] فملَّكَتْهُ الجماعةُ وذهبتْ تأتَمِرُ على أمْره وتنتَهى.

فمرّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ من الفِيَلة الهنديةِ العظيمةِ، لم يُحسَّ بالعَظَاء، ولم يميِّز فَرْقًا بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثورا يلْتَمِعُ فى الأرض هنا وهنا قالوا فغضب العَضْرَفُوطُ، وكان قائدا عظيما ثم تدّبر أمْرَ الفيل ينظر كيف يصنعُ فى مدافَعَتِه، وكيف يحتال فى هَلاكه؛ فرآه لا يتحرك إلا بأقدامه يَنقلُها واحدةً واحدة فقدَّر عند نفسه أنه لو أزال قدَمَ الفيل عن الأرض زال الفيلُ نفسُه؛ فجاء فاعترضَ الطريقَ ودَبَّ دبيبه؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهْتَبلَ هذه الغَفْلَةَ منه... وانْدسَّ تحتها، فاندسَّ مقبوراً فى التراب!

ثم إن العَظَاء افتقَدَتْ أميرها فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأتْ ما نزل به، نَفَرَتْ إلى أجحارها واستكنَّتْ فيها ترتَقبُ وتَتربَّص، فدخلتْ إلى الخربة عَنْزٌجعلت تتقمم منها وتَرْتَعُ فيها ورأتها العَظَاء فاجتمعن يأتَمِرن...

فقال منها قائل: هذه أنثى الفيل فسألتْ عَظَايةٌ منهن: وأين النابان العظيمان؟

قالت الأولى: إن الإناثَ دون الذُّكورة فى خَلْقها، والأنثى هى الذكرُ مقلوبًا أو مختصرًا أو مشوَّهًا، ولذلك هنَّ يَقْلِبنَ الحياة أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها أفلا، ترَين النابين العظيمين البارزين فى ذلك الفيل الجسيم، كيف نَبَتَا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه..؟

فقالت واحدة: إن جاز قوُلك فى الرأى فأين الخُرْطُوم؟

قالت الأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتَدلِّيةُ من حَلْقها وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثة الأنثى...!

قالوا: ثم اجتمع رأيُهن على أن يُمَلِّكْن أنثى الفيل هذه، وأن يهَبْنَ لها الخربَة وأمَّتَها. وسمعت الماعِزَةُ كلامهن فقالت فى نفسها: لا جَرَمَ أن تكونَ العنزُ فيلةً فى

(١) العظاء: جمع عظاءة وعظاية، وهى الدويبة التى يقال لها (السحلية)، والعضر فوط: ضرب من العظاء يكون أكبر منها.

أمــةٍ من العَظَماء، فقد قالــت العلماء: إنه لا كبيرَ إلا بصغير، ولا قَوىَّ إلا بضعيف، ولا طاغيــةَ إلا بذليل، وإن العظمةَ إن هى إلا شــهادةُ الحقارةِ على نفســها وإنه رُبَّ عظيــم طاغية متَجَبِّرٍ ما قام فى الناس إلا كما تقــومُ الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيشُ الكَــذِب ولا حَكَم إلا كمــا يَحكم الخِداع، وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحدهَ، فمتــى جاءت إليه فقــد جاءت، ولو أنها أدبرتْ عنه مــن ناحيةٍ لرجعت من ناحية أخرى، ليثبتَ الحظُّ أنه الحظ.

وتقدَّم العَظَاء إلى العنْز، فُقلْن لها: أيتُها الفِيلةُ العظيمة، إن قَرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمه فغيَّبه تحت سبْعِ أرَضِين، وأنت أنثاه وسيدتُه، فقد اخترناكِ مَلِكةً علينا ووهبنالك الخربَةَ وما فيها.

قالــت العنزْ: فإنى أتَّهِبُ منكن هذه الهِبَة، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَ؛ غيرَ أن بينكنّ وبينى مــا بين العَظَايَــة والفيل. وما بين الحصاةِ والجبل، فإذا أنا قلــتُ، فأنا قلت وإذا أنا أمــرتُ فأنا أمَــرْت؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنا فعلت. هنا فى هذه الأمية كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرُها، لأن ههنا فى هذا الرأس دماغَ فِيلة، وفى هذا الجســم قوةّ فِيلة، وفى الخربَة كلِّها فيلةٌ واحدة، فلا أعْرِفَنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير. ألا وإن أوّلَ الحقائق أننى فيلةٌ وأنكنَّ عَظَاء؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا ســقَطَ الخِلافُ من بيننا وبَطلَ الاعتراضُ منكن، وقوَّتى حقٌّ لأنها قوّة، وباطلى كذلك حقٌّ لأنه من قوّتى؛ وقد قال أســلافُنا حكماء الفِيَلَة: إن القوىّ بين الضعفاء مَشــيئةٌ مُطْلَقة فهو، مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بالحماقة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجَهالة، نَبيٌّ بالشَعوذَة...!

قالــوا: وتُنكِــرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عاملةٌ كانــت ذاتَ رأيٍ ودينٍ فى قومها، وكنّ يُســمِّينَها: (العِمامَــة)، لبياضِها وصلاحِهــا وطهارتِها، فقالــت: ولا كلُّ هذا أيتُها الفيلــة؛ لقد تَخرَّصْتِ غيرَ الحق؛ فإنك تحكميننا من أجْلنا لا من أجلك، وما قولُك إلا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن؛ فَلَكِ الطاعةُ فيما يُصْلِحنا وما كان من غيره فهو رَدٌّ عليك، ورأيُكِ شــىء ينبغى أن تكونَ معه آراؤنا لتتبيَّن الأســبابُ أسبابُ الموافَقةِ والمخالفَة،

فنأخــذَ عن بيِّنَة ونتركَ عــن بيِّنة؛ وقد كان يقال فى قديم الحكمة: إنه يجب على مَن يقدِّم رأيًا للأمَّةِ الحازمِة كى تأخذَ به، أو يضعُ لها شــرعًا ليحْمِلَها عليه، أو يَســُّن لها ســنَّةً لتَتَّبعهَا - إنه يجب على هذا المتقدّم لتحويــل الأمَّة أو تحريرها أن يتقدَّم لأهل الشُّــورَى وفى رأســه الرأىُ وفى، عنقه حَبْل، ثم يتكلَّم برأيه ويَبْسُــطُه ويدْفعُ عنه، ويجادلُهــم ويجادلونه؛ فإن كان الرأىُ حقًّا أخذوا الرأى، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر.

وفــى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصية أخرى؛ ولقــد كان لنا عَضْر فُوطٌ بحَّاثَةٌ فــى الأديان دَرَّاسَــةٌ لكتُبها عَلاَمَةٌ نِقَــابٌ؛ فكان مما علَّمنــا: أن المخلوقَ مبنىٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء فيجب إلاّ يتمَّ منه شىءُ إلا بمقدار، وألا تكونَ القوةُ فيه إلا بمقــدار، ولهذا كان العقلُ التامُّ فى الأرض هو مجموع العقولِ العظيمة كلِّها وكان أتم الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُــها أنه أصحُّها وأتمها فلا الدينَ اتَّبعْت أيتها الفيلةُ، ولا اتبعت فينا العقل، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب.

فلمــا سمعــت العنْزُ ذلك تنقَّشــتْ وغضبتْ، وقالــت: إياكم وهــذه الترَّهاتِ من ألســنتكم، وهذه الأباطيلَ فى عقولكــم؛ لا أسْمَعَنّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العَضَافيط... فذلك وحىٌّ غيرُ وحيى أنا؛ وإذا كان غيرَ وحيْى أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يَصلُح للحكم الذى شَرْطُه أن الدولةَ ليس فيها إلا أنا واحدة. وذلــك إن لم يجعلكــم غُرَبَاءَ عنى جعلنى غريبةً عنكم، ما بُــدٌّ من إحدى الغُرْبتين، فهو أوّلُ القَطيعة. والقطيعةُ أوّلُ الفســاد، وما دام فــى الدين أمرٌ غيرُ أمرى، ونَهْىٌ غــيرُ نَهْيى، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشــيئتى - فأنــا مجنونةٌ إن رضيتُ لكم هذا...!

فضَحكَــت (العِمامة) وقالت للماعزة: بل قــولى: أنا مجنونةٌ بـ (أنا)؛ أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ أنَ يَعْتَرِىَ عقلَكِ شىءُ مما يعترى العقول؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة، حَســَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة، متجاوِزةُ المقدار فى ناحية الحزْم

والحرص على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادةَ المسْرفةَ فى جهة من العقـل، تأتى من النقص المتحيِّف لجهة أخرى؛ وإنــه رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عَبْقرَيًّا فى أمور، لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها؛ يُحسِــن فى تلك ما لا يُحسِنُه أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد، ثم يَغلَطُ فى الأخرى ما لا يغلَط أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشَتْ العنزُ وفارَتْ من الغضب فَوْرَةَ الجبَّار، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والســماء، وأن زَنَمتَها أمتدَّ منها خُرطومٌ طويل، وأن قرْنيها انْبَعَج منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويْحَكم! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها؛ فإنها كما قالت؛ تقدّمتْ إلينا بالرأى والحبل...!

وكان فــى العَظَــاء ضعافٌ ومَهازيلُ وجُبنــاءُ ومأكولون لكلّ آكل، فتَشَــبَّحَ[1] لهم أن أنثــى الفيل هذه... سَــتَخْلُقُهمُ فِيَلَةً إن هم أطاعوها، فإذا مَــرَدُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كلَّ ظِلفٍ من أظلافها جبلاً فوقَهم كأنه ظُلَّةٌ فتَسُــوخُ بهم الأرض. ثم إنهم انْخزَلوا وترَاجَعوا وأُخذَتِ (العمامةُ) الصالحةُ فشُنقَتْ، خَمدَ الرأىُ من بعدهــا وانقطع الخلاف والدّينُ والعقلُ الحرّ... وأقبلــت دولةُ العَظَاء على العنز تُجرّرُ أذيالها.

قالوا: واغنزَّت الماعزةُ وأحسَّــت لها وجودا لم يكن، وعرفتْ لنفســها وهى ماعزةٌ نَبَاهَةَ الفيل القوىّ، فَلَجَّتْ فى عَمَايتها وكفَرتْ بجنسها وقالت: لم يخلقنى الله فِيلَةً وخلقْتُ نفسى؛ فانا لا هو...

وثبتَ عندها أنها ليســت بعنْزٍ وإن أشــبهتْها كلُّ عنزٍ فــى الدنيا؛ وذهبتْ تقلد وتعيــشُ على مذاهب الفِيَلَةَ بين العَظَاء؛ فإذا مشــت ارتجَّــتْ وتخطَّرَتْ كأنها بِناء يتقلقل، وإذا اضطجعتْ أنذرت الأرضَ أن تَتمسَّك لاتَدُكَّها بجنبها...!

ومــرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةَ أخرى، فلاذَتْ العَظَاءُ كلُّهنّ بفيلة... وتأهَّبتْ هذه للقتال، وتحصَّفَتْ فى المبارَزة والمناجَزة... (والمعانَزَة) فنَصَبَتْ قرنيها، وحرّكتْ

(١) أى خيل إليهم وتمثل.

زنَمتَها، وطأطأتْ، وشـدَّتْ أظلافَها فى الأرض، وثبَّتتْ قوائمَها، وصلَّبَتْ عظامهَا، ونفشتْ شعرَها، وتَشوَّكَتْ كالقُنفذ، وأصرَّت بكل ذلك إصرارها، وكانت عنزا نَطِيحةً منذ كانت تَتْبَعُ أمها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفيَلَتْ..؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هذا الهولَ الهائل.. فأقبَلَ فمدَّ خرطومَه، فنالَها به، فلفَّها فيه، فقبَضَه، فرفَعه، فطوَّحَها، فكأنها ذهبت فى السماء...!

وتهَارَبـت العَظَاء ولُذْنَ بأجْحارهن، ثم غدَوْنَ على رزقهن، فإذا جِيفةُ العنز غيرَ بعيد، فَدَبَبْن عليها وارتَعَيْن فيها، وعَلمن أنها كانت ماعِزَةً فَيَّلَها جنونُها، وأدركن أن الكذبّ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتلُه، وأن من غَلَبَ أمةَّ العَظَاء على أمرها فليسـت الأيـامُ والليالى عَظاء فيغلبَها وأن تتغـيرَ المخلوقات، إنما يكونُ بتحويـل باطنها لا بتحويل ظاهرها، وأن الإناءَ الأحمر يُريك الماءَ محمرًّا، والماءُ فى نفسه لا حُمرةَ فيه حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو فى نفسه؛ وكلُّ ما يُخفى الحقَّ هـو كهذا الإناء: لون على الحـقّ لا فيه؛ ثم أيقَنَّ أن محاولةَ إخـراج أمةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ هى كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة...!

* * *

قـال كليلة: واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزَ الحمقاء قد كفَرتْ كُفْرَ الذبابة، لما أخَذَها اللهُ أخْذَ الذبابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حَمْقى الذِّبَّان قُدرتَ الحماقةُ عليها أبدِيَّة، فلو انقلبتْ نقطةَ حبرٍ فى دَواة لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف.

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيَّةٍ ضخْمة، فجعلتْ تقابُل بين نفسها وبين المرأة وقالت: إن هذا لمن أدلّ الدليل على أن العالم فوضى لانظام فيه وأنه مُرسَـل كيف يتفـق على ما يتَّفـق، عَبَثًا فى عبث، ولا ريبَ أن الأنبياء قـد كذَبوا الناس، إذ كيف يستوى فى الحكمة خَلْقى (أنا) وخلْقُ هذه الذبابة الضخمةِ التى أنا فوقَها...؟

ثم نظرت ليلةً فى السماء، فأبصرت نجومَها يتلألأنَ وبينها القمر؛ فقالت: وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فَوضى العالم، وكذبِ الأديان وعَبثِ المصادَفات، فما الإيمانُ بعْينه، إلا الإلحادُ بعينه، ووَضْع العقلِ فى شىء هو إيجاد الألوهية فيه، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) فى الأرض ورفعُ الذِّبانِ الأبيض ويَعْسُوبِ الكبير[1] إلى السماء...؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلّاح، فجعلت تمورُ فيها ذهابًا وجيئةً، حتى رجعت بقرةُ الفلّاح من مَرعاها، فُبهتت الذبابةُ وجمدَت على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره، كأنها تُزاولُ عملاً، فلما أمْست قالت: وهذا دليلُ أكبرُ الدليل على فَوضى الأرزاق فى الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثَقبتَا ثُقْبين فى وجه هذه البقر.. واكْتنَّتا فيهما تأكلان من شَحمِها فَتعْظُمان سِمَنا، والناسُ من جهلهم بالعم الذُّبابىّ يسمونهما عينين... وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَع لأثقُبَ لى ثقبًا مثْلَهما فما انتزعتُ شعرة، فهل يستوى فى الحكمة رزقى (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة...؟

ثم إنها رأت خُنْفُسَاء تَدِب دبيبَها فى الأرواث والأقذار، فنظرت إليها وقالت: هذه لا تَصْلُح دليلاً على الكفر؛ فإنى (أنا) خيرٌ منها (أنا) لى أجنحة وليس لها، (وأنا) خفيفةٌ وهى ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى، ذلك الذى كان بليدًا لا يتحرّكُ فلم تجعل له الحركةُ جَناحًا[2]. ثم إنها أصْغَتْ فسمعتْ الخنفساء تقولُ لأخرى وهى تحاورها: إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهى؛ فليكْفُرْ كما يشتهى ياوَيحنا! لِمَ لمْ نكن جاموسًا كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفُخُه ولم نجد...؟

فقالت الذبابة: إن هذا دليلُ العقلِ فى هذه العاقلة، ولَعمرى إنها لا تمشى مثَّاقِلةً من أنها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزها، ولكن من أنها وَقُورٌ مثقَلَةٌ بأفكارها، وهى الدليلُ على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة...!

---

(١) اليعسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض.....
(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا.

وجَعلت الذبابةُ لا يُسْـمعُ من دَنْدَنتِها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا.... من كُفْرٍ إلى كفر غيره إلى كفرٍ غيرِهما؛ حتى كأن السماواتِ كلَّها أصبحتْ فى معركة مع ذبابةٍ...

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سَعْيَها، فبينا الذبابةُ على وجه حائط، وقـد أكلت بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبْتها نفسُـها، فوقفـت تحكُّ ذراعَها بذراعها – دَنتْ بَطةٌ صغيرة قد انفلقتْ عنها البَيضةُ أمسُ فمدَّتْ منِقارها فالتقطتها.

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت: آمنتُ أنه لا إله إلا الذى خَلَق البطة...!

■■■

يا شباب العرب! *

يقولون: إن فى شباب العرب شيخوخَة الهِمَم والعزائم؛ فالشبانُ يمتدّون فى حياة الأمم وهم ينكمشون.

وإن اللهــوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِد، فأهملوا الممكناتِ فرجعتْ لهم كالمستحيلات.

وإن الهــزلَ قد هــوَّن عليهم كلَّ صَعْبَةٍ فاختصروها؛ فإذا هــزءُوا بالعدوّ فى كلمة فكأنما هَزمُوه فى معركة...

وإن الشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا ورجولةُ جسمهِ تحتجُّ على طفولةِ أعماله.

ويقولون: إن الأمرَ العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبدا تَبِعةَ أمر عظيم.

* * *

ويزعمون أن هذا الشــبابَ قد تمَّت الأُلفةُ بينه وبــين أغلاطِه، فحياتُه حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأنه أبرعُ مقلّد للغرب فى الرذائل خاصة؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصورا فى طعامِه وشرابِه ولذّاتِه.

ويزعمــون أن الزجاجــةَ مــن الخمر تعملُ فى هذا الشــرق المســكينِ عملَ جندىٍّ أجنبى فاتح...

ويتواصَوْن بأن أولَ السياسِة فى استبعادِ أممِ الشرق، أن يُتْرِكَ لهم الاستقلالُ التامُّ فى حرية الرذيلة....

ويقولون: إنه لابد فى الشرق من آلتين للتخريب: قوةِ أوربا، ورذائلِ أوربا.

يا شبابَ العرب! مَن غيرُكم يكذِّبُ ما يقولون ويزعمونْ على هذا الشرقِ المسكين؟

---

* أنشأها فى إبان ثورة فلسطين لحقها سنة ١٩٣٦م.

مَن غيرُ الشباب يضع القوةَ بإزاء هذا الضعفِ الذى وصفوه لتكونَ جوابًا عليه؟

من غيركم يجعل النفوسَ قوانينَ صارمة، تكون المادةُ الأولى فيها: قَدَرْنا لأننا أردنا؟

إلا إن المعركَة بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسية، إن لم يُقْتَلْ فيها الهزلُ قُتل فيها الواجب!

والحقائقُ التى بيتنا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحثُها التحليلى، تكذْبِ أو تَصْدُق.

* * *

الشبابُ هو القوة؛ فالشمس لاتملأُ النهارَ فى آخره كما تملؤه فى أوله. وفى الشباب نوعٌ من الحياة تَظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم.

وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثقةُ بالبقاء، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم.

وفى الشباب تَصْنَعُ كلُّ شجرة من أشجار الحياة أثمارَها؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجارُ كلّها إلا خَشَبا...

يا شبابَ العرب! اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرقُ عزيزا، وإما أن تموتوا.

* * *

أنقِذوا فضائلنَا من رذائلِ هذه المدينة الأوربية، تُنقِذوا استقلالَنا بعد ذلك، وتنقذوه بذلك.

إن هذا الشرقَ حين يدعو إليه الغرب ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [سورة الحج: الآية ١٣].

لَبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينِه، ولبئس العشيرُ إذا جاء برذائله وأطماعه.

أيها الشرقى! إن الدينارَ الأجنبىّ فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

أيها الشـرقى! لا يقولُ لك الأجنبىُّ إلا ما قال الشـيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٢].

* * *

يا شـبابَ العرب! لم يكن العسـيرُ يَعْسُـرُ على أسـلافكم الأولين، كأن فى يدهم مفاتيحَ من العناصر يفتحون بها.

أتريدون معرفةَ السـر؟ السـرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعفِ المخلوق، فصاروا عملاً من أعمال الخالق.

غَلَبوا على الدنيا لما غلَبوا فى أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضى.

وعلَّمهـم الديـنُ كيف يعيشـون باللذات السـماوية التـى وَضعتْ فـى كل قلبٍ عظمتَه وكبرياءَه.

واخترعهم الإيمانُ اختراعا نفسيًّا، علامتُه المسجلةُ على كل منهم هذه الكلمة: لايَذلّ.

* * *

حـين يكونُ الفقرُ قلـةَ المال، يفتقـر أكثرُ النـاس، وتنخذلُ القوةُ الإنسـانية، وتَهلِكُ المواهب.

ولكن حين يكونُ فقرَ العمل الطيب، يستطيع كل إنسان أن يغتنى، وتنبعثُ القوةُ وتعملُ كل موهبة.

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ وآلامها، تفسِّرُ كلمةَ الخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ الخوفِ.

ولكـن حـين يكونُ مـن نقص الحيـاة الآخـرة وعذابهـا، تُصبح الكلمـةُ قانونَ الفضائل أجمع.

هكذا اخترعَ الدين إنسانَه الكبيرَ النفسِ الذى لا يقال فيه: انهزمتْ نفسهُ.

* * *

ياشبابَ العرب! كانت حكمةُ العربِ التى يعملون عليها: اطلُب الموتَ تُوهَبُ لك الحياة...

والنفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانت غريزةُ الكفاحِ أولَ غرائزها تَعْمل.

وللكفاح غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصرا، إذ لا تكونُ الفكرةُ معها إلا فكرةً مُقاتِلة.

غريزة الكفاح يا شباب، هى التى جعلت الأسدَ لا يُسَمَّنُ كما تسمَّن الشاةُ للذبح.

وإذا انكسرتْ يومًا فالحجَرُ الصَّلْدُ إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعة كانت دليلاً يكشِفْ للعين أن جميعه حجرٌ صَلد.

* * *

يا شبابَ العرب! إن كلمةَ (حقّ) لا تحيا فى السياسة إلا إذا وضع قائلُها حياتَه فيها.

فالقوةَ القوةَ يا شباب! القوةُ التى تقتل أولّ ما تقتل فكرةَ الترَفِ والتخنُّث.

والقوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التى تضع للأنصار فى كلمة (نعم) معنى نعم.

والقوةُ الصارمةُ النفَّاذةُ التى تضع للأعداء فى كلمة (لا) معنى لا.

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزا، وإما أن تموتوا.

■■■

لَوْ....!

رأيتُنى جالسًا فى مسرحِ هزلىّ بمدينة اسكندرية، كما يجلسُ القاضى فى جريمةٍ يحملُ أهلُها بين يديه آثامَهم وأعمالَهم، ويحملُ هو عقلَه وحُكمَه.

وقــد ذهبتُ لأرى كيف يتَســاخَف أهلُ هذه الصناعة، فكان حكْمى أن الســخافَة عندنا سخيفةٌ جدًّا...

رأيتهم هناك ينقْدون العيوبَ بما يُنشئ عيوبًا جديدة، ويَسْبحَون بأيديهم سباحةً ماهــرةً، ولكن على الأرض لا فى البحر، وتــكاد نظرتُهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمــى ظاهــرا عما هى به حقيقــةٌ هزلية، ولا غايةَ لهم من هــذا التمثيل إلا الرَّقاعةُ والإســفافُ والخلطُ والهذَيــان، إذ كان هذا هو الأشبَه بجمهورهم الذى يَحضُرهم، وكان هــو الأقربَ إلى تلــك الطباع العامية البليدةِ التى اعتــادت من تكلُّف الهزِل ما جعلها هى فى ذات نفسها هزلا يُسْخرَ منه.

ولا أســخفَ من تكلــف النكتة الباردةِ قــد خَلتْ من المعنــى، إلا تكلُّفُ الضحكِ المصنوع يأتى فى عَقبِها كالبرهان على أن فى هذه النكتة معنى.

فالفــنُّ المضحكُ عند هــؤلاء، إنما هو الســخفُ الذى يوافقون به الــروح العاميةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها، التى يبلغ من بلاهتها أحيانًا أن تضحكَ للنكتة قبل إلقائها، لفَرْطِ خفتها ورُعونتها، وطولِ ما تكلفتْ واعتادت. فما ذلك الفنُّ إلا ما ترى من التخليط فى الألفاظ ،والتضريب بين المعانى، وإيقاع الغلطِ فى المعقولات، ثمُ لا ثمُ بعــد هذا. فلا دقةَ فى التأليف، ولا عمقَ فى الفكرة ولا سياســةَ فى جمع النقائض، ولا نَفَاذَ فى أســرار النفس، ولا جدَ يؤخذ من هزلية الحياة، ولا عظَمةَ تُستخرجُ من صغائرها، ولا فلسفَةَ تُعرف من حماقاتها.

والفـرق بعيد بين ضحك هو صناعةُ ذهنٍ لتحريك النفس، وشَـحْذِ الطبع، وتصوير الحقيقة صورةً أخرى، وبين ضحكٍ هو صناعة البلاهة للهو والعبث، والمَجانةِ لا غير.

* * *

وكان معـى قريب مـن أذكياء الطلبة المتخصصين لـلآداب الإنجليزية، فلم نلبثْ إلا يسيرا حتى جاء ثلاثةٌ من ضباط الأسطول الإنجليزى، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهـم مَخَايِلُ الظَفر، ولهـم وَقَارُ البُطولة، وفيهم أرواحُ الحـرب؛ وهم يبدون فى ثيابهـم البيض المطَرَّاة[1] كأنهم ثلاثةُ نُسـور هبطتْ من الغمـام إلى الأرض فلأعينِها نظراتٌ تدور هنا وهناك تُنكِر وتعرف.

وأعجبنـى أن أراهم فى هذا المكان الهزلىّ المتلـئ بالضعفاء، كأنهم ثلاثُ حقائقَ بـين الأغلاط، أو ثلاثُ أغلاط كبيرة... وكان أبدعَ ما أراه على هيئة وجوههم وأُسَـرِّ له، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربىّ وتحوُّلُه إلى استعدادِ للسخرية...

ثم تأملتُهم طويلًا؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ، وسَكينةٌ ووَداعة، وحُسْنُ سَمْتٍ وحلاوةُ هيئة فى جِلْسةٍ رزينة متوقِّرة، لا يُشبهها فى حسِّ النفس التى تَعرفُ معانىَ القوة إلا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة.

وجعلـتُ أقلّب عينىَّ فى الناس الموجودين ومَلامحهم وهيئاتهم، ثم أرجعُ البصرَ إلى هـؤلاء الثلاثــة، فأرى المصـرىَّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينــةٍ أو قرية لا يعرفُ لنفســه مكانًا فى غيرهما، فهو من ثَم لا يَرحل ولا يُغامرُ، ولا تتقاذَفُهُ الدنيا، وأرى الإنجليزىَّ كالمقتنع بأن كلَّ مكانٍ فى العالم ينتظر الإنجليز.

وخيِّلَ إلىَّ ولله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدِّين بأنفسهم لا يُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسُهُ واستقلالُه، وتاريخهُ وروحُ دولته، وطبيعةُ أرضه، فهو مستيقِنٌ أن الله لا يرزقه رزقًا أىَّ الرزقِ كان على ما يتفق بل رزقًا إنجليزيًّا: أى فيه، كفايتُه.

(١) أى المكوية؛ والكلمة العربية التى اسـتعملت قديمًا فى معنى (المكوجى) هى: المطرى (بتشديد الراء).

ورأيت شيئًا عجيبًا من الفرق بين طابعَ السِّلم على وجوه، وبين طابعَ الحرب على وجوهٍ أخرى؛ ففى تلك معانى السهولة والملايَنة والحرصِ على مادة الحياة، وفى هذه معانى العزم والمقاومةِ والحرصِ على مجد الحياة على مادتها.

وتبيَّنت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما فى فرد قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أن أُمَّةً تحملُه، فهو يعيش بأضعف ما فيه: والآخر فى فرد قد وضَعَ الأمرَ عَلَى أنه هو يحمل أمةً فلا يدعُ فى نفسه قوةً إلا ضاعَفَها.

وعرفتُ وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة، والتهويل، والصُّراخ، واستعارةِ ألفاظ غيرِ الواقع للواقع، وتحميلِ الألفاظِ غير ما تحمل، والآخر بالهدوء الذى يَقْهَرُ الحوادث، والصبر الذى يغلب الزمن، والعقيدة التى تفرض أعمالَها العظيمةَ على صاحبها وتجعلُ أعظمَ أجرِه عليها أن يقومَ بها.

وميَّزتُ بين أثَرين من آثار الأرض فى أهلها: أحدهما فى المصرى السَّمحِ الوداعِ الألوفِ الحيىّ الذى هو كَرَمُ الطبيعة، والآخر فى الإنجليزىّ العَسِر المغامِر النَّفورِ الملحِّ على الدنيا كأنه تطفّلُ الطبيعة....

* * *

وألقى ابنُ العم الذى كان معى سمعَه إلى هؤلاء الضباط، وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثم، ثم نقل إلىَّ عنهم، فقال كبيرُهم: لقد فرغتُ من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خُمول الشرقيين، وأفضيتُ منه إلى حقائقَ عجيبة، أظهرُها وأخفاها معًا أن أمةً من هذه الأمم لا يُمَكنّ للأجنبى فيها، ولا تثقُلُ وَطْأتُه عليهم، ولا يَطول ثَواؤُه فى أرضهم، ولا يحتلّها من يطمع فيها، ما لم يكن سادتُها وأمراؤُها وكبراؤها كأنهم فيها دولةٌ محتلة.

وهؤلاء الكبراءُ هو آفةُ الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيدَ فى تعظيمهم، وأن نَمدَّ لهم فى المال والجاه، ونَبْسُطَ لهم اليمينَ والشمال، ونُوهِمَهم أن عظَمتَهم هكذا وُلدتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم...

وخاصــةً عظمــاءَ رجال الأديــان المفتونين بالدنيــا؛ فإننا نصنعُ بغُــرور الجميع وســخافاتهم وحرصِهــم وطمعِهم أشــياءَ اجتماعيــةً ذاتَ خطرٍ لا يصنــع لنا مثلَها إلا الشياطين، ومن لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندى) ذلك المهزولُ الهندى الذى تُقوَّم دنياه بأربعة شــلنات، ولا يزنُ أكثــرَ من بضعة أرطال من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوةَ فيه، وهو مع ذلك جبَّار سماوى فى يده البرقُ والرعدُ يُرى ويُسمَع فى أرجاء الدنيا.

قال ضباط اليمين: وبصناعة الكبرياء هذه الصناعةَ يكونُ رجلُ الشــعب من هؤلاء الشــرقيين رجل تقليدٍ بالطبيعة، ورجلَ ذل بالحالة، ورجلَ خضوع بالجملة، فليس فى نفســه أنه ســيدُ نفسه ولا ســيدُ غيره، بل أكبرُ معانيه أن غيرَه سيّدٌ فيكون معه دائمًا خيالُ استعباده.

وتكلم ضابط اليســار: ولكــن المترجم لم يميز أقواله، لأن ثلاث عشــرةَ امرأة كنَّ يصرخْنَ فى الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن فى أوله: «عاوزين رجَّالة تدلَّعْنا....» وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتُولولِ كأنها هى أيضًا امرأة محرومة....

* * *

ثم أرهفَ المترجم أذنَه فقال كبيرهم: إن لهؤلاء الشــرقيين ستَّ حواس: الخمسُ المعروفةُ، وحاسةُ الخمول الذى خدعتهم عنه الطبيعةُ البليدةُ فسمَّوه الترفَ والهزلَ واللهو؛ والأمةُ الأوربية التى تحتلّ بلادا شرقية تجدُ فيها لصغائر الحياة جيشًا أقوى من جيشــها؛ فعشــرة آلاف جندى بعَتَادهم وآلاتهم، لا يصنعون شيئًا إلا الاستفزازَ والتحدّى وإثباتَ أنهم غاصبون؛ ولكن ما أنت قائلٌ فى عشرة آلاف مكانٍ كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواياته، وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرُّقعَاء الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمة...؟

قال ضابط اليمين: نعم إن فنَّ الاحتلال فنٌّ عســكرىّ فى الأول، ولكنه فنٌّ أخلاقيٌ فــى الآخر؛ ولهذا يجــب تعيينُ نقطة اتجاه للشــباب تكون مضيئــةً لامعةً جذابةً مغريــةً، ولكنها فــى ذات الوقت مُحرقــة أيضا، وهذه هى صناعةُ إهلاك الشــباب

بالضوء الجميل، وما على السياسى الحاذق فى الشرق إلا أن يحمى الرذيلة، فإن الرذيلةَ ستعرفُ له صنيعَه وتَحميه...

فتكلم ضابطُ اليسار ولكن صوته ذهب فى عشرين صوتًا من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعًا: «يا حِلوة يا خفَّافى، يا مجنِّنه الشبان...»

* * *

ولما ألمتُ بحوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبى: استأذِنْ لى عليهم أكلمهم. ففعل وعرَّفنى إليهم وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها. فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول.

ثم قلت لكبيرهم: لست أنكر أن الإنجليزى لو دخلَ جهنمَ لدخلها إنجليزيا... ولا أجَحد أن له فى الحياة مثلَ هداية الحيوان، لأنه رجلٌ عمليٌ: دليلُ منفعته أنها منفعتُه وحَسْبُ، ثم لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقبل إلا هذا فإذا قال الشرقى: حقى، وقال الإنجليزى: منفعتى، بطَلَت الأدلةُ كلُّها، ورأى لشرقى أنه مع الإنجليزى كالذى يحاول أن يُقنع الذئبَ بقانون الفضيلة والرحمة.

وقد عرفنا أن فى السياسة عجائب، منها ما يُشْبِه أن يَلقَى إنسانٌ إنسانًا فيقولَ له: يا سيدى العزيز، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفعة...

وفى السياسة مواعيدُ عجيبة، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين، والتوكيدَ لهم بالإيمان أنها ستُثمر رُغْفانًا مخبوزة... ثم بعد ذلك تُطَعَّم فتثمرُ الرغفانَ المخبوزةَ حَشْوُها اللحمُ والإدام.

وفى السياسة محاربةُ المساجد بالمراقص، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات، ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربةُ فنون القوة بفنون اللذة ولكن لو فهم الشبابُ أن أماكنَ اللهو فى كل معانيها ليست إلا غَدرا بالوطن فى كل معانيه!

ولو عرف الشبابُ أن محاربةَ اللهو هى أولُ المعركة السياسية الفاصلة!

ولو أدرك الشباب أن أولَ حق الوطن عليه أن يحمل فى نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه!

ولـــو رجع الدينُ الإســلامى كمــا هو فى طبيعتـــه آلةً حربية تصنع من الشــباب رجال القوة!

ولو علم الشبابُ أن روحَ هذا الدين ليست: اعتَقِدْ ولا تعتقدَ ولكن أفعلْ ولا تفعل!

ولو أيقن الشــبابُ أن فرائض هذا الدين ليســت إلا وســائلَ عمليةً لامتلاء النفس بمعانى التقديس!

ولو فهم الشــبابُ أنْ ليس فى الكون إلا هذه المعانى تجعلُ النفسَ فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه!

ولو بحث الشــبابُ النفسَ الإنجليزية القويةَ ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ مسلمةٍ فكيف بها لو كانت مسلمة؟...

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامى، فما بلغتْ إلى حيث بلغتُ، حتى شدّ الضابط على يدى وهزّها؛ فنظرت، فإذا أنا قد كنتُ نائما بعد سهرة طويلة فى ذلك المسرح، وإذا يدُ المترجم نفسِه هى التى تهزنى لأنتبه...

■■■

في محنة فلسطين

أيها المسلمون!

نهضتْ فِلَسْطِين تَحِلُّ العقدةَ التى عُقِدَتْ لها بين السيف. والمكر، والذهب.

عقدةٌ سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقر. عقدةُ الحكم الذى يحكم بثلاثة أساليب: الوعدِ الكذب، والفَناء البطىء، ومطامع اليهود المتوحشة.

أيها المسلمون! ليست هذه محنةَ فلسطين، ولكنها محنةُ الإسلام، يريدون ألاّ يُثبتَ شخصيتَه العزيزةَ الحرة.

كلُّ قرش يُدفع الآن لفلسطين، يذهبُ إلى هناك ليجاهدَ هو أيضًا.

***

أولئك إخوانُنا المجاهدون، ومعنى ذلك أن أخلاقَنا هى حُلَفاؤهم فى هذا الجهاد.

أولئك إخوانُنا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم فى نكبتهم امتحانٌ لضمائرِنا نحن المسلمين جيمعًا.

أولئك إخوانُنا المضطَهَدون؛ ومعنى ذلك أن السياسةَ التى أذلَّتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرارٌ للذل؟

ماذا تكون نكبةُ الأخِ إلا أن تكونَ اسمًا آخرَ لمروءة سائر إخوته أو مَذَلَّتهِم؟

أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين، يذهب إلى هناك ليفرضَ على السياسة احترامَ الشعور الإسلامى..

***

ابتَلَوْهُم باليهود يحملون فى دمائهم حقيقتين ثابتتين: من ذلّ الماضى وتشريد الحاضر.

ويحملون فى قلوبهم نِقْمتين طاغيتين: إحداهما من ذهَبهِم، والأخرى من رذائلهم.

ويَخبئــون فى أدمغتهم فكريتن خبيثتين: أن يكــونَ العربُ أقليَّة، ثم أن يكونوا بعد ذلك خَدَمَ اليهود.

فى أنفسهم الحِقْد، وفى خيالهم الجنون، وفى عقولهم المكر، وفى أيديهم الذهبُ الذى أصبح لئيمًا لأنه فى أيديهم.

أيها المســلمون! كل قرش يدفع لفلســطين، يذهب إلى هناك ليتكلمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاء العقل.

* * *

ابتَلَوْهُم باليهود يَمرُّون مرورَ الدنانير بالربا الفاحِشِ فى أيدى الفقراء.

كل مائة يهودى على مذهب القوم يجب أن يتكون فى سنة واحدةٍ مائةً وسبعين...

حسابٌ خبيث يبدأ بشىءٍ من العقل، ولا ينتهى أبدا وفيه شىءُ من العقل.

والسياســةُ وراء اليهود، واليهودُ وراء خَيالهم الدينى، وخيالُهم الدينىُّ هو طردُ الحقيقة المسلمة.

أيها المســلمون! كل قرش يدفع لفلســطين يذهب إلى هناك ليثبِّــتَ الحقيقةَ التى يريدون طردَها.

* * *

يقول اليهود: إنهم شعبٌ مضطهَد فى جميع بلاد العالم.

ويزعمون: أن من حقهم أن يعيشــوا أحرارا فى فلســطين، كأنها ليست من جميع بلاد العالم...

وقد صنعوا للإنجليز أسطولا عظيما لا يسبح فى البحار، ولكن فى الخزائن...

وأراد الإنجليز أن يَطمئنُّوا فى فلسطين إلى شعب لم يتعودْ قط أن يقول: أنا.

ولكن لماذا كَنَستكم كلُّ أمةٍ من أرضها بمكنَسة أَيها اليهود؟

* * *

أجَهِلتم الإسلام؟ الإسلامُ قوة كتلك التى تُوجِدُ الأنيابَ والمخالبَ فى كل أسد؟

قوةٌ تُخرج سلاحها بنفسها، لأن مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجد لُيؤكل، ولم يُخلق ليَذلّ.

قـوةٌ تجعـل الصوتَ نفسـهَ حـين يُزَمْجِر، كأنـه يُعلن الأسـديةَ العزيـزةَ إلى الجهات الأربع.

وقوةٌ وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان، تتحولُ فيه كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم.

ولئـن كانت الحوافرُ تهيّـئ مخلوقاتها ليركبَها الراكـب، إن المخالبَ والأنيابَ تهيّئ مخلوقاتِها لمعنى آخر.

* * *

ولو سُـئلتُ ما الإسلامُ فى معناه الاجتماعى؟ لسَألتُ: كم عددُ المسلمين؟ فإن قيل: ثلثمائة مليون قلتُ: فالإسلامُ هو الفكرة التى يجب أن يكونَ لها ثلثمائة مليون قوة.

أيجوعُ إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يعاقِبُ الله عليه.

والغِنـىَ اليومَ فى الأغنياء المُمْسِـكين عـن إخوانهم، هو وصـفُ الأغنياء باللؤم لا بالغنى.

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة أقلّها سياسةُ المقاومة.

* * *

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم....

كانوا يرمون بأنفسـهم فى سـبيل الله غيرَ مكْترِثين، فارمُوا أنتم فى سبيل الحق بالدنانير والدراهم.

لماذا كانت القِبْلَةُ فى الإسلام إلا لتعتادَ الوجوه كلُّها أن تتحولَ إلى الجهةِ الواحدة؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إلا ليعتادَ المسلمون رفعَ الصوتِ فى الحق؟

أيها المسلمون! كونوا هناك كونوا هناك مع إخوانكم بمعنىً من المعانى.

* * *

لـو صـام العالم الإسـلامىُّ كلّـه يومًـا واحدًا وبَـذَلَ نفقـاتِ هذا اليـوم الواحد لفلسطين، لأغناها.

لو صام المســلمون كلّهم يومًا واحدًا لإعانة فلســطين، لقال النبيُّ مفاخرا الأنبياء: هذه أمتى!

لو صام المسلمون جميعًا يومًا واحدًا لفلسطين، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله آباؤهم من قبل: إن فيها قومًا جَبَّارين...

أيها المسلمون! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المالِ المبذولِ فيكون شيئًا سماويًّا.

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين، يتكلم يومَ الحساب يقول: ياربّ أنا إيمانُ فلان!

■■■

قصة الأيدى المتوضئة...

قال راوى الخبر: ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة، والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم ليُخـرِجَ كلَّ إنسـانٍ من دنيا ذاتهِ، فلا يفكّر أحدٌ أنه أسمـى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبـك الصانعُ أو الأجـيرُ أو الفقيرُ أو الجاهل، وأنت الرئيـسُ أو العظيمُ أو الغنيُّ أو العـالم، فتنظُر إليه وإلى نفسـك فتحـسُّ كأن خواطرَك متوضّئـةٌ متطهِّرة، وترى كلمة الكبرياءِ قد فقدت روحَها، وكلمةَ التواضع قد وجدت روحَها، وتشـعُر بالنفس المجتمِعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة؛ ولو خطر لك شـىء بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخًا لك، ونظرتَ إليه ساكنًا وهو يتكلم فى قلبك، وشعرتَ بالله من فوقِكما، واستعلَنَتْ لك روحُ المسجدِ كأنها تَهُمُّ بطردك منه، وخُيِّل إليك أن الأرضَ سـتلطم وجهك إذا سـجدتَ عليها، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك فى دنياك وليس صاحُبك فى دنياه، وإنما أنتما هناك فى إنسـانية ميزانُها بيد الله وحده؛ فلا تدرى أيكما الذى يَخفُّ وأيكما الذى يثُقل[1].

قـال: والعجيبُ أن هذا الذى لا يجهلُه أحدٌ من أهـل الدين، يعرفُه بعضُ علماءِ الدين على وجهٍ آخر، فتراه فى المسـجد يمشـى مختالاً، قد تحلَّى بحلْيته، وتكلَّف لزَهْوِه، فلبس الجبةَ تَسَـعُ اثنين، وتَطاوَلَ كأنه المِئذَنة، وتَصَدَّر كأنه القِبْلة، وانتفخ كأنـه ممتلـئ بالفُروق بينـه وبين الناس، وهـو بعد كل هذا لو كشـفَ الله تمويهَهُ لانكشـف عن تاجرِ علم بعضُ شروطِه على الفضيلة أن يأكلَ بها، فلا يجدُ دنيا ذاتهِ إلا فى المسجد، فهو نوعٌ من كَذبِ العالم الدينىِّ على دينه.

***

قال الراوى: وصَعِد الخطيبُ المنبرَ وفى يده سيفُه الخشبىُّ يتوكأ عليه، فما استقر فى الذِّروة حتى خُيل إلىَّ أن الرجلَ قد دخل فى سِر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريض

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة.

تُقيمه عصاه وكالهَرِم يُمسكه ما يتوكأ عليه، ونظرتُ فإذا هو كذِبٌ صريح على الإسلام والمسلمين، كهيئةِ سَيفِه الخشبيِّ فى كذبِها على السيوف ومعدنِها وأعمالِها.

وتـالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الإسلاميِّ فى هذا العصر، أن يخطبَ المسلمين خُطبَةَ جُمعتِهم وفى يده هذا السيفُ علامة الذل والضّعةِ والتراجعُ والانقلاب والإدبارِ والهزل والسخريةِ والفضيحةِ والإضحاك؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بنَجْرِ السيوف من الخشب ونَحْتِها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئًا، ثم وضْعِها فى أيدى العلماء يَعْتَلُون بها ذُؤابَةَ كل منبر، لتتعلقَ بها العيونُ، وتشهدَ فيها الرمزَ والعلامة، وتستوحِيَ منها المعنويةَ الدينيةَ التى يجب أن تتجسَّم لِتُرى؟

أفى سيفٍ من الخشب معنويةٌ غيرُ معنى الهزلِ والسخافةِ، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومسْخِ التاريخ الفاتح المنتصر، والرمزِ لخضوع الكلمة وصبيانيةِ الإرادة؟

قال: وكانَ تمام الهزْءِ بهذا السيف الخشَبىّ الذى صنعته وزارةُ أوقاف المسلمين، أنـه فى طـول صَمْصَامةِ عمرو بن مَعْديكـرب الزُّبيدى فارس الجاهلية والإسلام[1] فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه فى يده لظهر مَقْبِضُه فى صدر الرجل كأنه وِسامٌ من الخشب...

قـال: وكان الخطيب إذا تكلفَ وتصنَّع وظهر منه أنه قد حَمِيَ وثار ثائرُه، ارتجَّ وغَفَلَ عن يده، فتضطربُ فيها قبضةُ السيف فَتلكِزه فى صدره كأنما تذكِّره أن فى يده خشبةً لا تَصلُح لهذه الحماسة......![2]

* * *

قال: وخطب العالمُ على الناس، وكان سيفُه الخشبىّ يخطبُ خُطبةً أخرى: فأما الأولى فهى محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهى حتى ينتهىَ أثرُها، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانت فى عهدها الأول كالدرسِ لإقامة شأنٍ من شئون الاجتماعِ والسياسة،

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر.

(٢) القاعدة الشرعية: أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف. ولما ضعف المسلمون أنف السيف منهم وأطاعهم الخشب....!

فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقتِه الأولى. وأما الخطبة الثانية فقد عقلُتها أنا عن تلك الخشبة، وكتبتها، وهذه هى عبارتها.

ويْحكم أيها المسلمون! لو كنتُ بقيةً من خشب سفينةِ نوح التى أنقذ فيها الجنسَ البشرىَّ، لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا، تكاد شرارةٌ تذهب بى وبكم معًا، لأن فىَّ وفيكم المادةَ الخشبيةَ والمادة المتخشِّبة.

ويْحكم! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىِّ المضطرم، لما بقيت الخشبةُ فى يده خشبة. وكيف يمتلئ الرجلُ إيمانًا بإيمانه، وكيف يصعدُ المنبرَ ليقول كلمَةَ الدين من الحق الغالب، وكلمَةَ الحياةِ من الحق الواجب – وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيفُ روحَه فى يده؟

أيها المسلمون! لن تُفلحوا وهذا خطيبكم المتكلمُ فيكم، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافعُ عنكم أيها المسلمون، غَيِّروه وغَيِّرونى.

* * *

قال راوى الخبر: ولما قُضِيتْ الصلاة ماج الناسُ إذا انبعث فيهم جماعةٌ من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم؛ ثم قام أحدُهم فخطب، فذكر فلسطين وما نزل بها، وتغيُّرَ أحوالِ أهلها، ونكبتَهم وجهادَهم واختلالَ أمرِهم، ثم استنجد واستعان، ودعا المُوسِرَ والمُخِفَّ إلى البذل والتبرع وإقراضِ الله تعالى؛ وتقدم أصحابُهُ بصناديقَ مختومة، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليلَ والأقلَّ من دراهمَ هى فى هذه الحال دراهمُ أصحابها وضمائرُهم.

قال: وكان إلى جانبى رجلٌ قَرَوِىٌّ من هؤلاء الفلاحين الذين تَعرفُ الخيرَ فى وجوههم، والصبرَ فى أجسامهم، والقناعةَ فى نفوسهم، والفضلَ فى سجاياهم، إذا امتزجتْ بهم روحُ الطبيعة الخِصبة فتُخرجُ من أرضهم زُروعًا ومن أنفسهم زروعا

أخــرى – فقــال لرجل كان معه: إن هذا الخطيبَ خطيبَ المســجد قد غشَّــنا وهؤلاء الشبانُ قد فضحوه؛ فما ينبغى أن تكونَ خطبةُ المسلمين إلا فى أخصّ أحوال المسلمين.

قال: ونبَّهنى هذا الرجلُ الساذَجُ إلى معنى دقيقٍ فى حكمة هذه المنابر الإسلامية؛ فمــا يريد الإســلام إلا أن تكونَ كمحطــات الإذاعة، يلتقط كلُّ مِنــبرٍ أخبارَ الجهات الأخرى ويُذيعُها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب، فتكونُ خطبةُ الجمعة هى الكلمةَ الأســبوعيةَ فى سياسة الأسبوع أو مسألةِ الأسبوع، وبهذا لا يجىء الكلامُ علــى المنابــر إلا حيًّا بحياة الوقــت، فيصبحُ الخطيبُ ينتظره النــاسُ فى كل جمعة انتظارَ الشىء الجديد؛ ومن ثَم يستطيع المنبرُ أن يكونَ بينه وبين الحياة عمل.

قال: وخُيِّل إلىَّ بعد هذا المعنى أن كلَّ خطيب فى هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف، لأن السياسة تُكرهه أن يخلعَ إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر، وألا يصعدَ إلا فى إســلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ هــو مع ذلك نصفُ وعظ..... فالخطبةُ فى الحقيقة نصفُ خطبة أو كأنها أثرُ خطبةٍ معها أثرُ سيف....

قال: وأخرجَ القروىُّ كيســهَ فعزَلَ منه دراهم وقال: هذه لطعام أتبلَّغُ به ولأوبتى إلى البلد، ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة؛ واقتديتُ أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعتُ فى صناديقهم كلَّ ما معى؛ ولقد حسبتُ أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يَسبُّنى ما دام معى إلى أن يخرجَ عنى.

***

قــال الراوى: ثم دخلتُ إلى ضريح صاحب المســجد أزوره وأقرأ فيه ما تيســر من القــرآن فإذا هناك رجلٌ من علماء المســلمين، اثنان أو ثلاثة (الشــكُّ فى ثالثهم لأنه حليــقُ اللحية) ثم تَوافَى إليهم آخرون فتمُّوا ســبعة؛ ورأيتُهم قد خلطوا بأنفســهم صاحــبَ (اللالحية)، فعلمت أنه منهم على المذهبِ الشــائع فى بعض العصريين من العلماء والقضاةِ الشرعيين، أحسبُهم يحتجُّون بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [سورة التين: الآية ٤]. وكلُّ امرئ فإنما تُبَصِّره مرآتُه كيف يظهر فى أحسن تقويم أبلحية أم بلا لحية....؟

وأدرتُ عينى فى وجوههم، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أر منها شيئًا فى وجه صاحب (اللالحية) وأنا فما ابصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذى فن عظيم، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشعرىَّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار، من أن لله (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون: والذى زيَّن بنى آدم باللِّحى.

وكان من السبعة رجلٌ ترك لحيتَه عافيةً على طبيعتها؛ فامتدَّتْ وعظُمتْ حتى نَشَرَتْ حولها جوًّا روحانيًا من الهيبة تَشعرُ النفسُ الرقيقةُ بتيَّاره على بُعد، فكان هذا أبلغَ رد على ذاك.

* * *

قال: وأنصتَ الشيوخُ جميعًا إلى خطب الشبان، وكانت أصواتُ هؤلاء جافيةً صُلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركةٍ لا فنُّ خَطابه، وعلى قدر ضعفِ المعنى فى كلامهم قَوِىَ الصوت؛ فهم يصرخون كما يصرخُ المستغيثُ فى صيحاتٍ هاربةٍ بين السماء والأرض.

فقال أحد الشيوخ الفضلاء: لا حول ولا قوة إلا بالله! جاء فى الخَبرَ: «تَعِسَ عبدُ الدينار تَعِسَ عبدُ الدرهم» ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبَّدوا لهذين حرصًا وشُحًّا، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] ولو تعارفتْ أموالُ المسلمين فى الحوادث لما أنكرتْهم الحوادث.

فقال آخر: وفى الحديث: «إن الله يحب إغاثةَ اللَّهْفان» ولكن ما بالُ هؤلاء الشبان لا يُوردون فى خطبهم أحاديثَ مع أنها هى كلماتُ القلوب؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث: «إن الله يحب إغاثة اللهفان» لأسرع العامة إلى ما يحبه الله.

قال الثالث: ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة: «إنها فى أول الزمان يتعلم صغارُها من كبارها فإذا كان آخرُ الزمان تعلّم كبارُهم من صغارهم».

فنحن فى آخر الزمان، وقد سُلِّط الصغارُ على الكبار يريدون أن ينَقُلوهم عن طباعهم إلى صبيانيةٍ جديدة.

قال الراوى: فقلت لصديق معى: قل لهذا الشيخ: ليس معنى الأثر ما فهمت، بل تأويلُه أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمنَ جهاد واقتحام، وعزيمةٍ ومغالبةٍ على استقلال الحياة؛ فلا يصلحُ لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القويُّ الجرىء كما نرى فى أيامنا هذه، فينزلون من الكبار تلكم المنزلةَ؛ إذ تكون الحماسةُ متممةً لقوة العلم وفى الحديث: «أمتى كالمطر: لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه».

* * *

قال الراوى: ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويَهُمُّ بتبليغه، حتى وقعت الصيحة فى المكان؛ فجاء أحدُ الخطباء ووقف يفعلُ ما يفعله الرعد: لا يكرر إلا زمجرةً واحدة؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كلَّ ما قيل. فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعة أو خامسةً؛ وفرغ الشباب من هَديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدبًا متخشِّعًا ووضع الصندوق المختوم فقال أحد الشيوخ: لم يَخفَ علينا مكانُك وقد بذلتم ما استطعتم، فبارك الله فيك وفى أصحابك.

وسكت الشاب، وسكت الشيوخ، وسكت الصندوق أيضًا....

ثم تحركت النفسُ بوحىْ الحالة؛ فمدَّ أولهم يدَه إلى جيبه، ثم دسها فيه، ثم عَيَّث فيه قليلاً[1] ثم..... ثم أخرج الساعةَ ينظر فيها.

وانتقلت العدوى إلى الباقين، فأخرج أحدُهم منديله يتمخَّط فيه، وظهرت فى يد الثالث سُبحةٌ طويلة، وأخرج الرابعُ سِواكًا فمرَّ به على أسنانه، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانت فى قَبائه، ومدَّ صاحبُ اللحية العريضة أصابعَه إلى لحيته يُخَلِّلُها، أما السابعُ صاحبُ (اللالحية) فثبتتْ يدُه فى جيبه ولم تخرج كأن فيها شيئًا يستحى إذا هو أظهره، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة.

(١) أى بحث بأصابعه.

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضًا...

قال الراوى: ونظرتُ فإذا وجوهُهم قد لبستْ للشباب هيئةَ المدرِّس الذى يقرر لتلميذه قاعدةً قررها من قبلُ ألفَ مرة لألف تلميذ؛ فخجل الشاب وحملَ صندوقه ومضى...

* * *

أقول أنا: فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة)، قلت له: لعلك أيها الراوى استيقظتَ من الحلُم قبل أن يملأَ الشيوخُ الأجلاء هذا الصندوق، وما ختم عقلكُ هذه الروايةَ بهذا الفصل إلا بما كَدَدْتَ فيه ذهنك من فلسفةِ تحوُّل السيفِ إلى خشبة، ولو قد امتد بك النومُ لسمعتَ أحدهم يقول لسائرهم: بمن ينهضُ إخوانُنا المجاهدون وبمن يصولون؟ لهذا قال رسول الله ﷺ: «جاهلٌ سخِيٌّ أحبُّ إلى الله من عالمِ بخيل».

ثم يملئون الصندوق....

■■■

نجوى التمثال[1]

أيها المفترشُ الصخرةَ يشُدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنما يريد أن يقتلع الصخرةَ فيهما،
مُتَنَاهضًا بصدره ليَدلّ على أنه وإن رَبضَ فإن الوثبةَ فى يديه،
مُتَمَطِّيًا بصُلْبه ليُشيرَ من جسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة،
مُقْعيًا على ذَنَبه ومتحفِّزاً بسائره كأنه قوةُ اندفاع تَهُمُّ أن تَنفلِتَ من جاذبيةِ الأرض.

وأنتِ أيتها الهيفاءُ تمثِّلُ الإنسانيةَ المتمدنة فى نَحافتها وهى كهذه الإنسانية ضاربةٌ بذراعَىْ أسد فى غِلظ مِدْفعين...

حكيمةً فى النظر كأنما تَمدُّ فى سرائر الأمم نظرةَ المتأمل، ولكنَّ يدها كيدِ الحكمةِ السياسيةِ على تركيبٍ عقلىّ تحتهُ المخالب..

ساكنةً كأنها تمثالُ السلام على أنها فى جِوار الأسدِ كالسلام بين الشعوب: تَلْمَح فيه إنسانَ العالم ووحش العالم....

يا أبا الهول.

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللغز القديم الذى هو كلامٌ لا يتكلم وسكوتٌ لا يسكت،
والذى أشار برأسِ الإنسان على جسمِ اللَّيث أنه قوةٌ عمياء كالضرورة ولكنها مُبْصِرَة كالاختيار،
والذى أخرج من فَنَّي الغريزة والعقلِ فنًّا ثالثًا لا يزال فى الأرض ينتظرُ المرأةَ التى تلد إنسانًا عِظامهُ من الحجَر؟

وأنت يا مصر:

أواقفةٌ ثَمَّهَ للشرح والتفسير، تقولين للمصرىِّ: إن أجدادَك يسألونك من آلاف السنين بهذا الرمز: ألاَ معجزةٌ من القوة تمطّ عَضَلاتِ الحجر؟

---

(١) تمثال نهضة مصر الذى صنعه المثال محمود مختار رمزا لهذه النهضة، وهو أبو الهول متحفزًا تقف إلى جانبه امرأة.

ألا بَسْطَةٌ من العلم تجعلُك أيها المصرىُّ وكأنك رأسٌ لجسم الطبيعة؟ ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ به أبا الهولِ فى الجوّ فتزيده على قوة الوحشِ وذكاء الإنسان خِفَّةَ الطير؟

أم تقولين للمصرىّ: إن أجدادَك يُوصونكَ بهذا الرمز أن تكونَ كالظَّهر الأسدىّ لا يُركَب مَطَاه، وكالرأسِ الإنسانىّ لا تُقيَّد حريتُه، وكالرَّبْضَة الجبليةِ لا تَسْهُل إزاحتُها، وكالإبهام المركَّب من غامضَين لا يتيسر به عَبَثُ العابث، وكالصراحةِ المجتمعةِ من عنصرٍ واحد لا يغلطُ فى حقيقتها أحد؟

أم تقولين يا مصر: إن تفسير أبى الهول الأولِ أن النهضةَ المصريةَ إنما تكون يوم تُخرِجُ البلاد من يصنع أبا الهول الثانى؟

* * *

تمثالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجر قد صوَّر الشعبُ فكرَه عليها، ودوَّن فيها إحساسَه بتاريخه، ووصف بها إدراكَه حياةَ المعانى السامية؟

أم هو كتابةُ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتها، خشيتْ عليه الفناءَ فدوَّنته فى أسلوبٍ من أساليب البقاء الحجرىّ الصَّلْد؟

أم ذاك يومٌ من أيام الأمة أحاله الفن من زمنٍ إلى مادةٍ، ومن معنى إلى حسٍّ، ومن خبر إلى مَنْظَر، وكانوا يتكلّمون عنه فجعله الفنُّ يتكلم عن نفسه؟

أم هو تعبيرٌ عن تلك المعانى التى خلقتْها نفوسُ هذا الجيلِ تخاطبُ به النفوسَ الآتيةَ لتتمِّمَ عليها، وتضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى، وتضعَ الكلمةَ الإنسانيةَ على لسان الطبيعة تتلكم بالتمثال كما تتكلم بالجيل؟

أم تركيبٌ سياسىٌّ إذا فسَّرتْه اللغةُ كان معناه أن الثابتَ إذا احتاج إلى من يثبته.... فلن يمحوَهُ من ينكرُه، وأن الظاهرَ إن احتاج إلى من يَدلُّ عليه... فلن يُخفِيَهُ من لا يراه؟

* * *

بل أراكَ لا هولَ فيك يا أبا الهول الجديد.

أفذاكَ من رقَّةٍ داخلَتْكَ ورحمةٍ جاءَتك من مَسِّ يدِ المرأة....؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبح فى العقل والعاطفة ومدّ العينِ النسائية إلى بعيد....؟

أم لا يتم فى هذه المدينة رأسُ رجلٍ وحسبمُ سَبُعٍ إلا...

إلا بأنامل امرأة؟

ألا من يُعْلِمنى أهذه المرأةُ منكَ هى تهذيبٌ للإنسان والوحشِ أم تكلمةٌ عليهما؟

ألا من يأتينى بالحكمة فيك من وضْع الرجلِ القوىّ رأسًا ولا جسم والأسدِ المفترسِ جسما ولا رأس، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأةُ وحدها.

إنما كنتَ يا أبا الهول لغزَ الصمت، فلما أُضيفت المرأةُ إليك أصبحتَ لغزَ النطق... فيا للْهول!

■■■

فاتح الجو المصرى[1]

يا طيرَ المثَلِ الأعلى!

لقد انْفَلَتَّ من رذيلة الخوفِ وتركتَها فى التراب مَوْطِئَ القَدَم، وقلتَ لها: ويحكِ، لقد آن للشبابِ المصرىّ؛ فهو مُغَامِس فى ماءِ الصواعق[2]، مُتَطَوِّحٌ فى اللُّجّة الأزليةِ التى تغوصُ فيها الكواكب[3]، يطيرُ بروُح الشَّرارة، ويَهْبِطُ بـرُوح الغَيث، ويُلْجِمُ الجوَّ ويُسْرِجُه، ويتعلم كيف يَشْوِى عدوَّه فى عَيْن الشمس.

وكنتَ بطلاً مُغَامراً فخطوتَ فى طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملَكَ الجو؛ ولو أنك خِفْتَ وكنت على جَنَاحَىْ جِبريل لا على طيارة، لخافَ جبريلُ على جناحَية من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابىِّ الطاغيةِ الذى يَحكُم على الآحياء بالموتِ بلا موت، لأنه الذلُّ والخضوع والرذيلة.

وحملك الجوُّ إلى قبة السماء، وهنالك نَظَر العالَمُ فرأى لمصر الناهضةِ عَلَمَها الإنسانىَّ يتنفَّس تحت الكواكب.

وحملك الجو إلينا، فلما رفعنا رءوسَنَا لنراك، رفعناها فى الوقت بين شعوبِ الأرض.

* * *

وضربتَ ياجَنَاحَ مصرَ فى الهواء، وأعْنَانُ السماءِ[4] مملوءةٌ بالزَّعْزَع والهَوجاء والعاصف، والسماءُ فى فصلها المكْفَهِرّ الذى تخلعُ فيهِ كلَّ ساعة وتلبسُ وتمزِّق[5]

(١) كتبت فى أول طيار مصرى قدم إلى مصر من أوربا على طيارته، فى شهر فبراير سنة ١٩٣٠م، وهو الطيار صدقى وطيارته فائزة، وكان مقدمه يومًا مشهودًا.

(٢) كناية عن السحاب.

(٣) كناية عن أجواز الفضاء.

(٤) نواحيها، جمع عنان (بالفتح).

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء، من الغيم والصحو وما بينهما.

وتَطْوِى، فزدتَ بجُرأتك فى براهينِ القضية المصرية برهانَ قوةِ المخاطَرة، وأضفتَ إلى منطقها وضعًا جديداً مُفْحِمًا من روح التضحية.

وطــرتَ بين حياة وموتٍ فجعلتَهما يســتويان فى اعتقادك؛ إذ وصلتَ فكرةَ الموت بسرّ الإيمان، والحياةَ بسرّ العزيمة.

وكنتَ رَجُلَ أُمَّتِك بإنكار ذاتِ نفسِك من أجلها.

واتسَــعْتَ للتاريــخ بوضعِكَ عُمرَكَ المحــدودَ على الطيارة، وقذفِــكَ بها وبهِ فى مَسْبَح الأجل.

وتجردتَ للأبدية لتُعطِىَ بلادكَ: إما شــهيدَ مجدٍ فى الآخرة، وإما شــهادةَ فخر فى الدنيا.

وكنتَ علــى طيارتك الصغيرة المُتَطَارِدَة تحتَ الريــح، وحولكَ رُوح الهَرَم الأكبرِ القائمِ بإرادة مصرَ وكأنهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ فى كُرَةِ الأرض بين القُطب والقطب.

* * *

وأنتِ يا (فائزة)، يا هذه الصغيرةُ الخارجةُ من مالِ صاحبها وجُهدهِ وعزيمتهِ كما تخرجُ القوة من ضَعف، أعلمتِ إذ أنتِ ترتفعين وتهبطين بين السُّحب كما تتواثبُ الفَراشةُ على النوَّار فى رَوضة مُزهرة..

وإذ أنتِ تَفْتَقِين وتحُوكين فى مُلاءةِ الســحاب كأنك بمُحَرِكِكِ الدَّوَّار تَنْسِجين فى السماء بِمِغْزَل..

وإذ أنتِ بين صَفْقِ الرياح الهُوج[١]، تحت السماء المُدَجَّجَةِ[٢]، فى كبَّةِ الشتاء[٣]، كأنَّكِ مناظَرةٌ تجرى بين العزيمةِ فى الإنسان والعزيمةِ فى الطبيعة..

(١) اضطراب الرياح المتقلبة.

(٢) المتغيمة.

(٣) كبة الشتاء: شدته ودفعته.

وإذ أنتِ بين ذئاب الأعاصيرِ، ونُمورِ السحابِ[1]، وسباعِ الغيم ذواتِ اللِّبْدة الكثيفة المُتَشَعْثَةِ، كأنك بصوتكِ وأزيزكِ تُطلقين على وحوش الجو مِدفعا رشاشًا يتركها صَرْعَى.. وإذ تراكِ الريحُ فتقول عنكِ: ريحٌ صنعها الإنسان. ويراك النجم فيقول: نجمٌ أفلتَ من النظام الأرضى أعلمتِ وتراكِ الملائكة فتقول: ويحَك يا بنَ آدم، كأنك بما خَلَقَهُ العقل تطمعُ منا فى سَجْدَةٍ أخرى كالتى سجدناها لآدمَ يومَ خلقهُ الله.

..... أعلمتِ إذ أنتِ كذلك يا «فائزة»، أن التاريخَ المصرىَّ سيحوّلكِ من طيارة إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ الخَلْق، لأن فيكِ بَدْءَ الطيَران فىَ مصر؟

* * *

سلامًا يا فاتحَ الجو المصرى. لقد أجالت الأيامُ قِداحَها فخرجتْ القُرعةُ عليك، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ: بسم الله مَصْعَدُها ومَجراها.

وطرتَ فإذا أنت بها عابرٌ فوق الحاضر لتجيئَنا من جانب المستقبل.

وهبطتَ علينا كأنك فى بَريد السماء كتابُ مَجْدٍ حَىٍّ للوطنية الظافرة.

بل كتابُ قصةٍ رائعة ألَّفتْها العواصف من فنَّينَ: ثورةِ الجو وثورةِ نفسك المصرية. وحَكَتْها فى صوتين: زفيفِ الطيارة وصَرْخة ضميرك الوطنى وجعلتْها فصلين: أنت والمجهولَ ألا حسبُك مجدًا أن يحيا الشعبُ كلُّه بضعةَ أيام فى قصتك!

* * *

فعلى مَهْدِ الجو وفى حَرير الشعاع، وتحت كِلَّهِ السحاب - وُلِدَ لمصر يومٌ تاريخى. وخرجت التهانئُ التى طال احتباسُها فى القلوب المصرية لا يُفْرَجُ عنها لأن سجَّانَها ظُلْمُ السياسة.

---

(١) يقال: ريح متذئبة؛ إذا كانت تجئ من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب، فوضعنا من هنا كلمة ذئاب الرياح، والنمر من السحاب: قطع صغار متدان بعضها من بعض تشبيهًا بجلد النمر، فوضعنا منها نمور السحاب.

واتجهتْ أفراحُ شعبٍ كامل إلى الفتى الجرىء الذى رَمَتْ به همتُه فوق هاويةِ الموتِ فتخطاها.

وتلقى شعورُ الأمة رسولَهُ المِقدامَ الذى لم يكن له ملجأ فى خِطَارِه إلا شعرُه. بهذه الأمة.

وارتجَّ الوادى كلُّه كأنهُ غمدٌ يتقلقلُ حين يُسَلُّ منه السيف.

ثم أُهْدِيتْ كلمةُ مصرَ لابنها الذى كَتبَ فى جوها الكلمةَ السماوية الأولى، وكانت ساعةٌ تلاشَى عندها الزمنُ فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتَف معنا الفراعنة: بوركتَ يا «صدقى»!

* * *

لله درُّك أيُّما ابنِ عزيمة! كأنما كَشفتَ أهاويلَ الوحْى وهبطتَ فى سحابة مُجَلْجِلَهٍ إن لم تحملْ كتابًا مُنْزَلا فكأنما حملتْ شخصًا منزلاً.

ولعلك رسولُ الغَيم العابسِ لهذا الجوّ المصرىّ الذى يضحكُ دائمًا ضحكةَ الفيلسوف الساخر فى حين أصبحت الحياةُ قوةً لافلسفة...

ولعلك مبعوثُ البرقِ والرعدِ لهذا السكونِ النائم الذى يطوى كلَّ يوم فى طىّ النسيان ما حَدَثَ فى اليوم الذى قبله....

ولعلك نبىُّ الجدّية والمرارة لهذه الحلاوة النيليةِ المُفْرطة التى كاد منها الشعبُ أن يكون سُكَّرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرب..

ولعلك تفسيرٌ مصحِّحٌ لعقيدتنا المغلوطة فى القضاء والقدر، أنَّ القضاء أنْ تُقْدِمَ بلا خوف، وأن القدر أن تَثِقَ بلا مبالاة.

أما واللهِ لقد غَمرتَ الشعب بموجة هواءٍ جديدة جئت بها فى جناحَيك، ونفختَ روحَ طيارتك المجيدةِ فى القلوب فجعلتها كلَّها ترفرِفُ كأن لك فى ضلوع كلِّ مصرىٍّ طيارة.

■■■

أجنحة المدافع المصرية(١)

اسْتَجْنِحى(٢) يا مَدافعَ مصرَ وطيرى، إن المجدَ يطلبُ منا إنسانَهُ البرْقىّ.

لقد مَدَّتْ لغةُ القوة فى هذا العصر مَدَّها حتى أصبح الطَّيرَانُ بعض معانى المشْى، ولم يَعد العالَمُ يدرى كيف تكون الصورةُ الأخيرةُ التى يستقرُّ فيها معنى إنسانِه.

فَلْتَتَمَجَّدْ مصرُ بإنسانِها البَرقىِّ الذى تَخرجُ النارُ بيده من أعْراض السحاب، وتُفَرقعُ فى أصابعهِ هَزّاتُ الرّعد، ويجعلُ فى قُبّة السماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلَةً، ويحمل الاسمَ المصرىَّ إلى مُعَلَّقِ النجم، فيضعُ له هناكَ التعريف النارىَّ الذى وضعتُه الدول العظمى لأسمائها.

ولتتمجدْ مصرُ بإنسانها البرقىّ الذى يُشْعِرها حقيقةَ العلوِّ العالى، والعُمقِ العميق، والسَّعَةِ التى لا تُحدُّ، ويزيدُ فى معانى أحيائنا معنًى جديدًا لأحياءِ السُّحب، وفى معانى أمواتنا معنىً جديدًا لموتىَ الكواكب.

إنسانٌ برقىٌّ يتممُ بشجاعته فى السماء بُطولة فلاَّحِنا الإنسانِ الشمسىِّ فى الأرض، ويعلو بكبرياءِ مصرَ فى ذِرْوة العالمَ، فتظهر طيَّاراتُها العظيمة قدرةً فى الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً فى الثَّرى.

إنها مصر، مصرُ القادرةُ التى سَحَرت القِدمَ بقوتها وفنِّها، فَبقَى فيها على حاله وجلالته، وانهزم الدهرُ عنهُ كأنه قوةٌ على قوة الزمن نفسها.

فاستَجْنِحى يا مدافعَ مصر وطيرى. إن المجد يطلب منا إنسانَه البرقى.

* * *

(١) كتبت فى احتراق أول طيارة حربية مصرية فى قدومها إلى مصر من أوربا، وقد احترق فيها الشهيدان: (حجاج ودوس) وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣م.

(٢) أى اتخذى الأجنحة، ولم تأت الكلمة فى اللغة بهذا المعنى، ولكنا استعملناها فيه قياسا على كلامهم.

ولمَا فُتح السِّجلُّ ذاتَ صباح لتكتبَ مصرُ أسماء الفَوْج الأول من نُسُورها الحربيين، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ:

«أضْرِمى الشّعلةَ الآدمية الأولى يا مصر، وافتحى القبرَ الجوىَّ الأول، وألحِدى فيه من عنصرَيك المسلمين والأقباط، وضَعى الحياةَ فى أساس الحياة، واستقبلى عصرَك الجديدَ بأذانِ المسجد ودقِّ الناقوس ليباركه الله، ولْيتلقَّ الشعبُ أولَ طيَّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركةِ، وأكبادٍ عرفت مَسَّ النار، ولا ينظرَنّ إلى طياراته الأُوَل إلا بعد أن ينظر النعشين فيرى مجدَ الموت فى سبيل الوطن، فتسطعَ نظراتهُ ببريق الكبرياء، ولَمعةِ العزيمة وشُعاعِ الإيمان، ويأتَلِقَ فيها النورُ السماوىُّ الذى يجعلُ الناسَ فى بعض ساعاتهما كواكبَ، نورُ صلاةٍ على موتاه الشهداء».

واستجاب القَدرُ لصوت المجد، فالْتَجَّ الظلامُ فى وَضَح الصبح، وانطفأ سِراجُ النهار فى قبة الفلك وأطْبَقَتْ نواحى الجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبل الضبابُ يَعتَرِضُ اعتراضَ جَبَل عائم يَتَذَبْذَبُ فى بحر، واستأرَضَ السحابُ فتَخلَّى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتذامَرتْ العناصرُ على القتال يَحُضُّ بعضها بعضًا، وتغشَّت السماءُ بوجه الموتِ: كلَّحَ فارْبَدَّ وانتفخَ شىء وتكسَّرَتْ فيه الغُصونُ كل غَصَن كِسْفَةُ ظلام وعاد أوسعُ شئ أضيقَ شىء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلاّ عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها.

وابْتَدَرَتْ إلى مجد الموت الطيارةُ المصريةُ الأولى، وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباها الموتُ فذهبتْ فانتحرتْ أسفًا وترديتْ متحطمة، وانسلَّ الرجلان من مخالب الردى وكانا فى الطيارة كورقتين من النَّبْت فى فَم جَرادةٍ همَّتْ نَقْضِمهُما.....

وتَسْتَبقُ الثانية فإذا فيها وَديعة الكرم من عُنْصُرَى مصرَ: «حجَّاج ودوس»[1] وكان سرًّا من أسرار مصر اجتماعُهما فى مَداحِضِ الغَمام ومزالقهِ، ليكونا هديةَ مصرَ الأولى إلى مجدها الحربى، ثم ليكونا هدية المجدِ إلى إحساس هذا الشعب يُحِسُّ منهما العالمَ المنطوِىَ له فى مستقبل النصر.

(١) هما فؤاد حجاج، وشهدى دوس، وكان فى الطيارة الأخرى التى تحطمت المستر بليت، والمستر سميث.

واعتسَفَتْ طيارة الشهيدين طريقَ الفَناء ومتَاهَةَ الحياة، فذهبتْ عنها مَعارِفُ الأرض وعُمّيَتْ عليها معالمُ السماء، وخرجتْ من تصريف أيدى البطَلين إلى تصريفِ أجَلهما، وأصبحت كأنهاَ تطير فى الأنفاس الباقية لهما؛ فما تتقدمُ ولا تتأخر؛ ولم تكن طيارةً تحملُهما، بل جَناحًا ممدودًا لهما من رحمة الله.

ثم اجترَّها الموتُ إلى غَوْر، فانحطَّت من الهواء جانحةً كالطائر يطلبُ ملجأً فى العاصفة ثم انتهضتْ واثبةً، وتمطَّرتْ منقلِبةً، فاشتعلتْ فاستَعَرَت فأنضجتْ راكبَيْها، رحمهما الله.

وكثيراً ما يكونُ منظرُ الحزن فى الحياة هو انهماكَ الحياة فى عمل جديدٍ تُبدعُ منه السرورَ والقوة. احترق البَطَلان لتتسَلَّمَ مصرُ فى نعشيهما رَماداً لن يُبْنَى تاريخُ العزّةِ الوطنية إلاّ بهِ.

فاستجْنحِى يا مدافعَ مصر وطيرى. إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقى.

* * *

صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة، ووضعت لنا الاسمَ البديعَ الذى نُطلقُه على طيَّارينا الأبطال، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ الجو، ولكن سمُّوهم «جَمَراتِ الجوّ».

صنعت نارُنا الحقيقية، وأوحتّ إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالةٍ، وأن نُفاجئ شعورَنا الحالم فنصدمَه بآلام اليقَظة المرّة، وأن نغيِّر قاعدةَ الحياة فى التربية المصرية فلا تكون: العيشَ العيشَ، ولكن القوةَ القوةَ.

صنعت النارُ الحقيقة وأثبتت لنا أن الحياة إن هى إلا أداةٌ للحى، وليس الحيُّ أداةً للحياة، فليتصرَّفْ بها على قوانين الروح وآمالها فيسمُوَ وتسمو ولا يَدَعْها تتصرفُ على مذاهب أقدارِ المادة وتصاريفها فيُذِلّها وتُذِلّه.

وفى قانون الروح: لا قيمةَ لعالَم الأشياءِ إلاَّ كما تَصْلُحُ لنا، وفى قانون المادة وضَغْطَةِ الحياة: كما تَصْلُحُ لنا وكما نصلحُ لها..

بَلَى قـد صنعت النارُ الآدميـةُ الحقيقةَ، وأعطتنا قصةَ الحريـة كاملةً فى معنىً واحد: وهو أن هذه الحرية لعاشـقيها كأجملِ الجميلات للمتنافسينَ عليها: جمالُها متوحش، وخَلاَعَتُها مُفْتَرِسة، وظَرْفُها سَفَّاكٌ للدم.

فاستجنْحِى يا مدافعَ مصرَ وطيرى إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقى.

* * *

وإلى السـماء يا «جمَراتِ الجو»، فإذا اسـتويتم على السحاب، فليست الطيارةُ ثَمَّ طيارةً، بل حقيقةً حيةً عاملةً للمجد، فلتحملْ معناها المصرىَّ من بطَلها المصرى.

وإذا سـبحتم فى مَهْبطِ القدَر، فليس الطيَّارُ ثَمَّ طيارًا، بل حياةً عبقريةً أرسـلتها مصرُ تستنزلُ للحياة أقدارًا سعيدة.

وإذا خُضتـم فـى المعْرَكِ الضَّنْكِ تتبعثَـرُ فيه الآجالُ على الرياح، فليس الجسـمُ المصرىُّ هناك من لحم ودم، بل ناموسًا طبيعيا ماضيًا إلى غاية.

وإذا تَقاذَفتم فى بحر الشمس، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيدِ أيام مضيئة تلتمعُ فى تاريخ مصر.

وإذا نفذتم من أقطار السماوات، فانظروها بأعينكم معالىَ مصر، وافهموها بقلوبكم ذاتيةَ الوطن المصرىّ تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو.

إنما الطيارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ من الإنسانيةِ والعناصر، معناه فى العزيمة «لابـدَّ» ومتى هَدَرَت الطيارةُ هَديرَها فإنما تقول للبطل منكم: هَلُمّ من عالٍ إلى أعلى، إلى أكثـرَ علوًّا، إلى أقصى حـدودِ الواجب على النفس حين يأخذ الواجبُ الكلّ وحين تعطى النفسُ الكل.

فاستجْنحى يا مدافعَ مصر وطيرى. إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقى.

■■■

أحاديث الباشا

الطماطم السياسى ...

(١)

كان (م) باشـا* رحمه الله داهيةً من دهاةِ السياسـة المصريـة، يلتوى مرةً فى يدها التواء الحبل، ويستوى فى يدها مرةً استواء السيف، ولا يُرى أبدا إلا منكمِشًا مُتَحّرزا كأن لـه عـدوًّا لا يدرى أين هو ولا متى يقتحِمُ عليه، ولكنه كغيره من الرؤسـاء الذين كانوا آلاتٍ للكذِب بين طالبِ الحق وغاصبِ الحق - يعرف أن عدوَّه كامنٌ فى أعماله.

وكان ذكيًّا أريبًا، غيرَ أن مُلابَسـته للسياسةِ الدائرةِ على مِحْورها، جعلت نصفَ ذكائـه من الذكاء ونصفَه مـن المكر؛ فكان فى مُراوغته كأن لـه ثلاثةَ عقول: أحدُها مصرىّ، والآخرُ إنجليزى، والثالثُ خارجٌ من الحالين.

وبهذا تقدَّم وعاش أثيرا عند الرؤسـاء من الإنجليز، واسـتمرت مجاريه مُطَّردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة، إذ كان حَسَنَ الفهم عنهم، سريعَ الاستجابة؛ إليهم يفهـمُ معنى ألفاظهم، ومعنى النيَّةِ التى تكون وراء ألفاظهم، ومعنىً آخرَ يتبرعُ هو بـه لألفاظهم.... فكان هو وأمثاله فى رأى تلك السياسـة القديمة، رجالاً كالأفكار: يوضع أحدُهم فى مكانه من الحكم كما توضعُ صِيغةُ الشـكّ لإفسـاد اليقين، أو صيغةُ الوهم لتوليد الخيال، أو صيغةُ الهوى لإيجاد الفِتنة.

* * *

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحبَ سرّه (السكرتير)، وقد وثِقَ به الباشا حتى إنه كان يُعَالِنُه بما فى نفسـه، ويبثُّه همومَـه وأحزانَه، ويرى فيه دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته، ويسـتعيرُ منه اليقينَ أحيانًا بأنه لا يزال مصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُه فى الكرسى.

---

* انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

فحدثنى الصديقُ بعد موت هذا الباشـا قال: إنه دعاه يومًا ليُفَاتِحَه الرأىَ فى أمر مـن أموره، ثم قال له: سسـإن الرئيس الإنجليزى غـيرُ مطمئن إليك لأن حقيقةً من الحقائـق الصريحةِ ظاهرةٌ على وجهك، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصرىّ مستقل.

قال صاحب السر: لئن كان ذلك ما يغضِبه إن الخطْبَ لهيِّن، فلستُ أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء...

فضحك الباشـا وقال: يا بنىَّ، هذا الإنجليزىُّ عندنا كالشـيطان: «إنه يراكم هو وقَبيلُه من حيث لا تَرَونهم» ووالله يا بنىَّ إنى لأشدُّ أنفةً منك، وإن صدرى لشَجِىٌّ مما أنا فيه من هذا الكرب، ولكننا نحن الشرقيين قد ضِعنا منذ فقدنا الشخصيةَ الاجتماعية.

أتراك تفهم شـيئًا لو قلتُ لك: رجلٌ، أسـد، جبلٌ، مدينةٌ، أسطول؟ إن تركيبنا الاجتماعىَّ شـىء كهذا الكلام: فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلالِ المعنى واضمحلاله ولكل كلمة إذا أفردتْ معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به، غيرَ أنه يتحول فى الجملة إلى معنىً كَلاَ معنى.

أصبـح الشـرقُ يعيشُ فى أمته على قاعدةِ أنه منفـردٌ لا صلة بينه وبين الأطرافِ لا فى الزمان ولا فى المكان، ونسىَ معنى الحديث الشريف: «اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبـدا». فماذا كان يريـد أعظمُ المصلحين الاجتماعيين من قولـه: «كأنك تعيش أبدا»؟ إلا أن يقـررَ لأمتـه أن الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المقبِلة كلِّها، فليعملْ لها ولنفسـه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنه مستمر فيها.

هذه حكمةٌ إسـلامية دقيقـةٌ، عندنا نحن لفظُها ولسـنا نعـرف معناها، وعند الإنجليز معناها ولا يعرفون لفظها. أهُم المسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدة الانفراد انفردَ كلُّ شىء؛ فآثر الشرقىُّ حياتَه على وطنه، وقدَّم لذتَه على واجبـه، وتعامَلَ بالمال فى مواضع المعاملة بالأخـلاق، وكان طبيعيًّا مع هذا أن يَختصر الدينَ اختصارا يجعله مقدارا بين مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين؛ وبذلك يناسبُ فرديتَـه ويقعدُ تحت حُكمِه وهـو خارجٌ عليه؛ فترى الرجلَ من هذه الملايين يؤمن بالله

وهــو يَحلفُ به كذبا على درهــم، ويصلى ويَفْجُر فى يوم واحد، ويتعبَّد فى نفســه ويخونُ سواه فى وقتٍ معًا.

ومتى كانت الحالةُ النفسيةُ للأمة هى هذه الفرديةَ ومصالحَها ودواعيَها، كان الكذِبُ أظهــرَ خِلالِ هذه الأمــة، إذ هو انفرادُ الكاذب بحظه ومصلحتــه وداعيته؛ ولا يكذبُ عليك إلا من يرجو أن تكونَ مغفلاً، أو من قدَّر فى نفسه أن المعاملةَ العامةَ فى الأمة هى على قاعدة المغفلين.... ويكذبون فى هذا أيضًا فيسمونه حِذاقًا وبراعة (وشطارة).

وإذا عمَّ الكذبُ فشا منه الهزل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهل يَجِدُّ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنونًــا؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباســطة بالكذب، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ومنه مِن كذب الخيال، وكيفما دارتْ الحالُ لا تجده إلا كذبًا.

ومتــى صار الكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه، تقرَّر عنــد الناس أن الكلامَ إنما يقالُ ليقالَ فقط.أفلســتَ ترى الرجُلين إذا أخبر أحدُهما صاحبَه بالخبر فيه شىءٌ من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخرُ أولَ ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صِدق؟

ولا أضرَّ على الأمة من هذه العقيدة – عقيدةِ أن الكلامَ يقالُ ليقالَ فقط – فإنها هى طابَعُ الهزل على أخلاقِ الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكومتها أيضًا.

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين فى كل شــىء، حتى ليكونُ لنا الواحد كالآحادِ فى غيرنا فنجعلُه مائةً بصِفْرين، نجىء بأحدهما من اعتيادِنا الكذبَ على الحقيقة، ونجىء بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسنا.

هذه مبالغة خطرة، وأخطرُ ما فيها أننا بها نريدُ المبالغةَ فى الدَّلالة على الأشياء، فتنقلــب مبالغةً فى الدلالة علينا نحن، وعلى كَذِبِ طباعنا، وعلى فَوضى العقل فينا. نعم وحتى تُثبتُ أننا لا عزمَ لنا، من كونها مبالغةً لا تدقيقَ فى معناها؛ وأن لا صبرَ لنا، من أنها لا ثباتَ لحقيقتها المهزومة، وأن لا شــدَّةَ لنا فى طلب الحق، لأننا بها من أهل الغَفلةِ فى صف الحق، وأننا لا نتمثلُ العواقبَ إذ نُرســل الكلامَ إرســالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته.

وأيسُر ما يُفهم من هذه المبالغات التى أصبحت طريقةً من طرق الشعبِ فى التعبير، أن هذا الشعبَ لا يصلح في شيء إلا بالحكومة، فهو نفسهُ كالمبالغة، والحكومةُ له كالتصحيح، وهذه هى العلةُ فى أن الشعبَ الكَذوبَ يلجأ إلى حكومته فى كل كبيرة وصغيرةٍ فى العمل، كما أنها هى العلةُ فى أن حكومتَه تكذبُ عليه بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ فى السياسة.

ومن أثر الكذبِ الشعبىّ والمبالغةِ الشعبية، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناسُ عن أعماله، فيديُرها على ذلك وإن قلَّت منفعتُها، وإن فَسَدت حقيقتُها، وإن جَلَبتْ عليه من الضرر فى ماله ونفسهِ ما هى جالبة، فقاعدتُهم هى هذه: ليس الشأن فى الحياة للعمل فى نفسه، ولكن فيما يقالُ عنه؛ فإن لم يُقَل شيء فلا تعملْ شيئًا....

هذه يا بنى أمةٌ لا يكون حكَّامُها إلا مبالغاتٍ أيضًا...

***

قال صاحب السر: ارتفع من الطريق صوتُ بائعٍ ينادى على سِلعته: أحسن من التفَّاح ياطماطم....

فضحكَ الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسى العَفِن: إنه ليس تفاحًا وحَسْبُ بل هو أحسنُ من التفاح..

إن الأمةَ لن تكونَ فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها، وإن أولَ ما يدلُّ على صحةِ الأخلاق فى أمة كلمةُ الصدقِ فيها، والأمةُ التى لا يحكمها الصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كَذِبًا وهَزلاً ومبالغة.

■■■

البك والباشا؟

(٢)

وحدثنى صاحبُ سرّ (م) باشا قال: جاء يومًا إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل علىَّ متهللاً مُشْرِقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخلِه بشمعة... ويترنَّح عِطْفاه كأنما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه؛ ويمشى متخلِّعًا كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها وأثقلتها المعانى الكثيرةُ من أعين الناظرين إليها، وعلى شفتيه خَيالٌ من فكرةِ هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيرا إلا ليُعْلِمَهُ أنه هو كبير، فيكونُ فى الأمر شيئان: الأمرُ واللؤم؛ وأقبل علىّ فى هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقت لقالت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] سبِّح اللهَ الذى خلق فى الأسَد شعرةً جبَّارة خرج منها الأسَدُ كلُّه....

سُبحانَ اللهِ ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذى قرأتُ فى الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبه الباشوية؛ خلقه الله من تراب وحوَّلت الرتبةُ هذا الترابَ الذى فيه إلى ذهبٍ خالص.... ينظرُ إلىَّ وبرغْمِه أن تَقِفَ عيناه علىَّ وعلى الحائط؛ ولا تجدُ نفسُهُ المزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراءَ المنبعِث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادةَ الآدمية، أو كأنما كانت صورتُه خطوطًا فقط فوُضِعَتْ فيها الألوان...

(باشا)! هذه الباء وهذه الألفُ وهذه الشينُ المدودةُ ليست حروفا خارجةً من الأبجدية العامة؛ فإن الأبجدية قد تجعلُ الباء فى بليد مثلًا، والألفَ فى أبله، والشينَ المدودةَ فى شاهد زُور مثلاً مثلاً... بل تلك حروفٌ من حروفِ الدولة منتزعةٌ من قوةٍ قادرةٍ على أن تجعلَ لحياة صاحبها من الشكل ما يُسْبِغه الفنُّ على الحجرَ من شكل تمثالٍ يُنْصَبُ للتعظيم.

قال: وكنت أعرف هذا الرجلَ، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسن إلا كتابة اسمِه كما تكتبُ الدَّجاجةُ فى الأرض... فكانت الرتبةُ عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرةٍ

مــن الصخور الصَّلْدة؛ وهذا مما يحتملُه المجاز بَعَلاقة ما؛ ولكنَّ الذى لا يَسُــوغُ فى المجاز، ولا فى مبالاغات الاســتعارة، ولا فى خُرافات المستحيل، أن تزعمَ الصخرةُ للناس أن لفظَ الحديقة الذى أطلق عليها قد أنبتَ فيها أشجارَ الحديقة...

❊ ❊ ❊

قال صاحبُ السر: واستأذنت له على الباشا فسهَّل له الإذنَ وقال: هذا رجل أصبح كالورقة المبصومِة بخاتَم الدولة، فلتكنْ ما هى كائنةٌ فإن لها اعتبارَها. ثم تلقَّاه تلقِّىَ الهازلِ المتهكِّم وقال له: أهنئك بالنَّحْوِى.. مُبارَكون يا باشــا... وأقبل عليه وبَسَــط له وجهَه.

وكان فى الباشا دُعابَةٌ ظريفةٌ يُعرف بها، وهو كثيرُ النوادر والمُلَح، وله خَصِيصةٌ عجيبــةٌ، فيكونُ بين يديه كُدْسٌ من الأوراق التى تُعــرض عليه ينظرُ فيها ويقرؤها ويتدبَّرهــا، وهو فى ذلك يســتمعُ إلى محدثه ويُراجعه ويردُّ عليــه فيُصرّفُ الناسَ والأوراقَ فــى وقت واحد، ويســتعملُ ناحيتين من فكره اســتعمالاً واحــداً لا يُخِلُّ بالإصابة فى شىء من هذه ولا من تلك.

ثم قال للباشــا الحديثِ وعينُه إلى ما بين يديه: هذه أوراقُ سرقة ثورٍ عظيم، فكم يساوى الثورُ العظيم الآن...؟

قــال صاحبنا الذكــىُّ الفَطن: إذا كان من الثيران التى تُعــرضُ فى المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يَبْعُدُ سعرُه ويُغَالَى به.

قال الباشا: نعم نعم، إن من الثيران ثيرانًا يُنْعَمُ عليها بالأوسمة، ولكن هذا الثور الذى سألتك عنه يا باشا هو ثورُ محراث لا ثَورُ معرض....

قــال الآخر: إذا كان ثــورَ محراث فمثلُه كثــيرٌ فلا يكون ثــوراً عظيما كما قلتَ وليستَ له إلا قيمةُ مثله.

قال الباشا: أرانى أخطأت ولعن الله العَجَلة فهذه أوراق سرقة حمار!

❊ ❊ ❊

قال صاحبُ السر: وانصرفتُ عنهما بأوراقى، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيَّات كلُّها صفَعَات؛ فلم يكن إلا يسـيِّر حتى خرج مبتهجًا يَميدُ السرورُ بعِطْفيه. ثم دعانى الباشا ودفع إلىَّ بِطاقةً بالحاجة التى جاء فيها الرجل، ثم قال: يا ليت لنا فى ألقاب الدولة لقبَ (رحمه الله)... يُنْعَم به على مثل هذا.

أتدرى يا بنىَّ أن هذه الرتبَ وهذه الألقابَ لم تكن فى القديم إلا كوضع علامةِ الشرّ على أهل الشـر ليهابَهُمُ الناسُ، حتى كأنما يُكتْبَ على أحدهم من لقب بك أو باشا: مُلْحقَ بالدولة...

وكان الشـعبُ أميًّا جاهلا لا يستطيع الإدراكَ ولا يُحسن التمييز، فكانت الألقابُ كالقوانين الشـخصية الموضوعةِ فى صيغةٍ موجـزَة مفهومة متعيِّنةِ الدَّلالة، وكان كلُّ من يحملُ لقبًا من الحكومة يستطيع أن يقولَ للناس: لقد وضعَت الحكومةُ كلمةَ الأمر فى شفتىّ...

وكأن اللقبَ إعلانٌ من الحكومة المستبِدَّة لشَعبها الجاهل: إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يُحترم.

من الهزل أن يُشـترى اسـمُ النصر الحربىّ أو يُوهَبَ أو يُعار؛ وأقبحُ منه فى باب الهـزل أن يُنعم على مثل هذا الأمىّ بلقب باشـا. وأنا أعرف أنه قد بذل فى سـبيله ما بـذل، وأضاع مـا أضاع، فكأن الذين منحوه إياه لم يفعلوا شـيئًا إلا وضعَ توقيعهم على أخْذِ الثمن...

ولقد أصبح الرجلُ تحت تأثير الكلمةِ العظيمةِ مخبولاً بسحْرها الوهمىّ، فحسِبَ ذلك إدخالاً فى وظيفةِ كل حاكم، وإشـراكا له فى الحكم متى اقتضتْه مجارى أموره وأحوالـهِ، أو حاجاتُ أسـبابهِ وأتباعـهِ، وها هو ذا قد جاء يطلـبُ حقَّه، فإن مثلَه لا يفهم من لقب (باشـا) إلا أن الحكومةَ قد سـوَّغتْ سـلطتَه الظهورَ والعملَ، فمدَّتْ باعـهَ وقوَّتْ أمـرَه ونوَّهتْ باسمه لمصالحها وعمَّالها؛ فهو عند نفسـه قد الْتَحم منذ اليوم بالنسب الحكومى، وفى كلمة واحدة، هو قد وُلِدَ من بطن الحكومة...

ألا ترى أن الشعبَ لو استردَّ سلطتَه الكاملةَ، وأن الناسَ لو أيقنوا أن الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ والنهى والوسـيلةِ والشـفاعةِ، لما بقى من يَعبـأ بها، ولكان حاملُها هو أولَ من يسخر منها؟

فهى إذن شَـعْبَذَة[1] من الحكومة وتضليلٌ فى مثل هذا الرجل الأمىّ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواه من الكبراء والعظماء، كأن الوزيرَ الذى يلقَّب بالباشا، يجعــلُ فيــه لقبُه وزيرين، كأن مثلَ هذا الأمىّ المغفَّل، يجعلُ فيه لقبُه شـخصًا آخر غيرَ الأمىّ المغفّل....

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقابٍ يتعظَّم بها إلا وهو لا يستحقها؛ وقلما رأيتُ رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاجُ إليها، فأين يكونُ موضعُ هذه الرتبِ والألقاب؟

■■■

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد.

ساكنو الثياب....

(٣)

قال صاحبُ سرّ (م) باشا: وجاءنى يومًا اثنان من شيوخ الدين من ذَوى هيئاتِهم وأصحابِ المنزلةِ فيهم، كلاهما هامَةٌ وقَامَة، وجُبَّةٌ وعمامة، ودَرجةٌ من الإمامة، ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُه من تَرويح أجنحة الملائكة؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرةِ الخضراء فى لَهَبِ الشمس تَفىء به يَمْنةً ويَسْرةً. فتوجَّهتُ إليهما بنظرى، وأقبلتُ عليهما بنفسى، ووضعتُ حواسىّ كلَّها فى خدمتهما؛ وقلتُ: هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذى مادتُه الأولى القلب.

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقَدْرِها ببعض الأحياء الذين نراهم فى عالم الترابِ كأن مادتَهم من السُّحُب، فيها لغيرهم الظلُّ والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارةُ والعلُّو والجمال؛ يُثبتون للضعفاء أن غيرَ الممكن ممكنٌ بالفعل، إذ لا يرى الناسُ فى تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان حرمانًا، وإلا المروءةَ وإن كانت مَشَقة، وإلا محبةَ الإنسانية وإن كانت ألمًا، وإلا الجدَّ وإن كان عَناء، وإلا القناعةَ وإن كانت فقرا.

هؤلاء قومٌ يؤلَّفون بيدِ القدرة، فهم كالكتب قد انطوتْ على حقائقها وختِمتْ كما وُضِعتْ، لا تستطيع أن تُخرجَ للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبهَ حقيقة ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميس الاقتصادية فالسماء نفسُها تحتاج فيها إلى سماسرةٍ لعرض الجنَّةِ على الناس بالثمن الذى يملكه كل إنسان وهو العملُ الطيب.

قال: ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها، تلك الشريعةُ التى لا تتغير ولا تتبدلُ كيلا يتغيرَ الناسُ ولا يتبدلوا. ثم

سـألتهما عن حاجتهما، فإذا أحدُهما قد عملَ أبياتًا من الشـعر جاء يمدح بها الباشا ليزدلفَ إليه؛ فقلت فى نفسـى: «ما أشـبهَ حَجَلَ الجبال[1] بألـوانِ صخرها!» هذا عالمُ دنيا يحدُّها من الشـرق الرغيفُ، ومن الغرب الدينار، ومن الشمال الجاه، ومن الجَنوب الشيطان...

ثم نَشَـر ورقةً فى يده وأخذ يَسْـرُدُ عَلَيَّ القصيدة، وهى على رَوِيّ الهاء، تنتهى أبياتها: ها. ها. ها. فكان يقرؤها شـعراً - أو كما يسميه هو شعراً - وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذى رَكبَ أكتافَ هذا العالم الدينى: ها. ها. ها. ها. ....

***

قال صاحبُ السر: وأدخلتهما على الباشا، فوقف المدَّاح يمدحُ بقصيدته، وأخذتْ لحيتُه الوافرةُ تهتزّ فى إنشـاده كأنها منْفَضَةٌ ينفُضُ بها المَلَلَ عن عواطف الباشـا... وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسـه كصمت الطبيعة حـين تَنْفَطرُ البذرةُ فى داخلها، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو، وإنما جاء بصاحبه رافِدا وظَهيرا يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغَيثَ، لتنقلَّبَ الأشياء حول الممدوح فيأخذَه السحْر، فيكونَ جوابُ الشمس علـى هذه اللغة أن تضئ يومَ الشـيخ، وجوابُ القمر أن يمـلأ ظلامَه، وجوابُ الليث أن يفترسَ عدوَّه، وجوابُ الغيث أن يَهْطلَ على أرضه.

والباشـا لا يدعُ ظَرفَه ودُعابتَه، وكان قد لمح فى أشـداقِ العالم المتشـاعر أسـنانًا صناعية، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له: يا أستاذ، أحسبُنى لا أكونُ إلا كاذبًا إذا قلت لك: لا فُضَّ فوك...

ثم ذكـر الآخرُ حاجتهَ: وهى رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القرية من ذوى قرابتِه لا من ذوى عدواتِه. فقال له الباشا: ولقريتكم أيضًا أبو جَهْل....؟

***

---

(١) هـذا مثـل عربى، والحجل: الطائر المعروف، يكون فى الجبل مـن لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى.

ولما انصرفا قال لى الباشـا: لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زيًّا خاصًّا يتميزون به فى الناس، كأن الدينَ بابٌ من التحرُّفِ والتصرُّف، بعضُ آلتهِ فى ثيابه؛ فهؤلاء يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم..

قـد أفهمُ لهذا معنىً صحيحًا إذا كان كلُّ رجـل منهم محصوراً فى واجبات عمله كالجندىّ فى معانى سـلاحه، فيكـون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العـالم الدينىّ كأداء التحية للثوب العسـكرى: معناه أن فى هذا الثوب عملاً ساميًا أولُه بيُع الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا فى سبيل المجتمع؛ هذا ثوبُ الموت يُفْرَضُ على الحياة أن تعظِّمه وتجلَّـه، وثوبُ الدفاع تجب لـه الطاعةُ والانقياد، وثوبُ القـوة ليس له إلا المهابةُ والإعزاز فى الوطن.

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم؟ إنها تُطْعم صاحبها....

أثـرُ الجيشِ معروفٌ فى دفاع الأمم العدوةِ عن البلاد، فأين أثرُ جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوَّةِ عن أهل البلاد، وقد احتلت هذه المعانى وضَربَتْ وتملكتْ وتركتْ هذا العالم الدينىَّ فـى ثوبه كالجندىِّ المنهزم: يحملُ من هزيمته فضيحةً ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

أنت يا بنىَّ قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجبَ شأنهَ! لكأنه والله سحابةٌ مطوية على صاعقة - ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسِه طريقٌ لبعض الملائكة - لأشْبَهَ أن يكونَ هذا قولاً.

كان يزورنى أحيانًا فأرانى مُرغمًا على أن أقدِّمَ له مجلسين أحدُهما قلبى وكان له وجهٌ يأمرُ أمرا، إذ لا تراه إلا شعرتَ به يرفعك إلى حقيقة سامية[1].

رجـلٌ نَبَت على أعراقٍ فيها إبـداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسـالته، فعواطفُه كالعِطْر فى شجرة العِطر الشَّذِيَّة، وشمائله كجمال السماء فى زُرقة السماء الصافية،

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلا طويلا تجده هناك.

وعظَمَتُــه كرَوْعة البحر فــى منظر البحر الصاخب. وكثيرا مــا كان يتعجبُ من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغانى) فيسأله مندهشًا بالله قل لى: ابنُ أىِّ ملكٍ أنت؟

لم يكن ابنَ ملك ولا ابنَ أمير، ولكنه ابنُ القوّاتِ الروحيةِ العاملةِ فى هذا الكون؛ فهى أعدَّته، وهى ألهمتْه، وهى أنطقته، وهى أخرجته فى قومه إعلانًا غيرَ كِتمان، ومُصَارحةً غيرَ مخادعة، وهى جعلت فيه أسـديةَ الأسـد، وهى ألقت فى كلامه تلك الشهوة الروحيةَ التى تذاق وتُحَبُّ، كالحلاوةِ فى الحَلْوى.

هذا هو العالم الدينى؛ لا بد أن يكونَ ابنَ القوّات الروحية، لا ابنَ الكتُبِ وحدها، ولا بدا أن يَخرجَ بعمله إلى الدنيا لا أنْ يُدخِلَ الدنيا تحت سقفِ الجامع...

وأنــا فما ينقضى عجبى مــن هؤلاء العلماء الذين هم بَقَايــا تَتَضَاءلُ بجانب الأصل؛ يبحثون فى سُـنَن النبى ﷺ: كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبس ويمشى ويتحدَّث؛ كأنهم مــن الدنيا فى قانــونِ المائدة، وآدابِ الولائم، ورُسـوم المجتمعات، أمــا تلك الحقيقةُ الكبرى، وهى كيف كان النبى ﷺ يقاتل ويحارب لهديَه الخلْق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشـهواتِها؟ وكيف كان بطباعه القويةِ الصريحةِ تعديلاً فعَّالاً فى هذه الإنسانية للنواميس الجائرة؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ليكْسِـر به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التى تقضِى بجعل الأخلاق أثراً من آثار السَّعَةِ والضيق، فتُخرجُ من الغنىّ متعفِّفًا ومن الفقير لصًّا؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السامى أن يُحوّلَ معنى الغنى فى نفوس أصحابه وفيجعله ما اسـتغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدنيا وتَرَك لا مانال منها وجَمَع؟ أما هذا ونحوُه مــن حقائــق النبوة العاملةِ فــى تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هــو لا يوجد فى الكُتب وشـروحِها وحواشـيها، ولكن فى الحياة وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبح شيوخُنا من الأمة فى مواضعَ لم يضعهم فيها الدينُ ولكن وضعتهم فيها الوظيفة....

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة: سـئل بعضُ العرب: بِمَ سـاد فلانٌ فيكم؟ قالوا: احتجْنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا...

■■■

الأخلاقُ المحارِبة

(٤)

وحدثنى صاحب سـرّ (م) باشـا بهـذا الحديث قال: كنا فى ثورة سـنة ١٩١٩م سـنةِ الهزّاهِز والفتَن، وقد تفاقمت الثورةُ، وأخذ الشبابُ يعملُ ويفكر فيما يستطيع أن يعمـلَ، وما يجب أن يعمل؛ وكان السَّـخْطُ العامُّ هو ميراثَ الوقت، فكانت قلوبُ الشـعب تُلهَمُ واجباتِها إلهامًا، إذ لم يكن فى هـذه القلوبِ كلِّها إلا لَذْعةُ الدم تعيِّن اتجاهَ أعمالها وتحدِّده.

كانـت الثورة زلزلـةً وقعت فـى التاريخ، فجـاءت تحت زمن راكـدٍ لا يتغير إلا بأن يُنْسَف، ولا ينسِفُه إلا مادةٌ إلهيةٌ كالحركة الكونية التى تخْرِجُ اليومَ الجديد مـن اليوم القديـم؛ فكان القَدَرُ يعمـل بأيدى الإنجليز عملاً مصريـا، ويعملُ بأيدى المصريين عملاً آخر.

وتعلم الشـعبُ من دفْن شـهدائه كيف يَسـتَنْبِتُ الدمَ فيُنْبِتُ به الحرية، وكيف يزرع الدمعَ فيُخرِج منه العزم وكيف يستْمِرُ الحزنَ فيثمر له المجد.

وكان رصاصُ الإنجليز يصيب هَدَفين معا: فيصرعُ شهداءنا، ويقتلُ الموت السياسيَّ الذى احتلَّ معهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعب بالصدمةِ الأولى، فنَشِبَت المعركة التـى تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر؛ وشـعرتَ مصرُ فى جهادِها بأنها مصرُ، فالتمـس رُوحُها التاريخىُّ رمزه العظيمَ فى الأمة ليظهرَ فيه عاتيًا جبَّارا؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيم هو سعد زغلول.

* * *

قال صاحب السـر: وكان الطلبةُ قد غَدَوا من أول النهار يتظاهَرون، وقد جعلتهم الثورةُ كالأرواح تخلَّصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تباليه، واستقلَّت عن العقل

بتحولهــا إلى شــعورٍ مَحْض، وخرجتْ عن القوانين كلِّهــا إلا القانونَ الخفيَّ الذى لا يُعلَم ما هو.

كانوا فى معانى قلوبهم لا فى غيرها، فلستَ تراهم إلا عظماءَ فى عظمة المبدأ الذى ينتصرون له، أقوياءَ فى قوة الإيمان الذى يعملون به، أجلاّءَ، فى جلال الوطن الذى يحيَوْن ويموتون فى سبيله.

وكانوا فى الشعب هم خيالَ الأمةِ العاملَ المدرك، وشعورَها الحيَّ المتوثب، وقُواها البارزةَ من أعماقها، وأملَها الزاخفَ ليَقهَر الصُّعوبة.

يُفَادُون بأنفســهم الغالية ويُؤثِرون عليهــا، وليس فى أحد منهم ذاتُه ولا أغراضُ شــخصِه. فما أجلَّ وما أعظم! وما أروعَ وما أسمى! أيتها الحياة! هل فيكِ أشرفُ من هذه الحقيقةِ إلا حقيقةَ النبوَّة؟

* * *

قال: وكان أخى هو زعيمَ هؤلاء الطلبة فى مدينتنا؛ قويٌّ على الزَّعامة وفيٌّ بها، يحمل قلبًا كالجمرة الملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقَعْقع به.

إذا مشى فى جهاده كان كلُّ ما على الأرض ترابًا تحت قدميه، فلا يمشى إلا محتقِراً هذه الدنيا وما فيها، غيرَ مقدِّسٍ منها إلا دينَه ووطنَه؛ وسلاحُهُ أن كلَّ شىء فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدَّ الظلم.

وكان فــى ذلك اليوم يقود «المظاهرة»، وحوله جماعةٌ من خالِصَته وَصفْوةِ إخوانه، يمشــون فــى الطليعة تحت جوّ متَّقِدٍ كأن فيه غضبَ الشــباب، عنيــف كأنما امتزج به السخطُ الذى يفورون به رهيب كأنه مُتهِّيئ لينفجر، فلما بلغوا موضعًا من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرشاش...

قــال: فإنى لجالسٌ بعد ذلك فى الديوان إذ دخل عَلَيَّ أخى هذا ينتفضُ غضبًا كأن المعانى تنبعثُ من جســده لتقاتل، ورأيتُ له عينين ينظر الناظرُ فيهما إلى النار التى فى قلبه؛ فخشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنون والرصاصَ معًا.

استنْبأتُه خبرَ أصحابه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشَحَّطون فى دمائهم، فوقفَ هو شـاخصًا إليهم كأنه ميتٌ معهم، وقد أحس كأنما خَلعَ عن جسمه نواميسَ الطبيعة، فلا يعرف ما هى الحياةُ ولا ما هو الموت؛ وكان الرصاصِ يتطاير من حوله كأن أرواحَ الشهداء تتلقاه وتُبعثره لا يناله بسوء. قال: وما أنْس لا أنسَ ما رأيتُه فى تلك السـاعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيتُ بعينى رأس الدمَ المصرىَّ يسلِّم على الدمِ المصرىِّ، ويسعى إليه فيعانقهُ عناق الأحباب.

ثم قال: أين هذا الباشا؟ وما باله لم يصنع شيئًا فى الاحتياط لهذه الفَوْرة؟ يكاد الخِزىُ واللهِ يكونُ فى هذه الوظائف على مقدار المرتب..

***

قـال صاحب السـرّ: ولم يُتمّ كلمته حتى خرج علينا الباشـا متكَسِّـرَ الوجهِ من الحـزن قد تغرغرتْ عينـاه، فأخذ بيد أخـى إلى غرفته وتبعتُهما، ثـم قال: هَوْنًا ما يا بنـىَّ إن العلـةَ فيكم أنتم يا شـبابَ الأمة، فكلُّ ما ابتلينـا أو نُبتلىَ به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقُكم المتخاذِلة؛ إننا من غيركم كالمدافع الفارغةِ من ذَخيرتها: لا تَصلُح إلا شكلاً، وبهذه العلةِ كان عندنا شكلُ الحكومة لا الحكومة.

أتدرى يا فتى ما هى الحكومةُ الصحيحةُ فى مثل حالتنا؟ هى أن تحكموا أنتم فى الشـعب حكومةً أخلاقيةً نافذةَ القانون، فتضْبطوا أخلاقَ النساء والرجال، وتردُّوها كلها أخلاقًا محاربـَـة لا تعرفُ إلا الجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ الحق؛ وإلا فكما تكونون يُوَلى عليكم...

هذا وحده هو الذى يُعيد الأجانب إلى رشـدهم وإلى الحقيقة، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثيابٌ معلَّقة ليس فيها لا بِسوها...

كيــف يَتَصَعْلَكَ المصـرىُّ للأجنبى لو أن فى المصرىّ حقيقةَ القوة النفسـية؟ أترى بارجةً حربية تتصعلك لزورق صيدٍ جاء يرتزق؟

إن فى بلادنا المسكينةِ الأجانب، وأموالَ الأجانب، وغطرسةَ الأجانب، لا لأن فيها الاحتـلال، كلا، بل لأن فيها ضعفَ أهلها، وغفلةَ أهلها، وكرمَ أهلها... بعضُ هذا يا بنيَّ شبيهٌ ببعض، وإلا فما هو كَرمُ الشاةِ الضعيفةِ إلا لذةُ لحمها...؟

نريد لهذا الشـعب طبيعةً جديةً صارمةً، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشـعرُ ذاتــهَ التاريخيــةَ المجيدةَ فيعملُ فــى الحيــاة بقوانينها؛ وهذا شـعورٌ لا تحدثِه إلا طبيعــةُ الأخلاقِ الاجتماعية القوية التى لا تتساهل من ضعف، ولا تتسـمح من كـذِب ولا تترخَّصُ من غفلة والحقيقةُ فى الحيــاة كالحقيقة فى المنطق: إذا لم يَصْدُق البرهــانُ على كل حالاتها، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتها، فإذا كنا ضعفاء كُرماء، أعزَّاء، سادةً على التاريخ القديم، فنحن ضعفاءُ فقط....

إن الكـبراءَ فى الشـرق كله لا يصلحون إلا للرأى، فلا تَسُـوموهم غيرَ هذا، فهم قـد تلقَّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة، وبهذا لن تُفلحَ حكومةٌ سياسـيةٌ فى الشـرق الناهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيةً يُمِدُّها من نفسهِ ومن الشعبِ فى كل حادثة بالأخلاقِ المحاربة.

يــا بنــيَّ إن القويَّ لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحــدة لا تتغير، لكان معناها للأقــوى أكثرَ مما هــو للأضعف؛ فإن هذا القويَّ الذى يعملُ مــع الضعيف يكون فيه دائما شخصٌ آخرُ مختلف، هو القويُّ الذى يعملُ مع نفسه.

هكذا هى السياسة؛ أما فى الإنسانية فلا، إذ يكونُ الحقُّ دائما بين الاثنين أقوى من الاثنين.

■■■

خَضَع يَخضع ...

(٥)

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثنى به: جاء ذاتَ يوم قنصلُ (الدولة الفلانية) من هذه الدولِ الصغيرةِ؛ التى لو علم الذبابُ فى بلادها أن فى مصرَ امتيازات أجنبيةً، لطمِعَتْ كلُّ ذبابة أن يكونَ لها فى بلادنا اسمُ الطيارة الحربية...

ورأيتهُ قد دخل علىّ شامخًا باذخًا متجبّرا، كأنه قبل أن يجىءَ إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصرى - قد تكلم فى (التليفون) مع إسرافيلَ يأمره أن يكونَ مستعدًّا للنَّفْخ فى الصُّور....

جنَى صُعلوكٌ من رعايا دولته على مصرىّ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه، وقضىَ ساعةً أو ساعتين بين أيدى المحققين يسألونه الأسئلةَ الهيِّنَةَ اللينة التى تُحيط بتعريفه من ظاهرِه، ولا يُشْبِهُهَا فى سَخافِة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أىّ مصنع هى فى أوربا.... فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكونَ حاضراً يشهدُ التحقيقَ، لأن جنايةَ أجنبىّ على مصرىٍّ تقع أجنبية... فلها شأنٌ ورعايةٌ وامتياز، وادعى أن المحققين ضايقوا المجرِمَ وعاسروه وتجهَّموه بالكلام، ولهذا جاء يحتجّ.

ورأيته جلس متوقِّراً كأنما يشعرُ فى نفسه أنه أثْقلُ من مِدفع ضخْم، لأن فى نفسه وَهْمَ القوة، وخيَّل إلىَّ أنه يرى موضعَه بين السقفِ والأرض؛ إذ يحملُ فى رأسه فكرةَ أنه الأعلى، وكانت له هيئةٌ صريحة فى أن الأجنبىَّ المقيمَ هنا ليس هو كلَّ الأجنبى بل لا تزالُ منه بقيةٌ تتمِّمُها دولتُه، وفى الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطق بأن للقانون المصرىِّ قانونًا يحكمه فى بلاده!

وأنا قد درستُ القانون الدولى، وعرفت ما هى الامتيازات وما أصلُها، وهى لا تعدو كرَم الأرنبِ التى زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبُه وترتَفِقُ به، فسألتها أرنبٌ

أخــرى أن تُرْدِفها خلفها، فلمـا اندفع بهما الحمار اسـتوطَأتْه، فقالت لصاحبته: يا أختـى، ما أفْرَهَ حمارَك! ثم سـكتت مدة وأعجبها الحمــار فقالت: يا أختى، ما أفرَه حمارَنا....

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلة؛ بحيث لم نبلغ مبلغَ الأرنب فى حكمتها وتدبيرِها وحذرِها، فإنها أسرعتْ ودفعتْ صاحبتَها وقالت لها: انزلى – ويلكِ – قبل أن تقولى: ما أفرهَ حمارى.

قال: غير أنى فى تلك السـاعة نسـيتُ القانونَ الدولى وكنــتُ فى إلهام مصريتى وحدها، فظهر لى ظهورا بيِّنًا أن لا شـىء اسمُــه القانونُ الحقُّ فى هذه الدنيا؛ ولكنَّ هناك اتفاقًا بين كل خضوع وكلِّ تسلط هو قانونُ هاتين الحالتين بخصوصهما.

وأسـرعتُ إلى الباشا فأنبأته، وأسرع الباشا فغيَّر وجهَه، وتبسَّط، وتهلل، وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز، كأنه أخص محبيه يتطلَّع إلى مؤانَسَتِه، وقد جاء يزورُه فــى داره. ثــم دخل القنصل، ولم أسمع مما دار بينهمــا إلا الكلمةَ الأولى، وهى قول الباشا: لنبدأ يا سيدى من الآخرِ...

***

وكانت فى الباشــا موهبــةٌ عجيبة فى اختلاب الأجانب خاصــة، يُديرهم بلَبَاقةٍ كالخاتَم فى إصبعه؛ حتى قال لى أحدهم: إن لهذا الباشــا حاسَّــةً زائدةً، لو سُمِّيت حاســةَ الإرضاء لكان هذا اسَمها الطبيعى، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكِّر بتفكيره؛ فهــو يبتكر الأســاليبَ الغريبة التى يصعَــدُ ويَهبط بها ميزانُ الحرارة النفســية، وإن جليسَــه يكاد يشعر من مَهارته فى التمثيل أن فى جوِّ المكان سِتارا يُرفع وستارا يُسْدَل بين الفصول.

فمــا لبِثَ القنصل أن خــرج بغير الوجه الذى دخل بــه، ولكنه عَبَس فى وجهى أنا وتَكَرَّه لى كأنه أَصْغَرَ شأنى، فازدرتْنى عينُه، فوثبتْ إلى رأسه فكرة الامتيازات.

وهذه القــوة الظالمة (الامتيازات)؛ لــو أنها كانت قوّةً قاهرةً نافــذة، وأُعِينَ بها

طُفيْلىٌّ ليقتحمَ دُورَ الناسِ آمنًا مطمئنًا – لاستحى هذا الطفيلىُّ أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه التطفلَ والمَقْتَ معًا، ولو قيل لحُسام بتَّار: إن لك امتيازا على بعض السيوف ألاَّ تقارِعك، وإنك محمىٌّ أن تنالكَ سَطْوتُها إذا قارعتَها – لأنِفَ أن يسمَّى سيفًا بهذا أو بمثْلِ هذا، فإن القوةَ الظالمةَ التى يُعيرُونه إياها، ليست إلا مَهانةً لشرفِ القوةِ العادلةِ التى هى فيه.

* * *

قال صاحب السر: ووصفتُ للباشا هيئة القنصل التى انصرف بها، وتقطيبَه فى وجهى، وقلت له: إن الذبابةَ وقعت فى صَحْفتى أنا من هذه الوليمة...

فضحك بملء فيه، ثم قال:

ستبطل هذه الامتيازات، وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهىَ الشعب إلى حقيقته القومية، فما تركها فى مكانتها إلا نزولُ الشعب عن مكانته، وتالله لكأن هؤلاء الأجانبَ يسألوننا بهذه الامتيازات: أين مكانُكم فى بلادكم....؟ أتدرى ما قاله هذا القنصل حين تَجَاذَبْنا الحديثَ فيها، بعد أن وضعتُ نفسى منه فى موضع المحامى الذى يخذلُه الدليلُ، فيحاولُ أن يستنزِلَ كرمَ القضاة بعَرْضِ بؤس المتَّهم على شفقتهم، ليستعطِفَ القانونَ الذى فى أيديهم بالقانونِ الذى فى أنفسهم؟

إنه قال: لا يلومَنَّ الشرقيون إلا أنفسَهم، فهم علَّموا الأجانبَ أن نتفَ ريشِ الطيرِ أولُ أكلِه.... وهذه الامتيازات إنْ هى إلا معاملةٌ بيننا وبين طبيعةِ الخضوع فى الشعب، نعم إنها مَضَرَّةٌ وَمَعَرَّةٌ. وظلمٌ وقسوة؛ ولكنها على ذلك طبيَّعةٌ فى الطبيعة؛ فما دام الشعبُ ليِّنَ المأخذِ، فإن هذا يُوجدُ له من يأخذه؛ وما دامت الكلمةُ الأولى فى مُعْجَم لغته السياسية هى مادة (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه الكلمةُ تحمل فى معناها الواحدِ ألفَ معنى منها: ظلمَ يظلِم، ورَكِب يركَب، ومَلكَ يملِك، واستبدَّ يستبِدُّ، ودجَّل يُدجِّل، وخَدعَ يخدَع؛ فهل يكثُر أن يكونَ منها للأجانب امتاز يمتاز؟

* * *

قال صاحب السر: ثم زمَّ الباشا فمَه وسكت: ففهمتُ الكلمات التى انطبق فمُه عليها وإن لم يتكلم، بها ثم غلبَه الضحك فقال: واللّه يا بنىَّ لو أن بُرغوثًا طَمَر من ثوب صُعلوكٍ أجنبىٍّ فوقع فى ثوب صعلوك وطنىّ، فتقاتَلا، فقبض عليهما، فأخِذا - لما رضِىَ بُرغوثُ الأجنبىّ أن يحاكم إلا فى المحاكم المختلطة...

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاما آخرَ لا يجوز نشرُه، ثم قال: يا بنىَّ، إن الأجانبَ لا يضعون الحِمل إلا على من يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مرادَهم أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافَقْنا لهم غرضًا جعلوه كالدينار فيه مائُة قرش، وأبَوا إلا أن نُصَارِفَهم عليه بمائة. هم - ويحكَ - يمتازون فى معاملتنا لا فى سطورِ القوانين والمعاهدات، فلنُبْطل هذه المعاملةَ يَبْطُلْ هذا الامتياز.

إن الحقَّ يا بنى استحقاقٌ لادَعوى؛ وهذا التنازعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبيعيةَ الانتزاعَ والمطالبةَ والتجردَ له والدأبَ فيه والإصرار عليه. وكل الأقوياء يعلمون أن موضعَ الاعتدالِ بين غَصْب الحق وبين استردادِه موضعٌ لامكانَ له فى الطبيعة: والأجنبىُّ يعتمد علينا نحن فى جعله أكبرَ منا وأوفرَ حُرمة؛ فإذا أسْقط الشعبُ هذه الامتيازات من فكره وروحِه وأعصابه، وثارتْ فيه كبرياءُ الوطنية فاستنكَفَ من الاستخذاء، ونفر من الاختضاع، وأبى إلا أن يُعلن كرامتَه، وصرفَ اهتمامَه إلى حقوق هذه الكرامة، وأصرَّ ألا يعامِلَ أجنبيًّا يرى لنفسه امتيازًا على وطنىّ، وقرر ذلك فى نفسه، ومكَّنه فى رُوعه، وأجمع عليه إجماعَه على الدين - إذا جاءت (إذا) هذه بشَرْطِها من الشعب، جاء جوابُ الشرطِ من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة، إننا يا بنىَّ لا نملك ضغطَ السياسة، ولكنا نملك ما هو أقوى؛ نملك ضغطَ الحياة.

لهم الامتيازُ بأنهم أجانبُ عنا، فليكن لنا الامتيازُ الآخرَ بأننا أجانبُ عنهم فى المعاملة، مِثْلاً بمْثل، وما يفَلُّ الحديدَ إلا الحديد.

يقولون: النظام الاقتصادى والمال الأجنبى. ولكن أرأيتَ المالَ فى يد الأجنبى إلا مالاً وتدبيرًا وسلطة وسيادة، ومن أنه فى يد الوطنى دَينٌ وإسراف ورِقٌّ وذل؟

لم يظهر لى إلا الساعةَ أن من حكمةِ تحريم الربا فى شريعتنا الإسلامية، وِقايةَ الأمة كلِّها فى ثروتها وضياعِها ومُستغَلاَّتها، وحمايةَ الشعبِ وملوكهِ من الإسراف والتخرُّقِ والكرم الكاذبِ، وردَّ الاستعمار الاقتصادى، وشلَّ النفوذ الأجنبى.

أمَا لو أننا كتَبنا من الأول على أبواب «البنك العقارى» وأبواب ذرّيته:

﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦].

فهل كانت تُقرأ هذه الكلماتُ الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبيةِ إلا هكذا: «محالٌ خالية للإيجار»...؟

■■■

فلنتعصب...!

(٦)

وقال صاحب سر (م) باشا: جاءنى يومًا صَحَفىٌّ إنجليزى من هؤلاء الكتاب المتعصّبين الذين تُطلقهم إنجلترا كما تُطلق مدافعَها؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل، وأولئك للكَذِب والتُّهم والمغالَطات.

وهو أذُنٌ وعينٌ ولسانٌ وقَلمٌ لجريدة إنجليزية كبيرة، معروفةٍ بثِقَلِ وطأتِها على الشرق والإسلام؛ تُصْلح بإفساد، وتُداوِى الحمَّى بالطاعون. وتعمل فى نهضة الشرقيين واستقلالهم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ الأمّ وهو فى شفَتَىْ رضيعِها المسكين.

ودخل علىَّ هذا الكاتبُ فى الساعة التى خرج فيها من غرفتى صاحبُ جريدة أسبوعية فى مدينتنا؛ كان قد نفخ الضِّفْدَع ليجعلهَا ثورًا، فحوَّلَ صحيفتَه إلى جريدة يومية، وهو لا يجدُ مادتها ولا يستطيع أسبابَها، إلا أنه كدأبِ الناس عندنا كان يحسبُ الكذِبَ فى العمل سَهْلاً مَهْلاً[1] كالكذبِ فى القول، فلم يَتَعاظَمْه الأمرُ العظيم، واقترض لعمله كلَّ ألفاظِ النجاح من اللغة...

وظنَّ عند نفسهِ أنه سيُخَوِّفُ بجريدته الكبراءَ والأعيانَ والميَاسيرَ حتى يَغْلبَ على جميعِهم، ويُشْرِكَ أصابعَه مع أصابعهم فى استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم؛ فلم تعشْ جريدتُه إلا أياما وأتلف ما جمعِ، ورهن فيها دارَه التى لا يملك غيرهَا؛ وعلم آخرًا أن الذى يكذبُ فيسمِّى الخروفَ جملاً، لا يقُبل منه أن يكذبَ على الكذب نفسِه، فيزعمَ أن الناقةَ هى التى نتَجَتْ هذا الخروف...

ولما انقلبت هذه الجريدةُ يومية كان الباشا هو ملجأَ الرجل وَوَزَره، وكان لكل يوم فى الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تقعُ فى الدنيا ولا تُجمع من الحوادث، ولكن تقع فى

---

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس فى اللغة، وهو من باب الإتباع كقولهم: حسن بسن، وشيطان ليطان.. إلخ.

ذهن الكاتب، وتُجمع من صناديق الحروف؛ حتى قال لى الباشا مرة: إن اسمى قد أصبح موظفًا فى هذه الجريدة لجمع الاشتراك...

وتجرَّى هذا الصحَفى أن يستأذن يومًا على الباشا وفى مجلسه حَشْدٌ عظيم من السَّراة والأعيان والعُمَد، وكان جَمعَهم لأمر، فما هو إلا أن دخل الصَحفى حتى ابتدره الباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هى تلغرافات أوربا عن الحوادث التى ستقع غدًا...؟

فضجَّ المجلس بالضحك، وفقدَ المسكين بهذه النكته أربعين دينارًا كان يؤمل أن يخرج بها، وأعلن الباشا فى أظرف إعلان وأبلغِه كذِبَ الرجل ونِفاقَه وإسفافَه، وأنه من رجال الصحافة المدوَّرَهِ تدويرَ الرغيف...

* * *

قال: ونظرتُ إلى الصحَفى الإنجليزى نظرةً أكْشِفهُ بها، فإذا أولُ الفرقِ بينه وبين أمثاله عندنا – شعورُه أن بلادَه قد ربَّتْه (للخارج)، فهو عند نفسه كأنه إنجليزىٌّ مرتين؛ ويأتى من ذلك إحساسُه بعزة المالِك وقوةِ المستعمِر،فلا يكونُ حيث يكونُ إلا فى صراحةِ الأمرِ النافذِ، أو غموضِ الحيلة المبهمَة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعُه العمليُّ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقاتِلة الفكر، يلتمسُ مَيدانه بين القُوَى المتضاربة لا يبالى أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العمل؛ وبهذا كلِّه تراه نافذَ البصيرةِ قائماَ على سَواء الطريق، لأن الإنجليزىَّ الباطنَ فيه يُوجِّه الإنجليزىَّ الظاهرَ منه ويُسَانِدُه؛ وفى أعماقِ الاثنين تجد إنجلترا، وليس غيرَ إنجلترا.

ثم تفرَّستُ فى الرجل أريد كُنْهَه وحقيقتَه، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلة معًا، كغُرَفِ الدار: الواحدةِ يُفتح بعضُها لما فيه كيما يُرى، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيه كيلا يُرى.

وله وجهٌ عمليّ يكاد يحاسِبُك على نظراتك إليه؛ تدورُ فى هذا الوجه عينانِ قد اعتادتا وزْنَ الأشياء والمعانى؛ يتلألأ فى هاتين العينين شعاعُ النفسِ القويةَ المرَّنةِ، قد نَفَتِ الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها، تُمِدُّ هذه النفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ

بأن أكبرَ سرورها فى أعمالها، فواجبُها فى الحياة أن تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكل ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّل إلىَّ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزى أن كلمةَ الخيْبَةَ عند هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين، فإن خيبةَ النفس لا تتم معانيها أبدًا فى النفس العاملةِ الدائبةِ، التى يُشعرها الواجبُ أنه شىء إلهى لا يَخيب، وأن ما يُرْفضُ على هذه الأرض من العمل الطَّيب لا يُرفض فى السماء.

وكأن الرجلَ قد أدرك غرضى بملَكَته الصحافية الدقيقة، فأجابنى عن السؤال الذى لم أسأله، وقال لى مبتدئًا: إن أساسنا الشخصيةُ وحاسةُ الواجب؛ وإن فيكم أنتم كلَّ شىء إلا هذين؛ فأخلاقُنا تَظهر دائما فى العمل، وأخلاقكم تَظهر دائما فى الكلام الفارغ؛ ونحن نطلب الحقيقة، وأنتم تطلبون الألفاظ، حتى إنه لو خَسِر المصرىُّ ألفَ دينار، ثم أعلن أنها مائةٌ فقط، وصدَّق الناسُ أنها مائة؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة...

***

قال صاحب السر: واستأذنتُ له على الباشا فسهَّل ورحَّب؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما، ولكن الإنجليزىَّ قال: يا باشا! إنه قد تمكن فى روعى أن صاحبَ سرك هذا متعصبٌ دينى، وقد علمت أنه ابن فلان القاضى الشرعى، فطربوشُه ابنُ العمامة؛ ولقد كان ينظر إلىَّ، وكأنه يتأملُ من أين يذبحُنى..

فضحك الباشا وقال لى: يا فلان إن هذا الكاتبَ من تلاميذ برناردشو، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذَنبًا كذيلِ الهرّ، ثم يمسكُها منه فإذا هى تَعَضُّ وتتلوَّى...

والتفت بعد ذلك إلى الإنجليزى ثم قال له: جاءنى كتابك فإذا كنت تريد رأيى فيما تسميه التعصب الدينى عند المسلمين، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطةَ ثم تسألونا نحن فيها! إنك لتعلم أن هذا التعصبَ الكذِبَ الذى أكثرتم الكلامَ فيه، إنما هو لفظٌ من ألفاظ السياسة الأوربية، أرسلتموه إلينا ليقاتِلَ لفظَ التعصب الحقيقى؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات)، وأجريتموها فى لغتكم السياسية، لتجعلوا بها

لتعصبنا الوطنىِّ شكلا آخر غيرَ شكلِه فتفسدوه علينا بهذه الماده المفسدة؛ وبذلك تَضربون اليدَ اليمنى من غير أن تَلمسوها، إذ تضربونها بشلّ اليد اليسرى.

إن الإسلام فى نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصب الذى تفهمونه، فهو يقول لأهله فى كتابة العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٥].

فإذا كان العدلُ فى هذا الدين عدلاً صارمًا، وحقًا محضًا لا يميِّز بشىء ألبتة، لا ذات النفس التى فيها اشتهاءُ الدم، ولا أصلَها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثةُ الدم، ولا أطرافَها من الأقربين الذين يلتفُّون حول نَسَب الدم - إذا كان هذا، فأين فى هذا العدلِ محلُّ الظلم؟

لعلك تشير إلى هذه الرُّعونة التى تعرفها فى الأغمار والأغفال من العامة، فهذه ليست من أثرِ الدين، بل هى أثرُ الجهلِ بالدين؛ إن هذا ليس تعصبًا، بل هو معنى من معانى الحَميَّة النفسية الخَرقاء لم تجدوا أنتم له لفظا، وكان أقربَ الألفاظ إليه عندكم هو التعصبُ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذى فى نفسه والمعنى الذى فى أنفسكم. ألا فاعلم أن إسلامَ العامة اليومَ هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك.

قال الإنجليزى: ولكن لهؤلاء العامة علماءَ دينيين يُدبّرونهم من ورائهم وهم عندكم ورثَةُ النبى ﷺ أى منبعُ الفكرة وقوتُها.

قال الباشا: غيرَ أن هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ فيهم عِرقٌ من تلك الوراثة، وذلك هو الذى بلغ بنا ما ترى؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطَّلة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباءُ النبوة، لكَهْرَبوا الأمم الإسلاميةَ فى أقطارها المختلفة. إذن لقام فى وجه الاستعمار الأوربى أربعمائة مليون مسلم جَلْدٍ صارم شديدٍ، متظاهرين متعاونين، قد أعدُّوا كل ما استطاعوا من قوة العلم، وقوَّة النفس، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرين لردموا البحر...

أتريد معنى التعصب فى الإسلام؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول؛ فهو تَشَابُكُ المسلمين فى أرجاء الأرض قاطبةً، وأخذُهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة، لدفع ظلمِ القوة بآخر ما فى الاستطاعة.

وهو بَذلك يعملُ عملين: استكمالُ الوجودِ الإسلامىِّ، والدفاعُ عن كماله.

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسى، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها، لا على استمرار الحياة ووجودِها فقط ، وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز: لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحريةِ، فأنتم مسلمون فى هذا المبدأ لو عَدَلتم.

أليس من البلاء أن المسلمين اليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعض إلا على الخريطة... مع أن الحجَّ لم يُشرَعْ فى دينهم إلا لتعويدهم دراسةَ الأرضِ فى الأرض نفسها لا فى الورق، ثم ليكونَ من مبادئهم العمليةِ أن العالمَ مفتوحٌ لا مقفل؟

إن التعصبَ فى حقيقته هو إعلانُ الأمةِ أنها فى طاعة الشريعة الكاملة، وأن لها الروحَ الحادَّة لا البليدة، وأن أساسها فى السياسة الاحترام الذاتىُّ لا تقبل غيرَه، وأن أفكارَها الاجتماعيةَ حقائقُ ثابتة لا أشكالٌ نظرية، وأن مبدأها هو الحقُّ ولا شىءَ غير الحق، وأن قاعدتَها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥].

فالهدايةُ أولاً والهداية آخِرًا: الهداية فى القوة، والهدايةُ فى السياسة، والهدايةُ فى الاجتماع، فقل لى بحياتك وحياة إنجلترا: أيعابُ ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التى يَعيب اللصُّ بها أهلَ الدار لأنهم يُحْكمونَ فى وجهه إقفالَ الباب...؟

قال: فَوجَم الإنجليزىُّ حتى ذُهل عن نفسه صاح:

إذا كان هذا فلنتعصَّبْ، فلنتعصَّبْ.

■■■

وزن الماضى

(٧)

وقال صاحب سر (م) باشا: إنى لجالسٌ ذات يوم وفى يدى كتابٌ لبعض المتفلسفةِ من مَلاَحِدَة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يُفهَم؛ وكان الباشا قد رآنى مرّة أنظرُ فيه وأتدبَّرُ مسائلَة الغامضة، فقال لى: يا بنىَّ، إن أحدَ الكلاب كان شاعرًا فيلسوفًا، فنظر ليلةً فى النجوم فراعتهَ وحيَّرته؛ فآلى أن يفهَمهَا بعقله وتفرَّغ لدرسها مدةً طويلة، ثم وضع فيها كتابًا نفيسًا ضخْمًا، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدَّها غموضًا عند الكلاب، وكان اسمُه: العظام المبعْثَرةُ فوقنا...[1].

قال: فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذى لا صحيحَ فيه إلا أنه غيرُ صحيح..

إذا دخل علىَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاء المدخُولين فى عقولهم، المفتونين بأوربا ومذاهِبها وعُلْويَّاتِها وسُفْلِياتها... وهو يكتبُ فى الصحُف، ويؤلف الرسائل، وقد جاء يَسْتَصْرِخُ الباشا على فلاَّح شاركه فى زراعة أرضه، فزرعَه الفلاحُ فيها وحَصَده، وَدَهاه بكَيدِه، وابتلاه بغِلْظَته، وتهدَّده بالنقمة.

وكان هذا الفلاحُ الساذَجُ الغريرُ قد سبقَه إلَّى وعرَّفه لى تعريفًا قاموسيًا محيطًا من مادة كَفَر يكْفُر... ثم قال بعد ذلك: إنه (بيَّاع كلام) يَصْدُق ويكْذِبُ حسب الطلب... والذمةُ نفسُها ليست عنده إلا (عملية حسابية)، وهو فى أقوى جهاتِه لا ينفع الدنيا بما تنفعُها به البهيمة من أضعف جهاتها.

أما الكاتبُ فيقول عن هذا الفلاح: إنه لا يدرى أهو يُتمُّ بَهائمَه أم بهائمةُ هى التى تُتمُّه، وإن الذى يرفعُ القضيةَ على مثلِ هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالذى يُقَعْقعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيَّةُ السامَّة.

(١) لا ريب أن المؤلف... قد بحث فى كتاب (الوسائل التعليمية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة...

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدى، فتهلَّل واستبشر وقال لى: هذا نَسَب بيننا... فأدركتُ من كلمته هذه جملتَه وتفصيلَه، وخيِّل إلىَّ أنى أرى فيه نفسَه الشرقيةَ كالمرأة المطلقة.. فقلت له: أنا اشتريتُ هذا الكتاب من أوربا، ولكنى لم أشترِ منها دماغى...

وكلَّمتُه أستخرجُ ما عنده؛ فإذا هو فى قومه وتاريخِ قومه كالسائح فى بلادٍ أجنبية: يفتحُ لها عينَه ولا يفتح لها قلبَه.

* * *

وكان جريئًا فى كلامه مع الباشا: يَطْرُدُ القولَ حيث شاء حقًّا وباطلاً، ثم لا سِنادَ لرأيه ولا تثبيتَ لحجته إلا قولُ فلان ورأىُ فلان، كأن فى رأسه عقلاً شحّاذًا... ثم ذكر آخرَ الأمر ما جاء له، فخجَّله الباشا وقال: هذه مسألة ككل مسائلك: تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى... وأعرض عنه ولم يدخُلْ فى شىء من أمره.

ولما انصرف قال الباشا: يحسبُ هذا نفسَه عالمًا، وهو صُعلوكٌ عِلْمىّ.. وإنما يكون دماغُه وأدمغةُ أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلَّة المهمَلاتِ عند الصحافيين.

إن هذا الرجل يُتم ضعفَ عقله فى الرأى بقوة عنادِه فيه، ليجعلَ له ثباتَ الحقيقة فيُظَنَّ حقيقة، كأن خَضْخَضةَ الماء باليد فى وعاء صغير يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعة الموْج؛ وعند أمثالِ هذا المفتون من الصعاليك العلميّين، أنك إذا تناولت مسألة فأخطأتَ فيها خطأ جريئًا، فقد جعلتَها بخطئك الجرىء مسألةً من العلم... وأنك إذا عاندتَ فثَبتَ الخطأ فى وجه الناقدين سنة، كان حقيقة مدةَ سنة...

هم مفتونون زائغون، ومن فتنتهم أنهم يرَون البعدَ بينهم وبين أهلِ الفضائل الشرقية، كالبعد بين العالم والجاهِل؛ ولو حقَّقوا لرأوه بُعْدًا فى الغرائز لافى العقل، أى كالبعد بين الفُجور وما أشبَه الفُجورَ، وبين التقوى وما أشبه التقوى.

زعم الأحمقُ أن خصمَه الفلاحَ رجلٌ راسخٌ فى الماضى، كأنه باقٍ فى أمسٍ لم ينتقل منه؛ مع أن أمسِ قد انقطع من الزمن، ثم خرج من ذلك إلى أن الأمةَ يجب أن تنبذَ ماضيهَا ثم ادعى أن الإسلامَ يتعصَّب للماضى. هذه ثلاثُ كلمات تخرجُ منها الرابعةُ التى سكتَ عنها...[1].

وأنا لو شئتُ أن أسخَرَ من مثل هذا الصُّعلوكِ العلمىّ، لما وجدتُ فى أساليب السخرية أبلغَ من أن أبعثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ وأقول له: املأها لى من آراء الفلاسفة...

يغْفُلُ هذا وأمثالُه عن أن الدينَ الإسلاميَّ لا يعرف الماضىَ بمعنى ما مضى على إطلاقه؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلم، وألا يناقِضَ الهداية؛ ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٠].

وفى الآية الأخرى: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٤].

وفى الثالثة: ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢١].

وفى الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٢].. قال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٤].

فانظر كيف صَوَّر ما نسميه اليوم بالجمود فى قوله (حسبُنا)، وكيف صور ما نسميه بالرجعية فى قوله: (نتَّبع)، وتأمل كيف رفض الجمودَ والرجعيةَ معًا فى العلم والعقل والهداية، أى فى آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية،

(١) الرابعة التى يستلزمها هذا السياق المنطقى: هى تجرد الأمة من الدين، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين.

وكيف أبطل فى تلك الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضى بهذا الأسلوب الدقيقِ العالى، وهو قولُه فى كل آية أوَلَوْ، أوَلَو، لم يغيّرها؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مرات.

فالمعجِزُ هنا مجىءُ الآيات بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حجتهم، ونفى معنى التقديس عن الماضى فيهنَّ؛ إذْ كان العلمُ دائمَ التغيُّر، وكان العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداع، وكانت الهدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس؛ فكأنها جديدةٌ على النفسِ عند كل شهوة.

إن الإنسانَ بماضيه وحاضره كأنه مقسومٌ قسمين، يقولُ أحدُهما: أريد أن أكون، ويقول الآخر: أنا قد كنت، فالإسلامُ بهذه الآيات قد أوجبَ وزنَ الكلمتين فى كل زمن بما هو الأصحُّ، وبما هو الأنفع، وبما هو الأهدى؛ وباشتراطه الهدايةَ فى جميعها أشار إلى أن الكمالَ النفسىَّ للفرد يجب أن يكونَ مرتبطًا بالكمال الإنسانىَ للجنس.

وهذا معنىً عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أن الإسلامَ قد أصلح فكرةَ الماضى؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس، إلى المعانى التى هى كالآباء والأجدادِ لإنسانية الناس، والأخذُ (بالأهدى) فى اجتماعِ أُمَّةٍ من الأمم، إنما هو بعينه ناموسُ الترقى والتطوُّر.

ومن أدَقِّ الأسرار قوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٢].. فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها، ولم تفسّرها إلا علومُ هذا الزمن، فهى المشاعرُ النفسية التى يتكوّن منها مزاجُ الشعب، وفيها يستقرُّ الماضى؛ كأن الآيةَ قد عبَّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس: من أن الإنسانَ ابنُ أبويه وابنُ شعبه أيضًا.

فالتعصبُ فى الإسلام هو للعلم النافع، وللمجد الصحيح، وللهداية الباعثة على الكمال؛ وتعصبُ الجيلِ لمثلِ هذا فى ماضيه، هو فى اسمِه تعصب، غيرَ أنه فى معناه إنما هو العملُ لتسليم مجدِ الأمة إلى الجيل التالى.

■■■

المعجـم السـياسى

(٨)

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال: كنا فى سنة ١٩٢٠م، وهى بنت سنة ١٩١٩م[1]؛ وقد اجتمعت الأمةُ على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلِّمُها، فجعلت السكوتَ ثورة، وأعلن الشعبُ أن كلمتَه فى لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النبى بما يُوحَى إليه، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولهَا، ولا أن يقولَ أُوحى إلىّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدّقَ أن للمصريين إجماعًا يُعْتَدُّ به، وأنهم دخلوا فى السياسة دخولاً ثابتًا فَرَسَخُوا فيها، وأنهم أصبحوا مع الإنجليز كالإنجليزِ الذين يقولون عن أنفسهم فى مثَلهِم السائر: ينبغى أن نكونَ أحرارًا مثلَ أعمالنا.

وزعم اللورد لنفسه، أن هذه الأحزابَ المصريةَ لا يتفق منها اثنان أبدًا إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه، وهو الطمع فى مناصب الحكم؛ واستخرج من ذلك أن المصرىَّ والمصرىَّ كشقِى المِقراض: لا يتحركان فى عملٍ إلا على تمزيق شىء بينهما؛ فإن لم يكن بينهما (الشىء) لم يكن منهما شىء.وذهب الرجلُ يَتَظنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ له الظن، وقد حسب أن إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ فى المصريين ما يقولُ الله فى خَلقه كما ورد فى الأثَرَ:

«إنما يتقلَّبون فى قَبضتى» وكما تقول اليومَ لأهل فلسطين من العرب:

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩].

وكان اللورد هذا رجلاً ممارسًا لمشاكل السياسة، دَخالاً فيها، دَاهيةً من دُهاة القوم، له فى قلبه عينان وأذنان غيرَ ما فى وجهة كحذَّاقِ السياسيين؛ وهو يعرف أن سياسةَ قومه لا تدخلُ فى شىء إلا دخولَ الإبرة بخيطها فى الثوب، إن خرجت

(١) سنة الثورة المصرية، وقد مر وصفها فى مقاله (الأخلاق المحاربة).

هى تركت الخيطَ وقد جَمَعَ وشدّ... فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين فى إجماعهم على الاستقلال، وقدَّر أنه واجدٌ من الفلاحين عونًا له ومادةً لمكرِه السياسى، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة، ينزلون من الشعب منزلةَ اليد التى تُمْسِكُ القيدَ، من الرِّجْلِ التى فيها القيد، ويضعون معنى كلمة الحاجة فى كلمة السياسة، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه، ويقيمون الشعبَ كالسُّلَّم ينتصبُ قائمًا بأيديهم ليحملَ أرجلَهم الصاعدةَ عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمةَ كلها قد حَذِرَت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدى باشا بأنه لن يجدَ فى مصر هرَّةً تفاوضه؛ ولكنه كان مستيقنًا أن أُذُنَ السياسة الإنجليزية (كالراديو) لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمرَّ فى البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام، وانْصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه، وكان يسير فى دائرة الصمت التى مركزها أبو الهول، فبدأ وظلَّ يبدأُ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساح فى البلاد سياحةً طويلة، وكأنه لم يسافر إلا من شَفَة أبى الهول السُّفلى إلى شفته العُليا.

* * *

قال صاحب السر: وجاء اللورد لمقابلة الباشا، فمرَّ علىَّ مرورَ كتابٍ مقفَلٍ: لا أعرفُ منه إلا العنوان؛ غيرَ أنه رجلٌ بمقدارِ الرجلِ الذى يخالف أمةً كاملة تكاد تحسبُه مطويًا على زوبعة، وترى له قوتين تُحِسُّ من أثرهما الرهبةَ والإعجاب، وإذا تأملتَه قلتَ إن اللطفَ والظَّرْفَ أضعفُ شمائله، وإن الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه.

فلما لقيتُ الباشا من الغد، سألنى: كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: والله يا باشا إنه كالضرورة: ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجىء..

فضحك الباشا وقال: ياليت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورةً تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا فى ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية: وهى أن الشعبَ الذى يُصِرُّ يجعل الإغراءَ لا يُغرِى والخوفَ لا يخيف.

ويا ليت الأممَ الشرقيةَ تتعلم هذا الصمتَ السياسيَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحيانًا؛ فإن صمْتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر)، كان معناه أن قدرةَ الأمة هى المتكلمةُ كلامهَا بذا الصمت، تعلن للعالم أن الواجبَ الشعبىَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم.

وقد فسر اللورد هذا السكوتَ بتفسيره السياسى، فأدرك منه أن فى الشعب أَنَفَةً وحميَّةً وقوة، وأن حسابَ الضميرِ الوطنىّ أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهىّ للنفوس المؤمنة: كلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ وَيُتَّقى، وكلاهما كلمةٌ محرَّمة.

أية معجزة هذه التى جعلت كلمةَ الأجنبى تتخذُ فى أذهان أمةٍ كاملة شكلَ قائلها، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرفض، وأصبح كلُّ فرد يعرف محلَّه من الكل، وخضعت الطبائعُ بجملتها لقانون العزة القومية، الذى يُلزِمها ألا تخضعَ للأجنبى؟

إن الأممَ بعضُ مسائلُ نفسيةٍ كهذه المسألة؛ فلو أن لنا خمسةَ دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر)، لكانت لنا فى الإيمان الوطنى كالصلواتِ الخمس.

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعب العزيزَ هو الذى ينظر فى فضِّ مشاكلِه إلى الحلِّ وإلى طريقة الحل أيضًا، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذَتِنا فى تعليمنا الطريقة.

وهذا الدرسُ يجب أن يكون درسًا للشرق كله، فإن السياسة الاستعمارية قائمةٌ فيه على خداع الطريقة فى حل مشاكله، فيحلونها ويعقِّدونها فى نصٍّ واحد؛ ويُثْبت الكلامُ الذى يتفقون عليه أن المراد منه زوالُ الخلاف، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاوَمة.

وفى السياسة الأوربية موافقاتٌ دميمةٌ كالنساء المشوَّهات، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوّجوه... فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الإبصار، أعفَوه منها وقالوا له: سنأتيك بالجميلة، ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوى، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضهَا، ثم يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك، وما صنعوا ما به صارت الدميمةُ غيرَ دميمة، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى.

ولهم عقول عجيبة فى اختراع الألفاظ، حتى لتكونُ شدةُ الوضوح فى عبارة، هى بعينها الطريقةَ لإخفاء الغموض فى عبارة أخرى. وكثيرًا ما يأتون بألفاظٍ منتفخة تُحسَبُ جَزْلةً بادنَةً قد ملأها معناها، وهى فى السياسة ألفاظٌ حُبَالى، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثم تلد...

ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛ فيكون الرجلُ من دُهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مِسْمَارٌ دَقُّوه فى أرض كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظُ لفظًا كاللغة، وهو مسمارٌ دقّوه فى وثيقة أو معاهدة.

ثم ضحك الباشا وقال: إن أرضَنا تُخرج القطن، وسياستنَا تخرج ألفاظًا كالقطن: لا توضع فى المِعزَل إلا مَدَّت وتحولت. وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير، لم نجد عندنا المعجمَ السياسى الذى يُملِى النص. أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى؟

أما إنه لو كان كتابًا يتألفُ من مليون كلمة، لذهبت كلها عبثًا وباطلاً وهُراء، ولكنه ذلك المعجمُ الحىّ، ذلك المعجمُ الذى يتألف من مليون جندى...

■■■

اللســانُ المُرَقَّــع...

(٩)

وقال صاحب سر (م) باشا: جاء «حضرة صاحب السعادة» فلان لزيارة الباشا؛ وهو رجل مصرىٌّ وُلد فى بعض القُرى، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبْع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد فى دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة. غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح فى إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوَّن نفسه ألوانًا، فهو مصرىٌّ ملوَّن. ومن ثم كان لا يرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغةُ قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه... كالميت بين تواريخ الأمم.

هو كغيرة من هؤلاء المترفين المنعَّمين: مصرىُّ المال فقط، إذ كانت أسبابهم ومستَغلاّتهم فى مصر؛ عربىُّ الاسم لا غير، إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة؛ مُسلمُ ما مضى دون ما هو حاضر، إذ كان لا حيلة فى أنسابهم التى انحدروا منها.

هو كغيرة من هؤلاء المترفين المنعَّمين المفتونين بالمدينة: لكل منهم جنسه المصرىّ ولفكره جنس آخر.

قال: وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التى تلعنها العربية، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًّا... نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عاليًا... فكان يرتضخ لكنة أعجميةً، بينا هى فى بعض الألفاظ جرسٌ عال يطن، إذا هى فى لفظ آخر صوت مريض يئنّ، إذا هى فى كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن، ورأيتُه يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرّفًا ولا تملحًا

ولا إظهارًا لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبى الخفى المتمكن فى نفسه، فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه.

فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٍّ لهذا وأمثال هذا! أفٍّ لهم ولما يصنعون! إن هذا الكبير يلقبونه «حضرة صاحب السعادة»، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قَروىّ ساذج يكون لقبه «حضرة صاحب الجاموسة»... نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم، ولكن هذا أقبح منه جهلاً، فإنه جاهلُ وطنية.

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقَّع) هذا؟ إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهينة، وأنه مُتجرد من الروح السياسى للغة قومه؛ إذ لا يظهر الروح السياسى للغةٍ ما، إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها.

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم فى بلاده إلا بلغته، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه؛ فهو على أنه «حضرة صاحب سعادة»، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة.

أتدرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السرَّاة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم؟ إنهم عندنا طبقات:

أما واحدة، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ فى طباعهم، مما تركه الظلم والاستبداد والحمق فى زمن الحكم التركى؛ فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق فى الدم... وهم بها يتنبَّلون.

وأما طبقة، فإنهم يتكلفون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسى فى عهد الاحتلال الإنجليزى؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة، وهم بها يتمجدون.

وأما جماعة، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها، إذِ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهبًا انتسبوا إليه؛ وفيهم العالم بعلوم أوربا، والأديب بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى، إذ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقية فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته، وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، إذ يغلون فى مصريتهم غلوًّا قبيحًا ينتهى بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته، وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُه من حيث هو رقيعٌ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ماشاء، إن هذا لمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥].

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس؛ فهم يُقحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تظرفًا ومعابثةً ومجونًا، على أنه هو الذى يظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم، وأماكن الفساد القومى فى طبيعتهم، وجهات التحلل الدينى فى اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم.

وما برح التقليدُ السخيف لايعرف له بابًا يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدّها فى المحاسن والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم، إذ كانت هى الأسهلَ علينا، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون.

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية – على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها – تجدها هى علينا أصعبَ وأشدَّ،

لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون، وكل ذلك من شيء واحد: وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا.

* * *

قال صاحب السر: ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال: كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين، إذ يعملون ولكن بروح غيرِ عاملة..

■■■

سرُّ القُبَّعة

(١٠)

وحدثنى صاحب سر(م) باشا، قال نَجَمَتْ فى مصر حركةٌ بِعقِب أيام البدعة التركية، حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدةَ الواحدةَ التى تقررها المشانق... فمن أبى أن يخلع العمامةَ عن رأسه خلعوا رأسه؛ ومن قال (لا) انقلبت (ﻛ) هذه مشنقةً فعُلِّق فيها.

وكانت فكرة اتخاذ القبَّعة فى تركيا غطاءً للرأس، قد جاءت بعد نَزَعاتٍ من مثلها كما يجيء الحِذاءُ فى آخر ما يلبس اللابس، فلم يشكَّ أحدٌ أنها ليست قبَّعةً على الرأس أكثرَ مما هى طريقةٌ لتربية الرأسِ المسلم تربيةً جديدةً، ليس فيها رَكعةٌ ولا سَجْدةٌ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعةَ على رأس الزنجىّ والهمَجىّ، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسودَ أبيض، ولا عرفناها نقلت همجيًا عن طبعه، ولا زعم أحدٌ أنها أكملت العقلَ الناقص أو ردَّت العقل الذاهب، أو انقلبت آلةً لحل مشكلات الرأس البليد، أو غَصَبَت الطبيعَة شيئًا وقالت: هذا لحاملى دون حامل الطربوش والعمامة.

وقد احتجُّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجهَ إلا المدنية، ولا يعرف المدنيةَ إلا مدنيةَ أوربا، فهو يمتَثِلُها كما هى فى حسناتها وسيئاتها، وما يَحلُّ وما يَحْرُم، وما يكون فى حاجة إليه وما يكون فى غنىً عنه؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُورًا بالطبيعة، لجعل هو قومَه عورًا بالصناعة ليشبهوا الأوربيين... نعم إنها حجةٌ تامة لولا نقصٌ قليل فى البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفُتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغَاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبَّعاتٍ، ليشبهوا الأوربيين...

* * *

قال صاحب السر: وتـهوَّر فى هذه الضلالة رَهْطٌ من قومنا، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع فى مصر احتذاءً لتركيا، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه، فكان رأيه (لا) بمدِّ الألفِ... وعهد إلىَّ بعضهم أن أسأل الباشا، فقال:

ويْحهم! ألاَ يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلَّدين للتقليد نفسه؟ إن هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل، فكأنها بدعتان[1]، ثم ضحك الباشا وقال: كان فى القديم رجل سمع أن البصل بالخلّ نافعٌ للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: ازرع لى بصلاً بخلّ... هكذا يريدون من القبعات: أن تُخْرج لهم تُركا بأوربيين.

ليست هذه القبعة فى تركيا هى القبعة، بل هى كلمةُ سبٍّ للعرب وردٌّ على الإسلام، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيِّنةً، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحْده، وهى إعلانٌ سياسى بالمناوأة والمخالفةِ والانحراف عنا واطِّراحِنا، فإن الذى يخرج من أُمَّته لا يخرج منها وهو فى ثيابها وشعارها؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج فى القبعة دون غيرها مما يجرى فيه التقليدُ أو يُبدِعُه الابتكار؛ وإلا فأى سرٍّ فى هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين...؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مقَصًّا فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتَّار، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع المِقصُّ، فماذا عساه يأتى به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعًا؟

أكتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث فى التقليد الأعمى، وألاّ يَحيْا الشرقىُّ إلا مستعبَدًا ينتظر فى كل أموره مَن يقول له: اشْرَعْ لى...؟ إنْ بحثْنَا فلْنبحثْ فى زِىٍّ جديد نتميَّز به، فتكون القُوَى الكامنة فينا وفى طبيعة أرضنا وجوِّنا هى التى اخترعتْ لظاهرِها ما يجعله ظاهرَها، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبْدَةَ الأسد، غايةً فى المنفعةِ والجمالِ والملاءمة.

(١) الأصل تقليد تركيا لأوربا، وهذه بدعة؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأولى.

أنا ألبس ما شئت، ولكنى عند القبَّعة أجدُ حدًّا تقفُ إليه ذاتيَّتى الفرديةُ، فلا أرى ثَمَّةَ موضعَ انفراد ولكنْ موضع مشاكلة، ولا أعرف صفةَ منفعةٍ لى بل صفةَ حقيقةٍ منى، ويعترضنى من هناك المعنى الذى يصيرُ به النوعُ إلى الجنس، والواحدُ إلى الجماعة، وما دمتُ مسلمًا أصلِّى وأركع وأسجد، فالقبَّعةُ نفسُها تقول لى: دعنى فلستُ لك.

وهؤلاء الرجالُ الذين لبسوها فى مصر، إنما اشتقُّوها من المصدر نفس المصدر الذى يَخرج منه التهتكُ فى النساء، وكلاهما مَنزَعٌ من المخالفة، وكلاهما ضدٌّ من صفةٍ اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عامة. وليس يعدم قائلٌ وجهًا من القول فى تزيين القبعة، ولا مذهبًا من الرأى فى الاحتجاج لها، غير أن المذاهب الفلسفية لا يُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضًا على أن حياء المرأة وعفتَها إنْ هما إلا رذيلتان فى الفن... وإن هما إلا مرضٌ وضعف، وإن هما إلا كيت وكيت، ثم تنتهى الفلسفة إلى عدّهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدنيا أن تُقْحِمَ فى كتاب الصلاة مثلاً فصلاً فى... فى... فى الدَّعارة.

لا يهولنَّك ما أقرر لك: من أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصرى، تهتُّكٌ أخلاقىّ أو سياسىّ أو دينىّ أو من هذه كلها معًا، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عُقَدها، وبعد أن قاربت الحريةُ العصريةُ بين النقائض حتى كادت تختلط الحدودُ اللغوية؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادقَ والكاذبَ بمعنى واحد، فلا يقال : إلا أنه وجد منفعتَه فصدق، ووجد منفعته فكذب؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدودًا إلا جهلُ القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين، هى أيضًا فى المعجم اللغوى الفلسفى الجديد مترادِفاتٌ لمعنى واحد، هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة.

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعانى، كان طبيعيًّا أن يلتبسَ شىءٌ بشىء وأن يَحلَّ معنى فى موضع معنىً غيره، وأصبح الباطلُ باطلاً بسببٍ وحقًّا بسبب آخر، فلا يحكم

الناسَ إلا مجموعةٌ من الأخلاق المتنافرة، تجعل كلَّ حقيقة فى الأرض شبهةً مزوَّرةٌ عند من لا تكون من أهوائه ونزَعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحا، فيكْسِبون القانونَ بمدنيتهم قوةً همجيةً تضطره أن يُعِدَّ للوحشية الإنسانية، وتدفعُ هذه الوحشية أن تُعِدَّ له.

ومن اختلاط الحدود تجىء القبعةُ على رأس المسلم، وما هى إلا حدّ يطمِسُ حدًّا، وفكرةٌ تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هأنذى قد جئتُ فاذهبى.

ما هو الأكبر من شيئين لاحدَّ بينهما لتعيين الصِّغر؟ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكبر؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له فى التمييز ولا مقرَّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوام أكبرَ كلمات الإنسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى، وكان عند آخرين أصغرهما وأفرغَها من المعنى؛ وما كبر عند أولئك إلا مِن أنه يسع الاجتماعَ الإنسانى وهو محدود بغاياته العليا، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له، وكأنه معنى مُتوهَّم لا وجود له إلا فى أحرف كلمته.

فجماعة القبَّعة لا يرون لأنفسهم حدًّا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرقيتنا، وقد مَرَقُوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون فى زِينا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى الذى يلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعانى أسلافنا.

وأنا أعرف أن منا قومًا يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانونٌ من قوانين التطور؛ فهو فيما يلابسُه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس، بل واحدٌ من النواميس... ومن هنا الثِّقَل والدعوى الفارغةُ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى. وإنه لحقٌّ أن يكونَ بعضُ الناس أنبياء، ولكن أقبحَ ما فى الباطل أن يظن كلُّ إنسان نفسَه نبيًّا.

واعلم أن كثيرًا مما يزينونه للشرقى من رزائل المدنية الأوربية، إن هو إلا منطقُ شهوات فى جملته، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلم عن الطعام، فترى كلامًا تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها...

■■■

سعد زغلول

(١١)

وقال صاحب سرّ (م) باشا: ألقى إلىَّ الباشا ذاتَ يوم أن (سعدًا) مُصَبَّحُنا زائرًا[1]، وكانت بين الرجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطيدة. وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشُّعلةَ فى بركانها؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التى جعلته رجلاً فى إحدى يديه السِّحرُ وفى الأخرى المعجزة، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغة من كلماتِ اللغةِ: يُرَدُّ كلُّ مُفْرَد إليه فى تعريفه، ولا تصح الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها.

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لاتشبهها القُبلات، إذ مُثِّلتْ لى من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وضعتْ على تلك اليد.

إن الرجل العظيم إذا كان بارًا بأبيه عارفًا قدرَه مُدركًا عظمتَه، يشعر حين يقبِّل يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التى يقبلها، ويجد فى نفسه اتصالاً كهربائيًا بين قلبه وبين سرّ وجوده، ويَخُصُّه العالَمُ بلمسة كأن قُبلتَه نبضتْ فى الكون: وكل هذا قد أحسسته أنا فى تقبيلى يدَ سعد، وزدتُ عليه شعورى بمثل المعنى الذى يكون فى نفس البطل حين يقبّل سيفه المنتصر.

وضحك لى سعد باشا ضحكتَه المعروفه، التى يبدأها فمُه، وتتممها عيناه، ويشرحها وجهُه كلَّه، فتجد جوابَها فى روحك كأنه فى روحك ألقاها.

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم، رأى له ابتسامةً كأنها كمالٌ يتواضع، فيُحس كأن شيئًا غيرَ طبيعى يتصل منه بشىء طبيعى، فينتعشُ ويثبُ فى وجوده الروحىّ وثبةً عاليةً تكون فرحًا أو طربًا أو إعجابًا أو خشوعًا أو كلها معًا.

---

(١) يقال: صبحه (بتشديد الباء)، أى جاءه صبحًا.

غير أن الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعد وهو يضحك ضحكتَه المطمئنةَ المتمكنةَ من معناها المقِرِّ أو المنكرِ أو الساخرِ أو أىِّ المعانى – حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك، وظهرت له تلك الابتسامةُ الفلسفية متكلمةً، كأنها مرةً تقول: هذا حقيقى، ومرة تقول: هذا غير حقيقى.

إن سعدًا العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنىٌّ إلا بعين فيها دلائلُ أحلامِها، كأنما هو شخصُ فكرة لا شخصُ إنسان؛ فإذا أنت رأيتَه كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك؛ فأنت تَشهدُه بنظرين: أحدُهما الذى تُبصِرُ به، والآخر ذاك الذى تؤمنُ به.

عبقرىٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبدًا يرتجُّ وهو أبدًا يَرُجُّ ما حوله؛ صريحٌ كصراحة الرسُل، تلك التى معناها أن الأخلاق تقول كلمتَها.

رجلُ الشعب الذى يُحِسُّ كلُّ مصرى أنه يملك فيه مِلكًا من المجد. وقد بلغ فى بعض مواقفه مبلغَ الشريعة، فاستطاع أن يقولَ للناس: ضعوا هذا المعنى فى الحياة، وانزِعوا هذا المعنى من الحياة.

* * *

قال صاحب السر: وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره، فلما رجع من وداعه قال لى: والله يا بنىَّ لكأنما زاد هذا الرجلُ فى ألقاب الدولة لقبًا جديدًا، ثم ضحك وقال: أتدرى ها هو هذا اللقب؟ قلت: فما هو يا باشا؟

قال: والله يا بنى ما من (باشا) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد، إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا)...

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغًا تَصَاغر معه الكبير، وتضاءلَ العظيم، وتقاصَر الشامخ؛ نعم وحتى ترك أقوامًا من خصومه العظماء، كفلان وفلان، وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفِه وتَطَرُّحِه، كأنه ظلُّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبح قوةً عاملةً لابد من فعلها فى كل حىّ تحت هذا الأُفق، حتى كأن معانىَ نفسِه الكبيرة تنتشر فى الهواء على الناس، فهو قوة مرسَلة لاتُمسَك، ماضيةٌ لا تُردّ، مقدورةٌ لا يُحتال لها بحيلة.

هذا وضْعٌ إلهى خاصّ لا يشبهه أحدٌ فى هذه الأمة، كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى؛ فقد غَامَر سعدٌ فى الثورة العرابية وخرج منها، ولكنها هى لم تخرج منه؛ بل بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ، وتُصلح أغلاطَها، ثم ظهرت منه فى شكلها القانونى الدقيق. وبهذا تراه يَغْمُر الرجال مهما كانوا أذكياء؛ لأن فيه ما ليس فيهم، وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتةً فى معانيها، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية.

وتلك الثورة هى التى تتكلم فى فمه أحيانًا فتجعل لبعض كلماته قوةً كقوة النصر، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربية مذكورة.

ولما كان هو المختار ليكون أبًا للثورة – حرمته القدرةُ الإلهية النسلَ، وصرفت نزعةَ الأبوَّة فيه إلى أعماله التاريخية، ففيها عنايُته وقلبُه وهمومُه، وهى نسلٌ حىّ من روحه العظيمة، ويكاد معها يكون أسدًا يزأرُ حولَ أشباله.

ولن يُذكَر السياسيون المصريون مع سعد، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسيًا، فإن المكان الخالى فى الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لا رجلِ السياسة، وهذا هو السبب فى أن سعدًا يُشْعِر الأمةَ بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار، وإن لم يفز بشىء ولم ينتصر على شىء؛ فاطمئنانُ الشعب إلى زعيم المقاومة، هو بطبيعتة كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه.

وسعد وحده هو الذى أفلح فى أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة؛ فنسخ قوانينَ، وأوجد قوانين، وحمل الشعبَ على الإعجاب بأعماله العظيمة، فنبَّه قوةَ الإحساس بالعظمة فجعله عظيما، وصرفه بالمعانى الكبيرة عن الصغائر، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعَه فيه.

إن هذا الشرقَ لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغربُ بإزائه، والفريسهُ لا تتخلص من الحلْقِ الوحشىّ إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية فى هذا الحلق.

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيرًا، فتكون الوظيفة هى الوزيرَ لا نفسُ الوزير، حتى لو خلعوا ثيابَه على خشبة ونصَّبوها فى كرسيه، لكانت أكثرَ نفعًا منه للأمة، بأنها أقلُّ شرًّا منه...

يا بنىّ، كل الناس يرضَون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم، فليست هذه هى مسألةَ الشرق، ولكن المسألة: مَن هو النبى السياسىُّ الذى يرضى أن يُصْلَب...؟

■■■

حماسة الشعب

(١٢)

وحدثني صاحبُ سر (م) باشا قال: لما رجع سعد باشا من أوربا فى سنة ١٩٢١م، كانت الأمةُ فى استقباله كأنها طائر مدَّ جناحيه، لا خلافَ لشيء منه على شيء منه، بل كلّه هو كلّه؛ وكانت المعارضة فى الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رُقعةٍ فى ريش الطائر.

على أن ثوبَ السِّياسة المصرية كثيرُ الرُّقع دائمًا بالجديد والخَلَق، فرقعةٌ من المعارضين، وأخرى من المتعنّتين، وثالثةٌ من المتخاذلين، ورابعة من المعادين، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلم ومالا نعلم، فإن من العجيب أن هذا الجو الذى لا يتقلب إلا بطيئًا، يتقلب أهلُه بسرعة؛ وهذه الطبيعة التى لا تكاد تختلف، لا يكاد أهلها يتفقون.

ولكن سعدًا (رحمه الله) رجع من أوربا رجعةَ الكرامة لأمة كاملة، ففاز بأنه لم يخسر شيئًا من الحق، وانتصر بأنه لم يُهزم، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع، وذهب صَولةً ورجع صَولةً وعزيمة؛ فكان إيمانُ الشعب هو الذى يتلقاه؛ وكانت الثورةُ هى التى تحتفل به، وبطلت العللُ كلّها فلم يجد الاعتراضُ شيئًا يعترض عليه، واتفقت الأسبابُ فاجتمعت الكلمة، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثِّلاً فى قدرة، حاكمًا بقوة، متسلطًا بيقين.

نعم لم ينتصر البطلُ، ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار؛ فكانت حماسة الشعب فى ذلك اليوم حماسةَ المبدأ المتمكن: يُظهر شجاعةَ الحياة، وفَوْرةَ العزائم، وفضيلةَ الإخلاص، وشدةَ الصولة، وعنادَ التصميم؛ ويثبت بقوة ظاهرة قوةَ باطنه، وكان فرحُ الأمة عنادًا سياسيًّا يفرح بأنه لا يزال قويًّا لم يَضعف، وكان ابتهاجُها مجدًا يشعر بأنه لا يزال وافرًا لم يُنْتَقَص، وكان الإجماعُ

ردًّا على اليأس، وكانت الحماسةُ ردًّا على الضعف.

انبعثت صولةُ الحياة فى الشعب كلِّه، وابتدأ المستقبلُ من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء فى سحابة مُجَلجِلةٍ يسمعُ تسبيحهُم ليؤيدوا سعدًا - لما زادوه شيئًا؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة، وكان التصديقُ مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفةً عليه كأنه الباعثُ الطبيعى، وكان البطلُ فى كل ذلك يشبه نبيًّا من قِبَل أن كلاًّ منهما صورةٌ كاملة للسموّ فى أفكار أمة.

*

قال صاحب السر: ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصحةِ العهد، واجتماعِ الكلمة، وإعدادِ الشعب للمِراس والمعاناه، فقال:

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصرَ الجبارة متى شاءت بَنَتْ الرجالَ على طريقة الهرم الأكبر فى العظمة والشهرة والمنزلة والقوة، ولقد صنع هذا الرجلُ العظيم ما تَصنع حربٌ كبيرة، فجمع الأمةَ كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدةٍ لا تختلف، وجعل عِرقَ السياسة يفور كما يفور العرقُ المجروحُ بالدم.

إن هذه الأمةَ بين شيئين لا ثالثَ بينهما: إما الحزمُ إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعبُ كما ظهر اليوم: طوفانًا حيًّا، مُسْتَوىَ الطبيعة، مندفع الحركة، غامِرًا كلَّ ما يعترضه، إلى أن يُقضَى الأمر ويقول أعداؤنا: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [سورة هود: الآية ٤٤].

هكذا يعمل الوطنُ مع أهله كأنه شخصٌ حىّ بينهم، حين يستوى الجميع فى الثقة، ويتآزر الجميعُ فى الأمل، ويشترك الجميعُ فى العطف الروحى، ولا يبقى لجماعة منهم حظٌّ فى رغبة غيرِ الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذبابًا سياسيًّا لا شأن له إلا بفَضَلات السياسة، ولا عملَ له فى أزهارها وأثمارها وعِطْرها وحَلواها؛ فأسمعهم الشعبُ اليوم طنينَ النحل، وأراهم

إبَرَ النحل، ليعلموا أن الأزهارَ والأثمارَ والعطرَ والحلوى هى له بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون أن مذهبنا فى الحياة لمصلحة المعاش فقط، وأن المصرىَّ حاكمًا أو محكومًا لا يَمدُّ آماله الوطنيةَ إلى أبعدَ من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة، فإذا أطلقوا أيديَنا فى حاضر الأمة أطلقنا أيديَهم فى مستقبلها، ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ فى نفسه حقًا تامًا فى أنفسنا لهذه العلة؛ وحسبوا أن السياسىَّ المصرى لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسىُّ الأوربى: من أنه لا يخشى الموتَ ولكنه يخشى العار. فإنه إذا مات وحده، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته، بَيْدَ أن سعدًا قالها؛ وفى مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة.

وها هى ذى معركةُ اليوم التاريخية، فإن الذرَّاتِ الحيَّةَ التى تُخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت فى هذه الدماء، فى هذا النهار، تعلن أنها لا ترضى أن تولَد مقيَّدة بقيود.

أتدرى ماذا عرضوا على سعد؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه فى السخرية طاحونةً تامةَ الأدوات والآلات من آخر طراز، ثم لا تُقدَّم لها إلا حبةُ قمح واحدة لتطحنَها... نتيجةٌ تسخر من أسبابها، وأسبابٌ تهزأ بالنتيجة.

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه، فما أرى للسياسيين فى هذا الشرق عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بالفائدة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرقى، ثم حياطتها وحسنِ توجيهها؛ فهذه الحماسةُ الشعبيةُ الدائمةُ القويةُ البصيرةُ، هى قوةُ الرفض لما يجب أن يُرفَض، وقوةُ التأييد لما يجب أن يقْبَل، وهى بعد ذلك وسيلةُ جمع الأمرِ، وإحكام الشأن، وإقرار العزيمة فى الأخلاق، وتربية الثقة بالنفس، وبها يكون إذكاءُ الحِسّ وتعويدُه إدراكَ الأعمال العظيمة، والتحمسَ لها، والبذلَ فيها.

وما علةُ العلل فينا إلا ضعفُ الحماسة الشعبية فى الشرق، وسوءُ تدبيرها، وقبحُ سياستها؛ وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم؛ فنأخذ كلَّ ذلك بروحنا الفاترة فى خمول وإهمال وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بالمصلحة واستبدادٍ بالرأى، فإذا دينارُهم فى أيدينا درهم، وإذا نحن وإياهم فى الشىء الواحد

كالنحلة والذبابة على زهرة...

ليست لنا حماسةُ الحياة، وبهذا تختلف أعمالنُا وأعمالُهم، وذلك هو السرُّ أيضًا فى أن أكثر حماستنا كلاميةٌ مَحْضةٌ؛ إذ يكون الصراخُ والصياحُ والتشدُّقُ ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحًا للطبيعة الساكنة فينا، وتنويعًا منها بغير أن نَجهدَ فى التنقيح والتنويع، ومن هذا كانت لنا أنواعٌ من الكلام ينطلق اللسانُ فيها للخروج من الصمت لا غير... ومنه كثير من هذا الهُراءِ السياسيِّ الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف.

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط، بل على معايِبِة أيضًا، وعلى ضَعفِه بخاصَّة، والشعبُ الفاترُ فى حماسته لو نال حقين مغصوبين لعادَ فخَسِر أحدَهما أوكليهما، أما الشعب المتحمس القوى فى حماسته، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدهما لعاد فابتَزَّ الآخر.

■■■

الجمهور

(١٣)

وقال صاحب سر (م) باشا: كان من بعض عملى فى الحكومة سنة ١٩٢٢م أن أراقبَ الحركاتِ والسكَناتِ، وأبثَّ العيونَ والأرصادَ، وأعرفَ المضطرَب والمنقلبَ فى أيام الفِتن ونوازِلِ المحنةِ، محافظةً على الأمن، ومبادرةً لما يُتوقع؛ فكنت كالمرصدِ المهيَّإِ بآلاته لتدوين حركات الزلازل.

وانتهى إلينا يومًا أن راجفةٌ من هذه الزلازل سترجُف بفلان من أهل الرأى الحر؛ الذى يَستقِلُّ ولا يُتابِعُ، وينتقد ولا يُحابى، ويُصرّح ولا يُجَمجمُ، وأن قومًا ثوَّروا عليه الغُبارَ الآدميَّ من العامة وأشباهِ العامة، وأنهم يتحيَّنون الوقتَ لتوجيه المكيدةِ له فى شكلها المفترسِ من هذا الجمهور الناقم.

أما فلان هذا فرجلٌ سياسيّ عنيد أضاع الحقَّ كلَّه لأنه لا يرضى بنصف الحق... وكلمتُه فى السياسة كأنما تُلقَى على لسانه من الغيب؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم؛ وقد ذهب بصوته أنه فى قوم لا يسمعون إلا ما أرادوا، فهو بينهم كالحق المغلوبِ: لا يموت لأنه غيرُ باطل، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر، وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج فألقَوا عليه الغطاء، فإذا هو فى طبيعتة ويبدو للناس بغير طبيعته، وتركه رأيه الحرُّ الصريحُ كالنبىّ المكذّب يَردُّ صِدقُه؛ لا لأنه غيرُ صدْق، ولكن لأنه غيرُ مستطاع، أو غيرُ ملائم.

ومن آفاتنا نحن الشَرقيين أننا نستمرىء العداوةَ، ونَنقادُ لأسبابها، ونتطاوَعُ لها تطاوُعَ الصغار بأنفسهم لما فى أنفسهم؛ كأن المستبدين الذين كانوا فى تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا؛ فَرَدُّ الفكرِ على الفكر فى مناقشةٍ تَجرى بيننا - لا يكون من دَفْع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبدادِ على الاستبداد، ومن توثُّب الطغيان على الطغيان؛ فهو الثَّلْبُ؛ والطعنُ والتجريح، وهو الجَفْوةُ والخصومةُ واللَّدَد، وهو المنازعةُ والعنفُ والتحامل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط، والجدالُ بين العقلاء

يبعثُ الفكرَ فينتهى إلى الحق، ولكنه فينا نحن يَهيجُ الخُلُق فينتهى إلى الشر، والردُّ على عظيم منا كأنه يردُّ على منزلته فى الناس لا على منزلته فى الرأى، وكشفُ الخطأ عندنا تعييرٌ بالخطأ لا تبصيرٌ بالصواب، واسْتِلابُ الحجَّةِ من صاحبها وإفسادُها عليه كاستلاب الملك من مالكه وطردِه منه...

ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة العاجزة، وكان الإعناتُ دليلاً للدليل الذى لا ينهضُ بنفسه، ومتى اعتَبر كلُّ إنسان نفسَه إمبراطورًا على الحق... فلا جَرَمَ لا تَردُّ كلمةٌ على كلمةٍ إلا بحرب.

* * *

قال صاحبُ السر: وكَبُرَ الأمرُ على الباشا، فجمع رءوسَ المؤتمرين بذلك الرجل الحر، وأخذ يقلِّبهم تقليبَه بين التودُّد والملاطفة، وقال لهم فيما قال: إن فضيلة الجمهور هى التى تضمن تربيةَ الفضيلة وحفظها وغلَبتهَا على الرذائل، وإن كلَّ صحيح يكون فاسدًا إذا لم يكن الجمهورُ صحيحًا، وإن غير العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقةَ فى يوم ثم يرفضونها هى ذاتهَا فى يوم آخر، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها - قالوا: هذا كان أمس... فكأنما الفاصلُ بين زمنين يجعل الشيء الواحدَ ضِدَّين.

ثم سألهم: ما هو ذنبُ الرجل؟ فقال منهم قائل: إنه خارجٌ علينا فى الرأى؛ فقال الباشا: إن المعنى فى أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه؛ فقد تكافأت الناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذى جعل لكم حقَّ رده عن الرأى دون أن يكون له مثلُ هذا الحق فى ردكم أنتم؟

قالوا: إننا الكثرة، قال الباشا: يا أصدقائى، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأ المعنَيَين فى تفسير رأيها هى؛ وعشرةُ جنيهات لا تعبأ بالجنية الواحد، فإنها تستغرِقهُ؛ بَيْدَ أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائى...

نعم إن قطْعَ الخلاف ضرورةٌ من ضرورات الوطنية، ولكن إذا كان الأمر فى ظاهره وباطنه كالخلاف فى أيّهما أطولُ: العَصا أو المِئذنة...؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال.

إن أساسَ انخذالنا نحن الشرقيين فى قلوبنا، إذ لا نعتبر المعانىَ العامةَ إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال، ثم لا نعتبر الرجالَ إلا من ناحية ما فى أنفسِنا منهم، ثم لا نعتبر أنفسَنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يغضبنا، وقد لا يغضبنا إلا الحقُّ والجِدُّ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ والتهاون، ولكنا لا نبالى إلا ما نرضى وما نغضَب.

لستم أحرارًا فى أن تجعلوا غيركم غيرَ حر، فإن يكن الرأىُ الذى يعارضكم رأيًا حقًّا وتركتم مُنَابذَتَه فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحق الذى أنتم عليه؛ ولن تجرّدوا أحدًا من اختيار الرأى إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة، تدَّعى أنها الحق، ثم تدَّعى لنفسها حكمه، فقد كذَبتْ مرتين.

اسمعوا أيها السادة: قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة فى صحيفة من الصحف، وتسَاجَلا فى مقالاتٍ عِدّة، فلما عجز أضعفُها حجةً وكَعَمهُ الجدال، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً، فلم ترضه فبيَّتَها ونام عنها على أن يرسلها من الغَداة بعد أن يُردد نظره فيها ويصحح آراءه بالحجج التى يُفتح بها عليه، قالوا: فلما نام تمثَّلت له المقالة فى أحلامه جسما حيًّا موهونًا مترضضًا، مخلوعًا من هنا مكسورًا من هناك، مجروحًا مما بينهما؛ ثم كلمتْه فقالت له: ويحك أيها الأبله! إن أردتَ أن تغلب صاحبك وتُسكِتَه عنك، فاحملْ مقالتك إلى رأسه فى العصا لا فى الجريدة...

***

قال صاحب السر: وضحك القومُ جميعًا، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين، قد خَلُصَتْ بِخْلتُهم لذلك الرجل الحر وتنصَّلوا من جريمة كانت فى أيديهم، وما جاء الباشا بمُعْجزٍ من القول، ولكنَّ تصويرَه للمسألة كان حلاًّ لها فى نفوسِهم، فلما أدبروا

تنفَّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريق ويُعانى فيه حتى نجا؛ ثم قال لى : إن هذا كان جوابًا عن شىء فى أنفسهم، ولكنه هو سؤال عن شىء فى أنفسنا: ما الذى يجعل الناسَ عندنا يخشوَن المعارضة فى الرأى الوطنى حتى إنهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة؟ وما بالهم لا يعطون الرأى حكمَه وحقيقتَه، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة، حتى لترجعُ الفروقُ الضعيفةُ المتجانسةُ فى أبناء الوطن الواحد وكأنها من الخلافِ والمبايَنَة فروقٌ جنسيةٌ كالتى تكون بين إنسانٍ من أمة، وإنسان من أمة أخرى تعاديها.

قلت: إن رأى الكثرة قانون يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكن بشرطين لا بشرط واحد: الأولُ ألاّ يخرجَ الرأىُ على القانون، والثانى ألاّ تكونَ الحقيقةُ فى الرأى الذى يناقِضه؛ ومحاولة إكراهِ المعارضة نقضٌ للشرطين معًا؛ ثم إن أساس الوطنية سلامةُ القلوب وصفاءُ النيات، واستواء الموافق والمخالف فى هذا الحكم، ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقةً مُخْلَصَة، لم يكن اختلافُهما إلا من تنوعِ الرأى. وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، ما من ذلك بد.

الحقيقة يا بنى أن الجماهيرَ الشرقيةَ ليست فى تربيتها من الجماهير السياسية التى يُعتدُّ بها، إذ لا تزال فى أول عمرها السياسى، وبهذا السبب وحده كان اختلافُ الكبراء فى السياسة لا يشبهه إلا نزاعُ الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذِ الحكم، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها، لا نزاعُ حق يَسْتعْلى بأدلته.

وهذه المجالسُ النيابية الشرقية كلها صُورٌ ممثَّلة جافَّة، منقطعةُ النماء من أسبابها، كالفرع المقطوع من الشجرة، وإنما يتنضَّرُ الفرعُ ويُثمِر أثمارَه إذا قام بشجرته لا بنفسه، وما شجرةُ الفرع السياسىّ إلا الجمهورُ السياسى.

فسبيلُ الإصلاح فى كل مملكة شرقية أن ينهض أهلُ الرأى من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسَرِىّ، ومن كان بسبيل من هؤلاء، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندْوة للاجتماع والبحث والمشُورة، وقول (نعم) بالحجة وقول (لا) بالحجة. ثم يعلنون

ذلك فى جمهورهم وينزلون منه منزلةَ الأستاذ والأب والصديق فى تعليمه وهدايته وإرشاده؛ وتتصل هذه الدورُ فى كل مملكة بعضُها ببعض، وتنتهى بالمجالس النيابية، وبغير ذلك لا يملأ الفراغُ الذى نراه خاويًا بين الشعب والحكومة، وبين الكبراء والجماهير، وإنما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ؛ فهو الذى يَضيع فيه ما يضيع فيه، ويختفى ما يختفى .

منا قومٌ موظفون فى الحكومة؛ لكن أين القومُ الذين تكون الحكومة نفسُها موظفةً عندهم؟

* * *

(اعتذار): بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا؛ فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتم السر...

■■■

المجـنون*

(١)

جاء يمشى هادئًا يتخيلُ فى مِشْيته، يَرْجُفُ بين الخَطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعِرك أن الأرضَ مُدركة أنه يمشى فوقها... ولا ينقلُ قدمَه إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسه يُحرِّكه إلى أعلى، فما تدرى أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه... أم يُخيَّل إليه أن هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه فى موضع راية الدولة، فهو يَهزُّه هزَّ الراية...

وأخذتْه عينى وليس بينى وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضُها - فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع فى صحراءَ يقلِّب عينَه فى جهاتها متحيرًا متردِّدًا، ثم كأنما رُفِعَ له فى أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته...

ورحَّبتُ به، وأجلستهُ إلى جانبى، فأخذ يَسْتَعْرِفُ إلَّى بذكر اسمه وجماعتِه وبلده، لا يزيد على ذلك شيئًا، كأنه عنترةُ بنى عَبْس: لأرضه من طبيعتها جغرافيًا، ومن اسمه جغرافيًا على حِدَة... فلما رآنى لا أُثْبِتُه مَعرِفةً قال: إن بك نسيانًا.

قلت: وكثيرًا ما أنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التى تذكِّر بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ الجرائد.. ومهما تنسَ من شىء فلا تنسَ أنك أستاذُ «نابغة القرن العشرين»[1]...

فسرَّحتُ فيه نظرى، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكاد برخاوته وتفكّكه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفتورهما.

---

* انظر حديث هذا المجنون وخبره فى «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية، ثم خولط فى عقله فتركها؛ وكل ما يمر فى هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه.

وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأسارير ممسوحُ المعانى، يُنبىء بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن دنياه ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسِه...

وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلِّدة قد ثبتتْ فى هذا الوجه لتُخرِجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنونًا لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ فى هذه الصَّفحة، قَتْلاها، أفكارُ المسكين وعواطفهُ.

وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُستَرْخٍ، مُتَفتِّرُ البدن، خائرُ النفس، كأنه قائم لِتَوِّه من النوم فلا تزال فى عينه سِنَةٌ، وكأَنه يتكلم من بقايا حُلُم كان يراه...

وخُيِّل إلَّى من هذا الخُمولِ فى هذا الشاب، أن علَيه جوًّا من تثاؤبِه، وأن المكانَ كلَّه يتثاءبُ، فتثاءبت...

* * *

فلما رأى ذلك منى ضحك وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجل مغناطيسىّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم.. وحسبُكَ فخرًا أن تكونَ أستاذَه وأخاه وثِقتَه، «فليس على ظهرِها اليوم أديبٌ غيرى وغيرَك...».

قلتُ فى نفسى: إنا لله، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنونًا غيره وغيرى، وكأنما ألمَّ بذلك فقال: لستُ مجنونًا؛ ولكنى كنت فى البيمارستان...

قلت: أهو البيمارستان الذى يسمَّى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إن هذا الذى تسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيب؛ أما الذى سميتُه أنا فهو مستشفى فقط...

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قومًا ظُرفاء يَدْخُلُهم الفسادُ فى عقولهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكون جنونُهم جنونًا إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلِّبون، إذا ازْدُهِىَ لم يُطِقْهُ الناسُ من زَهْوه وكبريائه وتنطّعِه، كأنه واحدُ الدنيا فى هذه الفكرة، وكأن بينه وبين الله

أسرارًا؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس فى أرقى طبقاتِ عقله، وما جنونُه إلا فى هذه الطبقة وحدها.

ومثلُ هذا لابدَ له ممن يستجيبُ لهذَيانه كيما يحركَ فيه خفتَه وطيشه وزهوَه، وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخيالىّ المُبدَع الذى لا يوجد إلا فى عقله المختل، فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنُه، أو يصانِعُه، أو يجاريه، حَسِبَه مُذْعِنًا مؤمنًا مصدّقًا فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به أشدَّ التعلق، ويراه كأنه فى ملكه.. فيتخذه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق؛ وقد يَزعُمُه أستاذَه لِيُفهمَه من ذلك بحساب عقله... أنه تلميذُه.

وخشيتُ أن يكون «نابغة القرن العشرين» لم يُسمِّنى أستاذَه إلا بحسابٍ من هذا الحساب، فهو سيُعطى الأستاذيةَ حقَّها، ولكن كما هو حقُّها فى لغةً جنونه... فأُصبِحُ فى رأيه تلميذَه وصنيعتَه، ومحدّثَ هذيانه، وثقتَه وملجأه، والمحامىَ من ورائه.

قلت فى نفسى: إذا أنا تركتُه جالسًا كان هذا المجلسُ مَثابَتَه من بَعدُ، فلا يعرفُ له محلا غيره، ويصبح كما يقال فى تعبير القانون«محله المختار»، فَيَتَطَرَّأُ إلَىَّ لسبب ولغير سبب، ويقعُ فى أوقاتى وقوعَ السهوِ لا حسابَ عليه، ويَضيعُ فيه ما يضيع، فأجمعتُ أن أصرِفَه راضيًا باليأس؛ وقد انتهت نفسُه من معرفتى، وانتهى عقلُه إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذًا، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس.

فقلت له: ظنى بك أنك أستاذُ نفسك، ولا يَحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكونَ له فى القرن العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى، وقد جاء من العمل ما تراه، وتكاد لا تفى به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و...

فقطع علىّ وقال: إن الوقت ليس فى الساعة؛ والدليلُ أنى أعطِّلها فيتعطلُ الوقت، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة.

فقلت: ولكنك إذا عطلتَها لم تتعطل الشمسُ التى تعيِّنُ منازِلَ النهار، فسيَمُرُّ الظهرُ ويَحينُ العصر و...

قال: ويأتى غد، وإنما أنا معك اليوم فقط.. ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ «نابغة القرن العشرين»، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك، فما كان لى رأىٌ إلا رأيتُه لك... ولا صحَّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتَها، وأنا لا أعتقد أدبًا فى مصر إلا ما توافَيْنا عليه معًا «ولا أسلّم جدلاً، ولا جدَلاً أسلّم أن فى مصرَ أدباء ينالون منى شيئًا، فهو أنا وأنا هو»[1]، ولئن لم يذعِنوا «لنابغة القرن العشرين» فليعلَمُنَّ أنهم «وقعوا منى موقعَ نملةٍ على صخرة... هذا من جهة، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنُها»...

فتهللْتُ واستبشرتُ، وقلتُ له: هذا قرش فهلمَّ فاشتر به دخائنك، وفى رعاية الله، ثم استويتُ للقيام، ولكنه لم يقم؛ بل تمكَّن فى مجلسه...

* * *

وكرهتُ أن أتَغَير له وما أشكّ أنه فى هذا صحيحُ التمييز؛ فما أسرعَ ما قال: إن «نابغة القرن العشرين» فتى قوىُّ الإرادة؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعاتٍ فما هو بصبور... وإذا لم يُثْبتْ لك هذا الأمر عن مُعَاينَة... فما أعطيتَه حقَّه.

فقلت فى نفسى: لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه، وأيقنتُ أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفةُ أحيانًا فتلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتفق مثلُها إلا لنوابغ المنطق؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن إبراهيم الشيبانى مرَّ به وهو يأكل خَبيصًا[2] فقال له: أطعمنى. قال: ليس هو لى، إنما هو لعاتِكةَ بنت الخليفة بعثَتْه إلى لآكله لها...

وقالوا: إنه مر بسوق البزَّازين فرأى قومًا مجتمعين على باب وكان قد نقِب، فنظر فيه وقال: أتعلمون من عمل هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

---

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا إلى ذلك، والباقى ترجمناه نحن عن معانيه، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله.

(٢) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن.

فقالوا: هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَونه، فألْطِفُوا به لعله يخبركم، ثم قالوا: أخبرنا. قال: أنا جائع. فجاءوه بطعام سَنِيٍّ وحلواء؛ فلما شبع قام فنظر فى النقْب وقال: هذا عملُ اللصوص...

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد «نابغة القرن العشرين»، فوصل الكلامَ بها وقال: إنه يقرأ كل مقالاتى، وإنه وإنه، وإنها وإنها. قلت: فما استحسنتَ منها؟ قال: (مقالة السيما)...

فقلت: متى كان آخرُ عهدِك برؤية السيم؟ قال: أمس.

قلت: فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما، ولكنك أعجبت بما رأيتَ أمسِ فتحوَّل ما رأيتَه حلمًا فى مقالة.

فأعجبه هذا التأويل وقال: بمثل هذا أنا «نابغة القرن العشرين»، فأقرأُ مقالتَك فى الغيب من قبل أن تكتبَها...

قلت: إنك تكثر أن تقولَ عن نفسك «نابغة القرن العشرين»، وهذا يَحصرُ نبوغَك فى قرن بعينه؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت: «نابغة القرن» لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر، وما قبلهما وما بعدهما.

فرأيتُ به شَدْهَةً كأنه يفكر فى جنونه، ثم أفاق وقال: لا. لا؛ وإن هاهنا موضَع نظر، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط، لجاء من يقول: إنى نابغة قرن خروف...

* * *

فقلت فى نفسى: حَمأةُ مُدَّت بماء[1]، وإن هذه الوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو هذا المسكينَ ما وجد من يكلمه؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظامَ لها، فلأسكتْ عنه ولأتشاغلْ بما بين يديَّ.

وسكتُّ وأعرضتُ عنه؛ فجعل طائفهُ يعتريه، وكأن السكوتَ قد سلَّط أفكارَه عليه، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصبح غلمانُ الطرق بالمجنون، لا يزالون

(١) هذا مثل فى معنى زاد الطين بله، والحمأة إذا مدها الماء زادت واتسعت.

به حتى يُحْرِدُوه ويُفقدوه البقيةَ من صبرهِ وعقله معًا. فغضب «نابغة القرن العشرين» ونقله الغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها عيناه[1]، وكلَحَ وجهُه حتى خفتُ أن يثورَ به الجنون، فأقبلتُ عليه وتعلَّلتُ بسؤاله: ألك إخوة؟ ألم ينبغ فيهم نابغة...؟

قال: إن له أخًا يعذبه، ويُوقعُ به ضربًا، ويغلِّله بالسلاسل، ويشدُّه «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل»، وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم.

قلت: فأنت فى حاجة إلى راحةٍ، ويحسن بك أن تأوِىَ إلى مكان تتمدَّد فيه.

قال: إنى منصرفٌ وسأجلس فى نَدِىّ كذا[2]«هذا من جهة، ومن جهة ليس معى ثمن القهوة».

قلت: فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك الندىِّ، فالمكانُ ها هنا كثير الضجيج والحركة، واستوفزتُ للقيام؛ ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه.

* * *

ثم قال: أراك الآن مُسْتَبْصِرًا أنى «نابغة القرن العشرين» بعينه.

قلت: بل بعينيه اليمنى واليسرى معًا.

قال: لا. لا؛ إنك نسيتَ أن العربَ تقول فى التوكيد: عينهُ ونفسهُ وذاتهُ. «أى أنا نابغة القرن العشرين بعينِه ونفسِه وذاتِه، فليس غيرى نابغة القرن العشرين».

وكادت نفسى تخرج غيظًا، ولكنى رأيتُ الحِلم على مثل هذا يجرى مجرى الصَّدقَة؛ وقلت: إن أدباء المجانين كثيرًا ما يتفق لهم الإبداعُ الطريفُ إذا علَّلوا شيئًا، كذلك القاصّ الذى كان يقصُّ على العامة سِيرةَ يوسفَ عليه السلام، فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن يوسف لم يأكله الذئب. قال فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف.

---

(١) أى لمعت غضبًا.

(٢) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة.

فقلت للمجنون: فما العلّةُ عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد: عينُه وأذنه وأنفُه وفمه ويدُه ورجله؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيَخلِطوا هذا الخلط، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك: وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ. «هذا من جهة، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة إلى بلدى وهى قرشان».

قلت: هذه هى أجرة السيارة وصَحِبتْك السلامة، ونهضتُ واقفًا؛ ولكنه لم يتحرك.

* * *

ثم قال: إنك لم تعرف بعدُ «أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعِدة أو أكثم بن صَيفى، وأنى صخر لا ينفجر.. يابس لا ينعصر، لست كالحجَّاج بل كعمر».

قلت: هذا شىء يطول بيننا ولا حاجةَ لك بهذه البراهين كلِّها، فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخَطابة والترسُّل.

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكلّ معقول ومنقول؛ وقد انتهينا على ذلك.

قال: ولكنك تحسبنى مجنونًا أو ممرورًا «كما حسبتنى الجرائد التى زعمت أن اختفائى فى البيمارستان كان لجنونى الفكرىّ أو لذكائى الطبيعى وهو الأصح... فبيِّن لهذه الجرائد أنى خرجت، وأنى سأطبع الأدبَ بطابع جديد».

قلت: ولكنى لستُ مراسل جرائد. قال: «فاجعلنى رسالةً وراسِلْها عنى أو أكتبُ لك أنا ما ترسله، وما جئتك إلا لهذا؛ ويجب أن تلحقنى بجريدة كبيرة، وهذه الجرائد تعرفنى كلها، وقد تناولتنى من جميع النواحى الأدبية؛ فضلاً عن أنى كاتب فَذ، وخطيب فَذ، وشاعر فَذ، وهذا قليل من كثير فهل أعوِّل عليك فى صلتى بالجرائد أولا؟».

قلت: إنك تعرفهم ويعرفونك، وقد بلَوْتَهم وَبلَوْا منك؛ فلستَ فى حاجة إلىَّ عندهم.

قال: «إنهم يخشون بأسى، وقد حسبونى مجنونًا استهوته الشياطين؛ وما علموا أن شيطانَ الشعر هو الذى استهوانى، كما أن شيطان الحب هو الذى استهواك... هذا من جهة، ومن جهة ليس معى ثمن الغداء، ولا أكلفك شيئًا...».

قلت: فهذا قرش للغداء فى مطعم الشعب. وهم الآن يتغدَّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقد استنفدوا الطعام، وأنت لا تجهل أن القرش فى مطعم الشعب هو قرشان فى القيمة.

قال: صدقت؛ يُوشِك أن أوافقَهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية. فلأبْقِ هذا للعشَاء وسأطوى إلى الليل...

قلت: فمعك الآن ثمن الدخان، والقهوة، والغداء، وأجرة السيارة إلى بلدك، وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)[1] يغنى بقيراط ولا يسكت إلا بدانق. هذا من جهة، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمنًا لسكوتك وانصرِف.

***

فشقَّ ذلك عليه وقام مُغْضَبًا وتنفستُ بعده الصُّعَداء الطويلة... وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النّقىّ وأخذتُ فى رياضة التنفس العميق، ثم زاغتْ عينى إلى الباب؛ فإذا «نابغة القرن العشرين» مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر...

■■■

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة فى القرن الثالث.

المجـنون

(٢)

رأيت المجنونين يدخلان معًا، فكأنما سَدَّا البابَ وسَوَّياه بالبناء وتركا الغُرفةَ حائطًا مُصْمَتًا لا بابَ فيه، مما اعترانى من الضيق والحرَج؛ وقلت فى نفسى: إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه، فأرى أن أدَعَهما وأكونَ أنا أُصرِّفُهما؛ ويا ربما جاء من النوادر فى اجتماع مجنونين مالا يأتى مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره؛ غير أنى خشيتُ أن أكونَ أنا المجنونَ بينهما، ثم لا آمن أن يَثِبَ أحدُهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرَةُ من شيطانه، فرأيت أن يكونَ لى ظهيرٌ عليهما، إن لم يحقَّ به العَوْنُ فلا أقلَّ من أن يطولَ به الصبر... وكان إلى قريبٍ منى الصديقُ (أ.ش)[١] فأرسلتُ فى طلبه.

أما هذا المجنونُ الثانى الذى جاء به «نابغة القرن العشرين» فقد رأيته من قبل، وهو كالكتاب الذى خُلِّطت صُحُفُه بعضُها فى بعض فتداخَلَتْ وفسد ترتيبُها، وانقلب بذلك العلمُ الذى كان فيها جهلاً وتخليطًا، يثِبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صِلَةَ لها بما قبلها ولا ما بعدها.

وهو طالبٌ أزهرىّ كان أكبر همّه أن يصير حافظًا كالحفّاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء، فجعل يستظهِرُ كتابًا بعد كتاب ومتْنًا بعد متن؛ وكانت له أُذُنٌ واعيةٌ، فكل ما أُفرِغ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبر، نزلَ منها كالنقْر على آلةٍ كاتبة، فينطبعُ فى ذهنه انطباعَ الكتابة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثم الْتاثَ هذه اللُّوثةَ وهو يحفظ متنًا فى فقه الشافعى رضي الله عنه، فغبرَ سنين يتحفَّظُه، كلما انتهى إلى آخره نَسِيَه من أوله؛ فيعود فى حفظه وربما أثبتَ منه الشىء بعد

(١) هو الصديق أمين حافظ شرف.

الشيء، ولكنه إذا بلغ الآخرَ لم يجد معه الأول؛ فلا يزالُ هذا دأبة لا يملُّ ولا يجد لهذا العَناءِ معنى، ولا يزال مقبلاً على الكتابِ يَجمعه، ثم لا يزال الكتابُ يتبدَّدُ فى ذاكرته.

وترك المعهد الذى هو فيه وتخلى فى داره للحفظ، وأجمع ألاّ يدعَ هذا المتنَ أو يحفظَه، كأن فيه الموضعَ الذى فارقه عقلُه عنده، وبذلك رجع المسكينُ آلةَ حفظٍ ليس لها مِسَاك؛ وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر، ثم يلقيه فى البحر، لينْزِحَ البحر...

***

وجاء (أ.ش) فقلت له، وأومأتُ إلى المجنون الأول: هذا نابغةُ القرن العشرين.

قال: وهل انتهى القرنُ العشرون فيُعرف مَن نابغتُه؟

فقلت للمجنون: أجبه أنت. فسأله: وهل بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون؟

قال: لا.

قال: فإن هذا الذى إلى جانبى نابغة القرن الواحد والعشرين... فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته.

قلتُ: ولكنك زدتَ المشكلة تعقيدًا من حيث توهَّمْتَ حلَّها؛ فكيف يكون معك فى آنٍ وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة؟فنظر نظرةً فى الفضاء، وهو كلما أراد شيئًا عسيرًا نظر إلى اللاشيء..

ثم قال: هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل... وكيف لا يكون بينى وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدَّمه فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمسٍ وستين سنة..؟

قلت للآخر: أكذلك؟

قال: مما حفظناه عن الحسَن: أدركنا قومًا لو رأيتموهم لقلتم: مجانين. ولو أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحك الأول وقال: إنه تلميذى.

قال الثانى: لقد صدق فهو أستاذى، ولكنه حين ينسى لا يذكِّره غيرى...

قلت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه»عن الزُّهْرى: إذا أنكرتَ عقلَكَ فاقدَحْه بعاقل...

فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويحٌ لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحدِ للفضل، مع جنونه وخَبَله. أيذكِّرنى وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متنًا واحدًا لا يُمسكه عقلُه إلا كما يُمسك الماءَ الغرابيل؟ صدق والله من قال: عدوٌّ عاقل خيرٌ؛ خير؛ خير. فقال الثانى: خيرٌ من صديق جاهل، هأنذا قد ذكَّرتك من نسيان، وهأنت ذا رأيت.

فضحك النابغة وقال: ولكنى لم أُرِد أن أقولَ هذا، بل أريد أن أؤلفَ كلامًا آخر... عدوٌّ عاقل خيرٌ، خيرٌ، خيرٌ، خير من مجنون جاهل...

***

ورأيتُ أن فى التقاءِ مجنونين شيئًا طريفًا غيرَ جنونهما، وصحَّ عندى أن المجنونَ الواحد هو المجنون؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورِهما فنٌّ ظريفٌ من التمثيل، إذا وَجدا من يُصَرِّفهما فى الحديث، ويستخرِجُ ما عندهما، ويستكشِفُ منهما قصتَهما العقلية...

زلم أكن أعرف أن «نابغة القرن العشرين» من المجانين الذين لهم أُذُنٌ فى غير الأذُن، وعينٌ فى غير العين، وأنف بغير الأنف؛ إذ تتلقى أدمغتُهم أصواتًا وأشباحًا وروائحَ من ذات نفسها لا من الوجود، وتدركُها بالتوهم لا بالحاسة، فتَتَخَلَّقُ هواجسهُم خَلْقًا بعد خَلق، وتخطر الكلمةُ من الكلام فى ذهن أحدهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أديرُ الرأىَ فى إخراج فصل تمثيلىّ من الحِوار بين هذين المجنونين[1]، إذ قال «نابغة القرن العشرين» صَهْ، إن جرس «التليفون» يدقّ.

قال (أ.ش): لا أسمع صوتًا، وليس هَاهنا «تليفون».

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر.

فاغتاظ المجنون الآخر قال: إنك تَتَقَحَّمُ على النوابغ ولستَ من قدرهم، وما عملُك إلا أن تنكر؛ والإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيء على المجانين وأشباهِ المجانين، والعامةِ وأشباهِ العامة؛ وقد أنكرتَ نبوغَه آنفًا، وأراك الآن تنكر «تلِيفونه»...

قال (أ.ش): وأين «التلِيفون» وهذه هى الغرفة بأعيننا؟

فضحك «نابغة القرن العشرين» وقال: صَهْ ويْحك لقد خلَّطتَ عَلَيّ؛ إن الجرس يدقُّ مرة أخرى، وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطولَ انتظارُها، وحتى تدقُّ ثلاث مرات، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينُها فى صوتك ولَغَطِكَ...

قال المجنون الآخر: هى صاحبتُه التى يهواها وتهواه؛ وقد استَهَامها وتَيَّمها وحيَّرها وخبَّلها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعتْ له تلِيفونًا فى رأسه...

قال«النابغة»: وهذا التلِيفون لا يُسمعنى صوتَها فقط، بل هو يُنْشِقُنى عطرَها أيضًا. وقد تكلمنى فيه الملائكة أحيانًا، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غَيورٌ تُخْشَى سَطَواتُها على اللائى تَغار منهن، ولولا لك لكلمتنى فى هذا التلِيفون إحدى الحُورِ العِين...

قلنا: أوَتَغار منها الحورُ العين؟

قال المجنون الثانى: بل الأمرُ فوق ذلك، فإن الحور العين يشتُمنها ويلعنَّها؛ «فمما حفظناه» هذا الحديث: لا تؤذى امرأةٌ زوجَها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العِين: لا تؤذيه قاتلكِ الله؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِك أن يفارقَك إلينا.

قال «نابغة القرن العشرين»: ويْلِي على المجنون إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وَشيكًا من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغير علم لأنه أحمقُ ليس له عُقدةٌ من العقل، فيزعم أنها تؤذينى، ولو هى آذتنى لغضبتْ قبل ذلك، ولو غضبتْ لرفعت التلِيفون. صَهْ إن الجرس يدق.

* * *

قال (أ.ش) إن للنوابغ لشأنًا عجبًا، ففى مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلامًا، فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه. فلما كان عيدُ الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه. وهو رجل يحفظ القرآن، فذكَر قصةَ إبراهيم عليه السلام ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنَه، فخُيِّل إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة، وأن الله قد أوحى إليه فأخذ الغلامَ فى صبيحة العيد وهمَّ بذبحه، ولولا أن صرخ الغلامُ فأدركه الناسُ فاستنقذوه...

قال«نابغة القرن العشرين»: هذا مجنون وليس بنابغة؛ بل هذا من جهلاء المجانين؛ بل هو مجنون على حِدتَه. وقد رأيته فى البيمارستان فى حين كنت أنا فى المستشفى... فكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بإرادة الله. ولو كانت إرادة الله لنفذتْ بالذبح، ولو كان الأمر وحيًا لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه... وهكذا أنا فى المنطق «نابغة القرن العشرين».

ثم إنه أشار إلى المجنون الثانى وقال: وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة.

قلت: ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عُدْتَ فيه الآن؟

قال: إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدالى أنه يتمنى هلاكى ليكونَ هو «نابغة القرن العشرين»، فمعنى الكلام الآن: أنه لو عاش خمسًا وستين سنة «يحفظ المتن» لما بلغ مبلغى من العلم. هذا رجل نصفه ميتٌ جنونًا موتًا حقيقيًّا، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوى.

قال (ا.ش): حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العامِىّ لإمامِه فى الصلاة؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك.

قال المجنون الثانى «مما حفظناه»: لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار... و«نابغة القرن العشرين» هذا لا يعرف كيف يصلى، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر... ولما رأيته ناسيًا فذكرته ونبهتُه أن الصلاة لا تجوز

بالشعر، التفت إلىَّ وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال: ما شأنك بى؟ هل أنا أصلى لك أنت...؟

فغضب «النابغة» وقال: والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونًا فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه، ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن، ولعرفتم أن «نابغة القرن العشرين» نفسه لم يستطع تقليدَ «نابغة القرن العشرين».

قلنا: هذا عجيب، وكيف كان ذلك؟

فضحك وقال: لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك، قال (ا.ش): هذا لم يُعرفْ مثلُه فكيف نعرفه؟ ولم يتوهمه أحد، فكيف نتوهمه؟

قال: لو لم تكن أستاذَ «نابغة القرن العشرين» لما عرفتها؛ وهذا نصفُ الصواب، وما دمت أستاذى، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافك لى صوابًا لأنه منك، وكان خلافى لك صوابًا لأنه منى؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيبًا وتكون أنت مخطئًا...

أنا لم أر «نابغة القرن العشرين» فى الرؤيا، ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق... ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الإشارةِ والقَوْمة والقَعْدَة، ولكنى صرختُ فيه وسبَبْتُهُ ففتح فمه، ثم خافنى ولم يتكلم...

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة.

قال (ا.ش): لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد، فما معناك فى هذه الثالثة؟

قال: هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى، ويستدلُّ لذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثوابٌ له... ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأُولى النُّهى.

قلنا: ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا.

قال: لم أُصلّ به، ولكن خطر لى وأنا أصليّ أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقَّق أنى لم أنسها... فإذا أنا «نابغة القرن العشرين» فى الحفظ، وهى ستة أبيات، لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة، ومع ذلك لم يحفظه.

قال(ا.ش): فأمْلِ علينا هذا الشعر. فأملى عليه[1].

يا حليف السُّهدْ قل لى　　أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالا　　أكحلَ العينين مالْ
أنا أهواها ولكن　　لا سبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلاً　　منذ غابت فى خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى　　ليلَ يا ليلى! تعالْ

قلنا: ولكن ليس هذا مدحًا، فضحك وقال: أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغَزَل، أما المديح فهو:

شغف الورى بمناصب وأمانى　　وشغفتَ يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياةَ تفاخرًا وتنعمًا　　وحسبتَهَا لله والأوطان

ثم أُرْتجَ عليه فسكت، قال المجنون الآخر: إنها ستة أبيات، وقد نسيت أربعة، ولستُ أريد أن أذكّرك:

فقال (النابغة): أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى... ونظر إلى اللاشىء فى الفضاء، ثم قال. والبيت الأخير:

لا أبتغى فى المدح غيرَ أولى النُّهى　　أو صادقٍ[2] أو شوقى أو مطران

ثم أمر. أ. ش. أن يقرأ عليه الشعر فقرأه، فقال: أحسنت، انظر إلى فوق فنظر، ثم قال انظر إلى تحت. فنظر ثم سكت.

---

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه.

(٢) فسر (صادق) بأنه أستاذ «نابغة القرن العشرين».

– قال (أ.ش): وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت...

* * *

وكان الضجر قد نال منى، فرجوت (ا. ش). أن يلبثَ معهما وأذنتُ لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندىّ وانصرفت..

قال ا. ش وهو يُنبِّئنى: فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول: لقد حاق بى الظلم، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم، لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة)... وأجمع نفسى لها، وأجهدُ فى بيانها، وأُذيب عقلى فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليس إلا أن ينتحِلها ويضعَ توقيعَه عليها، ويبعثَ بها إلى المجلة، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة، ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين[1]...

قال ا. ش: فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب؟ قال: إن هناك أسرارًا أنا مُحْصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغى أن يعلَمها أحد فإنها أسرار... قال له: فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات، وأنا أعطيك فى كل مقالة ذَهبَين لا قرشين.

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتبَ إلا للرافعى، لأن «نابغة القرن العشرين» لا يجوز أن يدعى كلامَه إلا أستاذُ «نابغة القرن العشرين»، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطًّا من قدر «نابغة القرن العشرين»، وهذا بعضُ الأسرار لا كل الأسرار...

قلت: ثم جاء المجنونان فى العشيَّة إلى الندىّ.

■■■

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات، غير أنه رفع القيمة أخيرًا؛ فجعلها عشرين قرشًا... ...

المجـنون

(٣)

وكان فى النَّدى ثلاثةً: أنا، وأ. ش، وس*. ع؛ وقد هيَّأتُ تدبيرًا تِوافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين، وتدوينِ ما يجىء منهما. فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألْطَفْنَاهما، وقمنا ثلاثتُنا ببَسْطهما وإكرامهما، حتى حسبا أن فى كلمة «مجنون» معنى كلمة أمير أو أميرة... ورأيتُ فى عينىْ «نابغة القرن العشرين» - وهو أعْيَنُ أنجَلُ[1] - ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفسًا أُنثىَ أعشقُها أنا... فكان مُسَدَّدًا فَكِهَ اللسانِ، تُسْتَمْلَحُ له النادرةُ، وتُستظْرَفُ منه الحركة.

ولما تمكَّن منه الغرورُ، واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطْته الأعيُن - أدار بَصَرَه فى المكان، ثم قال: أُفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىّ فى ضَوْضائه ورعاعِه وغَوغائه. إنْ هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا الجالسُ هناك. هذا الواقفُ هنالك. هذا المستَوفِز. هذان المتقابِلان. هؤلاء المتجمِّعون. هذا كله خيالُ حقيقةٍ فى رأسى. ما هى؟ ما هى؟

هذا التصايُحُ المنكَر. هذا الضربُ بحجارة النَّرد. هذه الزَّحمةُ التى انغمسنا فيها. هذا المكانُ الهائجُ من حولنا هذا كلُّه. خيالُ حقيقةٍ فى رأسى. هى، هى، هى؟

فانزعج المجنونُ الآخر، ووَقَعَ فى تَهاويل خياله، ونظر إلينا تدورُ عيناه، وتوَجَّسَ شرًّا، ثم زاغ بصرُه إلى الباب، واسْتَوْفَزَ وجمع نفسَه للقيام؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به، قَهقَهَ وأمْعَن فى الضحك وقال: إنما خوَّفتُه الصبيانَ والضربَ ليثبتَ لكم أنه مجنون...

---

* س ع هو الصديق سعيد العريان.

(١) أى واسع العين أنجلها، وقد مر وصفه فى المقالة الأولى.

فحَرِدَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه.

قال «النابغة»: ما كلامٌ تَطِنّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث؟

قال: «مما حفظناه» أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطِق تَجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضَحِك نَهقَ... كما فعلتَ أنت الساعةَ، تقول: هاءْ، هُوءْ، هىءْ...

فتغيَّر وجهُ «النابغة»، ونظر إليه نظرةً منكرة، وهمَّ أن يقتَحِمَ عليه، وقال: أيها المجنون، لماذا تضطرنى إلى أن أُجيبَك جوابَ مجنون... لا نجوت إن نجوتَ منى!

فأسرع ا. ش، وأمسك به؛ واعترضَ مِنْ دونهِ س. ع، وقال له: أنت بدأتَه والبادىءُ أظلم.

قال: ولكن - ويحه - كيف قال هذا؟ كيف لم يقل إلا هذا؟ كيف لم يجد إلا هذا يقولهُ؟ أنابغةُ القرن العشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ الله فى القرن العشرين؟ لَهَمَمْتُ والله أن أكسِرَ الذى فيه عيناه؛ فما يقولُ إلا أنى أحمقُ القرن العشرين..

***

قلتُ: إن كان هذا هو الذى أغضبك منه؛ ففى الحديث الشريف: «ليس من أحد إلا وفيه حَمْقَةٌ، فَبها يعيش». والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمة تنظيمًا عاقلاً؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شيء من لذاتها إلا هو مقبلٌ على شيء من حماقاته، وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه؛ ولولا هذا الحمقُ فى طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة؛ أليس يُخيَّلُ إليك أن أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلّك حاضرٌ فيها، وأن يَقَظتك الحقيقيةَ إنما هى فى الحلُم وما يُشبه الحلُم، كأنك خُلِقتَ فى كوكب وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا، فما فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يلتئِمُ بعضه ببعضه، وأكثركما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع؟

قال: بـلَى.

قلتُ: فهذا القليلُ هو الحمقَةُ التى بها تعيش، وهو أرضيَّةُ الأرضِ فيك؛ أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ الأرض؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة

عيشَ المجانين فى رأى المغرورين الذين غرَّتهم الحياةُ الفانية، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة؛ فكلما أتوْا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحَمْقَى معكوسًا أو مُحوَّلاً أو معدولاً به؛ ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف: «أكثرُ أهل الجنة البُلْه».

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: أكثرُ أهل الجنة البُلْه.

فقال (النابغة): المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت؛ ألا فلتعلمْ أنك من بُلَهاء البيمارستان لا من بُلْهِ الجنة...

قلتُ: ثم إن الموتَ لابد آت على الناس جميعًا، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوه من الدنيا، ويُلْحِقُ من نال بمن لم ينل؛ فمن ذا الذى يُسَرُّ بأن ينال مالا يبقى له، إلا أن يكونَ سرورُه من حماقته؟ ومن ذا الذى يحزَنُ على أن يفوتَه ما لا يبقى له، إلا أن يكونَ حزنُه حماقةً أخرى؟ وأى شىء فى الحب بعد أن ينقضىَ الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضرَبَتْ فى الحواسّ كلِّها ملأت النفس؛ ثم ملأت النفسَ حتى فاضت على الزمن؛ ثم فاضتْ على الزمن حتى خبَّلت العاشقَ تخبيلاً لذيذًا تصغُر فيه الأشياء وتكبر، ويجعلُ الواقعَ فى النفس غيرَ الواقع فى دنياها؟ يُشبِّه كلُّ عاشِقٍ حبيبتَه بالقمر: فهَبِ القمرَ سمع هذا وفهمه وعَنَاه أن يُجيبَ عنه، فماذا عساه يقول إلا أن يُعجَبَ من هذا الحمق فى هذا التشبيه؟

* * *

فهدأ (النابغة) وسكن غضبُه وقال: صدقت، ولهذا أنا لا أشبِّه حبيبتى بالقمر.

قلت: فبماذا تشبّهها؟

قال: لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبِّه أنت حبيبتَك. قلت: وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر.

قال: فبماذا تشبهها؟ قلت: حتى أعلمَ بماذا تشبِّه أنت...

قال: هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذ «نابغة القرن العشرين»، ولك حبائبُ كثيراتٌ عددَ كتبك، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد)، وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة... من سنة...

قال المجنون الآخر: من سنة ١٩٣٥م؛ هأنذا قد نبهتُك.

قال: يا ويلك! إن (أوراق الورد) ظهرتْ من بضع سنين، إنما أنت من بُلهاء البيمارستان لا من بُلْهِ أوراق الورد... ماذا كنتُ أقولُ؟

قال (ا. ش): كنتَ تقول: هذا لا يُرضَى منك ولك حبائب كثيرات.

قال: نعم، لأنك إذا شبهت واحدةً منهن بالقمر، انتهى القمرُ وفرغ التشبيه فيظلُّ الأخْريات بلا قمر... ثم إن كلمةَ القمر لا تعجبنى، فلونها أدكنُ مُغْبَرٌّ[(١)] يَضْرِب أحيانًا إلى السواد... فإذا عشقتُ زَنجيةً فهَهنا محلُّ التشبيه بالقمر... أما البيضُ الرَّعابِيبُ فتشبيههُنَّ بالقمر من فساد الذوق.

قال س. ع: وللألفاظ ألوانٌ عندك؟

قال: لو كنتَ نابغةً لأبصرتَ فى داخلك أخْيِلةً من الجنة؛ ألم يقل أستاذنا آنفًا عن «نابغة القرن العشرين»: إنه هبط من كوكب إلى كوكب؟ ففى كوكبنا الأول يكون لنا سمْعٌ ملوَّن؛ وحِسٌّ ملوَّن نسمع قرعَ الطبل أزرق، ونفْخَ البوقِ الأحمر، ورنينَ النغمَ الحُلوِ أخضر[(٢)]، والوجودُ كله صُوَرٌ ملونةٌ، سواء منه ما يُرَى وما يُحَس، وما هو مُسْتَخْفٍ وما هو ظاهر.

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال: واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحِبر: لا أسمعُهُ إلا أسود...

* * *

(١) الدكنة: لون بين الحمرة والسواد.

(٢) هذا واقع وليس من الخيال؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونه؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها بلونه.

وسكت «النابغة» وسكتنا؛ فقال له س. ع. مالك لا تتكلم؟ قال: لأنى أريد السكوت. قال: فلما ذا تريد السكوت؟ قال: لأنى لا أريد أن أتكلم...

وتحرك فى نفسه الغيظُ من المجنون الآخر، فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشيء وقال: إذا أصبح كلُّ النساء ذواتِ لِحىً أصبح هذا عاقلاً... فدقّ الآخر برجله دقات معدودة؛ فثار«النابغة» وقال: مَن هذا يشتُمُنى؟

قال س. ع: لم يشتمك أحد، هذا خَفْقُ رجلٍ على الأرض.

قال: بل شتمنى هذا الخبيثُ، وسَمْعى لا يَكْذِبُنى أبدًا، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ، أسيء الظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ الحازم «العاقلِ» سوءُ ظنه بالناس. فهبْه كما قلتَ قد خفَقَ بنعله، أو خَبَط برجله؛ فهو ما يعنِى من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفَحَ الشعرُ على قلبى فلابد لى من هجائه، ولابد لى أن أذبَحه ولو بالكلام، فإنى إذا هجَوتُه رأيتُ دمَه فى كلماتى، وأريد أن أجعلَه كالعَنْزِ التى كانت عندنا وذبحناها.

ثم انتزع قلم س. ع، وقال: هذه هى السكّين. ولكن أسألك يا أستاذى أن تذبحهَ أنت بكلمتين وتصفَ له جنونَه، فقد عزَبَ عنى الشعر. إن خَفْقَةَ رَجلٍ على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فزعًا؛ فيَنْفِرْن إلى أجْحارِهنَّ ويِتهَارَبْن، وما كانت أبياتُ الشعر فى ذهنى إلا أرانب...

أنتم لا تعرفون أن من كان حَصِيفًا ثبيتًا مثلى، كان دقيقَ الحسّ ومن كان قذْمًا غبيًّ مثلَ هذا، كان بليتد الحس؛ غليظًا كثيفًا؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ رأيتُنى قد سافرتُ إلى القطبِ الشمالى؛ أما هذا المجنونُ فهو إذا استشعر بردًا سافر إلى عَباءته أو لحافِه... إذ هو لا يعرف جغرافيًا، ولا يدرى ما طَحَاها.

قلت: هذا منك أظرفُ من نادرة أبى الحارث. قال: وما نادرةُ أبى الحارث؟ وهل هو نابغة؟

قلت: جلس يتغدّى مع الرشيد وعيسى بن جعفر، فأتِىَ بخِوانٍ عليه ثلاثة أرغفة، فأكل أبو الحارث رغيفَه قبلهما، والرشيدُ ملِكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكلَ الجائع، وإنما هو التَّشعيثُ من هنا وهناك؛ فكان رغيفُه لا يزال باقيًا؛ فصاح أبو الحارث فجأةً:

يا غلام، فَرَسي، ففزع الرشيد وقال: ويلك ما لَكَ؟ قال: أُريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذى بين يديك...

قال «النابغة»: ولكنَّ فرقًا بين أبى الحارث وبين «نابغة القرن العشرين» فإن من العجائب أنى ربما نظرتُ إلى الرجل وهو يأكلُ فأجدُ الشِّبَعَ، حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه، ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لى أبدًا حين أكون جائعًا...

أما هذا المجنونُ الذى أمامنا، فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ، فيشعُرُ كأن الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار...

قال الآخر: «مما حفظناه»: أنه سُرق لأعرابى حمار، فقيل له أَسْرِق حمارُك؟ قال: نعم وأَحمد الله،فقيل له: على ماذا تحمده؟ قال: على أنى لم أكن عليه حين سُرق... فأنا إذا رأيتُ حمارًا مثقَلَ الظهرِ، حمدتُ الله على أن الحملَ لم يكن علىّ، لا كما يقول هذا، ثم دقّ برجله دقات...

فاستشاط «النابغة» وقال: أسمعتم كيف يقول إنى مجنون، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحِمل؟

قلت: ينبغى أن تتكافَّا، وهذا لا يَعيبك منه ولا يعيبُه منك، فإن من تواضع «النوابغ» أن يشعروا ببؤس الحيوان، فإذا شعروا ببؤسه دخلتْهم الرقةُ له، فإذا دخلتهم الرقُة صار خيَالُ الحملِ حِمْلاً على قلوبهم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك: حكى الجاحظ عن ثُمامة قال: كان «نابغةٌ» يأتى ساقيةً لنا سَحَرًا؛ فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهبًا وراجعًا فى شدة الحر أيامَ الحر، وفى البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضأ وقال: اللهمّ اجعل لنا من هذا الهمّ فَرَجًا ومَخرجًا، فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ للعقلاء، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء لما مُحِقَ سروره فى الدنيا هذا المحْقَ إلى أن مات غمًّا، رحمه الله!

***

قال س. ع: فاعفُ الآن عن صاحبك ولا تذبحْه بالهجاء.

قال: لقد ذكَّرْتَنى من نسيان، وهذا المجنونُ يرى نسيانى من مرض عقلى، وكان الوجهُ – لو تَهَدَّى إلى الحقيقة – أن يراه شذوذًا فى العقل، أى نبوغًا عظيمًا كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يَتَثَبَّتَ فى كم من الزمن تُسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعةَ وبيده الأخرى بيضة، ثم نِسىَ نسيانَ النبوغ، فألقى الساعةَ فى الماء على النار، وثَبتَتْ عينُه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونًا كما يزعُمنى، فإن المجانينَ يرون العقلاء مرضَى بمواهبهم وأعمالِهم التى يعملونها.

وأنا فليس يَهيجُنى شىءٌ ما تَهيجنى كلماتٌ ثلاث: أن يقال لى مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغِبَ فى صحبتى فليتجنبْ هذه الثلاثَ كما يتجنب الكفرَ والكفرَ والكفر...

قال (ا. ش): فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أى على التمثيل: مغفَّل...

فحكَّ رأسَه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قَدرى[1]...

قلت: فبعضُ الكلمات إذا قُطعتْ عندك غيَّرت الحقائق، كذلك القرن الذى قُطع فَرَدّ البقرةَ فرسًا؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت: زعموا أن أعرابيًّا خرج إخوتُه يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجلٍ يقوده؛ فقيل له: ما هذا؟ قال: فرس اشتريته. قالوا: يا مائق هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها، ثم قادها إليهم وقال لهم: قد أعدْتُها فرسًا كما تريدون...

---

(١) نص عبارته: «دى مش أدِّى».

قال«النابغة»: هذا غيرُ بعيد، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العَنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبةً سوداء، فتقذَّرتُها وعِفْتُ لحمهَا ولم أطعم منها.

ثم أومأ إلى الآخر وقال: هذا لا يدرى ما طَحَاها، وهو مثل العَنز: تحسبُ قرنيها للقتال والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ للذبح؛ فقل فى هذا يا أستاذ «نابغة القرن العشرين».

قلت للآخرَ: أيرضيك أن أقولَ فى المعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبتُ هذه الأبيات على ما يريد النابغة:

قــل لعَنــزٍ نَاطِحَــاهــا   لقتــالٍ سَلَّحَــاهـــــا

مــا لها قـد طَـرَحــاهــا   فــى يَـدَينِ ذَبَحَــاهــا

* * *

شِيمــةٌ منى نحَــاهَا   عــقــلُ غِــرٍّ فَلحَـــاها

ليس يـدرى ما طَحَــاها   بل يَرى شمسَ ضُحاها

حَجَــرًا مـثلَ رَحَــاهَا   ويَـرى اللــيلَ مَحَــاها

ظُلَمــًا طـالـتْ لِحــاها...

* * *

وسرّ «النابغة» وازدهى، وجعل يقول: طالتْ لِحَاها، طالت لحاها. وما كان هذا إلا السرور الأصغر؛ أما سروره الأكبر فمجىء ساعى (البريد المستعجل) إلى الندىّ، وفى يده رسالة عنوانها: «نابغة القرن العشرين» فلان، بندىّ كذا.

وجعلَ الرجلُ يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه؛ فتطاولتْ أعناقُ الناس، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى «نابغة القرن العشرين» وقد مدَّ يدَه يتناول الرسالة وكأنه ملِكٌ من القدماء أُسْقِطَ له كتابٌ بالفَتح العظيم وبضم دولةٍ إلى دولته.

ثم ترك الرسالةَ بين أصابعه يقلبها ولا يفُضُّها ونحن فى دهشة من أمره؛ فنظر فيها المجنون وقال له: هذا عجيبٌ يا أخى، كيف هذا؟ إن هذا لا يُصدَّق؛ إنك لم تُلقِها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة...

■■■

المجـنون

(٤)

وضاق «نابغة القرن العشرين» بحُمق المجنون الآخر؛ ورآه داهيةَ دَوَاهٍ، كلما تَعاقَلَ أو تَحَاذَقَ لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة، ولا يزال كأنه يَسُبُّه فى عقله؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس، فدفع إليه الرسالةَ التى جاء بها (البريد المستعجل) وقال له: خذ هذه فاذهبْ فألقِها فى دار البريد، فسيجىء بها الساعى مرة أخرى، ثم تذهبُ الثانيةَ فتلقيها، ويعود فيجىء بها، وتكونُ أنت تذهب ويكونُ هو يجىء، فنضحكُ منه ويضحكون...

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجىء ذاك؟

فغمزه «النابغة» بعينِه أنِ اسكتْ؛ فَتَغافَلَ س. ع، وقال: كم تريد أن يجىءَ الساعى ليهتفَ بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو الرأى، فلستُ قائمًا حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإن الساعى لا يجىء إلا راكبًا، وأنا لا أذهبُ إلا راجلاً، وإن لى رجلَىْ إنسان لا رجلَىْ دابة...

قال «النابغة»: سبحان الله؟ بقليلٍ من الجنون يَخرُجُ من الإنسان مجنونٌ كامل مُسْتَلَبُ العقل. بَيْدَ أنه لا يأتى «النابغةُ» إلا من كثيرٍ وكثير، ومن النبوغ كلّه بجميع وسائِله وأسبابِه على تعدُّدها وتفرّقِها وصعوبةِ اجتماعها لإنسان واحد «كنابغة القرن العشرين»، فهو الذى توافَتْ إليه كلُّ هذه الأسباب، وتوازَنَتْ فيه كلُّ تلك الخلال. إنه ليس الشأنُ فى العلم ولا فى التعليم؛ ولكنما الشأنُ فى الموهبة التى تُبدعُ الابتكارَ، كموهبة «نابغة القرن العشرين»؛ فبها تجىء أعمالُه منسجِمَةً دالَّةً بنفسها

على نفسها؛ ومتميزةً مع كونها منسجمةً دالةً بنفسها على نفسها؛ ومتلائمةً مع كونها متميزةً دالةً بنفسها على نفسها...

هذا س. ع، كان الأولَ بين خرِّيجى مدرسة دار العلوم، مدرسةِ الأدب والعربية، والمنطق والتحذلُق، وبلاغةِ اللسان وصحة النظر؛ وهو يعرف أن الكتابَ يُلقى فى البريد وعليه طابَعٌ واحد، فيصل إلى غايته بهذا الطابع، ثم يَرى بعينىْ رأسه أربعةَ طوابعَ على هذه الرسالة المُعَنْوَنَةِ باسم «نابغة القرن العشرين»، فلا يُدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصلَ إلىَّ أنا أربعَ مرات...

فطرب المجنونُ الآخرُ، واهتزَّ فى مجلسه، وصفَّق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: «يُحاسِبُ الله الناسَ على قدر عقولهم»، فلا تؤاخذْ س. ع، فإن مدرسة دار العلوم تعلّمهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعةُ أوجه، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع...

ثم التفتَ إلى س. ع، وقال له: لا عليك، فأنا صاحبُه وخَلِيطُه، وحامِلُ عِلمه وراويةُ أدبه، وأكبرُ دُعاتِه وثِقَاتِه، وما علمتُ هذه الحكمةَ منه إلا فى هذه الساعة.

قال(ا. ش): فإذا كان هذا، فإن لقائلٍ أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوابع، فيجىء به الساعى عشر مرات.

قال «النابغة»: وهذا أيضًا...؟

«وما شرُّ الثلاثة أُمَّ عمروٍ * بصاحِبك الذى لا تصحبينَ»؛ إن الشمعةَ فى يد العاقل تكونُ للضوء فقط، ولكنها فى يد المجنون للضوءِ ولإحراقِ أصابعه... كم الساعةُ الآن؟

قلنا: هى التاسعة.

قال: ومتى ينصرفُ أهلُ هذا الندىّ؟

قلنا: لتمام الثانيةَ عشرة.

قال: فإذا كان الساعى يتردد فى كل ساعةٍ مرة، فهى أربعُ مرات إلى أن ينقضَّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكونُ قد ذهب قومٌ عرفوا «نابغة القرن العشرين»،

وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه. وأما بعدَ ذلك فلا يجد الساعى هنا أحدًا، فلا تكون فائدةٌ من مجيئه...

فصفَّق المجنونُ الآخر وقال: هذا وأبيك هو التَّهدِّى إلى وجهِ الرأى وسَداده، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذى يقوم على أصولِ الحساب والجغرافيا... «ومما حفظناه» هذا الحديث: «لا مالَ أعْوَدُ من العقل»، فأربعة طوابع، لأربع مرات، فى أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أعودُ من العقل...

* * *

ورضى «النابغةُ» عن صاحبه وقال له: لئن كانت فيك ضَعْفةٌ إن فيك لَبقيةً تعقِلُ بها... ثم أخذ منه الرسالة ودسَّها فى ثوبه. قلنا: ولكن ألا تَفُضُّها لنعرفَ ما فيها؟

فضحك وقال: أئِنْ جارَيتُكم فى باب المُطايبَةِ والنادرة، وجاريتُ هذا الأبلهَ فى باب جُنونِه وحُمقِه - تحسبون أن الأمرَ على ذلك، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها، وأن «نابغة القرن العشرين» هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يفاوضُ جورج الخامس)..؟ لَحَقٌّ واللهِ أن العقلَ الكبيرَ الذى يأبى الصغائرَ، هو الذى تأتى منه الصغائرُ أحيانًا لُتثبِتَ أنه عقل كبير، وهكذا تَسخَرُ الحقيقةُ من كبار العقول «كنابغة القرن العشرين»...

فغضب المجنونُ الآخر وهمَّ أن يتكلم: فقال له «النابغة»: أنت كاذِبٌ فيما ستقوله...

قلنا: ولكنه لم يقل شيئًا بعدُ، فكما يجوز أن يكونَ كاذبًا يجوز أن يكونَ صادقًا.

قال: وسيُخطىء فى رأيه الذى يُبديه..

قلنا: ولم يُبدِ شيئًا من رأيه.

قال: ولا يعرف الحقيقةَ التى سيتكلم عنها.

قلنا: ويحك، أدخَلتَ فى عقلِ الرجل أم تَعْلَمَ الغيب؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكنه قياسٌ منطقىٌّ يُتَوَهَّمُ اطرادُه. إنه سيقول: إنى مجنون...

فأخرج الآخر لسانه... قال «النابغة»: تبًّا لك، لقد رأيتُ الكلمةَ فى لسانك كأنها

مكتوبةٌ بحروف المطبعة. ويحكَ يا مَرْقَعان[1]، ألا تعرفُ أن لك دماغًا مخروقًا تسقط منه أفكارُك قبل أن تتكلمَ بها، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن! إن كل تخطئةٍ لى منك هى اعـترافٌ لى منك بصواب.

فنظر الآخرُ إليه نظرةً كان تفسيرُها فى حواجبه، إذ مَطّ حواجبَه[2] ورقَّصها. فقال «النابغة»: ونظراتهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كماءِ البحر المرّ أُخِذَ من البحر وأُضيف إلى مِلْحه الطبيعىّ مِلح، أكاد أتـهوَّعُ من هذه النظرة فأقىء.

الآن فهمتُ معنى قولهم: «مِلحةٌ فى عين الحسود». فإن الملحَ لا يغلبه إلا الملح، كالحديدِ بالحديد يُفْلَحْ. هاتوا كأسًا من مُعتّقهِ الخمر، ثم لينظرْ فيها الخبيثُ هذه النظرةَ، فإن الخمر لابد مستحيلةٌ «شربة ملح إنجليزى»

هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمَه مأخوذ من مستنقَع... أهذا الذى لا يستطيع أن يقول لشىء فى الدنيا: هولى، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة - يكذّب ما فى الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل، ولا يُصدِّق أنها مرسَلة إلى «نابغة القرن العشرين» من صاحب السمو الأمير؟

هذا الذاهبُ العقلِ هو كالجبانِ المنقطع فى وَحْشةِ القَفْر، فى ظلام الليل: إذا توَجَّسَ حركةً ضعيفةً انقلبتْ فى وهمه قصةَ جريمةٍ مِلؤها الرعبُ وفيها القتلُ والذبح؛ ولهذا يخشى ما فى الرسالة التى جاءت من صديقى صاحب السمو. هاؤَمُ اقرءوا الرسالة.

وفضضنا الغلاف، فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف، إحداهما صك بألف جنيه تُدفَع «لنابغة القرن العشرين»، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر... وإرسالِهِ إلى المارستان...

* * *

(١) المرقعان والمرقع: الأحمق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له.

(٢) هما حاجبان. ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا، وهو كثير فى العربية.

وذهبتُ أَصْلِحُ بينهما صلحًا فقلت: إن فى الحديث الشريف: «بينما رسول الله ﷺ فى أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ، فقال بعضُ القوم: هذا مجنون. فقال رسول الله ﷺ: هذا مُصاب؛ إنما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله».

فقال صاحبُ المتن: «مما حفظناه» إنما المجنونُ المقيم على معصية الله.

قلت: وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله...

قال المجنون: «مما حفظناه»: وليس فيكما مقيمُ على معصية الله...

قلت: هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي.

قال «النابغة»: أنبأتكم أن هذا الأبلهَ يَضِلُّ فى داره كما يضلُّ الأعرابىُّ فى الصحراء؛ وأن الأسطولَ الإنجليزى لو استقرَّ فى ساقية يدورُ فيها ثَور، لكان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرار العقلِ فى رأس هذا الأبله؟

فاحْتَدَمَ الآخر وهمّ أن يقول: «مما حفظناه»، ولكنى أسكتُّه وقلت «للنابغة»: إنك دائمًا فى ذِروة العالمَ، فلا غرْوَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية «والنوابغ» هم فى أنفسِهم نوابغ، ولكنهم فى رأى الناس مَرْضَى بمرضِ الصعودِ الخيالىِّ إلى ذِروةِ العالم، ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المرضى بمرض النزولِ الحقيقىّ إلى حَضيضِ الآدمية؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالهم، ثم تكون عقولُهم من أفكارهم، فيكونُ هذا هو الجنونَ فى عقولهم؛ وذلك معنى الحديث: «إنما المجنونُ المقيم على معصية الله».

قال «النابغة»: لَعَمْرى إن هذا هو الحق؛ فنبوغُ العقل مرَضٌ من أمراضِ السموّ فيه؛ فالشاعرُ العظيم مجنونٌ بالكون الذى يتخيَّله فى فكره، والعاشقُ مجنون بكونٍ آخر له عينان مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنون بالكون الذى يَدأبُ فى معرفته؛ «ونابغةُ القرن العشرين» مجنون... لا. لا. قد نسينا ا. ش، فهو مجنون، و س. ع فهو مجنون.

وكلُّ الناس مجْنونٌ بليلَى   وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاك

ومن حقّ ليلى ألاّ تقرَّ لهم، إذ هى لا تقر إلا «لنابغةِ القرن العشرين» وحده، وما أعجبَ سِحرَ المرأة فى الكون النفسانيِّ للرجال؛ أما فى الكون الحقيقى فهى أنثى كإناثِ البهائم ليس غير. وأعقلُ الرجالِ من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم. فالحمار لا يعرف الحمارةَ إلا أنها حمارة، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة؛ ولا ينظمون شعرًا، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناثُ البهائم أُمَّاتٌ[1] لا غير، ولكنَّ العجيب أن ذكورتَها ليست آباءً؛ فهذه الذكورةُ طُفَيلِيةٌ فى الدنيا، والطفيليُّ لا يأكلُ إلا بحيلةٍ يحتالُ بها، فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحِيكَ وأكاذيب، ولهذا كان عشقُ الرجالِ للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيكِ والحِيَلِ والغفلةِ والبلاهة؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخرُه فهو آخرُ الحيلة والأُكذوبة، وهو قولُ الطفَيليِّ: قد شبِعتُ وقد رَويت... ويحكم، أين أولُ الكلام؟

قلنا: أوله ما أعجبَ سِحرَ المرأة فى الكون النفسانيِّ للرجال.

قال: نعم هذا هو. إنه سحرٌ لا أعجبَ منه فى هذا الكونِ النفسانى إلا سحرُ الذهب؛ فلو مُسِخَت المرأةُ الجميلةُ شيئًا من الأشياء لكانت سَبيكةً ذهبيةً تلمع؛ ولهذا يُوجِدُ الذهبُ اللصوصَ فى الدنيا، وتُوجِد المرأةُ الجميلةُ لصوصًا آخرين، فيجب أن يُصَان الذهبُ وأن تُصانَ المرأة.

قلت: ولكن أليس من المالِ فضةٌ، وهى تُوجِدُ اللصوص كالذهب؟

قال: نعم، وفى النساء كذلك فضةٌ، وفيهن النَّحاس؛ ولو أنتَ ألقيتَ ريالاً فى الطريق لأحدثتَ معركة يختصمُ فيها رجلان، ثم لا يذهبُ بالريال إلا الأقوى، ولو تركتَ قرشًا لتضارب عليه طفلان، ثم لا يفوز به إلا من عَضَّ الآخر.

ولكن (فُورد) الغنىَّ الأمريكى العظيمَ الذى يجمع يدَه على أربعمائة مليون جنيه، لا يتكلم عن القرش؛ «ونابغة القرن العشرين» الذى يملك (ليلَى)، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء...

---

(١) يقال فى غير العاقل: أمات، وفى العاقل: أمهات.

قلت: فإنى أحسبك أعلمتَنى أن اسمَها فاطمة لا ليلى.

قال: هل يستقيم الشعر إذا قلت: وكلُّ الناس مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُّ لهم؟ قلت لا.

قال: إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر... أما حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل، فهى فاطمة ليصحَّ الوزن.

قلت: يُشْبِه والله ألا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة؛ وإنما هى تسمى حَسَبَ الوزن والبحر، فاسمها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتنْ...

* * *

ثم قلنا له: فما رأيك فى الحب، فإنه لَيقال: إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس؟

قال: إن ذلك لَيقال (وهو الأصح)، ثم أطرق يفكر. وبدا عليه أنه مَدهوش ذاهبُ العقل، كأنه من قلبه على مسافة أبعدَ من المسافة التى بينه وبين عقلهِ. وخُيل إلىَّ أن النساءَ قد حُشِرْن جميعًا فى رأسه، ومرت كلُّ واحدة تَعرض مفاتِنَها وغزَلَها، وتلائم هَذَيَانَه بهذيان من جمالها، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرض ويَتخيَّرْ، ثم اضطرب كالذى يحاولُ أن يُمسك بشيء أفلتَ منه؛ فلم ينبِّهه إلاّ قولُ المجنون الآخر: «مما حفظناه» أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت إنه داءٌ وجنون...

قال: اسكتْ يا ويلك لقد أطفأتَ الأنوارَ بكلمتك المجنونة. كان فى رأسى مرقصٌ عظيم تَسطع الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض؛ وترقُصُ فيه الجميلات من الطويلة والقصيرةِ والممشوقةِ والبادنة، فجئتَ بالداءِ والجنونِ قَبحَك الله فأخرجتَنى عنهن إليك. أحسبُ أنك لو انتحرتَ لصَلُحَ العالَم أو صلُحْتُ أنا على الأقل... فإذا أردتَ أن تشنُقَ نفسَك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيَّدًا فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار... على أن رأسك الفارغَ مشنوق فيك وأنت لا تدرى.

قال الآخر: ما أنت مُنذُ اليومِ إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنقِ عقلى (على الأصح). «ومما حفظناه» قول الأحنَف بن قَيس: إنى لأُجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتَبَيَّنُ ذلك فى «عقلى»..

فلم يَرُعْنا إلا قيامُ المجنونِ مسلَّحًا بحذائه فى يده... وهو حِذاء عتيقٌ غليظ يقتلُ بضربةٍ واحدة؛ فحُلنا بينهما وأثبتْناه فى مكانه. وقلنا: هذا رجلٌ قد غُلِبَ على عقله فلا يدرى ما يقول؛ فإذا هو دلَّ على أنه مجنون، أفلا تَدُلُّ أنت على أنك عاقل؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونِه، بل سألناك رأيَكَ فى الحب؛ وما نشُك أنك قد أطلتَ التفكيرَ ليكونَ الجوابُ دقيقًا، فإنك «نابغة القرن العشرين» فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك.

قال: نعم إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطال الفكرَ فى الجواب، فاكتب يا فلان (س. ع):

جلس «نابغةُ القرن العشرين» مجلسَ الإملاءِ مُرتجِلاً فقال[1]: قصةُ الحب هى قصة آدم، خلق الله المرأةَ من ضلعه، فأول علاماتِ الحب أن يشعرَ الرجل بالألم كأن المرأةَ التى أحبها كسَرَتْ له ضلعًا... وكل قديم فى الحب هو قديمٌ بمعنى غيرِ معقول، وكلُّ جديد فيه هو جديدٌ بمعنى غيرِ مفهوم؛ فغيرُ المعقولِ وغير المفهوم هو الحب.

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأتْ وبقيت جمرةً فذلك أقربُ إلى الصدق من بقاءِ الحب حيًّا بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنون. وجنونهُ مجنونٌ أيضًا، فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً، ويرى مع ذلك أنها لا تزالُ حمراء، ثم يُمْعِنُ فى خياله فيراها وردة من الورد... وإذا سألتَه أن يصفَ الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضًا مجنونَ الجنونِ، كالذى يرى قمرَ السماء أنه قد تَفَتَّتَ وتَناثَر ووقَع فى الروضةِ، فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيضَ الجميلَ الذكى...

والمجنونُ يرى الدنيا بجنونه والعاقلُ يراها بعقله؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقية من ذلك، فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل.

---

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط.

(والمجهولُ) إذا أراد أن يَظهرَ فى دماغ بشَرىٍّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين: رأسِ المجنون ورأسِ العاشق...

ولا صعوبةَ فى الحكم على شيء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخير والشر امرأةً معشوقة. أما أوصافُ الشعراء والكتَّابِ للجمال والحب فهى كلّها تقليدٌ قد توسعَّوا فيه؛ والأصلُ أن ثورًا أحب بقرةً فكان يقول لها: يا نجمةَ القطب التى نزلتْ من السماء لتدور فى الساقية كما دارت فى الفلَكَ.

قال «النابغة»: هذا رأيى فى حب العاشقين؛ أما حبى أنا «نابغة القرن العشرين» فيجمعه قولك: فلّ، ورد، زهر...

قلنا ما هذه الألغاز؟ وهل للحب مَتْنٌ كقولهم: حروفُ القَلْقَلَة يجمعها قولك (قطْبُ جَدٍ)، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحَكَ «النابغة»، وقال: تكاثَرت الظباءُ على خَراش، فلكيلا نَنسى ... إن كل حرف هو بدءُ اسم، الفاء فاطمة، واللام ليلَى، والواو وردة، والراء ربَاب، والدال دَلال، والزاى زكية، والهاء هند، والراء ربَاب...

قلنا: رباب قد مضَت فى (ورد).

قال: كنا تَهاجَرْنا مدةً ثم اصطلَحْنا بعد هند...

❊ ❊ ❊

قلت: هكذا «النوابغ» فإن رجلاً أديبًا كانت كنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صَيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفَتقَ له نبوغُه أن يجعلَها تاريخًا يَعرف منها عمرَه. قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفًا حتى مات وهى هكذا:

أبو العَير طَرَدْ طِيل طَلِيرِى بَك بَك بَك...

■■■

(١) العير: الحمار وتكنى بعض الحمقى (أبو البقر) قياسًا على (أبو العير).

المجـنون

(٥)

ثم إن «نابغة القرن العشرين» استخفَّه الطربُ لذكر صواحبِه وجميلاتهِ من فاطمة إلى رَباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صَدَّق نفسَه، فإن قوةَ الضبطِ فى عقله إما معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجه تَخَيَّل منه خَيالا فهو وجةٌ من وجوه العلم عنده، إذ كان عالَمُه أكثرُهُ فى داخِله لا فى العالَم، فإذا توهَّم أو أحسَّ أو شَعَر، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء؛ فليس يَحتملُ عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضى منفردَةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالبٌ على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأنَ لها بالواقع، ولا شأنَ للواقع بها، وإنما هى تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ له، لا كما تتمثَّلُ فيما حوله.

فبين كل مجنونٍ وبين ما حولَه دماغُه المُتَدجِّى بالغيوم العقلية، لا تزال تَعْرِضُ له الغَيمةُ بعد الغيمة من اختلالِ بعض المراكز العصبية فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا الاختلال، وقيامِ الطبيعة فيها على هذا الفساد.

ومن ذلك تنقلِبُ الكلمةُ من الكلام، وإنها لحادثةُ تامةٌ فى عقل المجنون كالقصةِ الواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونهاية، لا يُخامرُه فيها الشك، ولا يَعْتَرِيها التكذيب؛ وكيف وهى قائمةٌ فى ذهنه من وراءِ سمعِه وبصرِه قيامَ الحقيقة فى الأبصار والأسماع؟

ولحواسِّ المجنون جِهتَان فى العمل، لأنها بين كَوْنَين؛ أحدُهما الكونُ الخَربُ الذى فى دماغه؛ وفى هذا يقول «نابغة القرن العشرين»: إن فى داخلِ عينيه مِنظارًا يرى به الأشياءَ فى غيرِ حقائِقها، أى فى حقائقها...

وحدثنا الدكتور محمد الرافعى قال: إن فى دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كنابغة القرن العشرين، ذُكِرَتْ أمامه قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلها، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال يا ويْحهم! كَذَبوا عليها وعلىَّ... فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنها رأتنى فأحبتنى وعلمتْ من كل وجهٍ يمكن أن يعلمَ منه قلبُها أنى أنا رجلُها لا القيصر؛ فما زالتْ بعدها تُناكدُ القيصرَ وتَلْتَوى عليه ولا تصلُح له فى شىء حتى يَئِس منها فطلَّقها، فحملَتْ كنوزَها وحِلاها ولجأتْ إلى حبيبها، ثم تَبعتْها نفسُ القيصر ولم يُطِق العيشَ بعدها فانتحر... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز، فأخفاها هو فى مكان حريزٍ لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذى أحرزَها فيه إلا إذا نام... كيْلا يراه أحدٌ من الشيوعيين فيتعقَّبَه فيعلمَ مقرَّها؛ ولهذا كان من الحكمة أن يَنسى المكانَ إذا استيقظ.. فقد يَزِلُّ مرةً فيُخبِرُ به أو يغلبُه الشوق مرة على «عقله»... فيذهبُ إليه؛ فعسى أن يراه من يَنِمُّ بذلك، فتفتضِحُ الحبيبة وتؤخَذُ منه.

قال: وإن القيصرةَ هى تحتاطُ أيضًا مثلَ ذلك فتراسِلُه كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده، وإن أخوفَ ما يخافه أن يغلبَها جنونُ الحب يومًا فتطيشَ طيشَ المرأة، فتزورَه فى هذا المارستان... فقد تُقتَلُ إذا رآها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهاك (نابغة) آخر ثبتَ فى ذهنه أن امرأةً من أجمل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغَيْرة، وقد تَنَاهَتْ فيه حتى إنها لَتقتل نفسَها إذا علمتْ أن لصاحبها هوى فى امرأةٍ أخرى. وخبَّلَتْه هذه الفكرةُ، فاعتقد أن حبيبتَه من جنون غَيرتها واقعةٌ بين السلامةِ والتلَف؛ ثم توهمَّ ذاتَ يوم أن واشيًا قد أعلمها أن النساءَ افتتَنَّ به؛ فطار صوابُها، فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفِيَ غيظَها منه، ثم تنتحرَ أمام عينيه... وأدار (نابغة) الفكرَ فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخُنْها بالغيب.. فلم يهتدِ إلى مَقْنَع تَستَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أَرَبَ للنساء فيه إلا أنْ... ففعل وَجَبَّ خِصيتيه بيده ليقدّمَهمَا بُرهانًا أنه لها وحدها...

* * *

قلنا: وطَرِب «نابغَةُ القرن العشرين» لذكر صواحِبه وجميلاتِه، فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم ما لـذةُ العـيشِ إلا للمجـانـينِ

فقال المجنون الآخر«مما حفظناه»: ما لذة «الخبز» إلا للمجانين...

فضحك «النابغة»: وقال: ما أسخَفَك مِنْ أحمق. إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تَهَجَّأ كلمة خبز لقال إنها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف. و. ل...

إنه طفلٌ عمرهُ ثلاثون سنة وفيه دائمًا غضبُ الطفل ونَزَقُه وحماقتُه، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشُه وأحلامُه؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل... وهو من الضعف، وشدةِ الحاجة إلي العناية فى حياطتِه وسياسته والبِرّ به كطفل صغير – بحيث يُخيَّل إلىَّ أحيانًا أننى أمه...

قلنا: وتَنسى فى هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتهموننى بالنسيان، وهو شرعًا جِهةٌ مُلزِمَةٌ للحكم بالجنون فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخر لمعنى جنونى؛ وقد أعلمتُكم ما أكره من الكلام.

قلتُ: لا، النسيانَ لا يكون منك نسيانًا بمعناه فى المجانين، بل معناه فيك أنت من تَواثُبِ الأفكار النابغة وتزاحُمِها فى تَوارُدِها على العقل. فإذا تواثبتْ وتزاحمتْ كان أمرها إلى أن يُنسِيَ بعضُها بعضًا، فلا ينطلقُ منها إلا القوىُّ النابغُ حقَّ نبوغِه، فيجىءُ كالمنقطِع مما قبله؛ فيُحْسَبُ ذلك نسيانًا وما هو به. وقد تصطلحُ الأفكارُ فى هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسرورًا مَحبورًا يرقصُ طربًا... فيكون أمرُها إلى أن تجىءَ كلّها معًا على اختلافِ معانيها وتناقضِها؛ فيُحْسَب ذلك ضربًا من الذهول عند من يجهلُ العلةَ «النبوغية»، وعذرُه جهلُ هذه العلة، وهى فى دلالة العقل ليست نسيانًا ولا ذهولاً.

قال: فأعْلِمْنى كيف نسيانُ المجانين، فقد خَفَى علىَّ أن أدركَ هذا الأمر العجيبَ فيهم، ولست أدرى كيف يفوتُهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقرَّ وحَصَل فى عقولهم؟

قلت: لا يكون النسيانُ تُهمةً بالجنون إلا فى أحوالٍ ثلاثٍ، جاءت بكلِّها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظة:

فأما الأولى: فما يُروَى عن رجل كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّر حتى أدركه الخرَف؛ فجاءه كاتبه يومًا يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت، فدفع إلى غلام له دنانيرَ يشترى بها كفنًا، ودنانيرَ أخرى يتصدق بها على القبر، ثم قال لغلام آخر: امض إلى صاحبنا وغاسِل موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها. قال الكاتب: فاستحييتُ منه وقلت: يا سيدى ابعثْ خلف فلانة وهى جارةٌ لنا تغسلها. قال يا فلان: ما تدعُ عقلَك فى حزنٍ ولا فرح، كيف ندخل عليها من لا نعرفه؟

قال الكاتب: نعم تأذَنُ بذلك. قال: لا والله ما يغسلها إلا فلان.

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال: يا سيدى كيف يغسل رجلٌ امرأة؟

قال: وإنما أمك إمرأة؟... والله لقد أُنسِيت...

وأما الحالةُ الثانية: فما يُروى عن رجل كان نائمًا فى ليلةٍ باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردتْ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ بردهَا فأيقظتْه، فانتبه فَزِعًا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح: اللصوص. اللصوص... هذا اللص قد قبضتُ عليه، أدركونى لئلا تكونَ فى يده حديدةٌ يضربنى بها، بفجاءوا بالسراج فوجدوه قابضًا بيده على يده وقد نسى أنها يدُه...

وأما الثالثةُ: فهى روايةٌ عن رجل قد وَرِثَ نصفَ دار، ففكر طويلاً كيف تخلُصُ الدارُ كلُّها له ثم اهتدى إلى الوسيلة؛ فذهب إلى رجل وقال له: أريد أن أبيعك حصتى من الدار وأشترى بثمنها النصفَ الباقى لتصير الدارُ كلّها لى...

* * *

قال «النابغة»: لَعمرى إن هذا لهو الجنون، وما يذْكَر مع هؤلاء مجنون المتن ولا «غيرُه»...

فقال الآخر: تالله لولا أن «نابغة القرن العشرين» يرفع نفسَه عن الجنون لجاء فى الجنون بما يُذهلُ «العقول»...

ثم نظر فإذا النابغة يتحفَّز له...، فأسرع يقول: «مما حفظناه» كُنْ حذِرًا كأنك غِرٌّ، وكن ذاكِرًا كأنك ناسٍ. فهذا هو نسيانُ «نابغة القرن العشرين» نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين.

قال «النابغة»: ولكن قد فسد قولُ الشاعر: ما لذةُ العيش إلا للمجانين؛ فما بقيتْ مع الجنون لذه.

قلت: إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض، وإنما يريد العشاقَ المجانينَ بالجمال؛ وجنونُ العاشق فى هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفن، وهى عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسَنَات العظمَة، فليست كغيرها من العيوب.

قال: فيجب أن أصنعَ بيتًا آخرَ يفسِّر ذلك الشعرَ ليستقيمَ لى التمثل به، ثم فكَّر وهَمْهمَ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال: اصنع أنت أولُ، وسأئتمنُ س. ع. على شعرى ودفع إليه الورقة:

فنظرت وقلتُ: يجب أن يكونَ الشعر هكذا:

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... ما لـذةُ العَـيشِ إلا للمجـانـينِ
العقلُ إن حَكم العُشَّاقَ أثقـلُ من ... فَقـرٍ تحـكَّـمَ فى رِزْقِ المسـاكـينِ

ونشر س. ع. الورقة فإذا فيها:

قالوا جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... مـا لـذةُ العَيـشِ إلا للمجـانيـنِ
إن العيـوبَ عـن المجنون دافعةٌ ... بأنه «نابـغٌ فى القـرن عشـرين»

وضحكنا جميعًا؛ فقال النابغة: أبعدك الله يا س . ع. إن من ائتمن المجنون على سرٍّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره...

* * *

ثم قال: وَدِدْتُ والله أن يكونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكنى سأجعله نابغة، فقد صارله عَلَيَّ حقُّ الصديق وهو حقٌّ لا أضيِّعه ولا أُخِلُّ به. فإذا احتجتَ يا. س. ع. إلى خطابٍ رنان تلقيه فى حفلٍ عظيم، أو قصيدةٍ تمدح بها وزير المعارف، فالجأ إليَّ فإنى ملجأ لك، ومتى انتحلتَ شعرى كنتَ عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابنَ الرومى، فإن هؤلاء القُدامى لم ينفعهم إلا أننى لم أكن فيهم، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناسَ إذ أننى لم أكن فيهم...

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب؟

قال: إذا حكمتُ عليهم فقد جعلتُ نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد. إن «نابغة القرن العشرين» لا يقول لمعنىً هذا أحسنُ، فإنه هو فوق الأحسن، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر، فإنه هو فوق الأشهر.

قلت: كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهدُ العظيمُ الذى لا يقول فى حُسنٍ هذا أحسنٌ لأنه فوقَ الشهوة، ولا فى نعيم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع، ولا فى مالٍ هذا أكثر لأنه فوق الحرص. وأحسبك لو كُنتَ تَرعى غنمًا لكنتَ الحقيقَ فى عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلَح بين الذئب والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذاتَ ليلة فقال فى نفسه: يارب. مَن زوجتى فى الجنة؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاثَ ليال أنها جاريةٌ سوداءُ فى أرض كذا. فجاء تلك الأرضَ فسأل عن الجارية، فقال له رجلٌ ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداءَ مجنونة كانت لى فأعتقتها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم النهارَ فإذا أعطيناها فَطُورها تصدقتْ به، وكانت لا تهدأ الليلَ ولا تنام فضجرنا منها.

قال: فأين هى؟ قال ترعى غنمًا للقوم فى الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هى قائمة فى صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلَّم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشِّر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئابُ مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال «النابغة»: هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأى عجيب فى هذا؟ إن الذئبَ والشاةَ، والأسدَ والغزالَ، والثعبانَ والعصفور، وكلَّ آكل ومأكول من الأحياء، لو هى دخلتْ فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمتْ كلها صَفًّا واحدًا يركَع ويسجد. فهذه الجاريةُ نشرتَ رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئنّ بالإيمان فوقع الذئبُ منها فى دائرة مغناطيسية، فسُلبَ وحشيتَه ورجع مُسَخّرًا لفكرة الصلاح والخير إذ تجانَسَتْ فيه الحياةُ بما حولَها، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرجُلِ المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادةٍ واحدة وفكرة واحدة.

قال «النابغة»: فإذا دخل الذئبُ مسجدًا يَرْتجُّ بالمصلِّين، أتُراه يَصُف أرْبعتَهُ ويقفُ بينهم للصلاة، أم يصلى صلاتَه الذئبيةَ فى لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مُسبِّبِها، ومما فى القلب إلى ما فوقَ القلب؟ إن هؤلاء جميعًا يصلُّون بجوارحهم وبينَهم وبين أرواحِهم طولُ الدنيا وَعَرضُها؛ وما منهم إلا من يتصل فكرهُ بما يَغلب عليه، كما يتصل فكرُ اللص بيده، وفكرُ العاشِق بعينه، وفكرُ الطفَيلى بمَعدتِه... فاسمُها عندهم الصلاة، وحقيقتها عند الله كما ترى.

قال «النابغة»: ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشاةَ لا أن يرعاها، فلا أفهم شيئًا.

وقال الآخر: «مما حفظناه» رتَعَ الذئبُ فى الغنم، ولم يقولوا صلّى الذئب فى الغنم، فلا أفهم شيئًا.

قلت: سأزيدكما عَدَمَ فهم... إن قلب تلك المرأةِ العظيمةِ الطاهرةِ متصلٌ بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة، وهو السر الذى لا يَطعم ولا يَشرب ولا يَلبس ولا يَشتهى ولا يَطمع فى شيء ولا يُحرز شيئًا، وإنما طبيعتُه أشواقُه الكونيةُ، واتصالُه بنَفَحات القوة الأزلية المسخِّرةِ للوجود كلِّه. فانتشرتْ هذه الموجةُ الكهربائيةُ الأثيريةُ حول الجارية من قلبها، وجاء الذئب فالتَجَّ فيها وغمرتْه الروحانيةُ الغالبةُ، فإذا هو يفتح عينَه على كونٍ غريب قد تجلَّى السلامُ عليه، فليس فيه إلا قوةٌ آمرةٌ أمرهَا بائتلاف كلِّ شيء مع كل شيء، واجتماعِ المتنافريْن فى حالة معروفةٍ لا فى حالة إنكار، فصار الذئب مستيقِظًا، ولكنه فى روح النوم، وشُلَّتْ فيه الذئبيةُ الطبيعيةُ، فإذا هو يحملُ الأنياب والأظافرُ وقد أنسِىَ استعمالَها؛ وبقيتْ حركتُه الحيوانيةُ، ولكن تعطلت بواعثُها فَبَطَل معناها.

ومن كل ذلك اختفى الذئبُ، الذى هو فى الذئب، وبقى الحيوانُ حيًّا ككل الأحياء، فناسب الشاةَ وفزع إليها إذ لم تكن العَلاقةُ بينهما عَلاقةَ جسم الآكلِ بجسم الأكيلة، بل علاقة الروح الحيِّ بروح حيٍّ مثلِه[1].

* * *

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم إنجليزى كان قد اقتنص ذئبًا هنغاريًا وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيًا؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل، فلما استثقل أهله نومًا انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئًا من معنى هذه الوحشية، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك؛ ومضى إلى الوحش مسرورًا مطمئنًا فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به، والذئب مدهوش ذاهل، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائمًا ورأسه على الذئب، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس.

قال «النابغة»: أما أنا فقد فهمتُ ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم. أكتبْ يا س. ع: جلس «نابغة القرن العشرين» مجلسَه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن، وبدون كتُب ألبته... وكان هذا أجمعَ لرأيه وأذهَنَ له وأدعى لأنَّ يتوفَّرَ على الإملاء بكل «مواهبه العقلية»؛ ولما أن فكر النابغةُ وأعطى النظرَ حقَّه وجمع فى عقله الفذّ جَزالةَ الرأى إلى قوةِ التفنّن والابتكار، قال مرتجِلا: إن فلسفةَ الذئب والشاة حين لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ «نابغة القرن العشرين»...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة.

فامتعضَ الآخر وقال: «مما حفظناه».

وبات يَقدحُ طولَ الليلِ فكرتَه   وفسَّرَ الماءَ بعد الجهدِ بالماء

فقال «النابغة»: ويلك يا أبله! أما والله لو كنتَ نَفْطَوَيْه أو سيبوَيْه لما كنت عندى إلا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه...

لقد كنتُ أرى الكلامَ فى تلك الفلسفةِ طريقًا نَزِهًا جميلا حفَّته الأشجارُ والأزهارُ عن جانبيه، واندفعتْ فى سَوَائه (تُمبيلاتُ) الأفكار خاطفةً كالبرق. فلما تكلمتَ أنت انتهينا من سخافتك إلى طريقٍ حجرىّ تُقَعْقِعُ فيه عرباتُ النقل تجرها البغالُ البطيئة.

فقال الآخر وهو يعتذر إليه: ما أردتُ والله مَسَاءَتَك ولو أردتُها لقلت وفسر الماءَ بعد الجهد بالسبرتو... فهذا هو الخطأ، أما تفسيرُ الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح.

قال «النابغة»: ولكنه تفسير مُفْرِطُ السقوط كتفسير المجانين، فهو يقول إنى مجنون.

قلت: كلا، إن تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه، كالذى حكاه الجاحظ قال: سمعتُ رجلا يقول لآخر: ضربنا الساعةَ زِنديقًا. قال الآخر: وأىُّ شىء الزنديقًا؟ قال الذى يُقَطِّع المزّيقًا. قال: وكيف علمتَ أنه يقطِّع المزّيقًا؟

قال: رأيته يأكل التين بالخل...

■■■

المجـنون

(٦)

تتمـة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنحائهِ يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ فى معنَى إلى معنى؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التى جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين، بعد ما انطلقا فى القول وانفتح القُفلُ الموضوع على عقل كل منهما.

وكان قد مرّ فى الندىِّ بائع روايات مترجمة «بوليسية وغرامية ولصوصية!» يحمل الرجلُ منها مَزْبَلَة أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضَها فى نفوسِ الأحداث من فتْياننا وفتيَانتنا، فقلت «لنابغة القرن العشرين»: أتقرأُ الروايات؟ قال: لا، إلا مرةً واحدة ثم لم أُعاوِدْ، إذ جعلتنى الروايةُ روايةً مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذ اليوم، فكيف صرتَ رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ، إذ ليس لكم حِسُّهم المرهَفُ، ولا طبعُهم المستحكم، ولا خصائصهم الغيبية، ولا خواطرُهم المتعلقةُ بما فوق الطبيعة.

قلت: نعم أعرف ذلك؛ وما من «نابغةٍ» إلا وهو بين عالَمين على طرَفٍ مما هنا وطرفٍ مما هناك، فهو خرَّاجٌ ولاَّج بين العالَمين؛ وله نفسٌ مركَّبةٌ تركيبهَا على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهى تأخذ من الظاهر والباطن معًا، ويحصرها المكانُ مرة ويُفْلتها مرة، وتكون أحيانًا فى زمانِ الأرض، وأحيانًا فى زمن الكواكب من القمر فصاعدًا... ولكن...

فقطع علىَّ وقال: أضف إلى ذلك أن هذه العقولَ التى تَحصرُ من يسمونهم العقلاء فى الزمان والمكان، لا تُوجدُ أهلها إلا الهمومَ والأحزانَ، والمطامع السافلةَ، والأفعالَ الدنيئة، فإنهم يعيشون فوقَ التراب.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكونَ معانى التراب فوقهم وتحتَهم ومِنْ حولِهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمرًا ترابيًّا فى كل معانيه ولكن...

قال: وزد على ذلك أنهم مقيَّدون تقييدَ المجانين، غير أن حِبالَهم وسلاسلَهم عقليةٌ غيرُ منظورة؛ وبتَغْليلِهم تغليلَ المجانين يسمُّون أنفسَهم عقلاء، وأعقلُهم أثقلُهم قيودًا، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت: نعم، أما العقلاءُ بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخَرون منهم، إذ كانوا فى حالٍ كحالِ المنطلِق من المقيَّد، وفى موضعٍ كموضع المعافَى من المبتلَى. ولكن...

قال: وفوق هذا وذاك، إنهم لا يملكون السعادةَ، إذ ليس لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى خُصَّ به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه «نابغة القرن العشرين».

قلت: نعم، وإذا ملكوا السعادةَ لم يشعروا بها؛ أما «النوابغ» فقد لا يملكونها، ولكن لا يفوتُهم الشعورُ بها أبدًا فيجيئُهم الفرحُ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى دأبُه أبدًا أن يَنسى ليضحك، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه، على مشيئة صاحبه، لمنفعة صاحبِه. ولكن...

قال: والذى هو أهمُّ من كل ما سبق؛ أن أعظمَ خصائص هذا العقل الضاحك الساخرِ العابثِ أن يطردَ عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنِّبَه أن يخسرَ شيئًا من نفسه؛ فهو لذلك يجعل حسابَه مع الأشياء حسابًا يهوديًّا لابد فيه من ربح خمسين فى المائة...

قلت: نعم، وهو دائمًا كالطفل؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها عليه، إذ يضع بلاهتَه دائمًا فى أرواح الأشياء وأسرارها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمٌّ تُضاحكُ ابنَها وتُلاعبه. ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيةُ إلا شذوذًا فى أفرادها من جبابرة العقول «كنابغة القرن العشرين».

قلت: نعم (ولكن) كيف صار «نابغة القرن العشرين» روايةً حين قرأ الرواية!.

قال: هذه نكتةُ النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلَنا يتلقَّى فى نفسه وحىَ

الأثير وإشاراتِ الروح الأعظم؛ لعلم من الغيب أن «نابغة القرن العشرين» سيقرأ روايته، فكان يتحرَّى معانىَ غيرَ معانيه ويتوخَّى بهذه القصة وضْعًا آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنة، ولا لصٌّ عارم، ولا قاتلٌ سفَّاح، ولا سجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقول حيث وحيث...

قلت: وما عليك من حبيبة خائنةٍ فى الورق، ولصٍّ بين الحروف المطبعية، وقاتل لا يقتل إلا كلامًا، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض؟

قال: هذه نكتةُ النبوغ، فما استوعَبْتُ القصةَ حتى عمرَتْنى أشخاصُها، وأُقْحِمْتُ منها على هَوْلٍ هائل، فخانتنى الخائنة لعنها الله... ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتُها أشنعَ قِتْلة، ومثَّلتُ بها أقبح تمثيل. ويْحَ الخائنةِ كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العِملاقُ المشبوحُ العظام المفتولُ العضَل؟ ولكنى لستُ عملاقًا ولا مَبْنيًّا بناءَ الحائط، ثم كان مجنونًا بشهواته جنونَ الفيل الهائج، وكنتُ فى شهواتى عاقلاً عقلَ الإنسان، ثم كان غنيًّا غنَى الجهَّال، وكنت فقيرًا فقرَ العلماء. والنساءُ؛ قبح الله النساء. إنهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها. وإن المرأةَ لتَمنحُ وجهَها للقرد يقبِّله إذا كان الذهبُ يتساقط من قُبُلاته. أما من كان مثلى، أموالُه الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ، فهو مُفلس عندهن إفلاسَ القرد فى الغابة، فهو عندهن قردٌ لهذه المشابهة.

قلت: هذا ليس عجيبًا فإن اللغويين يُجرون على الشىء اسمَ ما يقاربه فى المعنى.

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه» أن اللغويين يجرون على الشىء اسم ما يقاربه فى المعنى...

فتربَّدَ وجهُ «النابغة» غضبًا وقال: أبى يلعبُ هذا المجنون؟ إنه يزعم أن اللغويين يسموننى قردًا، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة «نابغة»... سَوْأَةً عليك أيها الصبىُّ المعمَّر... ألا فدعونى أؤدبه أدبَ الصبيان فإن اللطمةَ القوية على وجه الطفل المكابرِ فى حقيقة تُلمِسُه الحقيقةَ التى يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق...

قال(ا. ش): أنت قلت، لا هو. على أنك لستَ قِردًا أبدًا إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيّلةٍ متماجنةٍ، قد تضع البرذَعةَ على ظهر الأمير وتجعلُه حمارَها، فيُعْجبُ الأميرُ أن يكون حمارَها. ولست قردًا مع قَرَّادٍ إلى جانب عنز وكلب...

قال: الآن علمت السبب، فإن الخائنة كانت متخيِّلةً مؤلفةَ كتُب ٍوروايات، والمرأة التى تؤلف الكتب، غيرُ بعيدٍ أن تؤلفَ الرجُلَ أيضًا، وتجعلَه قصةً هو فيها قرد... وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية. أما إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات، أو عجوزًا مجموعةً من السنين؛ فهذه وهذه كلُّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى... يومٌ للعُطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة، هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجلَ كالماء فى سبيل التجمد... لا يشتعل، فضلا عن أى يَسْتَعِر، فضلا عن أن يحترق.

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهُها إلا إحدى وثيقتين: فإما جميلةٌ، فوجهها وثيقة بأن لها ديونًا على الرجال؛ وإما غيرُ جميلة، فوجهُها (مخالَصة) من كل الديون...

قلنا: هذا فى الخائنة. فكيف سرقك اللص ولست غنيًّا؟

قال: هذه هى نكتة النبوغ؛ وفى النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرُها، وليس فى جهلها مضرَّةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرّ هو علم لا ينفع، لكنه علم. والبحثُ فى بعض أعمال «النابغة» هو كالبحث عن سر الحياة فيه، إذ يعملُ أعمالَه تلك بسرّ الحياة لا بسر العقل، أى بالعقل النابغ الخاصِّ به وحده لا بالعقل الطبيعى المشترك بين الناس.

* * *

قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات، ولكنك مع ذلك تؤلفها...

قال: إن ذلك ليكون، وإن لم أؤلْفها أنا تألفتْ هى لى. فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعًا انتبهتُ أنا وحدى لرواية العالم فأرى ما شئتُ أن أرى. وفى ضوء النهار أجدُ الناسَ عقلاء ولكنى فى ظلمة الليل أُبصرهم مجانين. فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنونِ الناس وضعفِ عقولهم إذ هو يثبتُ حاجة هذه العقول إلى ضَرْبٍ من النسيان الأبلهِ التامّ لولاه ما عقلتْ فى نهارها ولا استقام لها أمر.

يُصْرَعُ الناسُ فى الليل صرعةَ المجانين فيُغمِضون أعينَهم ولا يَرون شيئًا، أما أنا فأرى العالَم فى الليل مسرحًا هزليًّا يضجُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذى يقطع سَرَاةَ نهاره، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف... أئِنْ رأيتَ الأسدَ بعينك أيها الأحمق وسمعتَ فى أذنيك زئيرَه، ادّعيت الدعوى العريضةَ، وزعمتَ أنك ملكتَه وقبضتَ عليه، ولا تدرى فى هذا أنك كالمعتوه إذا

قبض على الظل بيده، وصاح هاتوا الحبل لأقيِّدَه لا يُفْلِت؟..

قلت: فإذا كان العالم كله روايتَك فأخرج لنا فصلا من الرواية.

قال: أيُّما أحبُّ إليكم، أن أكتبَ أو أمثِّل؟

قلنا: بل التمثيلُ أحبُ إلينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن المجنونَ فى طبيعته ينبوعٌ من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينبوع الماء يَسُحُّ الدفعةَ بعد الدفعة، فهنا المسرحُ، والروايةُ الآن روايةُ الطبيب والمجنون...

* * *

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لستُ ولكنى أخو أبيك... لننظر أيتنبَّهُ على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فإنه فَرْقٌ عقلىٌّ دقيق تُمتحَنُ به العقول...

تعالَ أيها المريض فإنى أرجو أن يكونَ شفاؤك على يدى، وفى يدى هذه لمسةٌ من لَمَسَات المسيح، لأن«نابغة القرن العشرين» هو الآن طبيبُ القرن العشرين...

اتَّقوا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كلَّ ما يحتاج إليه، وتحرَّوا مسرتَه دائمًا، فإن إدخالَ بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخالُ بعض العقل إلى رأسه.

متى أنكرتَ يا س. ع عقلَ ابنِ أخيك وما كان السببُ؟ وكيف غُلِبَ على عقله؟ وهل ا. ش. هو خالُه أو أخو أمه؟...

لَطَفَ الله لك أيها المسكين. قل لى: أتتذكر أمسِ؟ أتتذكر غدًا؟...

إن الأمس والغدَ ساقطان جميعًا من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تَبدأ لهم كلَّ يوم فقد استراحوا من ثلثى هموم الزمن فى العقلاء. وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنهم صالحون أكثرَ من العقلاء للانتفاع بأنفسِهم فى الضحك والمرح والطرب، وهذا حَسْبُهم من النعمةِ عليهم.

قل لى أيها المَجنون: أتُحسُّ أن الدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أم نفسُك هى تصنعُ لك الدنيا؟ إن هذه مسألة يحلّها كلُّ مجنون على طريقته الخاصة به، فما هى طريقتك فى حلها؟.

ما لَكَ لا تُجيب أيها الأبله؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشًا لينطلِقَ لسانهُ،

وآتُوا الطبيبَ أجرَه وافيًا وهو لا يقلُّ عن قرشين...

ثم مال «النابغة» على مجنون المتن وسارَّة بشيء. فقلنا ما أمرُ المال بِسرّ؛ هذا قرشٌ للمريض وهذان قرشان للطبيب.

فقال المجنون: «مما حفظناه» كفى بالسلامة داءً.

قال «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوع من الجنون اسمُه «مما حفظناه» وهو جنونُ النسيان الذى يضع فى مكانِ العقل كلمةً ثابتةً لا يتذكرِ المجنونُ إلا بها؛ ومن أعراضه جنونُ الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه، وقد يترامَى إِلى جنون اللَّمس، فلو لمستَه بإصبعك توهَّمها عقربًا فخاف من الإصبع تلمسُه خوفه من العقرب تَلدغُه، ولكن بقيتْ أشياء لابد من التدقيق فى فحصها، فليس هذا من مجانينِ العبقرية التى انحرفتْ عن طريقها أو شذّت في قوّتها؛ ولا هو ممن يَتَجَانُّ ويَتحَامقُ التماسًا للرزق والعيش كما قال بعضهم: حماقةٌ تَعولُنى خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقال المجنون: «مما حفظناه» حماقة تَعولنى...

فضحك «النابغة» وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ «مما حفظناه» وهو أقل الجنون وأهونُه، وعلاجُه البَسْطُ والسرورُ والقرش؛ والضربُ أحيانًا...

فإذا ثابرَ عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنون «مما ضَربناه» فيعتدى المصابُ على كل من يراه أو يُوقُع به ضَربًا وعلاجُه حينئذ القميصُ المرقوم[1] فإذا فَدحتْ العلة انقلب المرضُ إلى جنون (مما قتلناه) وعلاجُه يومئذ السلاسل والأغلال.

والحق أقول لكم إن آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطب في القرن العشرين أن الناسَ جميعًا مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطًا من بعض كأن سلْبَ العقلِ هو أيضًا حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ العقل وأهلُ المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفَلَك...

ولكن بقيتْ أشياء لابد من التدقيقِ فى فحصها؛ وعندى فى الدارِ عَاطُوس إذا أشممتُه هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قوية فخرج جنونُه من أنفه... قل لى أيها المسكين: أتخاف إذا سرتَ وحدك فى مَيدانٍ واسع كأن الميدانَ سيلتفُّ عليك؟

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الإسلامى.

أتضطربُ إذا مشيتَ فى مَضِيقٍ كأن المكانَ سينطبق عليك؟ وإذا كنتَ فى عربة القِطار فهل يخيَّل إليك أن البيمارستَانَ قد جره القِطار وانطلق به هاربًا؟ وهل شعرتَ مرة أنه أوحىَ إليك أن تَنتحِر؟

أرِنى هذا القرشَ الذى فى يدك فمد إليه المجنون يَده بالقرش.

قال (النابغة): انظر الآن هل تُحدثك نفسُك أن تَغْصِبَنى هذا القرشَ أو تسرِقَه منى؟ قال: نعم.

قال (النابغة) إذن يجب أن أحرِزَه فى جيبى... وأسرع فأخفاه فى جيبه.

* * *

فصاح الآخر وشَغَب وقال سلَبَنى ونَهَبَنى قلنا لا ينبغى أن يتصلَ بينكما شرٌّ فى تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ولكن أفى الفلسفة عند (النابغة) إباحةُ السرقة والغصْب؟

قال: فالرواية الآن هى راوية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو.

قل لى ويحك يا أرسطو أعلمتَ أن فى المجانين أغنياءَ يسرقون الشىء القليلَ.

لا قيمةَ له وهم أغنياء وليست بهم حاجةٌ إليه فما علةُ ذلك عندك وما وجهُه فى مَقُولَةِ الجنون؟

أعجزتَ عن الجواب؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصابَ بهذا الضَّرب من الجنون إذا اشترى هذا الشىءَ بدرهم كانت قيمتُه من الدرهم وحده وهو غنًّى لا قيمةَ للدرهم فى ماله فلا يَحفِلُ بالشراء بَيْدَ أنه إذا سرقه كانت قيمتُه عنده من عقلِه وحيلتِه فيجيئُه بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أمواله ولا كلُّ أموال الدنيا فهذا جنونٌ باللَّذة لا بالسرقة وهو بذلك ضَربٌ من العشق يجعلُ الشىءَ إذا لم يُسرق كأنه المرأةُ المعشوقةُ الممتَنِعةُ على عاشقها.

والْجِياعُ إذا سرقوا ليأكلوا ويُمسِكوا الرمَق على أنفسهم لا يقال فى لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا... فباضطرارٍ جاعوا وباضطرارٍ مثلِه أكلوا والسارقُ هنا هو الغنىُّ الذى منعهم الإحسانَ والمعونة...

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو ولو استقامت هذه الأوضاعُ لوُجدت السعادةُ فى الأرض لأهل الأرض جميعًا وكيف لك بالسعادة والناسُ مخلوقون

بعيوبهم؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ولكن الطامَّةَ الكبرى أن عيوبَهم تعملُ دائمًا على أن تَرى فى الآخرين عيوبًا ملَثها.

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفَه تبنًا وفولا وشعيرًا غيرَ أنى لم أر حماراً قط يريد أن يملأً لنفسه الإصطبل فإذا وُجِدَ حمارٌ هذه همتُه وهذا عملُه فاسُمه إنسانٌ لا حمار...

يا أرسطو إن معضِلَة المعضلاتِ أن يحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلة داخليةٍ مْحضة قائمةٍ فى نفس حمار أو ثابتةٍ فى ذهنه الحِمارى... ومثلُ هذا أن يحاول حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيةٍ فى ذهنِ إنسانٍ أو فى قلبه فلا حلَّ لمشاكل العالَم أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمار مع إنسان.

والمعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين، فكان ينبغى أن تجيءَ الملائكةُ لتحاربَ الشياطينَ بالبرق والرعدِ دفاعاً عن الإنسانية؛ ولكن الله تعالى منعها، وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى إن شاء هذا الإنسانُ عمِلتْ، وإن شاء عجزتْ؛ وهى فضائلُ الأديان المنَزلة. فإذا منحها الإنسانُ إرادتَه وقوتَه، فعملتْ عملَها كان الإنسانُ هو المَلَك، بل فوق المَلَك وإذا أضعفها ومَحَقَها كان الإنسانُ هو الشيطان وأسفلَ من الشيطان.

يا أرسطو[1] «هذا العالَم عندى كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفى والعالَم عندى ضعفٌ ركِّب. وقوةٌ ركبت والعالم عندى لا شيء والعالم بَيْن بَيْن. والعامل قسمان: منهم الفلاح الزراعى وذلك أفضل فلسفة طبيعية.... والعالم فى حاجة إلى الموت والموتُ فى حاجة إليه. والأدبُ هو الحياة ولا حياة بلا أدب. والأدبُ ضربان: أدبٌ نفسانى وأدبٌ مُكتسَب، وقد يكون طبيعيًّا كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومن هو نابغة القرن العشرين؟ هو شخصٌ مات بلا موت ويحيا بلا حياة».

أتريد يا أرسطو أن تعرفَ سرَّ تركيب العالَم؟ الأمر يسيرٌ غيرُ عسير، فإن سر

(١) هذه الأسطر التى وضعناها بين القوسين هى من كلام المجنون بالنص، وكنا سألناه أن يكتب رأيه فى العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط، وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجئ به مذاهب الفلسفة.

تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك، فدعنى أظهِرُك على هذه الحقيقة ومُدَّ يدَك بالقرش لأبينَ لك سرّ التركيب فيه...

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيَّب القرش فى جيبه فقال (النابغة): هذا سياسىٌّ داهية خبيث والرواية الآن رواية سياسىّ القرن العشرين.

ليس فى حقيقة السياسة إلا الرَّذْلُ من أفعال السياسيين. والألفاظُ السياسية التى تحملُ أكثرَ من معنى هى التى لا تحملُ معنى. فليحذر الشرقُ من كل لفظ سياسىّ يحتمل معنيين، أو معنى ونصفَ معنى، أو معنى وشِبْهَ معنى؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ؛ فإذا كتبوة قلنا لهم: ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهدَ الطبيعةُ نفسُها على أن معناه أحمر لا غير.... وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكتَب المعاهداتُ السياسية بين أوربا والشرق.

إنهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأطعمة ثم يقولون: أكلَتم وشبِعتم....

ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التى أتمناها، فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين فى مظاهرة...

وهذا الأبلة الذى أمامنا ليس وطنيًّا ولا فيه ذرةٌ من الوطنية؛ فإن كان وطنيًّا أو زعم أنه وطنى، فليخرج القرشَ الذى فى جيبه..... ليكونَ فألاً حسنًا لخروج جيش الاحتلال من مصر...

* * *

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيشَ الاحتلال فى مكانه.

فقال (النابغة): الرواية الآن رواية الشّرطى. واللص. وبحقٍّ من القانون يكون للشرطّىِ أن يفتشَ هذا اللصَّ ليخرجَ القرشَ من جيبه....

* * *

غير أن المجنون امتنع فقال (النابغة): كل ذلك لا يجدِى مع هذا الخبيث، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة. ويجب أن يَنكُبَ الرشيدُ هؤلاء البرامكة ليَسْتَصْفى القرش...

* * *

بيد أننا منعناه أن ينكُبَ «البرامكة» فقال: الراوية الآن رواية العاشق والمعشوقة، ونظر طويلاً فى المجنون وصعَّد فيه عينَه وصوَّب فلم ير إلا ما يذكِّر بأنه رجل، فتَهدَّى إلى رأيٍ عجيب. فوقع على قدميه وتوهَّمه امرأة فى حِذائها.... وجعل يناجِى الحذاءَ بهذه المناجاة:

إن سخافاتِ الحب هى أقوى الدليل عند أهله أن الحبَّ غيرُ سخيف، فكل مفكرةٍ فى الحب مهما كانت سخيفةً عليها جَلالُ الحب؛ وللحذاء فى قدميكِ يا حبيبتى جمالُ الصندوق المملوءِ ذهبًا فى نظرِ البخيل، وكل شيء منكِ أنت فيه سرُّ جمالكِ أنتِ. والحذاءُ فى قدميكِ ليس حذاءً، ولكنه بعضُ حُدودِ جسمِك الجميلِ، فلا أكون كلَّ العاشقِ حتى أحِيطَ بكل حُدودِك إلى الحِذاء.

إن جسمَكِ يا حبيبتى كالماء الجارى العذْب؛ فى كل موضع منه روحُ الماءِ كلِّه وحيثماَ وَقَعت القُبلة من جسمِكِ كان فيها روحُ شفتيك؛ الورديتَّين.

هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتى؛ وهذه قبلة على ساقِكِ؛ وهذه قبلة على ثوبِكِ وهذه قبلة على جَيْبِك...

وكادت يدُ (النابغة) تَخرجُ بالقرش، فعضَّه المجنونُ فى كَتِفه عضةً وحشيةً؛ فجأه الخوفُ منها فطار صوابُه؛ فصرخ صرخةً عظيمةً دوَّى لها المكان وترددتْ كصَرْصَرَةِ البازىّ فى الجو ثم اعتراه الطَّيف وأطبقَ عليه الجنون فاختلطِ وتخبَّطَ.....

(والروايةُ الآن)؟....... رواية عربة الإِسعاف.....

■■■

الفهرس

أحاديث الباشا